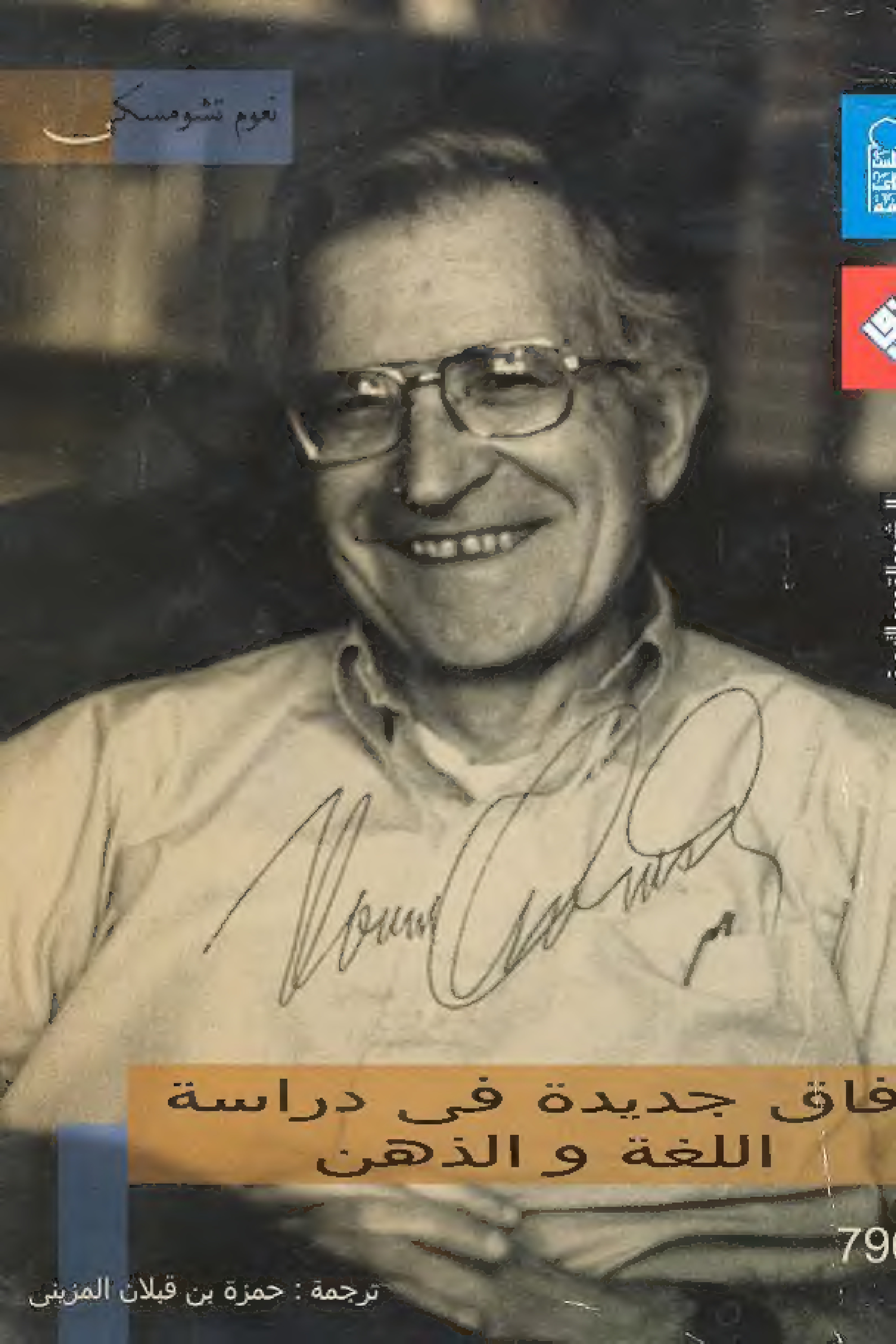


نعوم تشومسكي
فاق جديدة في دراسة
اللغة و الذهن
79
ترجمة : حمزة بن قبلان المزيني

آفاق جديدة
فى دراسة اللغة والذهن

تأليف

نعوم تشومسكى

ترجمة

حمزة بن قبلان المزينى



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٧٩٦
- آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن
- نعوم تشومسكى
- حمزة بن قبلان المزينى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

New Horizons in the Study
of Language and Mind.
Noam Chomsky

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

المحتويات

تقديم المترجم

كنت كتبتُ مقالاً من سبع حلقات في ملحق ثقافة اليوم في جريدة الرياض، سنة ١٤٢٠هـ بمناسبة بلوغ اللساني والناقد السياسي والاجتماعي الأمريكي المشهور نعوم تشومسكي السبعينَ من عمره في السابع من شهر ديسمبر ١٩٩٨م. ولما كان كتاب تشومسكي الذي أترجمه هنا يمثل مراجعة شاملة للمنطلقات الفكرية والفلسفية والعلمية التي يقوم عليها المنهج الذي شرعه في دراسة اللغة؛ فإنني أود إيراد تلك الحلقات التي كتبتها عن تشومسكي ومشروعه اللساني بصورة عامة لتكون مقدمة لهذا الكتاب. والسبب الآخر لهذا القرار أن نيل سميث، محرر كتاب تشومسكي هذا، كتب مقدمة ضافية لما تتضمنه فصوله من قضايا. لذلك فمقدمتي إطلالة عامة على تشومسكي ومشروعه العلمي. كما تتضمن معالجة لقضية تثار دائمًا في الثقافة العربية، وهي الادعاء بأن تشومسكي استقى منهجه في دراسة اللغة من المصادر النحوية العربية.

ويستحق تشومسكي أن يكتب عنه دائمًا، للأثر الكبير الذي تركه على مختلف النشاطات العلمية والفكرية والاجتماعية والسياسية. وهو يستحق أن يكتب عنه في العالم العربي خاصة، لما يستحقه من الاعتراف بإنجازاته العلمية، ولمواقفه المشرفة من القضية الفلسطينية التي لم يتوقف عن الدفاع عنها منذ أكثر من خمس وأربعين سنة.

وسأتناول هذا الموضوع من جوانب مختلفة تتعلق بإنجازات تشومسكي في دراسة اللغة وبنشاطه الذي لا يعرف الكلل في النقد السياسي والاجتماعي وببعض المزايا الشخصية التي تميز شخصيته الفريدة.

وأبدأ بتناول بعض جوانب حياته؛ ذلك أن هذه الجوانب تلفت النظر بالقدر نفسه الذي تلفته آثاره العلمية والاجتماعية والسياسية. كما تلقي ضوءًا

ربما يساعدنا في فهم كثير من الظروف التي أثرت في نشأته وفي تكوين شخصيته ورسم مسار حياته.

وسأعتمد اعتمادًا كبيرًا على سيرة حياة تشومسكي التي ألفها روبرت بارسكي، ونشرت في سنة ١٩٩٧م بعنوان: "نعوم تشومسكي: حياة من المعارضة"

Robert Barsky, Naom Chomsky: A Life of Dissent. MIT Press, 1997

وترجمها إلى العربية ياسين الحاج صالح وصفوان عكاش، بعنوان "نعوم تشومسكي: حياة منشق"، حلب: فصلت للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٨م، وهي ترجمة سيئة، خاصة فيما يتعلق بنشاطه العلمي في اللسانيات.

وعلى كتاب نيل سميث، "تشومسكي: أفكاره ومثالياته"

Neil Smith, Chomsky: Ideas and Ideals, Cambridge University Press, 1999

وعلى عدد من المصادر الأخرى، وبعض المقالات التي نشرت عنه في أماكن متفرقة.

ولد نعوم تشومسكي في السابع من شهر ديسمبر ١٩٢٨م، في مدينة فيلادلفيا في ولاية بنسلفانيا الأمريكية. وكان أبوه وأمه قد نزحا من روسيا سنة ١٩١٣م؛ هربًا من تجنيد أبيه في الجيش القيصري رغمًا عنه. ومرا بحياة تتسم بالفقر كما هي حال كثير من النازحين إلى أمريكا.

لكن الفارق الحاسم أن والدي تشومسكي كانا متعلمين تعليمًا عاليًا قبل وصولهما إلى أمريكا؛ لذلك كان عثورهما على عمل مجز أمرًا سهلاً. وكان والد تشومسكي من أبرز المتخصصين في اللغة العبرية، فوجد عملاً في تدريس العبرية في أماكن متفرقة. وألف عددًا من الكتب في الموضوع. ومنها تحقيقه لكتاب النحوي اليهودي الأندلسي ديفيد قمحي الذي عاش في القرن السابع الهجري، ويعد هذا الكتاب واحدًا من الكتب الرئيسة في نحو اللغة العبرية. وقرأ نعوم تشومسكي مسودة هذا الكتاب الضخم المتخصص وهو في الثانية عشرة تقريبا.

ونشأ تشومسكي في هذا البيت الذي يهتم بالعلم والثقافة، كما كان للجو الاجتماعي الحافز الذي يتمثل في تلك المحادثات الطويلة التي كانت تجري بين أبويه أو بين أبويه وعدد من أقاربه، على مائدة العشاء كما يقول تشومسكي، أثرٌ فاعل في حث ملكته اللغوية، وتوجيه اهتمامه إلى التفكير في المسائل والآراء التي كان يتداولها أولئك. وكان أفراد أسرة أبيه وأفراد أسرة أمه ينتمون إلى تيارات فكرية وسياسية مختلفة، بل متعارضة أحيانا. وكان ينشأ في هذه البيئة الغنية بالاختلاف كثيرٌ من النقاش الذي فتح بصيرته على أهمية اختلاف الآراء وأهمية الحوار حولها.

ومن الأمور اللافتة للنظر في صباه انكبابه على القراءة. ومن ذلك ما ترويه صديقة لأسرته أنها كانت في زيارة للأسرة، وسألته وهو في السابعة من عمره، وأشارت إلى دائرة المعارف المسماة بـ Compton's Encyclopaedia التي تتألف من عدد من المجلدات الضخمة، إن كان سبق له النظر في واحد من هذه المجلدات. وكانت إجابة تشومسكي، كما ترويها، أنه قرأ نصفها فقط. وكان منكبا على قراءة الأدب العبري الحديث، وأبرز الآثار الأدبية في اللغة العبرية، ومنها الكتب الدينية اليهودية بلغتها العبرية.

وكان قارئًا نهمًا للآثار الأدبية المشهورة في اللغة الإنجليزية وتلك المترجمة إليها، ومنها الروايات الواقعية لكبار الروائيين مثل دستوفسكي وهاردي وهوجو وتولستوي ومارك توين وزولا، وهو ما شكّل وعيه نحو كثير من القضايا الاجتماعية. وكان وهو في التاسعة من عمره كثيرًا ما ينصرف بذهنه عن متابعة المدرِّسة التي كانت، في الغالب، والدته، ذلك أنّ ما يدرّس في ذلك الصف كان قد فرغ من معرفته في بيته منذ زمن، لكثافة ما يقرأ.

ومن أهم المؤثرات في حياته أن والديه ألحقاه وهو في الثانية من عمره بمدرسة متأثرة بفكر عالم التربية الأمريكي جون ديوي، وظل فيها حتى الثانية

عشرة من عمره. وكانت الفلسفة التي تقوم عليها أفكار ديوى كما يقول تشومسكي، أن مهمة التعليم يجب "... أن تكون توفير الفرص من أجل أن يحقق الطفل ذاته بنفسه، فأحسن ما يمكن أن يقوم به التعليم هو توفير بيئة غنية متحدّية للفرد كي يتفحصها، معتمدًا على نفسه هو". وما يزال تشومسكي يرى أن هذا ما يجب أن يقوم به التعليم، ذلك "أن الأفراد يتطورون بطريقة أفضل إذا ما وفّرت الفرصة لهم لكي يكتشفوا ما حولهم معتمدين على أنفسهم، ويتفحصوا بحرية بدلاً من إرغامهم على اتباع بعض المبادئ التربوية الصارمة". ويرى أن التعليم يجب ألا يكون شبيهًا بمحاولة ملء كأس فارغ، بل يجب أن ينظر إليه بمثابة توفير أفضل الظروف لزهرة أن تتفتح. وهو ما يعني أن يساعد الطفل على أن يتعلم بنفسه، بدلاً من الوصاية عليه.

واستطاع في هذه المدرسة، التي تضم أطفالاً آخرين من مختلف البيئات ويتمتعون بمستويات مختلفة من الاستعدادات، أن يطور قواه الخلاقة من غير تنغيص من النظام التربوي الذي يقوم على التقويم التنافسي. فقد كان الأطفال يتابعون إنجاز ما يهتمون به إما أفرادًا أو في مجموعات، وكان يُشجع كلُّ عضو في الفصل على أن ينظر إلى نفسه على أنه طالب ناجح جدا. وكان الهدف في هذه المدرسة "الإبداع لا الدرجات، ولم يكن يُنظر إلى أيّ عمل أنه أكثر أهمية من الأعمال الأخرى التي ينجزها الآخرون أو أقل منها"، كما يقول تشومسكي.

ويقارن تشومسكي بين ذلك النظام التربوي الفاعل والنظام التربوي السائد في التعليم، فيقول إن أولاده لم يصلوا إلى السنة الثانية الابتدائية إلا وهم يستطيعون أن يصنفوا الطلاب الآخرين بأنهم إما أذكياء أو أغبياء. وذلك نتيجة للنظام التعليمي الذي يقصد إلى إذكاء روح التنافس بين الطلاب، بدلاً من بث روح التعاون بينهم وتعليمهم أن يقدّروا أي عمل يمكن أن يكون نتيجة للاجتهاد الفردي.

وكان لهذه التربية التي تهتم بالاستقلال الفردي أثرها في حياته؛ فكان يذهب بمفرده في الإجازة الأسبوعية، وهو دون العاشرة، من مدينة فيلادلفيا إلى مدينة نيويورك، ويقضي الإجازة متنقلا بين المكتبات قارئا كل ما يقع تحت يده، ثم يزور عمته التي تبيع الصحف في دكان جانبي، وينصت إلى المناقشات التي لا نهاية لها بين المفكرين اليهود النازحين من روسيا وأوروبا الشرقية وكان معظمهم ينتمي إلى الفكر اليساري. وهي مناقشات تتركز على الفكر والسياسة والعلوم المختلفة. وترك ذلك فيه أثرًا بالغًا، حتى إنه انتمى منذ تلك الفترة المبكرة من حياته إلى الفكر اليساري، بل الفوضوي. وكان من نتيجة اهتمامه السياسي وانتمائه إلى الحركات اليسارية تأليفه كتابًا عن الثورة الإسبانية وهو في العاشرة.

ولما بلغ الثانية عشرة التحق بالمدرسة الثانوية. لكنه وجد الجو فيها مختلفا؛ فقد كان النظام فيها يقوم على الضبط والتحكم، وعلى غرس الاعتقادات الكاذبة في عقول الطلاب، وتجريدهم من الحرية التي فطر الناس عليها، وذلك عكس ما كان عليه الأمر في مدرسته السابقة، كما يقول. لذلك يعدُّ تلك الفترة من أسوأ الفترات في حياته؛ ويحاول دائمًا أن يتعمد محوها من ذاكرته. ولم يجد شيئًا جديدًا في تلك المدرسة، إذ سبق له أن قرأ أضعاف ما كان مقررًا فيها. لكنه فوجئ بأنه كان متفوقًا فيها، ويحوز دائما على أعلى الدرجات.

وتخرج في تلك المدرسة بتفوق، ثم التحق بجامعة بنسلفانيا وهو في السادسة عشرة، وكان يدفع مصاريف الدراسة في الجامعة من عمله مدرسًا للغة العبرية في أوقات فراغه. وكان الطالب الوحيد الذي تخصص في تلك الفترة في دراسة اللغة العربية في تلك الجامعة، بالإضافة إلى دراسته الفلسفة واللسانيات. وكان من أساتذته الذين أثروا فيه تأثيرًا حاسمًا جورجيو ليفي ديلا فيدا، وزيلك هاريس. ومما شجعه على الدراسة مع هذين الأستاذين انتماؤهما السياسي إلى التيارات اليسارية.

ومن الطريف أن والده ألحقه بجامعة بنسلفانيا للدراسة مع هاريس لكي يحول بينه وبين الهجرة إلى إسرائيل.

وكان طابع الدراسة الجامعية في قسم اللسانيات الذي كان يدرس فيه يشبه الطابع الذي كان سائدًا في مدرسته الابتدائية. إذ كانت الدراسة بعيدة عن النمط المألوف، وتقوم بدلاً عن ذلك على النقاش المستمر الذي لا تحده ساعات أو فصول معينة. وكانت تلك الفترة من أكثر سنوات حياته الفكرية خصبا؛ فقد تعرض في أثناء دراسته في تلك الجامعة لتأثير كبار المتخصصين في العلوم كلها تقريبا، كالفلسفة وعلم النفس والتحليل النفسي والمنطق والرياضيات وغير ذلك.

ثم حصل على البكالوريوس بطريقة غير معهودة؛ إذ أعطي تلك الدرجة وهو في الحادية والعشرين من عمره في الرياضيات واللسانيات والمنطق، مع أنه لم يكن متخصصا في أي من هذه العلوم تحديدا. وكانت رسالته للتخرج عن النظام الصرفي في العبرية، وهي التي تضمنت البذور المبكرة لنظريته التي اقترحها فيما بعد.

ثم التحق ببرنامج الماجستير في الجامعة نفسها، وحصل عليه في سنة ١٩٥١م، ثم حصل على منحة للعمل باحثًا في هارفارد. وانصرف في تلك الفترة إلى البحث والمحاضرات العامة في الجامعات المختلفة. وأنجز فيهما كتابة بحث طويل يقرب من ألف صفحة بعنوان: "البنية المنطقية للنظرية اللسانية". وكان مضمون هذا البحث غريبًا عن المألوف مما يسمى باللسانيات في تلك الفترة التي كان يسيطر فيها المنهج البنيوي المتأثر بالمدرسة السلوكية في علم النفس. وهو منهج يقوم على وصف الظاهرة اللغوية لا بتفسيرها، كما يقوم على الاهتمام بما كان يسمى بإجراءات الاكتشاف التي تتبع في ذلك الوصف.

وعلى الرغم من انقطاعه عن الدراسة في جامعة بنسلفانيا منذ ١٩٥١ إلا أن صلته التي لم تنقطع بأستاذه زيلك هاريس شفعت له في تلك الجامعة لذلك منح درجة الدكتوراه على الرغم من أنه لم يدرس فيها بانتظام، ولم

يتقدم إليه للوفاء بمتطلبات تلك الدرجة إلا بفصل واحد من العمل الضخم الذي أنجزه في هارفارد.

وتقدم بعدها بمخطوطة ذلك البحث الطويل إلى عدد من دور النشر، لكنها رفضت نشره. وكان سبب رفضها طول البحث طولاً مفرطاً، وغرابة محتواه عن السياق السائد في اللسانيات حينذاك. لكنه اكتفى في نهاية الأمر بمحاولة نشر الفصل الذي تقدم به إلى جامعة بنسلفانيا ومنح الدكتوراه عليه بعنوان "البنى التركيبية" Syntactic Structures، ومع ذلك رفضت نشره دور النشر الأمريكية التي تقدم به إليها. لكن دار نشر هولندية نشرته في سنة ١٩٥٧م.

وكان نشر ذلك الكتاب صغير الحجم إيذاناً بشق طريق غير مألوف في البحث اللغوي. وسرعان ما استُقبل استقبالاً منقطع النظير، ونشرت مراجعات كثيرة له، كان من أشهرها المراجعة التي كتبها روبرت ليز وقال فيها: "إن كتاب تشومسكي، "البنى التركيبية"، أولُ محاولة جادة يقوم بها لساني لبناء نظرية شاملة عن اللغة في إطار التقاليد المعروفة لبناء النظريات العلمية، وهي النظرية التي يمكن أن تُفهم بالمعنى نفسه الذي تُفهم به أية نظرية كيميائية أو أحيائية في تلك الحقول العلمية".

وفي ١٩٥٥ تعاقدت معه جامعة ماساتشوستس للتقنية للعمل باحثاً في معمل الألكترونات في هذه الجامعة العلمية. وكان الغرض من التعاقد معه العمل في برنامج أبحاث يهتم بتطوير الترجمة الآلية، لكن تشومسكي لم يكن معنيًا بمثل هذه المشروعات التي كانت تمولها وزارة الدفاع الأمريكية لأغراض معينة. وانشغل بدلاً من ذلك بتدريس بعض اللغات الأجنبية لطلاب الدراسات العليا. ويصف تشومسكي ذلك العمل بأنه كان إعطاء "دروس مكثفة لتعليم أولئك الطلاب بعض الحيل التي يمكن أن يستخدموها لكي ينجحوا في امتحان اللغة في برنامج الدكتوراه". واستغل بعض الدروس

الأخرى التي أسند إليه تدريسها لعرض منهجه الجديد في دراسة النحو واللغة بدلاً من تدريس المحتوى الدقيق لتلك الدروس.

لكنه التقى بصديقه وزميله «موريس هالي» الذي سبقه إلى التدريس في تلك الجامعة. ثم أنشأ قسم اللسانيات الذي أصبح بتأثيرهما أشهر قسم للسانيات في العالم. وترقى في السلم الأكاديمي بسرعة فائقة حتى حصل على درجة أستاذ في تلك الجامعة وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وعين أستاذ شرف جامعي وهو في السابعة والأربعين، وذلك أمر غير مسبوق.

وبعد أن نشر كتابه الأول "البنى التركيبية" أخذ نجمه في الصعود، وبدأ الصراع العنيف بين منهجه الجديد والمناهج السائدة في اللسانيات. لكن منهجه أخذ في الشيوع والانتشار، وبدأ المتخصصون يتخلون بسرعة عن المناهج التي ألفوها من قبل، وأخذوا ينضمون إلى التيار التوليدي الذي يقوده تشومسكي متسلحاً بتلك الطاقة على التفكير والتنظير والإنجاز التي لا يكاد يجاريه أحد فيها.

وتنبغي الإشارة هنا إلى قدرته غير المألوفة على العمل لساعات طويلة من غير تعب ولا كلل أو ملل. فمما يعرفه المقربون منه أنه لا ينام إلا أربع ساعات في اليوم، وأنه يقضي أكثر من عشرين ساعة في الأسبوع في كتابة ردود على الرسائل التي ترده من مختلف أنحاء العالم، وتتعلق بشتى المواضيع اللسانية والسياسية والمواضيع العادية جداً التي يود مرسلوها الاستئناس برأيه فيها. وهناك موقع خاص في شبكة المعلومات العالمية "الإنترنت" يحوي نماذج من الرسائل التي يكتبها يومياً في الرد على الرسائل التي ترد إليه. ويقول أحد عارفيه إن تشومسكي لا يعرف معنى الإجازة التي يعرفها الناس؛ إذ إن الإجازة في عرفه لا تعدو أن تكون إنقاص العمل من عشر ساعات في اليوم إلى ثمان!

ومن الشواهد على هذه الطاقة الفائقة على العمل المتواصل ما يقوله أحد الباحثين عن إنجازات تشومسكي في إحدى الفترات المبكرة من حياته التي أنجز فيها عدداً من الكتب والمقالات المهمة: "إن قليلاً من العلماء يمكن

لهم أن ينشروا هذا الكم الكبير من الأبحاث ذات القيمة العالية عن مختلف المسائل في مثل هذا الوقت القصير".

ويصف تشومسكي تلك الطاقة في تعليقه على ما كان يقوم به يوميًا في أواخر الستينيات: "لقد كانت تلك الفترة متعبة جدا؛ فقد كنت غالبًا ما ألقي عددا كبيرا من المحاضرات السياسية في اليوم الواحد في عدد من الأماكن، وكنت أتعرض لاحتجاز الشرطة لي، وأذهب إلى الاجتماعات التي تعقد من أجل العصيان المدني وغيره، وكانت ألقي محاضراتي في الجامعة، وألعب مع أطفالي، وغير ذلك. بل إني كنت أجد بعض الوقت الذي أستطيع فيه أن أغرس في اليوم نفسه كثيرا من الشجيرات والنباتات. وحين أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام يصعب علي تخيل القيام بكل هذه النشاطات في وقت واحد".

وبما أننا عرفنا شيئًا عن طفولته يحسن أن نطّلع على رأي ابنه هاري تشومسكي في التربية التي تلقاها منه. فيقول في تهنئته لأبيه بمناسبة بلوغه السبعين: "ما مدى الأثر الذي تركته في؟ والواقع أن الناس كثيرا ما يسألونني السؤال نفسه بطريقة مختلفة هي: ليت شعري كيف كانت نشأتك مع أب مثل هذا؟! وأحسن طريقة أجيب بها عن مثل هذا السؤال هي القول بأنها كانت تبدو أمرا طبيعيًا بالنسبة لي. لقد كنتَ تقرأ لي قبل أن أنام من بعض الكتب عن نظرية النسبية. وكنت ترسم لي الرزنامات على هيئة رسوم ساخرة — وتحوي هذه الرسوم معادلات خطية linear equations ثم تعلمني كيفية حل تلك المعادلات. وكنت تدلني على المصادر التي أرجع إليها في التقارير التي أكتبها لمادة الدراسات الاجتماعية في المدرسة، ذلك من غير أن أكتشف كم أن تلك المصادر مختلفة عن المصادر التي يرجع إليها معظم الطلاب. . . . إنني لا أستطيع أن أتخيل طفولة تخلو من مثل تلك الحوافز الفكرية في كل لحظة، ومن غير تلك القطارات الكهربائية، وتلك القصص الطويلة التي كنت ترويها لي بكل حب، أو صحبتي لك في مشي تلك المسافات الطويلة حين كبرت. . . ".

وليس من السهل إيراد آراء العلماء في تشومسكي وفي إنجازاته، لكنه يكفي إيراد بعضها في الدلالة على المنزلة التي يحتلها في السياق العلمي والفكري المعاصر.

فيقول ستيفن بنكر عنه: "... يُعدّ تشومسكي الآن واحدًا من الكتّاب العشرة الأول الذين يكثُر الاستشهادُ بهم في الدراسات الإنسانية (وهو يتقدم على هيجل وشيشرون، ولا يسبقه إلا ماركس ولينين وشكسبير والإنجيل وأرسطو وأفلاطون وفرويد) وهو الوحيدُ الحي من أفراد هذه المجموعة.

وهو يثير الناس ويجعلهم يتخذون مواقف محدَّدة مما يقوم به. وتتراوح ردودُ الأفعال على عمله بين الإعجاب به إعجابًا مفرطًا وتعظيمه تعظيمًا يليق بأئمة الطوائف الدينية الغريبة، والهجومِ الشرس الذي طوَّره الأكاديميون وجعلوه فنًا رهيبًا. وتعود هذه المواقف إلى أن تشومسكي يُهاجِم واحدةً من الركائز السائدة الآن للحياة الفكرية في القرن العشرين ــ وهي (نموذج علم الاجتماع المعيار) الذي يرى أن النفس الإنسانية تُشكِّلها الثقافةُ المحيطة بها. كما أن هناك سببًا لهذه المواقف، وهو أنه ليس بإمكان أي مفكِّر أن يتجاهل تشومسكي.

وكما يعترف الفيلسوفُ هيلاري بتنام، وهو من أشرس المناوئين له، فإننا:

حين نقرأ ما يكتبه تشومسكي نُحِس إحساسًا عميقًا بأننا في حضرة قوة فكرية عظيمة؛ إذ نكتشف أننا أمامَ عقل متفوِّق. ويعود ذلك بقدر متساوٍ إلى سحْر شخصيته القوية، وإلى المزايا الفكرية الواضحة التي يتمتع بها، ومنها الأصالةُ والأنفة من السطحي الساذج؛ والرغبةُ في إحياء مواقف تبدو بائسةً (مثل فكرة الأفكار الفطرية)، والقدرةُ على ذلك؛ والاهتمامُ بمواضيع لها أهمية عظيمة مثل بنية العقل الإنساني.

وأنتج تشومسكي إنتاجًا علميًّا غزيرًا في عدد من التخصصات. ويقول بارسكي إن تشومسكي نشر، إلى سنة ١٩٩٧، أكثر من سبعين كتابًا وأكثر

من ألف مقالة في اللسانيات والفلسفة والسياسة وعلوم المعرفة وعلم النفس. ويزيد العدد الآن كثيرا عن تلك الإحصائية.

كما أن تشومسكي، كما قال بتكر آنفا، من أكثر من يستشهد به في العلوم المختلفة. فقد استشهد به فيما بين ١٩٨٠ و١٩٩٢ أربعة آلاف مرة في العلوم الإنسانية، و١٦١٩ مرة فيما يسمى بالعلوم الصحيحة.

ويقول عنه اللساني الأمريكي البارز راي جاكندوف، وهو أحد طلابه السابقين. "لا أعرف أحدا استطاع أن يهيمن على علم معين [مثل هيمنة تشومسكي على اللسانيات]، إلا فرويد [الذي هيمن على علم النفس]".

ويتصف تشومسكي بالحياء الذي ربما يصل إلى حد الخجل، وبالتواضع الشديد، على الرغم من إنجازه الذي لا يكاد يماثله إنجاز. ومما يدل دلالة واضحة على هذا التواضع ما يلي.

فقد عُقد في القدس، سنة١٩٨٨، مؤتمر تحت مسمى "المنعطف التشومسكي: اللسانيات التوليدية، والفلسفة، والرياضيات، وعلم النفس"، وسمي بهذا الاسم للدلالة على النظرية الجديدة التي وضعها تشومسكي لدراسة اللغة. وقد جمع آسا كاشير، منسّق المؤتمر، الأبحاثَ التي ألقيت في كتاب بعنوان:

The Chomskyan Turn. ASA KASHER (ed.).1991.

وأسهم تشومسكي نفسه ببحثين نُشرا في الكتاب. يقول تشومسكي في بداية بحثه الأول ما ترجمته:

أشعر أن من واجبي أن أبدأ بما يمكن وصفه ببداية غير مهذبة بعض الشيء، ذلك أنني أود تسجيل اعتراضي على الصورة العامة المقترحة للمؤتمر، وهو ما عبرت عنه لآسا كاشير حين الإعلان عنه. فمع أن ما أريد الإشارة إليه واضح بما يكفي، لكن ربما يحسن بي أن أقول إن علامة أهمية

مجال بحثٍ معين، وأنه يستحق بذل الجهد فيه يتناسبان عكسا مع شخْـصنته بربطه باسم شخص معين؛ وأنا أظن أن المسائل التي نعالجها [في اللسانيات] مهمة وتستحق البحث فيها. أما المواضيع التي من قبيل: "علمُ أحياء فلان" ــ أو "اقتصاد فلان"، أو "علم نفس فلان"، أو ما إلى ذلك ــ ولك أن تختار فلان الذي تريد، فلا يمكن أن تكون مفيدة إلا في الطـور البـدائي للبحـث فـي موضوع ما، وهو المستوى الذي يأمل المرء أن يتجاوزه الباحثون بـسرعة ليصبح البحث مشروعًا تعاونيًا مشتركا، حيث تتغير، في حالتنا، "لـسانياتُ فلان" كلما ظهر عددٌ جديد من دورية علمية، أو كلما دخل طالبٌ دراسـاتٍ عليا ببعض الأفكار الجديدة مكتبَ أستاذه المشرف على رسالته، أو مع كـل مناقشة تحدث في فصل دراسي وتقود إلى فهم جديد ومشكلات جديدة. وقـد أصبح كل ذلك، لحسن الحظ، أمرًا مألوفا [في اللسانيات] منذ سنوات طويلة، لذلك فعبارة "لسانيات فلان" ليست في محلها، إلا إذا كان فـلان هـذا هـو [اللغوي الهندي القديم] بانيني أو وليم فون همبولت [اللغوي الألماني الشهير]، أو فرديناند دي سوسور، ذلك بشرط أن يفهم هذا الحكم أيضًا علـى أنـه لا يزيد عن كونه تجريدًا بعيدًا من واقع أكثر تعقيدا.

والشيء نفسه ينطبق على "النظريات" المتكاثرة التي تربط باسم فـلان أو علان أو باسم جماعة معينة، إذ إن ذلك، مرة أخرى، علامة علـى عـدم نضج ذلك الموضوع المعين أو هو علامة على الانطباع الخاطئ عن حقـل التخصص المعين بصورته التي يتطور بها في الواقع.

ويعني قوله هذا أنه على الرغم من المكانة التي يتبوأها تشومسكي في اللسانيات بخاصة إلا أنه لا يرى لنفسه فضلاً على غيره.

وهذه المعلومات الشخصية عن تشومسكي مهمة؛ إذ إنها ربما تساعد في فهم هذه الشخصية الفريدة، والنظر بجدية إلى الجوانب التي أسهمت فـي

تكوينه. وهي التي يمكن لها أن تفيدنا في تربية الناشئين وتعليمهم؛ لينشأوا أفرادا مستقلين مبدعين. كما تشهد بأهمية العمل الجاد الدءوب، وضرورة تحلي الباحثين بالتواضع.

ومن المسائل الكبرى التي ينشغل بها بعض الباحثين العرب الذين يهتمون بدراسة اللغة في الثقافة العربية المعاصرة، وبخاصة عند الحديث عن النظرية اللسانية التي ارتبطت باسم نعوم تشومسكي، تكرارُ القول عن الصلة بين هذه النظرية والنحو العربي.

وملخص هذا القول، أن هناك تشابهًا واضحًا بين النظرية التي ارتبطت باسم تشومسكي والنحو العربي. ويورد بعض هؤلاء الباحثين ما يرونه أدلة على هذا التشابه؛ ويحاول بعضهم أن يذهب أبعد من ملاحظة هذا التشابه إلى القول بأن تشومسكي انطلق فعلاً، في تنظيره اللساني، من المبادئ التي وضعها النحويون العرب القدماء. ثم يذهب هؤلاء خطوة أبعد ليتتبعوا المسار الذي سلكته هذه المبادئ حتى وصلت إلى تشومسكي.

ولا بد هنا من ملاحظة هامشية تكشف عن البنية المعرفية للثقافة العربية المعاصرة. فقد رأى بعض الباحثين الغربيين، وبعض العرب أيضا، أن نشأة النحو العربي نفسه إنما كانت بتأثير من الثقافات الأجنبية كالسريانية والهندية واليونانية. وحين يعرض بعض الباحثين العرب المعاصرين لهذا الرأي تراهم يكادون يجمعون على استنكاره ونفيه واتهام من يقول به بالجهل بالنحو العربي، بل بالعداء للثقافة العربية نفسها.

ومع ذلك فكثير من هؤلاء الذين يُنكرون أثر الثقافات الأجنبية في النحو العربي لا يجدون غضاضة في إرجاع كثير من الإنجازات الفكرية العربية المعاصرة إلى تأثير الثقافة العربية. وما الإيحاء بتأثر تشومسكي بالنحو العربي، بل تأكيد انطلاق تشومسكي من النحو العربي، إلا وجهًا من أوجه هذه البنية المعرفية.

ويجب أن أشير منذ البدء أنه ليس من العيب أو المستغرب أن تتفاعل ثقافة عن ثقافة أخرى؛ بل إن هذا ما يحصل دائما، سواء أكان ذلك بوعي أم من غير وعي. بل ربما أمكن القول، إن التأثر الإيجابي، والسلبي، نتيجة لازمة للتلاقي بين الثقافات.

ومن الأمور الأخرى اللافتة للنظر أن الباحثين العرب المحدثين يقعون دائمًا في شرك إعادة النظر في النحو العربي في ضوء النظريات اللسانية الحديثة. وهو ما يقود إما لنقده نقدًا موجعًا أو تبجيله تبجيلاً مفرطا.

فقد تعرض النحو العربي، في القرن العشرين، إلى نقد عنيف من مصدرين اثنين: فالمصدر الأول هو النقد العنيف الذي وجهه بعض الباحثين إلى أصول النحو العربي والمبادئ التي يقوم عليها والتحليلات التي يتضمنها، انطلاقًا من التأثر بابن مضاء الأندلسي.

فقد أحدث تحقيق الدكتور شوقي ضيف لكتاب ابن مضاء الأندلسي "الرد على النحاة"، سنة ١٩٤٧م، موجة عارمة من نقد النحو العربي الذي ينحو نحو التعليل.

ويكفي إيراد ما يقوله محقق الكتاب في مقدمته للطبعة الأولى (الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ص ص ٧ـ٨): "وقد سدد ابن مضاء سهام دعوته، أو قل سهام ثورته، إلى نظرية العامل، التي أحالت كثيرًا من جوانب كتاب النحو العربي إلى عقد صعبة الحل، عسيرة الفهم. وما العلل؟ إن كل ما تصوره النحاة في عواملهم النحوية تصور باطل، . . .".

و: "ليس هذا كل ما تجره نظرية «العامل» في كتاب النحو العربي، فهي تجر وراءها أيضًا حشدًا من علل وأقيسة، يعجز الثاقب الحس والعقل عن فهم كثير منها، لأنها لا تفسر غامضة من غوامض التعبير، ولا دقيقة من دقائق الأسلوب، وإنما تفسر فروضًا للنحاة، وظنونًا مبهمة".

و: "وهذا كله أفسد كتاب النحو العربي إفساداً، لأنـه مـلأه بمسائل ومشاكل، لا نحتاج إليها في تصحيح نطقنا، وتقويم لساننا".

ومع أن كتاب الرد على النحاة يمثل انتكاسة للتفكير النحوي العربي إلا أنه لقي قبولاً واسعا وما يزال ينظر إليه على أنه يمثل منهجا جيـدا لإنقـاذ النحو العربي من المنطق والتعليل، كما يقال.

ولا شك أن المناخ الفكري في مصر وبخاصة في الأربعينيـات مـن القرن العشرين كان مواتيا لانتشار أفكار ابن مضاء. ذلك بسبب ما سبق تلك الحقبة من محاولات لمراجعة كثير من المسلمات الثقافية والفكرية. ومن أهم الكتب الأساسية التي صدرت منذ العشرينيات في هذه المراجعة: كتاب طـه حسين "في الشعر الجاهلي" ١٩٢٦، وكتاب علي عبد الرازق "نظام الحكم في الإسلام" ١٩٢٤م، وكتاب إبراهيم مصطفى عن النحو العربي فـي ١٩٣٧م، وغيرها.

ويمثل المصدر الثاني لنقد النحو العربي في النقد الحديث الذي صـدر عن عدد من الأساتذة الذين درسوا اللسانيات في أوروبا فـي الأربعينيـات والخمسينيات من القرن العشرين. وكان جلّهم قد درس اللسانيات في ضـوء النظرية الوصفية التي كانت سائدة في تلك الفترة في أمريكا وأوروبا.

ومن أهم المبادئ التي تقوم عليها الدراسة الوصفية للغة جمعُ المـادة ووصفها والاكتفاء بذلك. فلم تكن تلك الدراسة تعنـى بمـا وراء الظـواهر اللغوية من الآليات التي تسيّرها، ولا بما في ذهن المتكلم حين يتكلم لغتـه. لذلك اكتفت بوصف المادة اللغوية ولم تحاول استكناه ما يختبئ وراءها.

ولما كان النحو العربي يقوم على بعض الأصول والمقولات والآليات التي لا تظهر في المادة اللغوية نفسها، كالعامـل الـذي يفسّر الإعـراب، والأصول الصرفية للكلمات التي ربما لا تتوافق مع الأشكال المنطوقة لهـا، فقد نظر هؤلاء الباحثون إلى هذه المبادئ والمقولات والأصول على أنها لا

تتوافق مع الأصول والمبادئ وطرائق التحليل التي تقوم عليها الدراسة الوصفية الحديثة للغة.

لذلك شنوا حملة شعواء على النحو العربي تضمنتها بعض الكتب المشهورة التي نشرت في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين ومن أشهرها كتاب الدكتور عبد الرحمن أيوب "دراسات نقدية في النحو العربي" الذي نشر أول مرة في سنة ١٩٥٧م، وقد كتب الدكتور إبراهيم مصطفى ــ الثائر الأول على النحو العربي ــ مقدمة لهذا الكتاب.

وكانت معظم المآخذ التي أخذها الدكتور أيوب على النحو العربي موجهة إلى التقدير والتعليل اللذين يقوم عليهما التحليل النحوي العربي القديم. ويبين الدكتور أيوب تلك المآخذ في تحليله لكثير من الظواهر اللغوية والنحوية والصرفية. ويكفي أن نرى رأيه مجملاً فيما يلي.

فقد عرض الدكتور أيوب للتقدير في مواضع عدة؛ ويمكن أن يلخص رأيه فيه قوله (ص٥٢): "يلعب التقدير دورًا كبيرًا في النحو العربي. وذلك لأن النحاة كثيرا ما يلجئون إليه لتصحيح رأي قالوا به. والتقدير ولا شك أمر غير واقعي. . . ونحن حين نرفض نظرية التقدير نرفضها لعدم واقعيتها هذه".

أما عن التعليل فيقول (ص٣٣): ". . . ولم يبق إلا أن نقلع عن [التعليل] ونكتفي بتقرير الواقع لا غير. وهذا ما تفعله المدرسة التحليلية الشكلية اليوم".

وتكرر هذا النقد عند الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور كمال بشر والدكتور تمام حسان. وكان الدكتور تمام حسان أكثر الناقدين جذرية؛ ذلك أنه اقترح بديلاً لمبدأ العامل وبعض الآليات التحليلية التي تقوم إلى جانب الإعراب في تفسير البنية النحوية للعربية. وقد أوضح ذلك البديل في كتابه "اللغة العربية مبناها ومعناها"، ١٩٥٩م، وظل وفيًّا لها إلى الآن، وذلك في كتابه الجديد "الخلاصة النحوية"، ١٤٢٠هـ الذي يمثل تطبيقًا لنظريته البديلة تلك.

لكنه استبدل بهذا النقد الذي كان يوجه للنحو العربي بصورته التي

نجدها في المصادر العربية الأساسية، منذ أوائل السبعينيات من القرن العشرين. ما يشبه إعادة الاعتبار لمقولات النحويين العرب القدماء وأرائهم وطرائقهم في التحليل.

أما هذا الانقلاب المفاجئ الذي يتمثل في إعادة الاعتبار لمنطلقات النحو العربي القديم فكان نتيجة لاتصال بعض الدارسين العرب المعاصرين بالنظرية اللسانية التي بدأها تشومسكي في أواسط الخمسينيات. فقد لفت نظر كثير من الدارسين العرب تمييز تشومسكي بين مستويين للجملة، أحدهما المستوى الظاهري المنجز لها والثاني المستوى الذي تشتق منه الجملة بشكل من الأشكال. ولما كان النحو العربي يقوم على بعض المقولات المجردة كالإضمار والحذف وما يتبع ذلك من تعليل وتقدير للعناصر اللغوية المضمرة والمحذوفة من الشكل الظاهري للجمل، فقد رأى هؤلاء أن النحو العربي القديم يقول، هو أيضا، بوجود مستويين للجملة، وهو ما يماثل ما تقوله نظرية تشومسكي.

بل تجاوز الأمر ملاحظة هذا التشابه بين النحو العربي ونظرية تشومسكي إلى القول بأن تشومسكي لم يكن إلا ناقلاً لهذه المقولات من النحو العربي مباشرة. ثم يورد هؤلاء بعض الأدلة التي تشهد لهذا الرأي.

ومن هذه الأدلة أن والد تشومسكي كان من نحاة اللغة العبرية المعاصرين البارزين. ولأن النحو العبري أسس في العصور الوسطى على مثال النحو العربي فلا بد أن تكون معرفة تشومسكي بهذه المقولات العربية قد أتت عن طريق معرفته بالنحو العبري. ومن وجه آخر، يوحي هؤلاء الباحثون بأن مقولات النحو العربي انتقلت إلى تشومسكي عبر اطلاعه على أعمال المفكرين الفرنسيين والألمان في القرن الثامن عشر، ومن أشهرهم فون همبولت الذي كان قد اطلع على اللغة العربية والدراسات النحوية فيها خاصة. ومن وجه ثالث، فقد صرح تشومسكي نفسه بأنه درس اللغة العربية في المستوى الجامعي الأول وصرح بأنه قرأ سيبويه. وكان قد درس العربية

في جامعة بنسلفانيا على أيدي مستشرقَيْن معروفين هما جورجيو دي لافيدا وفرانز روزنتال، كما رأينا.

لهذا، كما يرى هؤلاء الباحثون، فمعرفته بالنحو العربي كانت عميقة، ومن غير المستبعد إذن أن يكون قد نقل مقولات النحويين العرب بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ولما كان هذا الموضوع واحدًا من أكثر الموضوعات المتعلقة بتشومسكي أهميةً من حيث التأريخ لمساره العلمي فسوف أعرض له بتوسع، مستعرضًا الأدلة المتوفرة لي عنه كلها.

ويجب القول هنا أن الدارسين العرب المعاصرين لم يكونوا الوحيدين الذين لاحظوا أوجه الشبه بين التنظير النحوي العربي ونظرية تشومسكي. لذلك سأورد بعض آراء الدارسين الغربيين الذين لفتت أنظارهم هذه التشابهات كذلك.

وسأحاول إيراد بعض الآراء الممثلة للقول بهذا التأثر وبعض الآراء الأخرى التي تنفيه. ثم أعود إلى ما يقوله تشومسكي عن هذه المسألة، وإلى الأسس التي صرح بأن نظريته تقوم عليها.

ولا يتسع المقام هنا لعرض كل ما قيل عن وجود هذا التشابه أو ما قيل عن أخذ تشومسكي عن النحو العربي؛ لكني سأكتفي بإيراد عينات ممثلة لهذه الآراء، وسأحاول تبيان المعطيات التي استندت إليها.

وتأتي هذه الآراء أحيانًا على هيئة ملحوظات عابرة تشير إلى هذا التشابه؛ لكن بعضها يأتي بصور أكثر تفصيلاً لأوجه التشابه بين النحو العربي والنظرية التوليدية، وللطرق التي وصلت بها المفاهيم النحوية العربية إلى تشومسكي.

ومن أوائل الإشارات العربية إلى أوجه التشابه بين النحو العربي أو الدراسات العربية بشكل عام ما ورد في كتاب كمال أبو ديب Al-Jurjani's Theory of poetic Imagery, 1979 "نظرية الجرجاني عن التخييل الشعري" وكان في الأصل رسالته للدكتوراه التي أنجزها في جامعة

أكسفورد في بريطانيا قبل ذلك التاريخ بسنوات. فقد أشار في أربعة مواضع من هذا الكتاب إلى التماثل التام بين بعض المفاهيم وطرق التحليل التي قال بها الجرجاني وتلك التي جاء بها تشومسكي (الهامش٢١ ص٢٩؛ الهامش٣٦ ص٣٣؛ الهامش٦٥ ص٣٩ وص٥٧). ويلخص النص التالي مضمون هذه الإشارات جميعها (ص٥٧؛ وهو ترجمتي):

"وربما كان نوع التحليل الذي أتى به الجرجاني في هذا الفصل أول، بل أفضل، تحليل في اللغة العربية لـ "البنية السطحية" و"البنية العميقة". ويصبح التماثل بين المفاهيم التي طورها الجرجاني، وطوَّرها تشومسكي مؤخرًا، سهل جدا. . . . ولتوضيح الفرق بين البنيتين فقد أعاد الجرجاني صياغة كل واحدة منهما بالطريقة نفسها التي يستعملها تشومسكي الآن، من أجل الكشف عن البنى العميقة للتركيبات التركيبية المماثلة".

ولعل أفضل كتاب يمثل وجهات النظر التي تتلمس مظاهر الاتفاق بين النحو العربي والنظرية التوليدية كتابُ الدكتور نهاد الموسى: "نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م). وقد صرح بأن اتجاه البحث في هذا الكتاب ". . . تشكَّل في نفس صاحبه تشكُّله الأول على هيئة إحساس قوي بأن كثيرا من الأنظار التي وجدها في كتب المحدثين من الغربيين، ولابسها في محاضراتهم ومقابساتهم، يوافق عند عناصر كثيرة منه ما قرأ عند النحويين العرب مصرحين به حينا وصادرين عنه ــ فيما يقدر الباحث ــ كثيرا من الأحيان" (ص٩).

وأول ما يلفت النظر في كتاب الدكتور الموسى أن النحو العربي يبدو كأنه يتشابه مع كثير من المدارس اللسانية الحديثة لا المدرسة التوليدية وحسب. فالنحو العربي، كما يرى الدكتور الموسى، يتشابه مع المدرسة البنيوية التوزيعية. ويتبين ذلك في قوله: "إن معطيات هذا المنهج في التحليل

هي بعض ما استشعره النحويون العرب في الإعراب وصدروا عنه، حتى إنها لتعد من قبيل تحصيل الحاصل لدى المشتغلين بالعربية ومعلميها" (ص٢٩). ويقول عن مبدأ "التوزيع" في هذه المدرسة: "وقد وقف النحويون العرب على هذا المبدأ في حقيقته" (ص٣٣)، و". . . يضيق مجال القول هنا عن استيعاب أمثلة هذا "المبدأ" لديهم، فلعل فيما تقدم دليلا مقنعا" (ص٣٧)، و"إن هذا الإرهاص بمبدأ التوزيع ظاهر في كثير من وجوه التحليل النحوي عند العرب، ولكن النحويين كانوا يحتكمون إليه بقدر ما يكون مسعفا دون قسر" (ص٣٨). ثم يورد رأي الباحث الأسترالي المعاصر مايكل كارتر عن كتاب سيبويه: "ويرى كارتر، في منتهى النظر، أن كتاب سيبويه يقدم نموذجا من التحليل البنيوي لم يعرفه الغرب حتى في القرن العشرين، ويُقدّر أن لو ولد سيبويه في عصرنا هذا لتبوأ منزلة وسطا بين دي سوسير وبلومفيلد" (ص٤٠).

كما يرى الدكتور الموسى أن هناك اتفاقا بين النحو العربي والمدرسة اللمانية المسماة بـ Tagmemics التي يترجمها إلى "الخانيّة". ويتحدث عن بعض الخصائص المميزة لهذه النظرية ثم يعقب قائلا: "إن مجموع هذه العناصر بالإجمال متحصل صميما في معطيات النحو العربي. . ." (ص٤٣).

وإذا انتقل إلى المدرسة التوليدية، نراه يقول عن اعتراضات تشومسكي على مبادئ المدرسة البنيوية: "وتلتقي جل منطلقات تشومسكي، نظرية التحويل والتفريع، في اعتراضاتها على البنيوية من الجهات التي وجدت أن البنيوية تتخلف فيها عن تفسير صور أساسية من الظاهرة اللغوية، مع الأصول التي رسمها ابن هشام في (المغني)، للتحليل النحوي، وساقها في هيئة "وجهات نظر يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها". وكأن المُعرب، عند ابن هشام، هو "البنيوي" عند التحويليين" (ص٤٦). ثم

بعرض أوجه الاتفاق بين النحو العربي والنظرية التحويلية في المفاهيم الأساسية لها.

ويرى كذلك أن النحو العربي يتشابه في كثير من المفاهيم والتحليلات مع بعض المدارس اللسانية المعاصرة الأخرى كالمدرسة الوظيفية، وعلم اللغة الاجتماعي، والدلاليات المعجمية، وغيرها.

ويرى "أن هناك ثلاثة أبعاد من أبعاد النظر في اللغة هي من مستلزمات أية نظرية مشتركة أو انتلاقية في التحليل اللغوي" (ص١١٠)؛ وبعد أن يحدد هذه الأبعاد يختم بالقول: "وهذه الأبعاد الثلاثة أيضا قد وسعها النظر النحوي عند العرب من خلال دأبهم المتصل في استكمال نظرية للتحليل النحوي لا تتخلف" (ص١١١).

ويوضح الدكتور الموسى أن في عنوان كتابه:"... تجوزا كبيرا؛ فالأمر في هذا البحث لا يعدو المقابلة بين "أنظار" و"اتجاهات" و"ملاحظ" و"معالجات" تهدّى إليها النحاة العرب، وهي في الوقت نفسه مما أخذ به غيرهم في التقليد الغربي سواء أكان ذلك على وجه التوارد الذي يقع بالضرورة أو على وجه التأثر المحقق بالتاريخ الصحيح" (ص١٥). كما يصف عمله بـ"المجازفة الاستطلاعية الخلافية المنقطعة" (ص١١١).

والواقع أن القول بأن النحو العربي يتشابه مع هذه المدارس المتعددة المختلفة المتنافرة من حيث المنطلقات النظرية ووسائل التحليل يكفي في رد القول بأن النحو العربي يتشابه مع النحو التوليدي تخصيصا.

ومن وجه آخر فوصف الدكتور الموسى لعمله يُفرغ فرضيته من

مضمونها؛ إذ إن كل ما تقدم من أوجه المشابهة يمكن أن يكون من تـوارد الخواطر "الذي يقع بالضرورة".

ويتجاوز الدكتور الموسى القول بتشابه النحو العربـي مـع النظريـة اللسانية التوليدية إلى النظر في إمكان أخذ تشومسكي عن النحـو العربـي. ويجب أن أشير هنا إلى أن الدكتور الموسى كان في تتبعه مسار المفـاهيم النحوية العربية حتى وصلت إلى تشومسكي حذرًا جدا، فقد أطّر كلامه بأدق ما يكون من التحفظ.

فهو يقول في (ص ص ٥٤–٥٥): "وليس تقرير الشبه بين ابن هشام وهومبولت ثم تشومسكي من هذه الجهة محتاجا إلى أن يُتكلف له التأويل"؛ ثم يعلق في الهامش (ص ص ٥٤–٥٥) قائلا: "إن التـشابه يغـري بالتأمـل، ويقوي معه الهاجس بأن هذه المسـألة قد تكون بعض ما ورد على الغـرب من العرب في إطار "انتقال العلم العربي إلى الغرب اللاتينـي". ذلـك أن [المستعرب] سلفستر دي ساسـي "كان متضلعا. . . مـن علـوم اللغـة العربية". و"ما أنتجه من الدراسات في نحو العربية وما ترجمه إلى الفرنسية من كتب النحو والتجويد القيمة يدل بوضوح على أنـه أدرك – إدراكـا لا بأس به – مفاهيم ومناهج النحاة العرب". ودي ساسي "هو الذي كـوّن. . . فون هومبولت" وغيره. "وأهم شيء اكتسـبه هؤلاء من دروس دي ساسـي هو اطلاعهم من خلال دراستهم للعربية واللغات الساميـة الأخـرى علـى المفاهيم اللغوية والنحوية العربية التي كانت تنقصهم في ثقافتهم الفيلولوجيـة التقليدية، وكذلك كان الأمر بالنسبة للنحو والصوتيات". وكـان دي ساسـي "متشبعا بمبادئ النحو الوصفي التعليلي. وهو يمثل في زمانه ذلك المـذهب الذي تناقله عدد من العلماء منذ القرن الثالث عشـر مـن طريـق جـيمس هارس وسكتيوس الإسباني عن النحاة العـرب مباشـرة أو عـن لغـويي المدرسة السكولاستيك عن فلاسفة العرب". "وتلا دي ساسي في العمل بهذه المبادئ تلميذه فون هومبولت".

ثم يشير إلى مقال الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح عنوانه "مدخل إلى علم اللسان الحديث (٣)" منشور في مجلة اللسانيات، التي كانت تصدر في الجزائر، المجلد الثاني، ١٩٧٢، العدد الأول، ص ص ٩ـ١٠.

ويعلق بعد ذلك قائلا: "فهل تكون هذه المسألة عند ابن هشام [انظر الإشارة إليها فيما تقدم] مما أورده دي ساسي على هومبولت ثم لقمها تشومسكي؟"

ثم يبدي تحفظه قائلا، نقلاً عن عبد الرحمن الحاج صالح أيضا: "إنه لا بد من التحفظ على القطع بقول حاسم، ذلك أنه، مثلا، "رغم. . . معرفة دي ساسي لمقاصد النحاة العرب فإن الكثير مما تركوه من التحليلات العميقة والمفاهيم الدقيقة ما كان يمكن أن يُفهم في ذلك العصر لعدم خوض الغربيين بعد في هذا النوع من البحث. ونخص بالذكر مناهج الوصف البنيوي ومفهومي الأصل والفرع والطريقة التفريعية. . .".

وهكذا نجد أنه على الرغم من عدد الافتراضات المتكاثرة عن المسار الذي سلكه النحو العربي حتى وصل إلى تشومسكي فلا تعدو هذه الافتراضات أن تكون افتراضات يصعب التدليل عليها.

بل إننا نجد الدكتور الموسى يصرح بأن أوجه التشابه بين النحو العربي ومدارس النظر في اللغة (وبخاصة النحو التحويلي) ربما تكون نتيجة لما يسميه بـ "المشترك" بين اللغات، وإن قلَّل من هذا الاحتمال. ومؤدى هذا أن ". . . بين مناهج النظر اللغوي، على اختلاف الزمان والمكان والإنسان، قدرا مشتركا يقع بالضرورة. . .

"وكان مضمون ذلك الحدس [حدسه بـ"المشترك"] بديلا راجحا عن القول بتأثير تلك المناهج بعضها في بعض، أو أخذ أصحابها بعضهم عن بعض. . ." (ص٩).

ومحصلة القول إن الطريقين اللذين كان يمكن اللجوء إليهما في تقرير أخذ تشومسكي عن النحو العربي ليسا كافيين ولا قاطعين، اعتماداً على ما نجده في كتاب الدكتور الموسى. وهذا مما يشكك في هذا الاحتمال

ومع أن كتاب الدكتور الموسى يمثل وجهة نظر عدد كبير من الباحثين العرب الذين يقولون بالصلة بين النحو العربي وتشومسكي إلا أننا نجد باحثين اخرين لا يرون تلك صلة. ويمكن أن يستشهد على عدم افتراض كثير من الباحثين وجود مثل هذه الصلة بالحالات التالية.

فعلى الرغم مما ذكره الدكتور الموسى نقلاً عن الدكتور الحاج صالح من تتبع المسار الذي سلكته المفاهيم النحوية العربية حتى وصلت إلى تشومسكي إلا أن الدكتور عبد السلام المسدي في كتابه ("الفكر العربي والألسنية"، منشور في كتاب: اللسانيات واللغة العربية. الجامعة التونسية، ١٩٧٨، ص ص٣٠ــ٣١؛ ويوجد هذا النص في كتابه "التفكير اللساني عند العرب" كذلك) يرى أن ". . . الغرب قد أهمل التراث اللغوي عند العرب فلم ينقل منه شيئا؛ وبذلك استلمت الأمم اللاتينية مشعل الحضارة الإنسانية من العرب في كل ميادين المعرفة تقريبا إلا في التفكير اللغوي".

و"أما النتيجة المبدئية التي آل إليها "تسيان" تراث العرب في اللغويات العامة فهي حصول قطع في تسلسل التفكير الألسني عبر الحضارات الإنسانية، فنهضت الحضارة الغربية على حصيلة التراث اليوناني، ولكن في معزل عن مستخلصات ثمانية قرون من مخاض التفكير اللغوي عند العرب، وإذا جاز لنا أن نبسط القول مصادرة في البحث أمكننا أن نقرر افتراضا أن أهل الغرب لو انتبهوا إلى نظرية العرب في اللغويات العامة عند نقلهم لعلومهم في فجر النهضة لكانت الألسنية المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم، بل لعلها كانت تكون قد أدركت ما قد لا تدركه إلا بعد أمد".

وما دام أن الدراسات اللغوية العربية لم تنتقل إلى الغرب، فهي بالتالي لم تصل إلى تشومسكي بالطريقة التي تفترض دائما.

ومن الباحثين الذين لا يرون صلة بين النحو العربي وتشومسكي الدكتور تمام حسان. فقد عُرف الدكتور حسان بدراساته عن أصول التنظير النحوي العربي في كتبه المتعددة، ولم يذكر في أي منها، فيما أعلم، تشابها بين النحو العربي والنظرية التوليدية. بل إننا نجده في بحث منشور في الكتاب سالف الذكر عنوانه "إعادة وصف اللغة العربية ألسنيا" (ص ١٤٥ــ١٨٤) يستعرض المدارس النحوية العربية المعروفة، ثم يعرض تطبيقا لنموذج النحو التوليدي على اللغة العربية مأخوذا من كتاب تشومسكي Aspects". وفي ختام عرضه للكيفية التي ينطبق بها النموذج التحويلي على اللغة العربية يقول: "وهكذا يبدو أن النموذج التحويلي يمكن أن يطبق على اللغة العربية، ويمكن للغة العربية أن يعاد وصفها ألسنيا من خلاله" (ص١٨٤).

ومعنى هذا القول أنه لو وجد الدكتور تمام حسان تشابها بين النحو العربي والنحو التحويلي لكان تعبيره عن هذا الأمر مختلفا، ولكان من المحتمل أن يقول، بدلاً مما قال، إن هذا النموذج هو ما نجده في النحو العربي.

وهناك دليل آخر على عدم أخذ تشومسكي عن النحو العربي في نظريته. ويوجد هذا الدليل من قول الدكتور مازن الوعر (علم اللسانيات الحديث: مدخل، ١٩٨٨، ص ٣٥٩ــ٣٦٠): "إنه لا غرابة أن نرى عالما لسانيا أمريكيا معاصرا هو نوم تشومسكي يقف وقفة دهشة وعجب من التراث العربي اللغوي (النحوي والدلالي)، عندما قرأ وعلق على عمل لساني كنت قد تقدمت به كرسالة للدكتوراه. ففي رسالة بعثها إليّ في ٢٦ نيسان ١٩٨٢ قال فيها:

إنه من الواضح أن هذه الدراسة هي دراسة جدية ورائعة ومهمة . . . . ولقد دهشت بشكل خاص من تلك التطبيقات اللغوية التي وردت في ثنايا هذه الدراسة والتي كان قد قالها العرب القدامى. إن هذا وحده يجعل هذه الدراسة إسهاما قيما جدا لتطوير الدراسات اللسانية الغربية. . . ".

كما أورد ما حدثه به الدكتور أحمد المتوكل (وهو لساني مغربي معروف) من أنه [أي المتوكل] "قد قال لي بأنه أرسل رسالة الدكتوراه التي وضعها والتي تدور حول النظرية الدلالية عند العرب القدامى إلى عالم اللسانيات الأمريكي تشومسكي وقد كان تعليق تشومسكي عليها [في رسالة بعثها إلى الدكتور المتوكل] بأن ما قاله العرب القدماء في حقل الدلاليات يعد فكرا فلسفيا عميقا لا بد من الأخذ به في الفكر الدلالي المعاصر، وقد وعد تشومسكي المتوكل بأنه سيعتمد هذه النظرية في الأعمال التي سيقوم بها في المستقبل".

وكما هو واضح تدل هاتان الحالتان بشكل صريح على أن تشومسكي لم يسبق له أن اطلع على إنجازات العلماء العرب القدماء قبل أن يقرأ ما كتبه هذان الباحثان العربيان المعاصران عن تلك الإنجازات.

ونخلص مما سبق إلى نتيجتين هما:

١ــ أن القول الذي يقضي بأخذ تشومسكي عن النحويين العرب لا دليل عليه؛ ذلك أن أكثر المطالبات تفصيلاً واستقصاء لهذه الدعوى لم تصل إلى نتيجة حاسمة يلزم منها الاطمئنان إلى حدوث هذا الأخذ المباشر، أو غير المباشر.

٢ــ ما يقوله تشومسكي نفسه من عدم اطلاعه على المنجزات النحوية واللغوية التي وصل إليها العلماء العرب القدماء. ولكي يلزم الرأي القائل بأخذ تشومسكي المباشر أو غير المباشر عن النحو العربي فإنه يلزم القائلين بهذا الرأي أن يثبتوا أن كلام تشومسكي ليس صحيحا، وأنه كان يعرف أكثر مما صرح به.

وسنرى هنا فيما يلي بيانًا واضحًا لرأي تشومسكي في هذه المسألة، وتفسيرًا لأوجه التشابه بين النحو العربي وما نجده في النحو التوليدي.

ومن أوائل الباحثين الذين اهتموا في أبحاثهم بطبيعة الدراسات النحوية العربية اللساني الأمريكي المعاصر المعروف مايكل بريم في رسالته للدكتوراه. وهي رسالة حلل فيها النظام الصوتي للغة العربية الفصحى، وأنجزها في جامعة ماساتشوستس التقنية بإشراف عالم الصواتة المشهور موريس هالي في سنة ١٩٧٠م. وينظر الباحثون إلى هذه الرسالة على أنها عمل بارز استخدم فيه مايكل بريم دراسة التراكيب الصواتية للغة العربية مثالاً يحتج به لتطبيق النظرية الصواتية التي جاء بها تشومسكي وموريس هاله في كتابهما الشهير "نمط الأصوات في اللغة الإنجليزية" The Sound Pattern of English, 1968. وقد انتشرت هذه الرسالة انتشارا واسعا في أقسام اللسانيات في أمريكا وغيرها، واعتُمدت مرجعا رئيسا في الدراسة الصواتية، وظهرت الإشارة إليها في عدد لا يحصى من الكتب والمقالات في تلك الفترة. وما يزال يشار إليها بوصفها عملا كلاسيكيًّا في النظرية الصواتية وفي الدراسات العربية على السواء.

ومما قاله بريم في مقدمة الرسالة (وهي ترجمتي):

أعتقد أن النحو العربي خاصة قد بلغ أدنى درجات الانحطاط على أيدي العلماء الغربيين. فقد تجاهلت اللسانيات الغربية تجاهلاً يكاد يكون تامًّا كثيرًا من مظاهر العمق والأصالة اللذين أورثاهما النحويون العرب. وسوف أعالج هذا الموضوع [أي النظام الصواتي للغة العربية في تلك الرسالة] بالروح التي عالجه بها أولئك النحويون العرب. وهذا صحيح في الأقل في المسألة التي استرعت اهتمامهم، وهي مسألة تحديد الأصل أو التمثيل العميق للغة. . . .

فهو يشير هنا إلى مسألتين مهمتين من أوجه التشابه بين النحو العربي

والنظرية التوليدية: أنهما يفترضان أن الكلام الذى ننجزه مشتق من أصل ربما لا يكون متوافقاً مع الشكل المنجز له، وأن جمل اللغة المنجزة لها مستوى مجرد.

ومن الأبحاث التفصيلية الأولى التى تنحو هذا المنحى بحث كتبه ديفيد بترسون بعنوان "بعض الوسائل التفسيرية عند النحويين العرب"، ألقاه في الندوة السنوية لجمعية اللسانيات في جامعة شيكاغو في سنة ١٩٧٢، ونشر في مجموعة الأبحاث التى صدرت عنها. ويناقش بيترسون في هذا البحث لجوء النحويين العرب إلى التأويل والتجريد في تفسير الظواهر اللغوية، ويختمه بقوله:

. . . يجب أن يكون واضحاً من النقاش الذى تقدَّم أن النحويين العرب لم يكونوا وصفيين لا يهتمون إلا بالظاهر بأى حال. بل هم بنيويون بالمعنى نفسه الذى يُصنَّف به أكثر الدرس اللسانى في القرن العشرين، ومن ضمنه النحو التوليدى التحويلي. لقد كان النحويون العرب يهتمون بالتحليل البنيوى الذى يصل الأشكال بعضها ببعض وهو ما يؤدى إلى تفسيرها. ومن اللافت للنظر أن تكون بعض تحليلاتهم مجرَّدة ومصوغة بمصطلحات تشبه ما يستعمله اللسانيون اليوم . . . إن دليل نجاحهم يتبين من أن عملهم لم يُتجاوز إلا في حالات قليلة.

ومن أشهر الباحثين الغربيين البارزين الذين اهتموا بدراسة تاريخ النحو العربي وطبيعة الدراسة النحوية عند العرب ثلاثة، وهم مايكل كارتر وكيس فرستيغ وجوناثان أوين، إذ كتبوا في هذين الموضوعين عدداً كبيراً من المقالات والكتب.

لقد حرر كيس فرستيغ ومايكل كارتر كتاباً بالإنجليزية عنوانه: "دراسات في تاريخ النحو العربي ــ ٢"، ونشر في ١٩٩٠. ويقولان في مقدمة هذا الكتاب:

يمكن أن يشار هنا إلى نقطتين مهمتين يُعنى بهما مؤرخ اللسانيات: فالأولى أن الاهتمام العميق الظاهر الآن باللسانيات العربية نتيجة من غير شك لتطور النظرية اللسانيات العامة ونضجها، إذ وضع هذا التطورُ العلماء العربيين في مستوى يمكن لهم فيه أن يقدّروا عمق التفكير اللساني العربي ودقته؛ وبعض النظر عن النواحي التي يمكن أن تكون اللسانيات النظرية قد فشلت في إنجازها في الدوائر العلمية الغربية، إلا أنها أسهمت من غير شك إسهامًا موجبًا في فهمنا للسانيات غير الغربية. والنقطة الثانية أن من الواضح أنه على المستوى النظري الكلّي أو على المستوى التطبيقي أو كليهما هناك بعض الدروس التي يمكن للسانيات الحديثة أن تتعلّمها من النحويين العرب القدماء. إن مفهوم الكلّيّات اللسانية في الأقل ربما لا يمكن نقاشه الآن دون النظر في التنظيرات المشابهة في اللغة العربية، حيث يجب ألا يؤكّد تطبيق كثير من معطيات اللسانيات المعاصرة دون الإشارة إلى التقاليد اللسانية التي تُعد اللغة العربية أشهرها من حيث نضجها الذي لا يقل عن نضج التقاليد اللسانية المعروفة الأخرى كالهندية أو الصينية. وربما وجد المهتم باللسانيات العامة الذي يعرف العربية، أو الذي يكون على استعداد لأن يتعلم من العربية ما يُمكّنه من فهم محتوى الأبحاث في هذه المجموعة، بعض المعلومات التي يمكن أن تقوده إلى تعديل بعض آرائه التي تأسست كلها على التقاليد الغربية.

أما جوناثان أوين فقد كتب عددًا كبيرًا من الأبحاث التي تناقش قضايا معينة في النظرية النحوية العربية. وسأقتصر هنا على عَرْض ما قاله عن هذا الموضوع في كتابه "مقدمة للنظرية النحوية العربية في القرون الوسطى"، ١٩٨٨م. فهو يشير في المدخل الذي صدّر به الكتاب إلى أن الفكرة التي مؤداها أن الممارسة اللسانية العربية يمكن أن تُفهم حق الفهم من خلال المبادئ اللسانية العامة لم تبدأ إلا في أوائل السبعينيات من القرن العشرين. كما يشير في المقدمة إلى أن عبارة "القرون الوسطى" التي تظهر

في عنوان كتابه يجب ألا يفهم منها الفهم المألوف في الدراسات العربية التي يمكن فيها أن تشير هذه العبارة إلى غموض المنهج وتعقيده؛ ذلك أن النظرية النحوية العربية في تلك الفترة تتشابه مع النظرية اللسانية المعاصرة في عدد من الأمور الأساسية، وهو ما يجعل مناقشتها أسهل للقارئ العربي المعاصر. ويشير كذلك إلى أنه يمكن البرهنة على أن أحد الأسباب التي أدت إلى عدم تقدير النظرية العربية حين اكتشفها الغربيون في القرن التاسع عشر، وهو الزمن الذي شهد تكوّن التقاليد الاستشراقية، أنه لم يكن في الدراسات الأوروبية في تلك الفترة مثيل لها. ولم تتوضح هذه النظرية في منظور أفضل إلا مع التقاليد البنيوية التي أسسها دي سوسور وبلومفيلد وتشومسكي.

وعلى الرغم من هذا التشابه بين النحو العربي واللسانيات الحديثة، والنحو التوليدي خاصة، فإنه يبيّن أن هناك أربعة فروق بين النحو العربي والنحو التوليدي في مسألة الحذف. وهي المسألة التي جعلت كثيرا من الباحثين ينتبهون إلى وجوه التشابه بينهما. وأول هذه الفروق أن الحذف في النحو التوليدي لا يقع إلا إذا كان للمحذوف مثيل في النص. أما في النحو العربي فللحذف سببان: الأول تركيبي، والثاني "ذرائعي" pragmatic ، ذلك أن المحذوف يمكن أن يفهم من السياق. والفارق الثاني بين النحوين فرقٌ في الاهتمام؛ ففي حين ينظر النحو العربي إلى الحذف على أنه محاولة للوصول إلى معرفة المحذوف، يبدأ النحو التوليدي من الجمل الكاملة ويطبق عليها قواعد الحذف ليصل إلى الشكل الظاهري لها. والفرق الثالث أن في النحو التوليدي قواعد محدّدة للحذف، أما في النحو العربي فلم تحدد تلك القواعد، بل أُسندت تلك القواعد إلى المتكلم نفسه. والفرق الرابع أن النحو العربي كان ينظر إلى المعنى حين يقع الحذف، وهذا ما لا نجده في النحو التوليدي.

ويقارن أيضًا بين النحو العربي والنحو التحويلي من حيث أوجه التشابه والاختلاف في مسألة التحويل. ويرى عدم التشابه بين النحوين؛ لأن النحو التحويلي يسعى لتحويل جمل إلى جمل أخرى، وذلك ما لا يفعله النحو

العربي. وينتهي إلى أن من المضلِّل أن نساوي بين النحوين، على الرغم من وجود بعض التشابه.

ويدرس في الفصل التاسع وعنوانه "التركيب، والدلالة، والذريعيَّة" ما عمله النحويون والبلاغيون العرب من ربط المعنى بالشكل والعلاقة بينهما. ومن الذين اهتموا بهذه المسألة، سيبويه وأبو علي الفارسي من النحويين، والجرجاني من البلاغيين. ويعود مرة أخرى في هذا الفصل للمقارنة بين النحو التحويلي والنحو العربي في مسألة دراسة المعنى. ويرى أنه لا يوجد تشابه بين النحوين، وذلك لاختلاف الاهتمام واختلاف التحليل.

وهكذا نجد من هذه النماذج للآراء التي يظهر فيها التقدير الكبير لما عمله النحويون العرب القدماء أن هناك تشابهًا في كثير من المنطلقات والتقنيات بين النحو العربي والنحو التوليدي خاصة. لكن لم يقل أحد من هؤلاء المؤرخين الدارسين بأخذ تشومسكي عن النحو العربي. بل الواضح من دراسة جوناثان أوين أن هناك اختلافات عميقة بين النحو العربي والنحو التوليدي، تكاد تسد باب الافتراض بأخذ النحو التوليدي عن النحو العربي.

وما دام أن تشومسكي نفسه طرف في القضية، فيحسن أن نطلع على ما قاله عنها تحديدا. وكنت بعثت إليه برسالة أسأله فيها عما سمعته من الدكتور عبده الراجحي الذي أكد في محاضرة عامة في النادي الأدبي في الرياض أخْذ تشومسكي عن النحو العربي، وذلك أنه، في رأي الدكتور الراجحي، درس كتاب سيبويه، واطلع على دراسات عالم اللغة الألماني فون همبولت الذي كان يعرف النحو العربي. يزاد على ذلك تأكيد الدكتور الراجحي أن هناك باحثًا عربيًا، هو الدكتور يوسف عون، يدرِّس تشومسكي كتاب سيبويه.

وقد أجاب تشومسكي عن تساؤلاتي في رسالة مؤرخة في ٢٨ مايو ١٩٨٩م. وكنت ترجمت هذه الرسالة ونشرتْها جريدة الرياض في حينه، وأوردها هنا لملاءمتها للسياق.

يقول تشومسكي في جزء الرسالة الذي يتعلق بهذا الموضوع:

وتسألني عن تأثير النحو العربي التقليدي على منهجي في دراسة اللغة. إن أكثر الأقوال التي سمعتَها صحيحة جزئيا، إلا تلك التي تتعلق بهورن همبولت الذي لم أطلع على دراسته إلا في الستينيات. فقد كان والدي من علماء النحو العبري في القرون الوسطى، وقد حقق الطبعة المعتمدة لكتاب النحو الذي ألفه [النحوي اليهودي الأندلسي] ديفيد قمحي. وكنت مطلعًا اطلاعًا جيدًا في أيام صباي المبكرة على أعمال أبي، كما أنني درست حينها شيئًا قليلاً من الدراسات التاريخية عن نحو اللغات السامية. وكان أثر النحو العربي [على النحو العبري] عظيما، وهذا أمر مشهور. وكان هذا السياق ذا أثر مباشر كبير على دراساتي المبكرة. بل إن رسالة التخرج من الجامعة [البكالوريوس] ورسالة الماجستير اللتين أنجزتهما في جامعة بنسلفانيا عن الأنظمة الصواتية الصرفية للغة العبرية الحديثة كانتا متأثرتين بتلك الدراسات إلى درجة كبيرة، كما صممتا جزئيًا من حيث النموذج على مفاهيم مأخوذة من اللسانيات السامية التاريخية والنحو التقليدي. وكانت هاتان الرسالتان أقدم النماذج للنحو التوليدي المعاصر، وإن لم تنشرا إلا بعد سنين من تاريخ إنجازهما.

ولما التحقت بجامعة بنسلفانيا سنة ١٩٤٥م بدأتُ مباشرة بدراسة اللغة العربية مع جورجيو ليفي ديللا فيدا الذي كان مستعربًا متميـزًا جـدًا، ثم درست، بعد أن تقاعد ديللا فيدا، مع فرانز روزينتال. ومع روزينتال درست مادة اللغة العربية لفصل واحد، وكنت الطالبَ الوحيد في تلك المادة، ودرست معه فيها كتاب سيبويه، وربما كان هذا هو أساس الشائعة التي سمعتها [أي أن تشومسكي درس كتاب سيبويه وتأثر به]. وكان زيلك هاريس، الذي درست [اللسانيات] معه، أنجز أعماله الأساسية في اللسانيات التاريخية السامية، وكنت درست ما كتبه في هذا الموضوع أيضا. إن من الصعب دائمًا

ن يستمع بدقة مثل هذه الأمور، لكن هناك من غير شك احتمالات كبيرة لمثل هذا التأثير.

كما كتب لي رسالة مؤرخة في ١٧ ديسمبر ١٩٩٠، بعد أن بعثت إليه نسخة من ترجمتي لكتابه "اللغة ومشكلات المعرفة" ضمنها النص التالي:

على الرغم من أنني كنت في فترة مبكرة من حياتي أعرف ما يكفي من اللغة العربية أستطيع به فهم ما ينشر في جريدة أو رواية (أما دراستي العملية فقد كانت مقصورة على الشعر الجاهلي، والمؤلفات النحوية التي ألفت في القرن الثامن الميلادي ["القرن الثاني الهجري"؛ ربما يشير هنا إلى كتاب سيبويه])، إلا أن ذلك كان قبل أربعين سنة خلت، أما الآن فإنني لا أثق بمعرفتي [للعربية]. لكنني سوف أعير الكتاب [الترجمة] إلى أحد زملائي أو أصدقائي [لقراءته].

ويتبين بوضوح من كلام تشومسكي أن تأثره بالنحو العربي لا يتجاوز كونه احتمالا. ولو كان يعرف العربية معرفة تمكنه من فهم دقائق كتاب سيبويه لم كان من الممكن لهذه المعرفة العميقة أن تضمحل إلى الدرجة التي يذكرها. بل إن من يعرف تشومسكي وأمانته ودقته في ذكر مصادره سيستغرب من عدم إشارته إلى كتاب سيبويه تحديدا، لو كان نقل عن سيبويه شيئًا محددًا في بناء نظريته.

كما أن كلام الباحثين العرب والغربيين على السواء لم يستطع على تفصيله في بعض الأحيان تأكيد هذه الصلة المباشرة بين تشومسكي والنحو العربي.

ومع ذلك فالسؤال المشروع عن سر هذا الشبه الذي يبدو واضحًا بين النحو العربي والنظرية التوليدية ما يزال قائمًا، وما يزال بحاجة إلى إجابة واضحة.

وربما رأى بعض الذين يربطون بين النحو العربي والنحو التوليدي

أننا لسنا بحاجة إلى البحث عن إجابة لهذا السؤال؛ إذ لا بد أن يكون تشومسكي قد تأثر بالنحو العربي بصورة دقيقة، لأن هذه التشابهات لا يمكن أن تأتي من فراغ، خاصة أن تشومسكي صرح بدراسته للعربية وباطلاعه على كتاب سيبويه. فلسنا بحاجة إذن إلى البحث عن إجابة غير هذه حتى إن لم يكن لدينا أي دليل.

لكن يجب علينا، لكي يسلَّم لنا بأخذ تشومسكي عن النحو العربي أو التأثر به تحديداً، أن نبرهن على أمرين: الأول: أن النحو العربي وحده هو الذي تبدو فيه هذه التشابهات مع النحو التوليدي، أي أن هذه التشابهات لا توجد في الأنحاء الأخرى في القديم والحديث.

وهذا الافتراض ليس صحيحاً، كما سنرى فيما يأتي، ذلك أن كثيراً من الأنحاء في الحضارات الأخرى قديمها وحديثها تتضمن كثيراً من الأفكار التي يتشابه فيها النحو التوليدي مع النحو العربي.

والأمر الثاني: أنه ما دام أن هذا التشابه موجود بين الأنحاء الأخرى، غير العربية والنحو التوليدي، فيجب علينا أن نبرهن على أن تشومسكي لم يطلع على تلك الأنحاء.

وسأحاول هنا أن أبين أن كثيراً من الأفكار التي يشترك فيها النحو العربي مع النحو التوليدي موجودة في أنحاء أخرى كذلك، وأن تلك الأنحاء كلها كانت متوفرة في المجال العلمي والثقافي الذي نشأ فيه تشومسكي، بل إن تشومسكي صرح باطلاعه على بعض تلك الأنحاء؛ وصرح بتأثره بها.

ويكفي أن نطلع على بعض الكتب التي تؤرخ لدراسة اللغة في الحضارات القديمة المختلفة لنجد أدلة كافية على الأمر الأول. وأقرب كتاب موجز لتتبع هذا التاريخ هو كتاب اللساني البريطاني المعاصر ر. هـ. روبنز "موجز تاريخ علم اللغة" الذي صدرت طبعته الأخيرة في ١٩٩٠م، وترجمه إلى العربية الدكتور أحمد عوض، ونشر في سلسلة عالم المعرفة الكويتية في عددها ٢٢٧ ، رجب ١٤١٨هـ/ نوفمبر ١٩٩٧م (وسأنقل هنا

عن هذه الترجمة، مع تحفظي عليها من حيث دقة الترجمة والأسلوب في كثير من المواضع).

والواضح من هذا الكتاب أن دراسة اللغة في أوروبا منذ عصر النهضة إلى القرن التاسع عشر، وهي القرون التي قامت عليها الأفكار الحديثة عن اللغة ودراستها في الغرب، قد تأثرت بالدراسات اللغوية التي تجري خارج أوروبا، ومنها النحو العربي أيضا، وإن لم يكن هذا الأثر بالمستوى الذي كان للنحو الهندي، كما يتضح من هذا الكتاب.

يقول روبنز:

والعناية باللغة وبالمشكلات اللغوية العملية قد أدت إلى نشأة العلم اللغوي، بشكل مستقل في أكثر من مركز من مراكز الحضارة، وكان لكل مركز منها مزاياه ومنجزاته. وبمرور التاريخ اتصل كل مركز منها بالتراث اللغوي الأوروبي وساهم فيه. يصعب الاعتقاد في بعض الجوانب المهمة بأن علم اللغة الأوروبي كان سيصبح في الوضع الذي هو عليه الآن، دون الأفكار التي زودته بها الأعمال اللغوية من خارج أوروبا، خاصة مؤلفات اللغويين الهنود القدماء عن قواعد اللغة السنسكريتية ونظامها الصوتي (ص٢٣).

ويقول عن علم الصوتيات: "أما علم الصوتيات في القرن التاسع عشر الذي شهد تقدما سريعا في هذا الجانب من علم اللغة [في أوروبا]، فيدين ببعثه الرئيسي للتكنيك الوصفي للعلماء الهنود، ومنهجية الملاحظة في التراث الإمبريقي للقرون الثلاثة الماضية" (ص٥٦).

ويقول:

.. ويبرز اسم بانيني بين القواعديين الهنود متفوقا عليهم جميعا، ورغم أن تاريخ بحثه غير مؤكد فإنه على نحو واضح تماما أول بحث

قواعدي موجود في أية لغة هندو ـــ أوروبية، وهو حسب كلمات [اللساني الأمريكي المعاصر] بلومفيلد "معلم من أعظم معالم الذكاء الإنساني". ومع ذلك فبينما وصل تقريبا إلى الكمال في أهدافه التي أعلنها في ميدان قواعد السنسكريتية التي يتعامل معها، فهو ليس ما يطلق عليه عادة قواعد كاملة للغة السنسكريتية، وربما يجب وصفه بشكل أفضل بلغة حديثة باعتباره صرفا توليديا للغة السنسكريتية (ص٢٣٨).

ويقول عن بعض التقنيات التحليلية في النحو الهندي: "والأداة الوصفية المألوفة للغويين اليوم، وهي التمثيل الصِّفْري لعنصر أو فئة، ترجع لبانيني بشكل مباشر، والصيغ الشاذة ظاهريا ربما نجعلها تبدو أكثر اطرادا عند مستويات التمثيل والتحليل الأكثر تجريدا، عن طريق افتراض مرفيم يمثله تنوع مورفيمي morph صِفْري، أي دون تمثيل صريح في صورة مادية صوتية. . . " (ص٢٤٣).

كما اهتمت الدراسات اللغوية التي قامت في الحضارة اليونانية القديمة بدراسة اللغة اليونانية ووصلت إلى أفكار وتحليلات تشبه ما نجده في النحو التوليدي، يقول روبنز: إن ". . . المفكرين اليونان الذين فكروا في اللغة وفي المشكلات التي تثيرها البحوث اللغوية، قد استهلوا في أوروبا الدراسات التي يمكن أن نطلق عليها الآن العلم اللغوي بمعناه الواسع، ولأن هذا العلم كان مركز اهتمام مستمر منذ اليونان القدماء وحتى العصر الحاضر في تتابع متصل للمعرفة، بحيث إن كل من عمل في هذا المجال كان على دراية بأعمال سابقيه، وكان متفاعلا معها بطريقة معينة" (ص٣١).

ويقول: "وأفضل الأعمال التي قام بها اليونان (والرومان) كانت في ميدان القواعد [التركيب syntax]. . . إضافة لهذا فإن النظريات والمقولات والمصطلحات التي ابتدعها العلماء القدماء [اليونان والرومان] فيما يتعلق

قواعد لغاتهم هم، قد أصبحت جزءا من الأدوات القواعدية العامــة للغــويين الوصفيين المعاصرين" (ص٥٧).

ويقول: "وتظهر بعض التهم الموجهة لبرشيان ولعلماء القواعد اللاتين الآخرين، تشابها لافتا للنظر مع تهم تجاهل الكفاية التعليلية للنظرية لمصلحة كفاية الملاحظة للمادة المسجلة، تلك التهم التي وجهها في الوقــت الحاضــر علماء القواعد [التركيب] التوليديون، ضد سابقيهم الوصفيين بشكل خــالص والمرتبطين ببلومفيلد، وبالاتجاهات السائدة في المؤلفات اللغوية فــي الربــع الثاني من القرن العشرين" (ص١٣٥).

أما في عصر النهضة، فقد بدأ التفكير العلمي في دراسة اللغة، ووصل إلى كثير من الأفكار التي نجدها في النحو التوليدي. وفي ذلك يقول روبنز: "ومن هذا الموقف ظهر بشكل ثابت مفهوم قواعد أساسية وعمومية [كلّيــة]، وهو بحث متكرر منذ ذلك الوقت للغويين النظريين. . . . وقد صرح روجر بيكون الذي كتب هو نفسه قواعد لليونانية كانت من أولى القواعد التأملية. . . بأن القواعد قواعد واحدة، وهي نفسها في كل اللغات من حيث جوهرهــا، وأن الخلافات السطحية فيما بينها هــي مجــرد خلافــات عرضــية" (ص ١٣٦ــ١٣٧).

كما أورد روبنز كثيرا من خصائص التنظير النحــوي فــي عــصر النهضة الأوروبية وما تلاه حتى القرن الثامن عشر. وقد برز في تلك الفترة علماء اقترحوا كثيرا من الاقتراحات التي تشبه اقتراحات تشومسكي. ومــن أولئك نحويو بورت رويال والفيلسوفان ليبنز وبوازبيه وغيرهم كثير.

وفي القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر بــدأ الاهتمــام الكبيــر بالدراسات التي أنجزها النحويون الهنود القدماء. يقول روبنز عن ذلك: "كان لدراسة الأوروبيين اللغوية للسنسكريتية أثر مزدوج، فقــد شــكلت مقارنــة

السنسكريتية باللغات الأوروبية المرحلة الأولى في التطور المنهجي لعلم اللغة المقارن وعلم اللغة التاريخي، وإضافة لذلك أصبح الأوروبيون على اتصال في الكتابات السنسكريتية بتراث العلم اللغوي في الهند الذي تطور بشكل مستقل، والذي تم الاعتراف بمزاياه في الوقت نفسه، وكان تأثيره في كثير من فروع علم اللغة الأوروبي عميقا وباقيا" (ص ٢٢٦_٢٢٧).

ثم يعرض لكثير من المدارس التي ازدهرت في القرن التاسع عشر فيقول: "والنظرية اللغوية التي أنجزها تروبتسكوي ورفاقه من مدرسة براغ واضعين في الذهن التحليل الفونيمي [الصوتي] أساسا قد قادت إلى عدد من التطورات عظيمة الأهمية. وتحليل الوحدات اللغوية في صورة مجموعة من الملامح المميزة الذي مده ياكوبسن بالفعل إلى الصرف، قد طبقه أيضا في التحليل القواعدي عموما، وهو الآن تحليل مركزي إلى حد بعيد في القواعد التوليدية ـــ التحويلية" (ص٣٢٧).

ويقول: "ومشاركة تشومسكي في دراسة تاريخ علم اللغة قد نشأ ـــ من اقتناعه بأن كثيرا من مقاربته هو أساسا، عبارة عن تطور مصوغ بشكل أفضل للممارسة الأوروبية التقليدية (والمرء يمكنه أن يضيف: وللممارسة الهندية السنسكريتية)" (ص٣٦٣).

ويتبين من هذه النصوص من كتاب روبنز أن كثيرا من الأنحاء القديمة تتمثل فيها الأفكار نفسها التي نجدها في النحو العربي. كما أن هذه الأنحاء كانت متوفرة بوضوح وقوة في المجال الثقافي والعلمي الذي نشأ فيه تشومسكي. وأن تشومسكي على معرفة بها. كما يتبين من سيرة حياة تشومسكي أنه درس اللسانيات على بعض الأساتذة الذين كانوا من أبرز المتخصصين في دراسة النحو الهندي.

ومن هؤلاء هنري هوينجزفالت Henry Hoenigswalt وكان

تشومسكي الطالب الوحيد في الفصل الذي كان يدرس فيه هوينجرفالت اللسانيات التاريخية. ويقول عنه تشومسكي: كان "عالمًا متميزًا في اللسانيات التاريخية كما كان يعرف التقاليد [النحوية] الهندية. . . وكان على معرفة بالتقاليد السوية الأوروبية" (روبرت بارسكي، ص ٥٤-٥٥). ويقول تشومسكي إن هوينجرفالت "قرأ [رسالة البكالوريوس التي كتبها تشومسكي عن النظام الصرفي الصوتي للغة العبرية الحديثة، وهي التي تتضمن الأفكار الأساسية للنحو التوليدي]، ولا بد أنه لاحظ التشابهات [بين هذه الرسالة والأنحاء الأخرى] وصولاً إلى التقاليد الهندية [النحوية] الكلاسيكية" (ص٥٥).

يضاف إلى ذلك أنه كان هناك كثير من اللسانيين الذين ينتمون إلى المدرسة اللسانية التي ثار عليها تشومسكي، وكانوا لا يتركون سبيلاً ممكنًا إلا سلكوه في التشنيع على نموذج النحو التوليدي الذي اقترحه. وكان ممكنًا لواحد منهم في الأقل، في بحثه عن أي شيء يمكن أن يتخذ وسيلة للنيل من هذا النموذج ومن صاحبه، أن يشير إلى أن هذا النحو منسوخ من النحو العربي. لكن أحدًا لم يتهمه بشيء من ذلك.

وبهذا فإن افتراض أخذ تشومسكي عن النحو العربي على وجه الحصر أو تأثره به وحده لا يمكن أن يكون مقبولاً؛ إذ تشير الأدلة كلها إلى وجود أنحاء أخرى اطلع عليها تشومسكي في أثناء تكوينه العلمي. وهي تتسم بالخصائص نفسها التي يتسم بها النحو العربي.

ويجب القول هنا أن عدم ثبوت أخذ تشومسكي عن النحو العربي مباشرة ليس عيبًا لهذا النحو؛ فالنحو العربي ينتمي إلى الأنحاء التقليدية التي لاحظت كلها بعض الخصائص الجوهرية لبنية اللغة.

وكثيرًا ما نجد تشومسكي يؤكد الصلة القوية بين النحو التوليدي والأنحاء التقليدية، من غير أن يحدد نحوًا بعينه، وإن أشار إلى بانيني

النحوى الهندى القديم بكثير من التقدير، وإلى بعض النحويين التقليديين المعاصرين كالنحوى الدينماركى جسبرسن، الذى يشير إليه فى كثير من أبحاثه. وكان تشومسكى يحاول دائمًا أن يبين أوجه التشابه بين نظريته وهذه الأنحاء فى مواجهته المبكرة مع النظرية الوصفية التوزيعية التى سادت فى أمريكا بخاصة من الثلاثينيات إلى الخمسينيات من القرن العشرين.

ومن الطرائف التى تتصل بهذا الأمر أنه عقد مؤتمر للسانيات فى مدينة أوستن فى ولاية تكساس سنة ١٩٥٩م، وقد دعا منظمو هذا المؤتمر، وهم الذين كانوا القادة البارزين فى حقل اللسانيات فى تلك الفترة، تشومسكى لمناظرته فى آرائه اللسانية الجديدة. وكان الهدف من دعوته إلى ذلك المؤتمر، كما يقول، القضاءَ على النحو التوليدى فى مهده. وكان من بين المدعوين نحوى تقليدى وضعه منظمو المؤتمر فى صف تشومسكى لكى يجعلوا من هذا النحوى أضحوكة بعد أن يقضوا على تشومسكى. لكن تشومسكى بدأ فى الدفاع عن هذا النحوى لسببين كما يقول: "الأول أنه لم يرُق لى ما كان يجرى [من الاستهتار بهذا النحوى]، والثانى أن هناك فى الواقع أشياء كثيرة مشتركة بين النحو التوليدى والنحو التقليدى". وكانت النتيجة انتصار تشومسكى فى أعقاب تلك المناظرة على اللسانيين الوصفيين انتصارًا ساحقًا جعل بعض البارزين منهم يحوّل ولاءه إلى النحو التوليدى مباشرة (بارسكى، ص ٩١-٩٢).

ومن النصوص المهمة التى كتبها تشومسكى عن العلاقة بين النحو التوليدى والأنحاء التقليدية ما جاء فى كتابه: "القضايا الراهنة فى النظرية اللسانية" ١٩٦٤:

ليس بعيدًا عن الصواب أن ننظر إلى النموذج التحويلى على أنه صياغة شكلية منضبطة للخصائص الموجودة بشكل ضمنى فى الأنحاء التقليدية، وأن ننظر إلى تلك الأنحاء على أنها أنحاء توليدية تحويلية ضمنيا؛ ذلك أن هدف الأنحاء التقليدية أن توفر لمستعملها القدرة على فهم أى جملة

من جمل اللغة، وأن يصوغها ويستعملها بشكل ملائم فى المقام الملائم. ولهذا فهدفها (فى الأقل) يماثل فى اتساعه وبُعده أهداف النحو التوليدى، الذى وصفته تواً. يضاف إلى ذلك أن الآليات الوصفية للنحو التقليدى تفوق بكثير الحدود التى تقيد النموذج النحوى التصنيفى [السابق لتشومسكي]، لكن هذه الآليات يمكن صياغتها بشكل كبير، أو ربما بشكل كامل فى إطار النموذج التحويلى. ومع ذلك فمن المهم أن نعي أنه حتى أدق الأنحاء التقليدية وأكملها إنما تعتمد بشكل أساسى على حدس مستعملها وذكائه، وهو الذى يُنتظر منه أن يستنتج المقتضيات الصحيحة من الأمثلة والإيحاءات الكثيرة (والقوائم الواضحة للشواذ) التى يقدمها النحو. فإذا صيغ النحو صياغة جيدة فيمكن لمستعمله عندئذ أن ينجح فى استعماله، لكن الاطرادات العميقة للغة التى يمكن له اكتشافها تستعصى على الصياغة المنضبطة، كما أن طبيعة القدرات التى مكنته من استخدام النحو واكتشاف تلك الاطرادات ستظل أمرا محيرا. ويمكن أن نقدر مدى اتساع هذه الفجوات إذا ما حاولنا أن نصوغ قواعد واضحة لكامل الحقائق البنيوية المتاحة للمستعمل الناضج للغة (ص ١٦ـ١٧).

ويُعدُّ اتفاقُ النحو العربى مع الأنحاء التقليدية الأخرى التى رأى تشومسكي أنها تفوق الدراسات اللسانية الوصفية التوزيعية التصنيفية التى كانت سائدة في أمريكا بخاصة فى النصف الأول من القرن العشرين أبلغ إشارة إلى أن النحو العربى، خاصة فى صورته التى يمثلها كتاب سيبويه، قد بلغ حدًا بعيدًا من العمق فى البحث عن الأسس العميقة للمعرفة اللغوية التى يحتزنها المتكلم فى عقله عن لغته. وما القول بالعامل وتقدير الأصول لبعض الكلمات والبنى المجردة لبعض الجمل إلا إشارة إلى ذلك العمق.

ومحصلة القول أن تشومسكى لم يتأثر بالنحو العربى على وجه اليقين، وأن التشابه بين نظريته التوليدية والنحو العربى إنما جاءت من اهتمام

الأنحاء التقليدية كلها، ومنها النحو العربي، ببعض القضايا الجوهرية في بنية اللغة، وهي التي جاء تشومسكي ليصوغها صياغة نظرية حديثة منضبطة.

وكما بينت فقد بنى تشومسكي نحوه التوليدي على أفكار استقاها من مصادر متعددة، كالأنحاء التي كانت تسمى بالأنحاء الفلسفية التي ظهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبعض الأنحاء التقليدية الأخرى، ومن أعمال بعض الفلاسفة واللغويين الأوروبيين وبالأخص ديكارت وهمبولت وهيوم.

كما بنى النظرية التي ارتبطت باسمه على منجزات العلوم التي حدثت في أواسط القرن العشرين، وهي التي ساعدته في صياغة كثير من الأفكار التي استقاها من تلك المصادر القديمة صياغة نظرية متماسكة جديدة.

وسأعرض هنا ما يقوله تشومسكي نفسه عن مصادر المعرفة التي انطلق منها ومثلت الأسس التي قامت عليها نظرية النحو التوليدي التي ارتبطت باسمه.

فبين في عدد من كتبه ومقالاته الأسسَ العلمية التي انطلق منها. ومن أقدم الأمثلة على هذا ما نجده في كتابه ("القضايا الراهنة في النظرية اللسانية" Current Issues in Linguistic Theory، ١٩٦٤م، ص ٧ـ٢٧). فهو يقول (وهي ترجمتي): "يميّز النموذج التحويلي على الوجه الذي وصفته آنفا عن وجهة نظر في بنية اللغة ليست جديدة أبدا" (ص١٥). ثم يبين تماثل هذا النموذج في بعض الخصائص المهمة مع النحو الذي يسمى "نحو بورت رويال" كما يظهر في كتاب "النحو العام والتعليل" Grammaire générale et raisonne، الذي نشر سنة ١٦٦٠م، ثم يورد بعض الأفكار الأساسية التي اقترحها اللغوي الألماني فون همبولت عن طبيعة اللغة وبنيتها واكتسابها، ويورد النصوص التي تمثل تلك الأفكار بلغته الألمانية (ص ١٧ـ٢٢).

وعرض لتلك الأسس مرة أخرى بشكل موسع في كتابه "اللسانيات الديكارتية: فصل في تاريخ الفكر العقلاني"، ١٩٦٦م.

كما أشار إلى تأثير ديكارت وهمبولت وديفيد هيوم في مواضع متعددة من كتابه "اللغة والمسئولية"، ١٩٧٩م Language and Responsibility. وفي مقال له بعنوان "طبيعة اللغة واستخدامها واكتسابها" (نشر في كتاب "ثلاثون سنة من تطور اللسانيات"، Martin Putz (ed.): Thirty Years of Linguistic Evolution، ١٩٩٢، ص ٣-٢٩).

وكذلك في الكتاب الذي ألفه ديفد بارسكي عن سيرة تشومسكي. يقول بارسكي (ص١١١): "يشير تشومسكي في نقاشه للبنى العميقة والبنى السطحية في كتابه "اللسانيات الديكارتية" إلى قيمة النظرية الكلّية أو الفلسفية لدراسة النحو التوليدي التحويلي. وهو يقوم بذلك مشيرا إلى النحو والمنطق كليهما كما وُصفا في نحو جماعة بورت رويال Grammaire generale et raisonnee, 1660، فهو يقول [أي تشومسكي]:

تهتم هذه النظرية على وجه التأكيد بالقواعد التي تحدد البنى العميقة وتصلها بالبنى السطحية، وكذلك بقواعد التمثيل الدلالي التي تعمل على البنية العميقة وقواعد التمثيل الصواتي التي تعمل على البنى السطحية. وبكلمات أخرى، فليست هذه النظرية إلا تطويرا وصياغة شكلية للأفكار الموجودة بشكل ضمني [في النحو الديكارتي]. . . . لذلك يبدو لي، من أوجه عديدة، أنه لا يبعد عن الصواب أن نعد نظرية النحو التحويلي التوليدي، بشكلها الذي تطورت به في الدراسة المعاصرة، وجها معاصرا وأكثر جلاء للنظرية التي يتضمنها نحو بورت رويال.

وسألخص فيما يلي وجهة نظر تشومسكي عن هذا الموضوع كما وردت أخيرا في الكتاب الذي حرره آسا كاشير: Asa Kasher (ed.) The Chomskyan Turn, 1991، "المنعطف التشومسكي". وهو كتاب يحوي

الأبحاث التي ألقيت في مؤتمر عقد في القدس سنة ١٩٨٨ لتكريمه. ويتضمن الكتاب بحثين ألقاهما تشومسكي في ذلك المؤتمر. ويهمنا هنا البحث الأول الذي جاء بعنوان Linguistics and Adjacent Fields: A Personal View "اللسانيات والعلوم المجاورة: وجهة نظر شخصية" (ص ٣-٢٥)، ويعرض فيه الأسس الفلسفية العميقة التي يقوم عليها النحو التحويلي والمنطلقات التاريخية التي سبقته إلى تلك الأسس التي يؤكد استفادته منها.

فيشير في نص سبق أن أوردته في هذه السلسلة إلى بعض العلماء السابقين وبخاص النحوي الهندي القديم، بانيني واللغوي الألماني وليم فون همبولت. وهو ما يدل على المكانة التي يحتلهما فيها.

ويؤكد (ص٤) أن ". . . دراسة النحو التوليدي تطورت ضمن ما أسماه بعض الباحثين بـ "الثورة المعرفية" التي حدثت في الخمسينيات [من القرن العشرين]، وكانت عاملاً مهمًا في إحداث هذا التغير في المنظور فيما يخص الطبيعة الإنسانية والسلوك الإنساني". أما هذه "الثورة المعرفية" فعلى الرغم "من أنها كانت مجهولة في تلك الفترة [الخمسينيات] ولا تفهم في الوقت الحاضر إلا فهمًا محدودا، فإنها لم تكن أكثر من عودة إلى الاهتمامات القديمة ومحاولة إحياء المفاهيم السابقة التي نُسيت، ووضعها في منظور جديد أحيانا".

ومن المفاهيم المكوِّنة للثورة المعرفية المعاصرة التي ساعدت على إحياء المفاهيم القديمة، يخص تشومسكي ". . . نظريات التمثيل والحوسبة للدماغ، واختبار تيرنج [نسبة إلى عالم الرياضيات البريطاني المعاصر آلين تيرنج] عن الذكاء الإنساني، وقضية الشروط الفطرية الخاصة بنمو المعرفة والفهم، وبعض الفتوح الأساسية في علم النفس الجشتالي [الكُلِّي]، وغير ذلك كثير" (ص٤). و"كانت هذه الأفكار قد طورت وبُحثت بطريقة مفصلة وعميقة ضمن ما يمكن أن نسميه بـ "الثورة المعرفية الأولى"، في القرنين السابع عشر والثامن عشر"(ص٤).

ويقول:

فإذا كان التاريخ الفكرى يتصف باللخطِّية والاستمرارية والتراكمية، بدلا من سجله الحقيقى الذى يتسم بالقفزات المتهورة والبدايات الخاطئة والتقهقر المألوف، فيمكننا أن نقول إن الثورة المعرفية التى حدثت فى الخمسينيات، ومن ضمنها ظهور النحو التوليدى، إنما تمثل نوعًا من تلاقى أفكار الثورة المعرفية الأولى وفتوحها بالفهم التقنى الجديد عن طبيعة الحوسبة والأنظمة الصورية التى طُورت على وجه العموم فى هذا القرن، وهو ما مكّن من صياغة بعض القضايا القديمة، التى كانت تتسم بقدر من الغموض، بطريقة أكثر جلاء، وهو ما جعل من الممكن إخضاعها للبحث العلمى المنتج فى بعض المجالات فى الأقل، وكانت اللغة واحدة منها (ص ٤ـ٥).

ثم يذكر بعض القضايا الأساسية فى دراسة اللغة، ويلخصها فى الأسئلة التالية:

١ـ مم تتكون معرفة اللغة؟

٢ـ ما الكيفية التى تُكتسب بها هذه المعرفة؟

٣ـ كيف تستعمل هذه المعرفة؟

ويقول بعد ذلك:

كانت هذه القضايا، وإن بشكل أوّلى، منطلقا لنقاش حى فى بداية الخمسينيات، ولم يشارك فى ذلك النقاش بشكل رئيسى إلا عدد قليل من طلاب الدراسات العليا. ويمكن لى أن أذكر من هؤلاء على وجه الخصوص، فى مدينة كمبردج [فى ولاية ماساتشوستس الأمريكية]، إيريك ليبرج وموريس هالى، وكذلك يهوشوا بار هليل، الذى لم يُعط ما يستحقه من تقدير كفء مشاركته البناءة ونقده المتعاطف [لهذا المنحى الجديد من البحث اللسانى]. وفيما كنا نقارب هذه القضايا من منطلقات وخلفيات مختلفة، فقد

كان يجمعنا شك مشترك في الجو العلمي المهيمن، كما كان يجمعنا منظور مشترك وحس متنام بأن مناحي التفكير التي نحاولها، وهي المناحي التي ترتبط بطرق معقدة ببعض التطورات الأخرى في تلك الفترة، كانت تسير في مسار صحيح (ص٦).

ويقول: "إن لكل واحد من هذه الأسئلة التي تؤطِّر هذا المنحى من البحث ملمحًا كلاسيكيًا وسوابق قديمة، شأنها شأن "الثورة المعرفية" عمومًا" (ص٦). ثم يربط بين السؤال الأول وفون همبولت، ويسميه "مشكلة همبولت"؛ وبين السؤال الثاني وديكارت وهيوم، ويسميه "مشكلة أفلاطون"؛ ويربط بين السؤال الثالث وديكارت، ويسميه "مشكلة ديكارت".

كما يربط بين النحو التوليدي والنحو التقليدي بالصورة التي رأيناها فيما سبق.

ويشير إلى الصلة بين "الصواتة التوليدية" واللسانيات التاريخية، وبالأخص اللسانيات التاريخية السامية، على الوجه التالي:

أما الفكرة المتمثلة في النظر إلى اللغة على أنها نظام من القواعد من هذا النوع [الذي اقترحه في التركيب]، فقد ذُعمت بالممارسة التي تقوم عليها الصواتة التوليدية، وهي التي طُوِّرت ــ أو بصورة أكثر تحديدًا، أحييت ــ قبل ذلك بسنوات قليلة، تأسيسًا على أنظمة من القواعد تكاد تكون من هذا النوع على وجه التحديد. ولم يكن الدافع لذلك في هذا المنحى إلا اللسانيات التاريخية ــ وبخاصة اللسانيات التاريخية السامية ــ التي تقدم فكرة لـ "التفسير" لا توجد في التقاليد اللسانية البنيوية [التي سبقت تشومسكي، في أمريكا على الأخص]. وكانت أبحاثي في هذا الموضوع في أواخر الأربعينيات تقوم بشكل صريح على هذا النموذج، وذلك بنقل فكرة التفسير والقواعد المرتَّبة [التي كانت تقترح تفسيرًا للتطور التعاقبي للغة] إلى الإطار

التراميني، وقد اقترح بيوشوا بارهليل تحسيناً شاملاً على هذا العمل، كما اقترح ــ بصورة صحيحة كما نتبين فيما بعد ــ أنه يمكن أن تحسن هذه النظرية بصورة عميقة إذا ما أخذنا الصيغ المرسّمة تاريخياً [الصيغ التي يفترض وجودها في طور أقدم للغة] على أنها هي الصيغ التي يقوم عليها النحو التراميني (ص ٢٠ــ٢١).

ويمكن أن نلحظ هنا أن استفادته من الدراسات اللسانية التاريخية السامية لا تعني استفادته من النحو العبري أو العربي، وإنما تعني استفادته من الدراسات السامية التاريخية التي نضجت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين بتأثير الدراسات التاريخية التي أشار إليها روبنز في كتابه سابق الذكر.

ومما يلفت النظر أن تشومسكي لم يتكلم عن تأثره بالنحو العبري، على وجه الخصوص، على الرغم من معرفته بهذا النحو نتيجة لمعرفته بأعمال أبيه في هذا المجال. ولو ذكر تشومسكي أنه تأثر بالنحو العبري لكان ذلك مدخلاً للقول بأنه تأثر بالنحو العربي بصورة غير مباشرة. ذلك أن النحو العبري أسس، استشهاداً بالحقائق التاريخية المعروفة وبكلام تشومسكي نفسه، على النحو العربي. لكن عدم إشارته إلى النحو العبري يشير إلى أن هذا النحو، والنحو العربي تبعاً لذلك، لا يختصان بشيء لا يوجد في الأنحاء التقليدية الأخرى. كما أن عدم اشارته إلى النحو العبري يدل على صدق كلامه عن عدم تأثره بالنحو العربي تحديداً؛ إذ إنه لو لم يكن موضوعيًا وصادقاً وأراد أن يعلي من شأن أي نحو، بسبب تشابهه مع النحو التوليدي، فالمتوقع منه أن يشير إلى النحو العبري.

ومن الأمور الجديرة بالذكر هنا أن هناك من يزعم بأن تشومسكي تأثر بتنظيرات بعض اللسانيين الذين سبقوه في القرن العشرين. ويشار هنا إلى عصبيين تحديداً يُزعم أنهما يتشابهان مع نظرية النحو التوليدي. وهما

مقــال اللسـاني الأمريكــي المعاصــر ليونــارد بلومفيلــد Menomini morphophonemics "النظام الصوتي الصرفي للغة المينــومني" (إحـدى اللغات التي تتكلمها بعض قبائل الأمريكية الأصلية) التي نشرت فـي سـنة ١٩٣٩م، أي قبل عشر سنوات من إنجاز تشومسكي رسـالته للبكــالوريوس التــي تــضمنت البــذور الأولــى للنظريــة التوليديــة، ومقــال رومــان ياكوبس Russian Conjugation "تصريف اللغة الروسية"، الذي نــشر سـنة ١٩٤٨م.

كما يشار كذلك إلــى كتــاب زيلــك هــاريس، أسـتاذ تشومــسكي، Methods in Structural Linguistics "مناهج اللسانيات البنيوية"، الذي قــرأه تشومسكي مخطوطاً سنة ١٩٤٧م، ونشر ١٩٥١م.

وقد تولى اللســاني الأمريكي فريدريك نيوماير، الــذي يمكــن عــدُّه مؤرخَ المدرسة التوليدية، إيضاحَ عدم صلة هذه الأعمــال الثلاثــة بعمــل تشومسكي، وهو ما يعني أن تشومسكي لم يتأثر بها فــي وضــع نظريتــه. وعالج نيوماير هــذا الأمــر فــي كتابــه Linguistic Theory in America "النظريــة اللــسانية فــي أمريكــا"، ١٩٨٠م؛ وفــي كتابــه الأخــر Generative Linguistics: A Historical Perspective "اللسانيات التوليديــة: منظور تاريخي"، ١٩٩٦م.

ويلخص رأي نومايرفي هذه القضية قولُه، بعد إيراد عدد من الأدلــة (١٩٩٦: ص ١١): ". . . ليس هناك دليل ألبتة على أنه كان [لمقالي بلومفيلد وياكبسون] أي دور في بلورة أفكار تشومسكي".

أما تأثير هاريس فتمثل، لا في بناء تشومسكي بصورة مباشرة علــى آراء أستاذه، بل في استفادته من بعض آراء أستاذه وتطويرها بشكل مختلف (نيومايز ١٩٩٦: ص ١٤ــ١٦).

كما أشار نيوماير إلى أثر "... الأبحاث في أسس المنطـق وفلـسفة العلوم" في الأربعينيات على فكر تشومـسكي (نيومـاير ١٩٩٦: ص١٥). فيقول (ص١٥): "أعتقد أن تشومسكي [في رسالته للبكالوريوس] كان أول من أشار إلى أنه يمكن عقد الصلة بين الإجراءات التي كان يتبعهـا اللـسانيون الوصفيون الأمريكيون وبين برنامج [الفيلسوف كارنـاب] فـي كتابـه Der Logische Aufbau der Welt المنشور في سنة ١٩٢٨م، وهو البرنامج الذي يحاول أن يبني، بسلسلة من التعريفات، مفاهيم النوعية، والأحاسيس، وغيـر ذلك، بأحدها مباشرة من التجربة [الواقع الحسي]. وجاء التأثير الآخـر مـن [الفيلسوف الأمريكي] نيلسون جولدمان [الذي كان أستاذًا لتشومـسكي فـي جامعة بنسلفانيا] الذي تأثر تشومسكي تأثرًا صريحًا بكتاباتـه عـن الأناقـة بوصفها خصيصة من خصائص صياغة القوانين العلمية، بل وصل به الأمر إلى الاحتجاج بها [أناقة القوانين العلمية] في تسويغ للقواعد المرتَّبة في النحو (جولدمن ١٩٥١). كما أن صياغة تشومسكي لقواعد بنية المركَّبـات فـي رسالته للبكالوريوس (والمصطلحات التي رافقت تلك الصياغة) لا يمكن الشك بأنها متأثرة بكتاب كارنـاب The Logical Syntax of Language "التركيـب المنطقي للغة"، المنشور ١٩٣٧م (نيوماير ١٩٩٦: ص ١٥).

ويمكن أن نخلص مما تقدم أن تشومسكي في صياغته لنظرية النحـو التوليدي كان ينطلق من مصادر كثيرة، بعضها قديم وبعضها حديث؛ بعضها من النحو، وبعضها من العلوم المتعددة التي اطلع عليها. لهذا فـالقول بأنـه اعتمد على النحو العربي إنما يعني إلغاء تلك المصادر المتعددة كلها.

ويبقى أن نلحظ أن الأمر لا يتوقف على المصادر التي اسـتفاد منهـا تشومسكي؛ بل يتوقف على عبقريته التي مكّنته من استغلال تلك المـصادر على الوجه الأمثل لكي يأتي بشيء جديد يعرف به.

وهناك بعض الملحوظات التي لا بد لي من إبدائها هنا. ومنها أن كثيرا

من العرب المعاصرين يكادون يحفظون كتاب سيبويه، إن لم يكونوا يحفظونه فعلا، إلا أنهم لم يستطيعوا حتى اكتشاف الصلة بين النحو العربي والنحو التوليدي بشكل واضح. وكان من المنتظر أن يهبّ هؤلاء ليبينوا بالتفصيل تلك الصلة بشكل لا لبس فيه.

والملحظ الآخر أن كثيرًا من العرب المعاصرين، على الرغم من الادعاء بأن تشومسكي كان متأثرًا بسيبويه، فإنهم يتهمون من يتخصص في اللسانيات بأنه تابع للغرب، وعدو للنحو العربي. وكان المنتظر من هؤلاء ألا يقفوا هذا الموقف؛ إذ كان من الواجب عليهم أن يكونوا أول المبادرين إلى الاطلاع على النحو العربي بثوبه الجديد!

والملحظ الأخير أن وصول تشومسكي لنظرية النحو التوليدي إنما هو ثمرة للتقدم العلمي الكبير في مجالات متعددة في هذا العصر. وقد بيّن تشومسكي نفسه أن لكثير من الأفكار التي تقوم عليها هذه النظرية ما يشبهها في فترات متقدمة؛ لكن الصياغة العلمية المنضبطة لهذه الأفكار لم تصبح ممكنة إلا في هذا العصر. ويصدق هذا على كثير من الأفكار التي نجدها في الآثار اللغوية العربية القديمة. لهذا فالمنتظر منا الآن ألا نكتفي بترديد ما كان يقوله الأولون؛ بل علينا – مع الاعتراف بمكانة الأوائل وسابقتهم – أن ننظر في تلك الأفكار من جديد مستفيدين من الإنجازات العلمية في المجالات المختلفة التي تحققت في هذا العصر؛ لنصل إلى صياغات أكثر علمية وانضباطًا لتلك الأفكار.

ويلحظ القارئ الكريم أني لم أتحدث عن تشومسكي كثيرًا؛ إذ كان اهتمامي منصبًا على مناقشة القضية التي تثار دائمًا من غير أن تتلقى فحصًا جديًا، وهي القول بأخذ تشومسكي أفكاره مباشرة من النحو العربي.

وهناك قضايا في اللسانيات التوليدية، وفي فكر تشومسكي الاجتماعي والسياسي تستحق أن تناقش.

ولم يُترجم مما كتبه تشومسكي في اللسانيات إلى اللغة العربية إلا القليل. ومن كتبه التي تُرجمت كتابه الأول "البنى التركيبية"، وترجمه الدكتور يوئيل يوسف عزيز، بعنوان "البنى النحوية"، الدار البيضاء: النجاح الجديدة، ١٩٨٧م). وكتابه الشهير الآخر The Aspects of the theory of Syntax، 1965، ترجمة الدكتور مرتضى جواد باقر، بعنوان "جوانب من نظرية النحو"، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة البصرة، ١٩٨٥. و Language and the Problems of Knwoledge, 1988، وقد ترجمته بعنوان "اللغة ومشكلات المعرفة". ونُشرت الترجمة في دار توبقال للنشر، سنة ١٩٩٠م. وكتابه الذي يحيل إليه كثيرًا في هذا الكتاب: Knowledge of Language, 1986، الذي ترجمه الدكتور محمد فتيح ــ رحمه الله ، بعنوان: المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٣م. وترجمه مرة أخرى الدكتور محيي الدين حميدي بعنوان "معرفة اللغة"، الرياض: دار الزهراء للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، وهي ترجمة سيئة تبلغ حدًا بعيدًا من العبث .

أما أعماله السياسية فتُرجم منها عدد لا بأس به؛ ومنها بعض مقالاته ومحاضراته التي ترجمتُها ونشرتُ ضمن كتاب "العولمة والإرهاب: حرب أمريكا على العالم"، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٣م. ويكفي أن تضع اسم تشومسكي على أي محرك للبحث في الإنترنت لتجد عددًا كبيرًا من الروابط التي يظهر فيها اهتمام الثقافة العربية بما يقوله عن السياسة الأمريكية والإسرائيلية خاصة.

أما ما يخص الكتاب الذي أترجمه هنا فأود أن أبدي بعض الملحوظات العجلى. وأشير بداية إلى استخدامي مصطلح "ذهن" بدلاً من "عقل" الذي يمكن أن يوحي به المصطلح الإنجليزي. وكنت قد استخدمت المصطلح الأخير في البداية؛ لكن بعض الزملاء أشار بأنه ينبغي التمييز بوضوح بين

مصطلح "عقل" الذي يعني في اللغة العربية أمورًا تتعلق بالحكمة والمعرفة الأخلاقية الناجزة، وبين ما يتحدث عنه تشومسكي في هذا الكتاب من أنظمة معرفية مختلفة ناشئة عن الدماغ لكنها لا تتعلق بالحكمة والمعرفة الأخلاقية الناجزة، بل تتعلق بكيفية عمل الدماغ في أثناء تعامله مع العالم الخارجي. يضاف إلى هذا أن الفلاسفة العرب والمسلمين القدماء أشاروا إلى الذهن واحتوائه على صور الموجودات في الأعيان، أي في العالم الخارجي.

ويتصل ثاني الملحوظات بمحتوى الكتاب. فيشهد النقاش في الكتاب بعمق المسائل المناقشة وبغزارة التنظيرات الفلسفية الغربية المعاصرة عن كثير من القضايا التي تتعلق بالذهن والشعور واللغة، وغير ذلك. ومما يؤدي إلى شيء من الصعوبة في فهم ما يتضمنه هذا الكتاب أن تشومسكي لا يورد بالتفصيل مواضع التنازع بين النظريات الفلسفية المختلفة؛ بل يشير إليها مفترضًا اطلاع القارئ بصورة ما على ذلك النقاش الغني. لذلك لا بد من التروي في قراءة الترجمة والاستئناس بما قد يوجد من كتب باللغة العربية عن هذه القضايا، أو محاولة الرجوع إلى المراجع التي يذكرها تشومسكي في ثنايا النقاش، وأكثرها باللغة الإنجليزية. ومن الكتب التي يمكن الاستئناس بها كتاب الدكتور محمد غاليم: المعنى والتلقي: مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي. (سلسلة أبحاث وأطروحات) الرباط: معهد الدراسات والأبحاث والتعريب، ١٩٩٩م. وكتاب الدكتور حسن عجمي: مقام المعرفة: فلسفة العقل والمعنى. بيروت: دار كتابات، ٢٠٠٤م. وقد حاولت أن أضيف بعض الهوامش التي تبين بعض تلك القضايا أو المصطلحات، لكن الوفاء بها جميعًا يكاد يكون متعذرًا؛ إذ سيشأ عن ذلك تطويل الكتاب وإغراقه بالتفاصيل.

وقد أوردت في نهاية الترجمة مسردًا بالمصطلحات المهمة التي وردت في الكتاب، راجيًا أن تكون عونًا على قراءته بصورة جيدة. ويحسن بالقارئ

من أجل الاطلاع على ما تدل عليه المصطلحات اللسانية في الكتاب الرجوع إلى كتب الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، خاصة كتابيه "اللسانيات واللغة العربية"، ١٩٨٦، و"البناء الموازي"، ١٩٩٠م، وكتاب تشومسكي "اللغة ومشكلات المعرفة"، ترجمة حمزة المزيني، الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٩٠م، و"الغريزة اللغوية: كيف يبدع العقل اللغة". تأليف ستيفن بنكر، ترجمة حمزة المزيني، الرياض: دار المريخ ٢٠٠٠م، وكذلك معجم المصطلحات اللغوية، تأليف رمزي منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠م.

وفي الختام أود أن أزجي جزيل الشكر للأستاذ الدكتور نعوم تشومسكي على تشجيعه لي على ترجمة هذا الكتاب إلى العربية؛ فقد أبدى سروره وترحيبه بهذا المشروع وعبر عن تمنياته الطيبة لي بإكماله.

كما أود أن أتوجه بشكر خاص للزملاء الذين تفضلوا بقراءة ترجمتي وأمدوني بملحوظاتهم التي أسهمت في تجنب كثير من مواقع الزلل. وأشير هنا إلى الزملاء الأستاذ الدكتور محمود نحلة في جامعة الإسكندرية، والأستاذ الدكتور محمد غاليم في جامعة محمد الخامس، والأستاذ الدكتور أبي يعرب المرزوقي، من الجامعة الإسلامية في ماليزيا، والأستاذ الدكتور محيي الدين محسب، من جامعة الملك سعود، والأستاذ الدكتور عصام عبد الله أستاذ الفلسفة في جامعة عين شمس، والزميل الدكتور نادر كاظم من جامعة البحرين، والأستاذ محبوب المحبوب طالب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية الذي قرأ مشكورًا معظم فصول الكتاب في إحدى صورها الأولى. ويجب أن أقول إن الصيغة النهائية التي تظهر بها الترجمة هنا من حيث اللغة والأسلوب والمضمون مسئوليتي وحدي.

وأود أن أعبر عن شكري الخاص للمجلس الأعلى للثقافة في مصر ممثلاً في أمينه العام الأستاذ الدكتور جابر عصفور الذي أبدى حماسته لهذا المشروع ووافق على نشر هذه الترجمة.

ويسرني هنا أن أعبر عن شكري الخالص لأسرتي الصغيرة التي كان دعمها خير عون لي في مكابدة إنجاز هذا المشروع، وأنا سعيد بأن أهـدي لهذه الأسرة النموذجية هذا العمل.

الرياض
١٤٢٥/٩/١٠هـ
٢٠٠٤/١٠/٢٣م

تمهيد

نيل سميث

يتبوأ تشومسكي مكانةً فريدة في المشهد الفكري العالمي. فقد كان القائد الأبرز لـ "الثورة المعرفية"[١] في الخمسينيات والستينيات [من القرن العشرين]، وقد هيمن على حقل اللسانيات[٢] منذ ذلك الحين. وظلت نظريته عن النحو التوليدي، في عدد من الأشكال التي اتخذتها، الهادي والملهم لكثير من اللسانيين في العالم أجمع ومعيارًا للمقارنة عندهم جميعًا تقريبا. وربما لا تتفق مع مشروع تشومسكي، لكنّ تجاهله سيكون قصورًا في النظر وموقفًا غير علمي في آن.

وقد تخرّج تشومسكي في جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٤٩م، حيث كتب أطروحته للتخرج عن اللغة العبرية الحديثة، ثم عدّلها ووسّعها بعد ذلك لتكون رسالته للماجستير. ومع أنها لم تتضمن إلا بذورًا متواضعة [لنظريته اللسانية التي طوّرها فيما بعد] فإنها كانت نقطة البداية للنحو التوليدي المعاصر. وقد تُرجمت القضايا التي تناولها حينذاك لتحدّد ميدانا لبحث ما يزال يُسهم فيه بعد خمسين سنة، وهو في جزء كبير منه نتاجٌ لعبقريته. ومع هذا لم تستغرق هذه الملحمة الفكرية إلا شطر وقته. أما الشطر الآخر فقد خصّصه للنشاط السياسي، حيث يشتغل بفضح أكاذيب الحكومة [الأمريكية] والخطط الخفية للمؤسسات المالية والعسكرية الكبرى. وأدى به هذا إلى الاشتغال بإلقاء ما يبدو كأنه سلسلة لا نهاية لها من المحاضرات حول العالم، نتج عنها أكثرُ من خمسين كتابا، ومئات المقالات وآلاف الرسائل. وربما لا يوجد رابط قوي بين هذين النوعين من نشاطه، لكنّ شهرته وجزءًا من تأثيره كانا الحاصل المشترك لهما. (والإنتاج [العلمي والفكري] لتشومسكي غزير جدًا؛ للاطلاع على نظرة عامة حديثة ومناقشة لكمٍّ ممثّل من عمله، انظر Smith 1999)[٣].

ولكن لعمله التأسيسي عن اللغة نتائجَ بعيدة المدى، لا على اللسانيات

وحدها بل على عدد من التخصصات الأخرى كذلك، ومن أبرزها الفلسفة وعلم النفس. ويولي هذا الكتابُ الذي يضمُّ عددًا من مقالاته عنايةً خاصة بهذا المنحى الثالث من فكره، ويتناول بشكل خاص بعضَ القضايا الميتافيزيقية "العبية" التي أثارتْها أبحاثه، ويسعى إلى إيضاح بعض أنواع اللغط والتحيرات التي ابتُليت بها دراسة فلسفة اللغة. ويُقدِّم بعمله هذا حلولاً جديدة لبعض المشكلات التقليدية المحيِّرة ومنظوراتٍ جديدة لبعض القضايا التي تدخل في الاهتمام العام، بدءًا بمشكلة الذهن ـ الجسد وانتهاء بقضية توحيد العلْم[٤].

وجوهرُ هذه المقالات أنها تأمُّلٌ موسَّع في تأويل تشومسكي "الداخلي" لملكة اللغة البشرية. فقد صرفتْ أكثرُ التقاليد الفلسفية اهتمامها إلى اللغة بوصفها كيانًا عامًّا لا يَملك الأفرادُ إلا معرفةً جزئية به. وتنشغل وجهةُ النظر هذه بالعلاقة بين اللغة والواقع الخارجي: أي بالعلاقة بين الكلمة والعالَم التي تُعدُّ أساسًا للنظريات النموذجية لعلم الدلالة الإحالي. ويدافع تشومسكي بتوسُّع، في معارضته لهذه التقاليد، وبسلسلة من التحليلات اللغوية التي تبلغ مستوىً عاليًا من التحيُّل، عن وجهة النظر التي تقول إنَّ معرفة اللغة فردية وداخلية في الذهن/الدماغ البشري. ويترتب على هذا أنه يجب أن توجِّه الدراسةُ الحقيقية للغة اهتمامها إلى هذه البنية الذهنية، وهي وحدةٌ نظرية يُسميها بالمصطلح الجديد "اللغة ـ د"[٥]، أي أنها خصيصة داخلية للفرد. ومن لوازم وجهة النظر هذه أنَّ التصور العام (والفلسفي) "للغة"، الذي تكون به اللغةُ الصينية (بوصفها اللغة التي يتكلمها الناس في هونج كونج وبكين) أو الإنجليزية (كما استعملها شكسبير ونستعملها نحن)، ليس مجالاً صالحًا لأن نصوغ عنه نظريات علمية متماسكة.

ويُدخِل تركيزُ تشومسكي على وجهة النظر الداخلية للغة أبحاثَه في مجال علم النفس، وعلمِ الأحياء في نهاية الأمر. ويعني هذا أن اللغة البشرية "موضوع أحيائي". وينبغي، تأسيسًا على هذا، تحليلُ اللغة بالمنهجية المتَّبعة

في العلوم الطبيعية، وليس هناك مكان لقيود على البحث اللساني وراء تلك القيود المألوفة في الأبحاث العلمية كلها، ومع أن هذه المناهج طوّرت بأوفى أشكالها في الفيزياء وهي تميّزها، فإن هذا لا يعني إمكان اختزال اللسانيات إلى الفيزياء أو إلى أي علم آخر من العلوم "الصحيحة"؛ فللسانيات قوانينها الخاصة بها وتعميماتها التي لا يمكن وصفها بلغة "الكواركات وأشباهها".
ومفهوم "المقاربة الطبيعية" بهذا المعنى مركزي لأبحاث تشومسكي كلها، وهي تعني بصورة صريحة المتطلبات التي توجّهها وجهةُ النظر الثنائية التي توجب أن يتوافق تحليل اللغة مع بعض المعايير التي تختلف عن المعايير الخاصة بالكيمياء أو علم الميكروبات أو تُزاد عليها. لذلك ينبغي أن يتمثّل مقياسُ نجاح اللسانيات، كما هو الأمر في أي علم اختباري آخر[6]، في عمقه التفسيري وقوة نظرياتها، لا في موافقتها للقيود التي تفرضها الفلسفة.

ويترتب على دعواه العلمية الطبيعية عددٌ من المقتضيات، ومنها: أنه لا مسوّغَ للمسلّمة العامة التي مفادها أنه ينبغي أن تُعامَل اللغاتُ الطبيعية بالطريقة التي تُعامَل بها اللغاتُ الصورية المصطنعة للمنطق أو الرياضيات؛ ولا مسوّغ للمتطلب الذي يقضي بأنه ينبغي أن يكون النفاذُ الشعوري[7] إلى قواعد اللغة التي نعزوها للأفراد ممكنًا؛ ولا مسوّغ للاشتراط بأنه ينبغي أن يُختزَل[8] الذهني إلى الفيزيائي.

ويتجلّى رفضُه لهذه الثنائية الفلسفية بأوضح صورة في تعامله مع مشكلة الذهن ـــ الجسد، وكانت إحدى المشكلات المزمنة في الفلسفة أن نفسِّر كيف يمكن للذهني أن يؤثِّر في الفيزيائي، أي كيف يمكن لشيء يقتضي تعريفه أنه لا يتحقق ماديًا أن يُسبِّب إحداث بعض التغيرات في وحدات تُحدَّد مواضعُها في حيِّز مكاني: وبكلمات أخر، كيف يمكن للذهن أن يحرك الجسد. وقد قطع تشومسكي عقدة جوردُ[9] بتأكيده واحدةً من أكثر الصعوبات مركزية: وهي أن مشكلة الذهن ـــ الجسد لا يمكن حتى صياغتها؛ لا لأنا لا نفهم الذهن إلا فهمًا محدودًا جدًّا، كما يُفترض عمومًا، بل لأننا لا نملك

معايير لتحديد ما يكون جسداً. ويشير تشومسكي، في إحدى محاولاته التوضيحية الجذرية التي تميّز بها، إلى أنه مثلما أدت آراء إسحاق نيوتن العميقة إلى انتثار مفهوم آليات التماس فقد زُعزعتْ فكرةُ الجسد عند ديكارت ولم يُقترح بديل لها منذ ذلك الحين. وفي غياب أية فكرة متماسكة "للجسد" لا يعود هناك مكانةٌ تصوُّرية خاصة لمشكلة الذهن ـ الجسد التقليدية، لذلك ليس هناك مشكلات سببية خاصة. ويعني هذا، على درجة أعم، أنه ليس هناك مشكلةٌ ميتافيزيقية "غيبية" خاصة تتصل بمحاولات التعامل بطرق علمية طبيعية مع الظواهر "الذهنية" (كمعرفة اللغة)، أكثر مما يكون هناك مشكلاتٌ غيبية عند الكيميائيين حين يعرّفون ما يكون "كيميائياً".

والمقتضى الآخر لهذه الحجة أن الأفكار العامة عن الاختزال في العلوم غير ملائمة. فمن الواضح أننا نرغب في دمج نظرياتنا عن الذهني ـ ويشمل ذلك على وجه الخصوص اللسانيات ـ بنظرياتنا عن الدماغ وأي مجال آخر ذي صلة. ومع هذا، وعلى الرغم من أن اختزال علم الأحياء إلى الكيمياء كان نتيجة للثورة في علم الأحياء الجزيئي، فلا يلزم أن يأخذ التوحيدُ شكلَ الاختزال. وأهم من ذلك أن الزعم بوجود نوع من الأولوية للفيزيائي أو للعضوي خاطئٌ؛ ذلك أن النظريات اللسانية على درجة من الغنى تجعلها قادرةً على تقديم بعض التنبؤات المحدَّدة عبْر مجال واسع مثلما تفعل النظريات الكيميائية والنظريات الأحيائية. لذلك ربما لا تكون محاولةُ اختزال اللسانيات إلى علم الأعصاب في الطور الراهن من فهمنا مثمرة. انظر إلى المثال المحدَّد الخاص بفهم ما يترتَّب على النشاط الكهربائي في الدماغ، كما يقاس بـ "إمكانات الأدمغة التي تتصل بالحدث" event-related brains potentials (ERP). فيفهم اللسانيون إلى حدٍّ معقول بعض الأنواع المختلفة من البنى اللغوية "الشاذة"، حيث يعرَّف الشذوذ في ضوء معايير المخالفة لمبادئ النحو، كما يظهر الآن أن مثل هذه المخالفات ترتبط ببعض أنماط النشاط الكهربائي في الدماغ. وقد نظر إلى مثل هذه

لارتباطات على أنها توحي بأن من الممكن تفسير الوقائع اللغوية عن طريق علم الأعصاب. لكن اللسانيات، هنا وفي عدد من الحالات الأخرى، هي التي تعيننا كي نضفي معنى على هذه النتائج، إذ ليس هنالك نظرية كهربائية عصبونية لافتة للنظر. وتماثل استحالة التعبير عن التعميمات المهمة عن اللغة في ضوء المفاهيم التقنية للخلايا والعصبونات استحالة عدم إمكان التعبير عن تعميمات علم طبقات الأرض أو علم الأجنة في ضوء المفاهيم التقنية لعلم الفيزياء الجسيمية. فمتطلبات الاختزال في كلتا الحالتين تذهب بعيدًا جدًا.

وربما يكون التوحيدُ العلمي، بله الاختزال، مستحيلاً في بعض النواحي من حيث المبدأ. ولا يعني هذا ببساطة الزعمَ البديهي الذي مفاده أننا لا نستطيع فهم بعض المجالات، فالأمر الأعمق أنه لا يمكن لذكائنا النفاذ إلى بعض مظاهر الهيئة التي صممنا بها إطلاقًا. وليس من شكٍّ أن الفئران لا تستطيع التعامل فكريًا مع بعض الأفكار كالأعداد الأولية، لذلك ينبغي ألا نشكَّ في أنَّ تصميمنا المحدَّدَ أحيانيًا أنتج كائنا عضويًا لا يستطيع ببساطة فهم بعض المجالات. وكما يقول تشومسكي: فالعالم مصنف إلى "مشكلات" و"أحاجٍ". وربما تخضع "المشكلات" لتنظيراتنا، أما "الأحاجي" فلن تخضع لها إطلاقًا. فربما تستطيع ملكةُ صياغة العلم[10] لدينا أن تعيننا في تحقيق قدرٍ من الفهم النظري عن علم الإبصار واللغة وعلم الوراثة، إلخ. لكنَّ هذا لا يعني أنه يمكن للمجالات كلها أن تخضع لذلك بالكيفية نفسها، بل إن بعض القضايا ــ كـ "حرية الإرادة" أو التحديد الصحيح للشعور ــ ربما تقع بعيدًا عن متناول قدراتنا الفكرية وتظل أحاجي، مثل احتمال كون الأعداد الأولية أحاجي عند الفئران. ولا يعني هذا الزعم بأنه لا يمكن أن نحصِّل قدرًا من الفهم عن هذه المجالات، بل يعني أنه (ربما) لا نحصِّل فهمًا علميًا، وهو ما يجعلنا بحاجة إلى الاعتماد على عبقرية الروائيين والشعراء للحصول على فهم أوسع.

وإحدى المجالات التي يغلب على تشومسكي اليأسُ من الوصول فيها

إلى فهمٍ علمي للوصفِ الصحيحِ لاستخدامنا المألوف للغة في مقابل معرفتنا بها. وقد شرعتْ أبحاثُه طوال نصف القرن الماضي دراسة "معرفتنا اللغوية" (أي استخدمنا المصطلح الذي استبدل به الآن مصطلح "اللغــة ــ د")، لكــنَّ الكيفيةَ التي تُحوَّل بها تلك المعرفة إلى استخدامٍ في أثناء أدائنا ظلت إلى حد بعيد كتابًا مغلقًا، وربما لغزًا. ولا يعني هذا إنكار أننا حققنا تقدمًا فــي فهــم الكيفية التي يحلِّل بها الناسُ الجمل التي يسمعون. ذلك أن النتائج التالية كلها زودتنا ببعض الفهم، أي: الدراسات الاختبارية ونظرية إدراك اللغة وإنتاجها، وما نفهمُه الآن عن اكتسابها وتغيُّرها؛ وتحليلِ وظيفة الدماغ عند المرضــى والأصحاء. بل لقد تحقَّق قدرٌ من الفهم الأوَّلي عن كيفيــة تأويلنــا بعــض المنطوقات[٢٠] في الســياق، لكننا ما نزال [تماثــل في بعــدنا عــن الفهــم الكامل] بُعد رينيه ديكارت عن معرفة السبب الذي يجعل شــخصًا ما يختار أن يُصــوغ ردَّ فعله على صــورةٍ بأن يقول: how beautiful "ما أجملها"، أو it reminds me of Bosch "إنها تذكّرني ببوش"، بدلاً من أن يتمثل رد فعله بالصمت.

وسُميت هذه المجموعة من المقالات بـ"آفاق جديدة"، إلا أن كثيرًا من القضايا التي نوقشت أعلاه هي ما كان محورًا للاهتمام لسنين عديدة. فقد أبان تشومسكي، منذ مغامرته في تاريخ الأفكار في كتابه "اللسانيات الديكارتيــة" (١٩٦٦)، عن قدرة فائقة على وضع أفكاره في ســياقٍ منظــور تــاريخي وعلمي عامٍ أوسع. ومكّنه اهتمامُه العلمي بالتاريخ لا علــى تــسهيل تتبُّــع السوابق الفكرية [لمشروعه] وحسب، بل على تحديد التطورات في اللسانيات بمقارنتها بالتطورات في العلوم التقليدية كذلك، خاصة تاريخ الكيمياء. وهــو يقيم الصلةَ، في الوقت نفسه، بين هذه التطورات والأبحاثِ الحالية في علــم النفس والفلسفة والرياضيات وعلوم الإدراك على وجه أعم.

وهناك مظهران لما هو جديد [هنا]. أولهما أن فيها أنواعًا جديدة مــن الأدلة على المواقف القديمة؛ وثانيهما، أن من الممكن الآن إثارة أسئلة كــان

من المستحيل في الماضي حتى صياغتها. ولا نملك الآن إجابات عن هذه الأسئلة، لكن قدرتنا على إثارتها دليلٌ مثير بنفسه.

ويمكن أن يوضَّح أولُ هذين المظهرين بالإشارة إلى زعم اشتُهر به تشومسكي منذ أمد طويل (أو اشتهر بالغلو في الإصرار عليه)، وهو: أن جزءا كبيرا من معرفتنا باللغة محدَّدٌ وراثيًا، أو هو فطري. والبرهان على أن هناك شيئا لغويًّا فطريًّا واضحًا بنفسه بيَّنه أنَّ الأطفال يكتسبون اللغة ــ أما القطط والعقارب والأحجار فلا. وتتوجَّه أغلبُ أبحاث تشومسكي في الأربعين سنة الماضية إلى تبيين التفاصيل الدقيقة لما نعزوه بدقة إلى "الحالة الأولى" للملكة اللغوية البشرية من أجل تفسير تلك الحقيقة الأولية. وقد نتج عن التقدم في اللسانيات والتخصصات القريبة منها وضعٌ أتاح الآن "إمكانا بعيدا" للمجيء بأدلة من علوم الدماغ وعلوم الوراثة لتبيين الكيفية التي تحدث بها هذه الحتميةُ ومن ثم إمكانُ توحيد هذا الجزء من اللسانيات مع العلوم الأخرى. وليس هذا التوحيد مركزيًّا لأبحاث تشومسكي نفسه، لكنَّ درجة النضج والتعقيد التي تتصف بها اللسانيات التي اقترحها تجعل هذا مشروعًا ممكنا.

والمظهر الثاني إمكانُ وَصْل معرفتنا باللغة بتفسيرٍ معيَّنٍ للأجزاء الأخرى من إدراكنا. ويتطلب تفسيرُ الكيفية التي يمكن لهذا أن يحدث بها مراجعةً عامة للتاريخ القريب جدًا. فيهيمن على اللسانيات التوليدية الآن موقفان: الأول هو نظرية "المبادئ والوسائط" ــ كما أوضحها تشومسكي في كتابه "المعرفة اللغوية" Knowledge of Language (1986)، والثاني "نظرية الحد الأدنى" Minimalism ــ كما تبدو في أجلى مظاهرها في كتابه "برنامج الحد الأدنى" The minimalist Program (1995c). وقد بذل تشومسكي وأتباعه جهدًا ضخمًا لصياغة آليات صُوْرية وافية لوصف التعقيد الواسع جدًّا للغات الطبيعية، وهو تعقيد تتزايد روعتُه كلما زدْنا النظر في اللغات المعينة. وكانت بعضُ هذه الوسائل الصورية، ومنها التحويلاتُ وفكرتنا الشبه

العميقة والبنية السطحية خصوصًا، ناجحةً إلى حد أخّاذ، وحققت حدًّا عاليًا من القبول العام خارج اللسانيات، عند الفلاسفة وعلماء النفس، بل عند عموم الناس كذلك. وكانت المعضلة تتمثل في هذا الطور من النظرية في أنّ التعقيد الذي اكتُشف يجعل اللغات تبدو كأنها مما لا يمكن تعلّمه: إذ كيف يمكن لطفل أن يتغلب على هذا التعقيد الباهر في السنوات القليلة التي يحدث خلالها اكتسابُ اللغة الأولى؟

وكانت إجابةُ تشومسكي أنّ أكثر معرفتنا باللغة فطريةٌ إلى حدٍّ يفوق ما كان متوقَّعًا من قبل؛ فالواضح أنه لا يمكن أن تكون اللغاتُ المعينة كالإنجليزية أو اليابانية فطريةً ــ كما تشهد بذلك الاختلافاتُ بينهما تبعًا لاختلاف البيئة ــ لكنّ اكتساب اللغة المألوف يجعل من الواضح بشكل مماثل أنّ كمًّا ضخمًا منها لا بد أن يكون فطريًا. ولا يقتصر الأمرُ على أنّ هناك بعض القيود على نوع الفرضية التي يمكن أن يصل إليها الطفلُ الذي يتعلم لغتَه الأولى، بل إن خصائص اللغة الجوهرية كلها موجودة [في الدماغ] منذ البداية. ويعني هذا أنّ الطفل ليس بحاجة إلى أن يتعلم من العَدم خصائصَ اللغة التي يتعرض لها؛ فهو ، بدلاً من ذلك، ينتقي وحسبُ بعضَ الخيارات المحدَّدة من مجموعة محدّدة بشكل مسبق. وللتمثيل على ذلك فاللغة إما تكون من نمط "الرأس ــ أوّلا" (حيث يسبق الفعلُ المفعولَ، كما في الإنجليزية) أو من نمط "الرأس ــ آخِرا" (حيث يسبق المفعولُ الفعلَ، كما في اليابانية). ويولَد الطفلُ وهو يَعرِف أن هذين البديلين موجودان، وأنّ ما يجب عليه لا يَختلف كثيرًا عن وَضْع المفاتيح في لوحةِ مفاتيح كي "يثبّت وسائط" اللغة التي يتعلّمها. ومن اللافت للنظر أن هذا الحل للتجاذب بين الوصف والتفسير يعكس التطوراتِ في العلوم الأخرى، فقد استُبدل بالنظرية "الموجِّهة" instructive لتفسير وجود الأجسام المضادة في علم المناعة نظريةٌ "انتقائية" تستدعي فيها المحفِّزاتُ antigens، حتى الاصطناعية منها، الأجسام

المصادر الموجودة مسبقًا في الكائن العضوي قبل تعرُّضه للتأثير الخارجي. وهذا التوازي مع اكتساب اللغة لافت للنظر.

وربما تكون نظريةُ المبادئ والوسائط التي طُوِّرت في العقدين المنصرمين أول مقاربةٍ حقيقية مُبدعة للغة طوال الألفين وخمسمائة سنة المنصرمة، وهي تختلف تصوريًّا اختلافًا شاسعًا عن التصورات السابقة للغة، سواء التقليدية منها أو التوليدية، وهو ما يجعل تشومسكي يرى أنها المرة الأولى التي ربما أمكن أن يُسوَّغ فيها وصفُ النظرية اللسانية بأنها "ثورية"، وهو الوصف الذي توصف به أبحاثه في الخمسينيات دائما. ويتمثل الشكلُ الحالي من نظرية المبادئ والوسائط — التي تختلف اختلافًا كبيرًا عن شكل النظرية في الثمانينيات — في "برنامج الحد الأدنى" الذي اقترحه في التسعينيات. وهذا الشكل محاولةٌ جذرية لإعادة التفكير في أسس مشروع [البحث اللساني، كما يراه تشومسكي]، وهو يتخلى عن الصيغ غير الضرورية تصوريًّا كلِّها أو التي لا تفرضها الضرورةُ الاختبارية، وتلك هي الشروط المألوفة في العلوم. وعنتْ إعادةُ التفكير هذه التخلي عن كثير من الوسائل الوصفية في الأشكال المبكرة من النحو التوليدي — بل حتى تلك الاختراعات الناجحة كمستوى البنية العميقة ومستوى البنية السطحية — وهو ما ألجأ إلى البحث عن تفسيرات جديدة.

ويتوخى تشومسكي الدقةَ في تأكيده أن "برنامج الحد الأدنى" لم يبلغ بعدُ أن يكون نظرية؛ فهو لا يعدو أن يكون برنامجًا لتحديد نوع معيَّن من المقاربة البحثية. ويجب على أية نظرية للغة ضرورةً أن تقترح صلةً بين الصوت والمعنى، أي بين تمثيلات النطق وتمثيلات الخصائص المنطقية للكلمات والجمل. وتبعًا لهذا يجب على النحو — أي "اللغة — د" أن يحدِّد مستويين من التمثيل، يطلق عليهما "الصورة الصوتية" و"الصورة المنطقية"، وأن يحدِّد الصلة بينهما. وينبغي – في الحالة المثالية ألا يكون هناك

مستويات أخرى وأنْ تكون تعقيداتُ هذه الصلة على حد أدنى. ويوحي هذا بسؤالين إما أنّه لم يكن من الممكن تناولُهما في السابق بصورة جادة أو ربما حتى صياغتهما. فالأول: ما مدى صلاح اللغة البشرية لأن تكون حلاً لهذه المشكلة التصورية الخاصة بتحديد الصلة بين الصوت والمعنى؟ فهل يمكن اقتراح أن أنحاء اللغات الطبيعية "مُثْلى" optimal بمعنى ما[١١]؟ والثاني، ما العلاقات بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى للذهن/الدماغ؟ وعلى وجه أخص، هل يمكن لأي شذوذ محتمل عن "المثلوية" optimality في السؤال الأول أن يُعزى إلى الشروط التي يَفرضها السؤالُ الثاني؟

ويتناول تشومسكي هذه القضايا في ضوء السؤال التالي: "إلى أي مدى تكون اللغة "مُحكمة"؟"[١٢]، ويجيب عنه بإجابة تُعدُّ معاجِنةً عن نظامٍ أحياني، وهي أن اللغة قريبة جداً من الإحكام. ويعني هذا أن أي شذوذ عن الضرورة التصورية التي توجبها الملكةُ اللغوية (أي: "اللغة ــ د") مدفوعٌ بشروط مفروضة من الخارج. ويسمي تشومسكي هذه الشروط بـ "الشروط المقرونية": أي الشروطَ التي تفرضها حاجةُ أنظمة الذهن/الدماغ الأخرى، من أجل استخدام التمثيلات التي توفِّرها الملكةُ اللغوية. ويشير هذا على وجه الخصوص إلى حاجة النظامين النطقي والإدراكي لاستثمار تمثيلات "الصورة الصوتية"، وإلى حاجة النظام التصوري لاستثمار تمثيلات "الصورة المنطقية". وانطلاقاً من هذه الخلفية لا تبدو عملياتُ النقل أو "الإزاحة" displacement من النوع الذي نراه في الموضعين المختلفين اللذين يحتلهما الاسم "كلينتون" في الجملتين التاليتين:

They elected Clinton.

"انتخبوا كلينتون".

و:

Clinton was elected.

"انُتخب كلينتون".

ضرورية تصوريًا. فما الذي يجعل اللغات الطبيعية تستثمر مثل هذه الوسائل التي لا توجد في لغات المنطق والرياضيات الاصطناعية؟ وإحدى الإجابات المؤقتة أن النقل ربما يكون مدفوعًا بالحاجة إلى تنظيم المعلومات من أجل التواصل الأمثل. وإذا كان هذا هو التفسير الصحيح، حقًا، فيبدو كأن إحدى خصائص الملكة اللغوية مفروضةً من خارج النظام، أي من جزء آخر من أجزاء الذهن/الدماغ.

ولا يقف تشومسكي عند ذلك الحد، بل يحاول وصل عدم إحكام اللغة الظاهر هذا بمظهر آخر من عدم الإحكام؛ فاللغات الطبيعية ملأى بالظواهر التي تنشأ عنها بعضُ المشكلات لمتعلمي اللغة الثانية، وبعضُ أنواع الإزعاج للملاحظة؛ فهناك تعقيدات صرفية كقوائم الإعراب والأفعال غير القياسية، التي لا يبدو أن لها معنى خاصًا بها حقيقيةً أو غير مفيدة دلاليًا. فهي من المظاهر الأخرى لعدم الإحكام، وتوجب افتراض بعض السِّمات التي لا يمكن تأويلها؛ أي سمات ليس لها تأويل دلالي. ومع هذا تستغل النظريةُ التركيبية الحالية مثل هذه السمات التي لا تأويل لها استغلالاً مطـردا: فوظيفتها أن توجِّه عمليات النقل التي رأينا آنفًا أنها مدفوعةً بعوامل من خارج الملكة اللغوية. وإذا كانت مثلُ هذه الافتراضات على جادة الصواب فإنها تسمح بالإمكان اللافت للنظر الذي يقضي باختزال نوعين من "عدم الإحكام" الظاهري إلى نوع واحد. بل إن النوعين "الظاهريين" من عدم الإحكام ليسا إلا نوعًا واحدًا حقيقيةً، إن كانت هذه الحجة صحيحة، حقًا. بل ربما لا يكون هناك بديل آخر في ضوء القيودِ التي تفرضها الأنظمةُ الأخرى من أنظمة الذهن/الدماغ على الحلول التي تسعى إلى ربط الصوت بالمعنى، لهذا تفسِّر الضرورة التصورية الشكل العام للنحو.

وأخيرًا، سأوجِّه النظر الآن إلى المقالات واحدًا واحدًا. فالفصل الأول "آفاق جديدة في دراسة اللغة" مقدمةٌ مُختصرة غير تقنية عمومًا لتفكير تشومسكي في الوقت الراهن عن طبيعة الملكة اللغوية، وتسعى لإيضاح مكان

أفكاره في إطارها التاريخي والفكري، أي: التقاليد الجاليلية والديكارتية [نسبة إلى جاليلو وديكارت]. ويُبيِّن هذا الفصل نزعته التي صارت مألوفة الآن حيث يأخذ أمثلةً بسيطة ليُرتِّب عليها بعض المقتضيات العميقة. فإذا احتوت مكتبةٌ نسختين من رواية "الحرب والسلام" لتولستوي، واستعارَ كلٌّ واحدة منهما شخصٌ مختلف، فهل أخذ الشخصان الكتاب نفسه أم أخذا كتابين مختلفين؟ وكلا الإجابتين ملائمة تبعًا لما إن كنا ننظر إلى الكتاب بوصفه وحدة مادية أم بوصفه وحدة مجردة. وربما يبدو هذا واضحًا لكنّ هناك مقتضيات جادة لهذه المسألة على فلسفة اللغة، كما يستمر تشومسكي في إيضاح الأمر. والملاحظة المهمة الأخرى أنه يبدو أن معرفتنا بإمكان النظر إلى بعض الأشياء كالكتب بهذه الطرق المختلفة تأتينا عمومًا باستقلال عن التجربة. ويمثِّل هذا حجةً من فقْر المنبِّه على أنّ مثل هذه المعرفة محدَّدةٌ فطريًا. وينبغي أن يكون أكثرُ ما يحويه هذا المقال سهلَ الفهم على غير المتخصصين، لكنه يمكن أن يقدِّم شيئًا كثيرًا للمتخصص كذلك.

والفصل الثاني "تفسير استخدام اللغة" نقدٌ لوجهات نظر الفلاسفة الذين يرون أنّ اللغة شأنٌ خارجي، خاصة [الفيلسوف الأمريكي المعاصر] هيلاري بتنام، وهو دفاع عن المقاربة الطبيعية لدراسة اللغة كذلك. ويقدِّم تشومسكي سلسلةً طويلة من الأمثلة الجديدة للبرهنة على وجهة النظر التي مفادها أنّ أكثر معالجات اللغة نجاحًا هي تلك التي تصاغ في ضوء الحوسبات التي تجري على التمثيلات الذهنية الداخلية. وهذا بالطبع المجالُ الذي نجد فيه إسهاماته التقنية العظمى، ومع ذلك لا يتطلب هذا النقاش معرفةً مسبقة بالنظرية التركيبية. ويتضمن جزء من تحليله تعميمًا لفكرة "اللغة ــ د"، التي يقول بها الذين يرون اللغةَ موضوعًا داخليًا، إلى المجال المعرفي، مستعملاً فكرة "الاعتقاد ــ د". ويُبيِّن هذه الدعوى، مرة أخرى، ببعض الأمثلة البسيطة لكنّها لافتة النظر وتشهد بعمق معرفتنا وتفصيلها عن بعض الوحدات المعجمية مثل "بيت" house و "قريب" near. فنحن نعرف في جملة مثل:

John is painting the house brown.

"يصبغ جون البيت بُنيا".

ـ ومن غير توجيه فيما يبدو ـ أن السطح الخارجي للبيت هو الذي يُصبغ، لا سطحه الداخلي. لكنّ لا يمكن أن يكون معنى "بيت" مقصورًا على سطحه الخارجي. وإذا كان هناك شخصان على بُعدٍ متساوٍ من السطح، أحدهما في الداخل والآخر في الخارج، فالشخصُ الذي في الخارج وحده هو الذي يمكن وصفه بأنه "قريب" من البيت. ويبدو، مرة أخرى، وكما أوضحتْ تلك الممارساتُ الاختبارية، أنه حتى الأطفال الصغار جدًّا يعرفون مثل هذه الحقائق، وهذا ما يوحي بأن المعرفة بمعنى من المعاني متوفرة بشكل مسبق لهذا الكائن العضوي [أي الإنسان].

ويأخذ الفصل الثالث "اللغة والتأويل" هذه الأفكار خطوة أبعد، ويُفصِّل تفصيلاً أوسع، بشكل خاص، حججه ضد [الفيلسوفين الأمريكيين المعاصرين] ويلارد كوين ومايكل دوميت وآخرين عن قضايا مثل عدم وثوقية الترجمة، واللغة الخاصة في مقابل اللغة العامة، وطبيعة المعرفة الذاتية، ومكانة "القواعد" اللغوية. ويأخذ تشومسكي بعض الأمثلة التركيبية البسيطة التي تورد بكثرة في الأبحاث التقنية ويستخدمها للاحتجاج لعدد متنوع من المواقف الفلسفية. انظر إلى تأويل جملة مثل:

Mary expects to feed herself.

"توقعتْ ماري أن تُطعم نفسها".

(حيث تُفهم "ماري" Mary و"نفسها" herself على أنهما تحيلان إلى الشخص نفسه)، في مقابل الجملة المماثلة جزئيًا:

I wonder who Mary expects to feed herself.

"ليت شعري من تتوقع ماري أن تُطعم نفسها".

حيث يكون هذا الفهم للإحالة المشتركة مستحيلاً؛ ويبيِّن تشومسكي عددًا من المقتضيات لمثل هذه الأمثلة وتحليلاتها. فهي تنفي زعم كوين بأنه

ليس هناك حقيقةٌ للأمر"؛ ويمكن استخدامها لتأييد التمييز بين التحليل والتأليف[٤٤]؛ وتثير بعض المشكلات لأية فكرة عن شبكيّة المعنى meaning holism[٤٥]؛ كما تشير إلى استقلال ملكتنا اللغوية عن المظاهر الأخرى لنظامنا الاعتقادى.

ويعود الفصل الرابع "المقاربة الطبيعية والمقاربة الثنائية فى دراسة اللغة والذهن" إلى الهجوم على الفلاسفة؛ لتبنيهم الضمنى "للدعوى التغريبية"؛ وهى أنه ينبغى أن تخضع اللغةُ لنماذج وشروطٍ إضافية علــى تلــك التــى تراعى فى العلوم الطبيعية عموما. ويبدأ تشومسكى بملاحظة أنّ مصطلح "ذهني" يُحدّد ببساطة بعضَ مظاهر العالَم المعيّنة التى نود أن نُخضعها للبحث العلمي الطبيعي، ثم يتوجه إلى عرْضٍ تاريخٍ دقيق للأفكار ـ من حيث صلتها بدراسة اللغة خاصة ـ بدءًا من ديكارت إلى الوقت الحاضر، مستخلصًا الأشباه من علم الكيمياء ودراسة "الإبصار تحديدا. وتقتضى هذه الممارسة أنه لا يمكن صياغة مشكلة الذهن ـ الجسد، وأن الدور المزعوم للشعور فى تحديد ما يكوّن المعرفةَ اللغوية لا برهان عليه؛ وأن الفهم الداخلي للمعرفة اللغوية وحده هو القادر على إمدادنا بأى تفسير لقدراتنا.

ويعود الفصل الخامس "اللغة موضوعًا طبيعيًا" إلى عدد من القضايا نفسها، لكن مع التركيز مباشَرةً بصورة أكثر على اللغة ومعرفة اللغة. فيرى تشومسكى أن اللسانيات تنتمى إلى العلوم الطبيعية، ثم يتتبع السوابق الفكرية له فى تلخيصٍ أخاذ ومُلمٍّ بتاريخ العلم. وعلى الرغم من تكراره لهذا الزعم المسوَّغ عن مكانة اللسانيات "العلمية" فإنه كان صارمًا فى نقاشه للمحاولات الاختزالية التى تَسعى إلى اختزال اللغة إلى العضوى والفيزيائى. أما ما نحتاجه هنا فهو التوحيد، ثم إن الاختزال ليس إلا حالةً نادرة من هذا الإلحاق [بالفيزيائى والعضوى]. ويتضمن مدى اللسانيات الحالية مشكلات الكيفية التى يتعلم بها الأطفال لغاتهم الأولى، وكيف يستخدم البالغون هذه اللغة. ويقدّم تشومسكى هنا ملاحظتين مقلقتين. فالأولى أنه إن كانت اللغات مما يمكن

تعلُّمه حقا سيكون هذا اكتشافًا اختباريًا مفاجئا، والثانية أنه يبدو أنَّ اللغات لا يمكن استخدامها جزئيًا، كما يمّهد بذلك إخفاقَ أنظمة الأداء غالبـا. ويختـتم المقال بمناقشة رصينة لحدود الحدس. ويُعدُّ الحـدسُ أو الأحكـام اللغويـة مركزيًا للحجاج في اللسانيات، لكن تشومسكي يشير إلى أنه ربما لا يمكن أن نمتلك حدوسًا مماثلة حين يتعلق الأمر بالمفردات التقنية في الرياضـيات أو الفلسفة، وأنَّ اعتماد الفيلسوف على الاحتجاج بالحدس عن توأم الأرض[16]، مثلاً، صارٌ دائما.

ويتناول الفصل السادس "اللغة من وجهة نظر داخلية" بعض القـضايا نفسها لكن باستخدام أمثلة أخرى وبمناقشة مطولة للاختلافات بـين البحـث العلمي الطبيعي وما يسمى غالبًا بـ"العلم الشعبي"[17]. وليست العلاقة بـين الاثنين واضحة بنفسها. فنحن لا نتوقع في الفيزياء أن تُفيد وجهـاتُ النظـر الشعبية صياغةَ النظرية عند الخبير، ومع أن "العلم الإثني"[18] بنفسه مجـالٌ بحثي لافت للنظر إلا أنه ليس هناك سبب للافتراض بشكل مسبق أنه ينبغي للتصورات والصيغ في الحوار ما قبل العلمي أن تنتقل من غير تغيير إلـى النظريات الصُّورية عن "اللغة ــ د". وليس هناك سبب، على وجه أخـص، لفرض شروطِ النفاذ إلى الشعور على القواعد التي تُحدِّد لغتنا. فإذا قال طفل:

I rided my bike.

"ركبتُ عجلتي"

[بصياغة ماضي الفعل الإنجليزي ride "يركب" بشكل يختلـف عـن صياغته المعهودة]

فلن نكون محقِّين في إنكار أنَّ هذا الطفل يتبع القاعدةَ القياسية لصياغة الفعل الماضي [في الإنجليزية]، وأقل من ذلك أن نفترض أنـه يعـي هـذه الحقيقة. وكما هي الحال دائما، تَترتب النتائجُ العميقة والمعقدة ــ عن عُقْـم التصورات الخارجية عن اللغة وضرورة التصورات الداخلية ــ على أمثلة بسيطة.

ويتابع الفصلُ السابع الأخير "المقاربة الداخلية" تبيينَ المنظور الداخلي عند تشومسكي، ويأتي بأمثلة وحجج جديدة، موسّعًا نقده إلى مدى أوسع من الأهداف، وإلى مظاهر توأم الأرض خاصة. يضاف إلى ذلك أن هذا الفصل يُحكم الربط بين هذا النقاش وأبحاثِ تشومسكي الأخيرة في برنامج الحد الأدنى، وينتهي بمناقشة موسّعة لمدى الأفكار الفطرية وأهميتها.

وإلى جانب أبحاث تشومسكي السياسية (التي لا يتضمن هذا الكتاب شيئًا منها) فقد اشتهر بتنظيراته التركيبية. وتشتمل كثير من المقالات هنا على أمثلة واضحة ومحيّرة من الأنواع التي اشتُهر بصياغتها؛ ومن ذلك التقابل بين:

John was too clever to catch.

كان جون ذكيًا جدًا مما يجعل القبض عليه صعبا".

والمثال المماثل:

John was too clever to be caught.

كان جون ذكيًا جدًا أن يقبض عليه".

والجملة المستحيلة:

John was clever to catch.

كان جون ذكيًا ليقبض عليه".

ومن اللافت للنظر أنه بالإضافة إلى هذه الأمثلة التركيبية، فأكثر التمثيل في هذه المقالات معجمي، مع حجج عميقة تقوم على عدد من الوحدات التي تَخدَع ببساطتها. ويقدّم تشومسكي هذه الحجج بالمنطق القوي نفسه كما في السابق، ثم تقود النتائجُ إلى وجهة نظر عن العالم ظَلّ يدافع عنها طوال أربعين سنة؛ لكن هذه الحجج جديدة.

أما ما يَشدُّ الانتباه فيما يكتبه تشومسكي فليس عمقه الأخاذ ومداه الرائع وحسبُ بل يتجاوز ذلك إلى حقيقة أنه ما يزال بعد نصف قرن يمتلك القدرة

على المفاجأة: فمن ملاحظته أن بني البشر ليسوا نوعًا طبيعيًا إلـــى تبيينـــه أهمية اللغة اليابانية لتحليل اللغة الإنجليزية؛ ومن رفضه لاختراعه المشهور "البنية العميقة" إلى افتراضه أن اللغة، على الرغم من طبيعتها الأحيائية، ربما تكون أقرب إلى الإحكام؛ ومن التجاذب بين البديهة والعلم إلى مقتضيات مـــا نعرفه عن بيت بني أو كأس ماء؛ فكل شيء يتعاضد ليقدّم وجهة نظر اللغـــة والذهن فريدة ومقنعة.

هوامش التمهيد

(١) انظر مقدمة المترجم. (المترجم)

(٢) هناك مصطلحات عدة تطلق في اللغة العربية الآن على هذا العلم؛ منها "علم اللغة العام" و"الألسنية" و"اللغويات". لكن هناك ما يكاد يكون توجهًا عامًا لاستخدام هذا المصطلح. (المترجم)

(٣) انظر مقدمة المترجم. (المترجم)

(٤) انظر تفسير هذين المصطلحين فيما يأتي في هذا التمهيد. (المترجم)

(٥) يفسر تشومسكي هذا المصطلح في الفصل الأول من الكتاب. وهو يشير إلى ما تتصف به نظريته اللسانية بأنها داخلية فردية مفهومية. والملاحظ أن الكلمات الثلاث في الإنجليزية، أي: internal, individual, intensional، تبدأ كلها بحرف I، لذلك استعمل هذا الحرف في الدلالة عليها جميعا. أما في العربية فالكلمات النظيرة تبدأ بحروف مختلفة، لذلك اكتفيت هنا باستعمال الحرف "د" (الذي تبدأ به كلمة "داخلية")، وينبغي أن نتذكر، كلما ورد هذا المصطلح، أن المقصود به الكلمات الثلاث. (المترجم)

(٦) اخترتُ أن أترجم كلمة empirical بـ "اختباري"، وكذلك مشتقاتها؛ ذلك تجنبًا للبس الذي يمكن أن ينشأ من ترجمة هذه الكلمة بـ"تجريبي" التي يمكن أن تدل على التوجه الفلسفي المعروف. (المترجم)

(٧) النفاذ إلى الشعور هو قدرة الشخص على الكلام بصورة علنية عن حالاته الشعورية. (المترجم)

(٨) الاختزال هو أن يُعالج علمٌ ما في ضوء مقولات ومصطلحات علم آخر يُعد أرقى منه، كأن تفسر الكيمياء بمصطلحات ومفاهيم الفيزياء، أو تفسر علم الأحياء بمصطلحات ومفاهيم الكيمياء، وهكذا. (المترجم)

(٩) نسبة إلى القصة اليونانية القديمة عن شخص اسمه "ميداس" عقد عقدة عجز عن حلها كل الذين حاولوا ذلك. لكن الإسكندر الأكبر، القائد اليوناني الشهير، حلها بطريقته الخاصة، حيث قطعها بالسيف. (المترجم)

(١٠) Science Forming Faculty وهي إحدى الملكات التي توجد في الذهن وتُعين البشر على تكوين النظريات العلمية. (المترجم)

(١١) Utterances مصطلح عام يطلق على أي مجموع من الكلام سواء كان كلمة أو جملة أو جزءًا من جملة. (المترجم)

(١٢) يعني مصطلح "الحد الأدنى" التخلص من كثير من التقنيات الوصفية والتفسيرية التي كانت تستعمل في الأطوار السابقة من النظرية التوليدية وتقليص هذه الوسائل إلى عدد قليل من المبادئ العامة والوسائط. ويعني الوصف optimal التوافق مع بعض الشروط الاقتصادية الطبيعية المحددة نحو: محلّية النقل، وعدم وجود خطوات غير ضرورية للاشتقاق، إلخ. (المترجم)

(١٣) يصف تشومسكي اللغة بأنها "مُحكمة" perfect، لأن الملكة اللغوية محدَّدة ببعض الشروط العامة التي تُعقِّد مكانها داخل مجموعة الأنظمة المعرفية للذهن/الدماغ، وتحددها كذلك بعض الاعتبارات العامة للطبيعية التصورية التي تتصف ببعض معايير المعقولية المستقلة كالبساطة والاقتصاد والاتساق وعدم الزيادة unredundancy إلخ. وربما يكون هناك كلمة عربية أوفى لترجمة هذه الكلمة. (المترجم)

(١٤) يميز بين الفلسفة التحليلية والفلسفة التأليفية تبعًا لصياغة كانط بأن تصوُّر المحمول في القضية التحليلية proposition متضمَّن في تصوُّر الفاعل، ويمكننا من ثم الحكم على صدق القضية أو ربطها

بالتحليل. أما في القضية التأليفية فيضيف تصورُ المحمول شيئاً جديدًا لتصور الفاعل، أما صدق القضية أو زيفها فلا يمكن تحديدهما من خلال التحليل. (المترجم)

(١٥) تعني الشبكية الذهنية (أو الدلالية) أن ماهيةَ مضمون اعتقادٍ ما (أو معنى جملةٍ ما) يُحدَّد بالمكان الذي يشغله في شبكة من الاعتقادات التي تكوّن مجمل نظريةٍ ما أو مجموعة من النظريات. (المترجم)

(١٦) إشارة إلى التجربة الذهنية التي اقترحها الفيلسوف الأمريكي المعاصر هيلاري بتنام في مقاله (١٩٧٥). ويدعونا فيها إلى تصور وجود أرض أخرى تشبه أرضنا بدقة، من حيث المظاهر الفيزيائية والخصائص الأخرى جميعها. لكن سكان هذه الأرض التوأم يختلفون عنا في أفكارهم ومعتقداتهم، وغير ذلك. وسوف يعرض تشومسكي لمناقشة هذه الفكرة في بعض فصول الكتاب هنا، ويبين مآخذه عليها. (المترجم)

(١٧) العلم الشعبي هو أحد فروع البحث العلمي الطبيعي - الفهمَ البديهي - التي تهتم بالكيفية التي يؤوِّل بها الناسُ ثباتَ الموضوع، وطبيعة الحركة ومسبباتها، والفكر والفعل، كما يقول تشومسكي في الفصل السادس. (المترجم)

(١٨) العلم الاثني هو دراسة لـ "التفسير النصي البديهي للسلوك الإنساني"، كما يقول تشومسكي في الفصل السادس، نقلاً عن بيلجرامي. (المترجم)

مقدمة

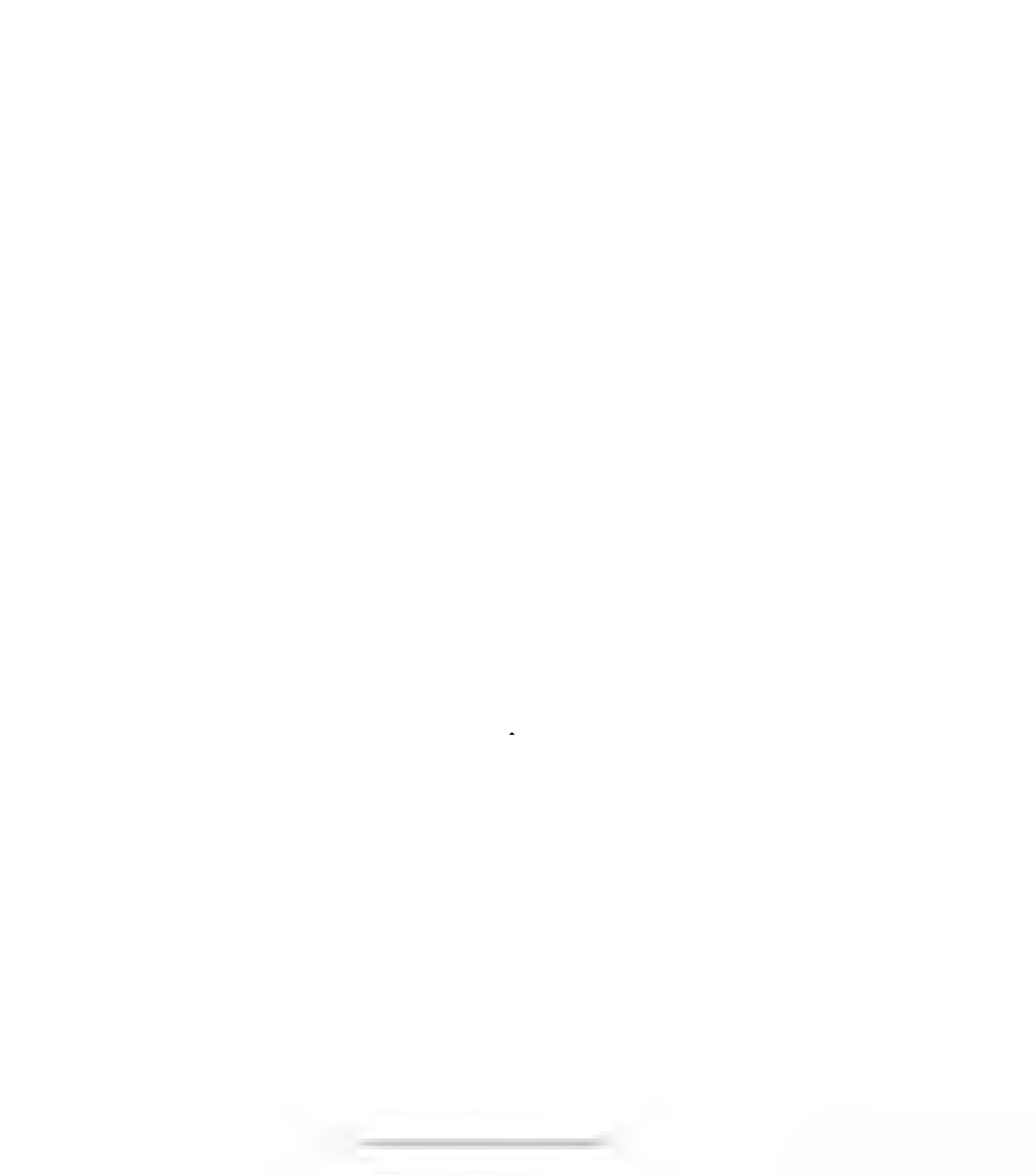
شهد النصف الثاني من [القرن العشرين] نشاطًا بحثيًا مكثفًا، كان أغلبُه مثمرًا جدًا في دراسة الملكات المعرفية البشرية، من حيث طبيعتها والطرق التي تدخل بها في الفعل والتأويل. ويتبنى هذا البحثُ عمومًا دعوى مفادُها "أنَّ الموضوعات الذهنية، بل الأذهان حقيقةً، خصائصُ ناشئة للأدمغة"، مع إدراكه أنّ "هذه الخصائص الناشئة. . . حصيلةٌ لعمل بعض المبادئ التي تحكم التفاعلات بين الأحداث في المستويات الدنيا – وهي مبادئ لم نفهمها بعدُ" (Mountcastle 1998:1). وتعبِّر كلمةُ "بعدُ" عن التفاؤل الذي ظل، خطأً أم صوابًا، ملازمًا للبحث طوال هذه الفترة.

وتبعث هذه الدعوى الحياة في اقتراحات القرن الثامن عشر التي قُدِّمت آنذاك لأسباب قوية جدًا؛ ومن أهمها النتيجةُ التي يبدو أن نيوتن قرَّرها، على الرغم من انزعاجه القوي منها، وهي "استحالةُ" أن يكون "علمُ الفيزياء ماديًا أو آليًا محضًا" (Koyré 1957, 210)؛ وكذلك المقتضيات التي تترتب على "اقتراح لوك" بأن الله ربما شاء أن "يضيف إلى المادة "قدرةً تفكير" مثلما "ألحق الآثارَ بالحركة التي لا يمكننا بحالٍ أن نتصور الحركة قادرةً على إحداثها" (Locke 1975: 541, Book IV, Chapter 3, Section 6). وتستحق هذه السوابقُ التي اقتُرحت في فجر العصر الحديث، والفكرُ الذي كان وراءها، اهتمامًا أعمق من الاهتمام الذي أُوليتُه من قبل، كما أظن. ومما يجدر ذكره كذلك أن قصور الفهم لـ "تفاعلِ الذهن/الدماغ" لم يكن الوجه الوحيد الذي كان التقدم فيه محدودًا منذ بدايات الثورات العلمية الحديثة. ذلك أنه على الرغم من تحقيق البحثِ في الملكات الذهنية العليا تقدمًا كبيرًا في بعض المجالات، فإن نتائجه لم تُلامِس القضايا التي كانت تؤخذ – بحق، في رأيي – على أنها تمثِّل جوهر المشكلة. وسوف أتناول بعضًا من هذه القضايا في الفصول التالية من هذا الكتاب.

وكانت دراسةُ اللغة إحدى المجالات التي تحقَّق فيها تقدمٌ كبيـر، فـي العشرين سنة الماضية خاصة. لكن الأسئلة التقليدية ظلت، هنا كذلك، علـى الأفق، هذا إن كانت هناك ابتداء. ويأخذ هذا البحث، كما أفهمه، أحد صـيغ الدعوى عن الذهن /الدماغ التي أوردتُها آنفًا أمرًا مسلّما (بصورة ضمنيّة في الغالب)، وهو الوجه الذي يمكن تأويلُه بصورة معقولة على أنه جزء من علم النفس أو جزء من علم الأحياء البشري، بصورة أعم. وقـد أطلـق بعـضُ الباحثين على هذا المنحى من البحث، بشكل مسوَّغ، مـصطلح "اللـسانيات الأحيائية" (Jenkins 1999). وهي تأخذ موضوعًا لها بعضَ الحالات المحدَّدة للناس، وهو ما يعنى غالبًا حالاتِ أدمغتِهم: ونُسمِّها بـ"الحالات اللغويـة". وتسعى إلى الكشف عن طبيعةِ هـذه الحـالات وخصائـصها، وتطوراتِهـا وأنواعها، والأسسِ التي تقوم عليها في الإعداد الأحيائي الفطري. ويبدو أن هذا الإعداد يُحدِّد "ملكةً لغوية" تتصف بأنها مكوِّنٌ فريدٌ من مكوِّنات الملكات الذهنية العليا (وربما يكون لعناصرها، بوصفها نظامًا، أنـواعٌ كثيـرة مـن الوظائف)، أي أنها "خصيصة مقصورة على النوع" ومشتركة بين بني البشر إلى حد بعيد، مع بعض التنوعات العامة لها. والملكة اللغوية تطوُّرٌ أحيـائي حديث جدًّا، وهي، على حد ما نعلم، قدرةٌ معزولة أحيائيًّا من حيـث بعـض المعايير المهمة. ويسعى البحث في اللسانيات الأحيائية إلـى توحيـدها مـع المقاربات البحثية الأخرى لخصائص الدماغ، مع الأمـل فـي أن تكتـسب الشَّرطةُ [/]، في عبارة "الذهن/الدماغ"، مـضمونًا أكثـر جوهريـة فـي المستقبل. ولا يقتصر اهتمامُها على طبيعة الحالات اللغوية وتطورها، بـل تهتم كذلك بالطرق التي تَدخل بها [هذه الحالات] في استخدام اللغة. ويَـشمل هذا الاهتمامُ من حيث المبدأ، وأحيانًا من حيث الواقع، علاقاتِ هذه الحالات بوسيط خارجي ما (كإنتاج الكلام وإدراكه)، والدورَ الذي تؤديه في التفكيـر والكلام عن العالَم والأفعال الأخرى التي يقوم بها الإنسان والتفاعلات بينها. وتوحي هذه المقاربة، كما يبدو لي، بأننا ربما نحتاج إلى قدر كبير من إعادة

التفكير، في بعض المجالات، ومنها على الأخص تلك التي تتصل بالإحالة والمعنى في اللغة الطبيعية، وذلك لأسباب ناقشتها في الفصول التالية.

ويجب بالطبع أن نبرهن على أن هذه المقاربة "العلمية الطبيعية" naturalistic طريق ملائم للبحث في ظواهر اللغة، واستخدامها. والدعوى الأكثر طموحًا أن هذه المقاربة قضيةٌ مسلَّمة (بصورة ضمنية في الأقل، وأحيانا برغم الإنكار الصريح لوجودها) في البحث البنّاء غالبًا في هذه المجالات، وأنّ شيئًا شبيهًا بها صحيح في دراسة الملكات المعرفية الأخرى. كما تجب البرهنة كذلك على أن أنواع النقد الموجَّهة لهذه المقاربة مضللة، ويشمل ذلك أنواع النقد الشائعة جدًا والمؤثِّرة. وهذا كله معقول جدًا، كما أظن. وتحاول الفصول التالية، التي كان أصلها محاضرات ألقيتها خلال السنوات القليلة الماضية، أن تقدِّم بعضَ الأسباب التي تقود إلى هذه النتائج، وأن ترسم بشكل أوَّلي بعض الاتجاهات التي تبدو لي ملائمةً وتستحق الاستقصاء.



الفصل الأول
آفاق جديدة في دراسة اللغة

تُعدّ دراسةُ اللغة واحدة من أقدم فروع الدراسة المنهجية، فقد بدأت عند الهنود واليونانيين القدماء، وشهد تاريخها كثيرًا من الإنجازات العميقة والمثمرة. لكنها من زاوية مختلفة، ما تزال حديثة جدًا؛ ذلك أن المشاريع البحثية الرئيسة السائدة اليوم لم تأخذ الشكل الذي هي عليه إلا منذ أربعين سنة تقريبا، حين بُعثت بعضُ الأفكار التقليدية الرئيسة ورُسِّخت، وهو ما فتح الطريق أمام ما يُبرهن على أنه دراسة مثمرة جدًا.

أما حظوة اللغة بمثل هذا الاهتمام عبر السنين فليست أمرًا مفاجئًا. إذ يبدو أن الملكة اللغوية البشرية "خصيصة مقصورة على النوع" حقيقةً، ولا يختلف البشرُ فيها إلا اختلافًا ضئيلا، وليس لها نظير مهمٌّ عند سواهم. وربما كان أقربُ النظائر لها ما نجده لدى الحشرات التي يفصلها عن البشر تاريخٌ تطوري يمتد لبليون سنة. وليس من سبب جوهري اليوم للاعتراض على وجهة النظر الديكارتية التي ترى أنَّ القدرة على استخدام الإشارات اللغوية للتعبير عن الأفكار التي تُكوَّن بصورة حرة هي ما يرسم "الفارق الحقيقي بين البشر والحيوان"، أو الآلة، سواء عنينا بـ "الآلة" تلك "الأتمتة" التي ألهبت خيال الناس في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، أم الآلات التي تحفز الفكر والخيال في الوقت الحاضر.

وتدخلُ الملكةُ اللغوية، زيادة على ذلك، بشكل جوهري في مظاهر الحياة كلها، وفي الفكر والتفاعل البشريين. وهي مسئولة بشكل كبير عن أن للبشر وحدهم في العالم الأحيائي تاريخًا وتطورًا ثقافيًا وتنوعًا لا حدود لتعقيده وغناه، بل هي مسئولة كذلك عن النجاح الأحيائي الذي حققوه بالمعنى التقني الذي يعني أن عددهم كبير جدًا. وربما لا يمكن لعالم من المريخ يلاحظ الأحداث الغريبة التي تحدث على الأرض ألا يُدهشه نشوءُ هذا الشكل

من التنظيم الفكرى الفريد الواضح وأهميته. بل إن الأمر الأكثر طبيعية أن يكون هذا الموضوع، بألغازه الكثيرة، مصدرًا لإثارة حب الاستطلاع عند أولئك الذين يسعون لفهم طبيعتهم هم ومكانهم فى العالم الأوسع [أى عند البشر].

وتقوم اللغةُ البشرية على خصيصة أوّلية، يبدو أنها بنفسها معزولة أحيائيًا، وهى "اللانهائية المتمايزة"، التى تتجلى فى أنقى أشكالها فى الأعداد الطبيعية، أى: ١، ٢، ٣، . . . . فالأطفال لا يتعلمون هذه الخصيصة؛ أما إن لم تكن المبادئ الأساسية [لهذه الخصيصة] موجودة بشكل مسبق فى الدماغ فلا يمكن لأى قدر من الأدلة أن يوفّرها. ولا يلزم أى طفل، كذلك، أن يتعلم أن هناك جملاً تتألف من ثلاث كلمات وجملاً من أربع، لكن ليس هناك جمل من ثلاث كلمات ونصف، وأنّ عدد الكلمات فى الجملة يمكن أن يتزايد بصورة غير نهائية؛ فمن الممكن دائمًا تكوين جملة أكثر تعقيدا، لها شكل ومعنى محددان. ويجب أن تكون مثل هذه المعرفة قد جاءت إلينا من "اليد الأصلية للطبيعة"، كما تقول عبارة ديفيد هيوم (1748/1975: 108 القسم ٨٥)، بصفتها جزءًا من إعدادنا الأحيائى.

وقد أدهشتْ هذه الخصيصةُ جاليليو الذى رأى أنّ اكتشاف طريقة نستطيع بها إيصال "أكثر أفكارنا سريّةً إلى أى شخص آخر باستخدام أربعة وعشرين شكلاً صغيرًا" (Galileo 1623/1661, end of the first day) أعظمُ الاكتشافات البشرية. وينجح هذا الاختراع؛ لأنه يُصوّر خصيصةَ اللانهائية المتمايزة للغة التى تُستخدم هذه الأشكالُ فى تمثيلها. وبعد ذلك بفترة وجيزة دُهش مؤلفو كتاب Port Royal Grammar بذلك "الاختراع الرائع" لوسيلة يمكن بها أن نكوّن من عددٍ قليل من الأصوات تعبيراتٍ غير نهائية تمكننا من أن نُطلع الآخرين على ما نفكر فيه وما نتخيله وما نشعر به — وليست هذه "اختراعًا" من وجهة نظر معاصرة، لكنها لا تقل "روعة" بوصفها ثمرة لعملية التطور الأحيائى، التى لا نكاد نعرف عن الدور الذى قامت به شيئًا، فى هذه الحالة.

ويمكن أن ننظر إلى الملكة اللغوية بشكل معقول على أنها "عضوُ اللغة" بالمعنى نفسه الذي يتحدث به العلماء عن نظام الإبصار، أو نظام المناعة، أو نظام الدورة الدموية بوصفها أنظمة للجسد. وإذا فهمنا العضو على هذا النحو فهو ليس شيئًا يمكن نزْعه من الجسد، في حين يُترك سائرُه كما هو. فهو نظام فرعي لبنية أكثر تعقيدًا. ونأمل أن نفهم التعقيدَ الكامل [لهذه البنية] بتقصّي أجزائها التي لها خصائص فارقة، وبتقصي تفاعلاتها. وتسير دراسة الملكة اللغوية بهذه الطريقة نفسها.

ونفترض كذلك أن عضو اللغة شأنه شأن الأعضاء الأخرى من حيث كون طبيعتها الأساسية تعبيرًا عن "المورِّثات". أما الكيفية التي يحدث بها هذا فستظل هدفًا بعيدًا للبحث العلمي، لكننا نستطيع أن ندرس "الحالة الأولى" للملكة اللغوية المحدَّدة وراثيًّا بطرق أخرى. فمن الواضح أنّ أي لغة محصّلةٌ للتفاعل بين عاملين هما: الحالة الأولى، ومسارُ التجربة. فيمكن أن ننظر إلى الحالة الأولى على أنها "جهازٌ لاكتساب اللغة" يأخذ التجربة "دخْلًا" ويُعطي اللغة "خرْجًا" ــ أي "خرْجًا" يمثَّل داخليًّا في الذهن/الدماغ. والدخْل والخرج كلاهما موضوعان للبحث: فيمكن أن ندرس مسار التجربة وخصائصَ اللغات التي اكتُسبت. ويمكن لما نتعلّمه بهذه الطريقة أن يكشف لنا الكثير عن الحالة الأولى التي تتوسط بين الاثنين.

وهناك سبب قوي – زيادة على ذلك – للاعتقاد بأنّ الحالة الأولى مشتركةٌ بين أفراد النوع [البشري]؛ فلو نشأ أطفالي في طوكيو لاكتسبوا اللغة اليابانية، شأنهم شأن الأطفال هناك. ويعني هذا أن للأدلة عن اليابانية صلةً مباشرة بالمسلَّمات عن الحالة الأولى للإنجليزية. ويمكن بهذه الطرق أن نضع شروطًا علمية اختبارية قوية يجب على نظرية الحالة الأولى أن تخضع لها، وأن نخلق مسائلَ عديدة لعلم الأحياء الخاص باللغة، مثل: كيف تحدِّد المورِّثاتُ الحالة الأولى، وما آليات الدماغ التي تدخل في الحالة الأولى والحالات التالية التي تتخذها؟ وهذه مشكلات صعبة جدًّا، حتى في الأنظمة

الأكثر بساطة حيث يكون التجريب المباشر ممكنا، لكن بعض هذه المشكلات ربما تقع على آفاق البحث.

وتهتم المقاربةُ التي بيَّنت خطوطها العامة هنا بالملكة اللغوية، أي: بحالتها الأولى، والحالات التالية التي تتخذها. افرض أن عضو اللغة عند بيتر كان في الحالة "ل" [من لغة]. ويمكن عندئذ أن نأخذ "ل" على أنها "اللغة التي استبطنها" بيتر. وهذا ما أعنيه حين أتحدث عن اللغة هنا. وإذا فهمت اللغةَ بهذه الكيفية فهي أشبه ما تكون بـ: "الطريقة التي نتكلم بها ونفهم"، وهي إحدى التصورات التقليدية لها.

وتسمى النظرية الخاصة بلغة "بيتر"، إذا استخدمنا مصطلحًا تقليديًا في إطار جديد، "نحو" لغته. وتحددُ لغةُ بيتر عددًا غير نهائي من التعبيرات، لكل منها صوتُه ومعناه. و"تولِّد" لغةُ بيتر، إذا استخدمنا المصطلحات التقنية، تعبيراتِ لغته. لذلك تسمى النظرية الخاصة بلغته "نحوًا توليديًا". وكلُّ تعبير منها مجموعٌ معقد من الخصائص يوفِّر "تعليمات" لأنظمة الأداء عنده، أي: لأعضاء نطقه، والطرقِ التي ينظِّم بها أفكاره، وهكذا. وإذا ما اتُّخذتْ لغة بيتر وأنظمةُ الأداء التي تتصل بها الأوضاع التي تكون عليها، فيعني هذا أنه يمتلك معرفةً واسعة جدًا بصوت تلك التعبيرات ومعناها، وقدرةً مماثلة لتأويل ما يَسمعه، والتعبيرِ عن آرائه، واستخدامِ لغته بطرق متنوعة كثيرة أخرى.

وقد نشأ النحوُ التوليدي في سياق ما يُسمى في أكثر الأحيان بـ "الثورة المعرفية" في خمسينيات [القرن العشرين]، وهو الذي كان عاملاً مهمًا في تطورها. وبغضِّ النظر عن إن كان مصطلح "الثورة" ملائمًا أم لا [عند إطلاقه على النحو التوليدي]، فقد كان هناك تغيُّر مهمٌّ في المنظور: إذ تحوّل الاهتمامُ من ملاحظة السلوك والنتائج المحصَّلة منه (كالنصوص)، إلى الآليات الداخلية التي تدخل في التفكير والعمل. فلا يأخذ المنظورُ المعرفي السلوك وما يَنتج عنه موضوعًا للدرس، بل مادةً أولية يمكن أن تقدم لنا أدلةً على آليات الذهن الداخلية والطرقِ التي تنفِّذ بها هذه الآلياتُ الأفعال وتؤول

بها التجربة. وما يزال هناك مكان للخصائص والأنماط التي كانت محلَّ اهتمام اللسانيات البنيوية، لكنْ بوصفها ظواهر ينبغي تفسيرُها مع ظواهر أخرى كثيرة، في ضوء الآليات الداخلية التي تولِّد التعبيرات. وهذه المقاربة "ذهنية"، لكنْ بمعنى ينبغي ألا يكون موضعًا لخلاف. فهي تهتم بـ "المظاهر الذهنية للعالم"، التي توجد جنبًا إلى جنب مع مظاهره الآلية والكيميائية والمغناطيسية optical، إلخ. وتسعى لأن تدرس موضوعًا واقعيًّا في العالم الطبيعي ــ كالدماغ وحالاته ووظائفه ــ وبهذا تدفع بدراسة الذهن نحو التوحيد مع العلوم الأحيائية في نهاية الأمر.

وقد جدَّدت "الثورةُ المعرفية" كثيرًا من الفهوم العميقة والإنجازات والطرق فيما يمكن أن يسمى بـ "الثورة المعرفية الأولى" في القرنين السابع عشر والثامن عشر وأعادت صياغتَها، وهي التي كانت جزءًا من الثورة العلمية التي غيَّرت فهمنا للكون بصورة جذرية. فقد أدرك الباحثون في تلك الفترة أنَّ اللغة تتميز بـ "استخدامٍ غير محدود لوسائل محدودة"، كما يقول وليم فون همبولت؛ لكنْ لم يكن لهذا الفهم العميق أن يتطور إلا بطرق محدودة، ذلك أن الأفكار الأساسية ظلت مشوشة وغامضة. أما في أواسط القرن العشرين فقد وفَّر التقدمُ في العلوم الصُّورية تصوراتٍ ملائمة بشكل محدَّد وواضح جدًّا، كما مكَّن، بشكل جزئي في الأقل، من إعطاء تفسيرٍ دقيق للمبادئ الحوسبية التي تولِّد التعبيرات اللغوية، ومن ثمَّ فهم فكرة "الاستخدام غير المحدود لوسائل محدودة". كما فتحت بعضُ أوجه التقدم الأخرى الطريق إلى دراسة القضايا التقليدية، مع قدر كبير من الأمل في النجاح. وحققت دراسةُ التغيُّر اللغوي إنجازاتٍ كبيرة. وقدَّمت الأنثربولوجيا اللغوية فهمًا أغنى لطبيعة اللغات وتنوعاتها، وهو ما زلزل كثيرًا من المقولات المقبولة. وكانت بعضُ الموضوعات، ومن أبرزها دراسةُ الأنظمة الصوتية، قد حققت تقدمًا كبيرًا في إطار اللسانيات البنيوية في القرن العشرين.

وسرعان ما كشفت المحاولاتُ المبكرة لتنفيذ برنامج النحو التوليدي أن كثيرًا من الخصائص [اللغوية] الأساسية لم تلاحظ حتى في اللغات التي

دُرِست بكثافة، ولأنّ أكثر الأنحاء التقليدية تفصيلاً وشمولاً والمعاجم التقليدية لم تتجاوز ظاهر اللغة. وظلت خصائصُ اللغة الأساسية معترَضة طوال تلك الفترة، لكنها لم تدرك ولم يعبَّر عنها. وهذا ملائم جدًّا إن كان الهدف من الدراسة مساعدة الناس على تعلُّم لغة ثانية، أو اكتشاف المعنى المتواضع عليه للكلمات أو الطريقة التي تُنطق بها أو تحصيلَ فكرة عامة عن الكيفية التي تختلف بها اللغات بعضها عن بعض. أما إن كان الهدفُ فهمَ الملكة اللغوية والحالات التي يمكن لها أن تتخذها فلا يمكن أن نفترض ضمنيًّا "ذكاء القارئ". بل إن هذا هو موضوع الدراسة، بدلاً من ذلك.

وتقود دراسةُ اكتساب اللغة إلى النتيجة نفسها؛ إذ سرعان ما تَكشف النظرةُ المتأنية لتأويل التعبيرات اللغوية أن الأطفال، منذ الأطوار المبكرة، يعرفون أكثرَ بكثير مما توفّره التجربة. ويصح هذا حتى في الكلمات البسيطة. فيكتسب الطفلُ الكلماتِ، في فترات ذروة نمو اللغة، بمعدّل كلمةٍ في الساعة، برغم التعرُّض المحدود جدًّا للغة وحدوثه في ظروف غامضة جدًا. وتُفهم الكلمات بطرق دقيقة ومتداخلة بعيدةٍ جدًّا عن متناول أي معجم، وهي طرق لم يُبدأ في دراستها إلا قريبًا جدًا. وحين نتخطى مستوى الكلمة الواحدة تُصبح النتيجةُ أكثرَ إثارة. فيبدو اكتسابُ اللغة قريبَ الشَّبه بنموّ الأعضاء عموما؛ فهو شيء يَحدث للطفل، لا شيء يُنجزه، ومع أنه لا جدال في أن البيئة مهمةٌ إلا أنّ المسار العامَّ للتطور والسمات الرئيسة لما يحدث محدَّدان بالحالة الأولى بشكل مسبق. لكن الحالة الأولى مشتركة بين الناس. لذلك يجب أن تكون اللغات، في خصائصها الأساسية بل في تفصيلاتها الدقيقة، مفصّلةً من قماش واحد. ويمكن للعالِم المريخي أن يستنتج بصورة معقولة أن هناك لغةً بشرية واحدة وحسب، مع بعض الاختلافات الهامشية.

ومع تطور الدرس المتأني للغات انطلاقًا من وجهة نظر النحو التوليدي، صار واضحًا أن تنوُّعها كان ضحيةً لبعضٍ متطرّفٍ يماثل التطرف في بحس تعقيدها وبخس مدى تحديدِ الحالةِ الأولى للملكة اللغوية. إلا أنه

نعرف، في الحين نفسه، أن هذا التنوع والتعقيد ليسا إلا مظهرًا سطحيا.

وكانت هذه النتائج مفاجئة، ومتعارضة لكن لا يمكن تكرانها. وقد أثارت بشكل صارخ ما صار قضيةً مركزية في الدراسة الحديثة للغة، أي: كيف يمكن أن نبيّن أن اللغات جميعها لا تعدو أن تكون تنوعات لشيء واحد، في الحين الذي نرصد فيه خصائصها الصوتية والدلالية المتشاكلة بصورة دقيقة، وهي التي تبدو مختلفة بشكل لا لبس فيه؟ ويوجب هذا أن تحقق النظريةُ الدقيقة عن اللغة البشرية شرطين اثنين، هما: "الكفاية الوصفية" و"الكفاية التفسيرية". فيجب أن يحقّق نحوُ لغة ما شرط الكفاية الوصفية ليُقدّم رصدا دقيقا كاملاً للخصائص التي يعرفها متكلمُ تلك اللغة. أما تحقيقُ شرط الكفاية التفسيرية فيوجب أن تبيّن أيةُ نظرية للغة كيف يمكن أن تُشتق أيةُ لغة من الحالة الأولى المتماثلة [عند البشر] تحت "شروط الحدود" التي تفرضها التجربة، وتوفر - بهذه الطريقة - تفسيرًا لخصائص اللغات في مستوى أكثر عمقا.

وهناك تجاذبٌ خطير بين هذين الهدفين للبحث. إذ يبدو أن البحث عن الكفاية الوصفية يقود إلى مزيد من التعقيد والتنوّع في أنظمة القواعد، في حين يتطلب البحثُ عن الكفاية التفسيرية وجوب أن تكون بنيةُ اللغة متجانسة، إلا في الهوامش. وهذا التجاذب هو ما يرسم الخطوطَ الموجّهة للبحث غالبا. وتتمثل الطريقةُ الطبيعية لحل هذا التجاذب في مساءلة الفرضية التقليدية، التي نُقلت إلى النحو التوليدي المبكِّر، وتقضي بأن اللغة نظامٌ معقد من القواعد، وأنّ كلّ واحد منها خاصٌ ببعض اللغات والتراكيب النحوية المعينة، كقواعد تكوين جُمل الصلة في اللغة الهندية، والعبارات الفعلية في السواحلية، والمبني للمجهول في اليابانية، وهكذا. أما اعتبارات الكفاية التفسيرية فتُبيِّن أن هذا المسار ليس صحيحا.

وكانت المسألة المركزية أن نجد الخصائص العامة لأنظمة القواعد التي يمكن عزوُها إلى الملكة اللغوية نفسها، مع الأمل في أن يبرهن ما فضل

عن ذلك أنه أكثر بساطة وتجانسًا. وقد تمثلت هذه الجهود، قبل خمس عشرة سنة تقريبا، في مقاربة للغة كانت مفارقتها للتقاليد البحثية القديمة تفوق في جذريتها مفارقة النحو التوليدي المبكر لتلك التقاليد؛ فقد رفضت هذه المقاربة التي سميت بـ "المبادئ والوسائط" تصورَ القاعدة والتركيب النحوي رفضًا تامًا: فليس هناك قواعد لتكوين جمل الصلة في اللغة الهندية، ولا عبارات فعلية في السواحلية، ولا مبني للمجهول في اليابانية، وهكذا. أما التراكيب النحوية المألوفة فنظر إليها على أنها مظاهر تصنيفية، ربما تكون مفيدة في الوصف العام لكنّ ليس لها أهمية نظرية. ذلك أن وضعها لا يبعد عن وضع أفكار مثل "الحيوانات الشبيهة الأرضية" أو "الحيوان المنزلي الأليف". ثم حُلّلت القواعدُ لتكون على صورة مبادئ عامة للملكة اللغوية، وهي المبادئ التي تتفاعل لتُنتج خصائصَ التعبيرات اللغوية.

ويمكن أن ننظر إلى الحالة الأولى للملكة اللغوية على أنها شبكةٌ قارّة موصولةٌ بلوح مفاتيح؛ وتتكون هذه الشبكة من مبادئ اللغة، أما المفاتيح فتمثّل الخيارات المعيَّنة التي تحدّدها التجربة. ونحصل حين توضع المفاتيحُ في وضع معين على اللغة السواحلية؛ ونحصل على اليابانية حين توضع بشكل آخر. ويُنظر إلى أية لغة بشرية على أنها وضعٌ معيَّن للمفاتيح ــ أي وضعٌ للوسائط، بالمصطلحات التقنية. وينبغي أن يكون باستطاعتنا على وجه الدقة، إن كان برنامج البحث ناجحا، أن نحصل على السواحلية من اختيارٍ معين للمفاتيح، واليابانية من وضع آخر لها، وهكذا عبْر اللغات التي يمكن للبشر اكتسابها. وتوجب الشروطُ الاختبارية على اكتساب اللغة أن يكون من الممكن وضعُ المفاتيح بناءً على ما يتوفر للطفل من معلومات محدودة جدًا. لاحظ أنه يمكن لبعض التغييرات البسيطة في وضع المفاتيح أن تقود إلى تنوعات هائلة ظاهريًا، تبعًا لتكاثر آثار هذا الوضع في تضاعيف النظام. هذه هي الخصائص العامة للغة التي يجب على أية نظرية حقيقية أن تتبنّاها بطريقة ما.

ولا يعدو هذا بالطبع أن يكون برنامجًا للبحث، فهو أبعد ما يكون عن كونه نتيجة ناجزة. وربما لا يمكن للنتائج التي تقترح مرحليًا أن تبقى على شكلها الحصري؛ بل ربما لا يمكن الاطمئنان إلى أن هذه المقاربة بأجمعها تسير في الطريق الصحيح. ومع هذا فقد حققت، بوصفها برنامج بحث، قدرًا عاليًا من النجاح، وقادت إلى توسع حقيقي في البحث الاختباري في لغات تنتمي إلى أسر لغوية متنوعة جدًا، وأثارت أسئلة جديدة لم يكن بالإمكان حتى صوغها من قبل، وإلى إجابات عميقة مدهشة كثيرة. واتخذت بعض القضايا، كاكتساب اللغة وتحليل الجمل وعلاج العيوب اللغوية وقضايا أخرى، أشكالا جديدة، وبرهنت على أنها أبحاث خصبة جدًا. ويوحي هذا البرنامج، زيادة على ذلك، بغض النظر عما سيئول إليه، بالكيفية التي يمكن بها أن تتوافق النظريةُ اللغوية مع الشرطين المتعارضين للكفاية الوصفية والكفاية التفسيرية. فهي ترسم في الأقل خطوطًا عريضة لأية نظرية حقيقية للغة، وهذا ما يحدث لأول مرة، حقيقة.

والمهمة الرئيسة، ضمن هذا البرنامج للبحث، أن نكتشف المبادئَ والوسائط والطريقةَ التي تتفاعل بها ونوضحها، وأن نوسع الإطار ليشمل بعض المظاهر الأخرى للغة واستخدامها. ومع أن قدرًا عظيمًا من المسائل ما يزال غامضا، إلا أنه قد تحقق ما يكفي من التقدم الذي جعلنا في الأقل قادرين على النظر في بعض القضايا الجديدة ذات المقتضيات البعيدة جدًا مما يتعلق بتصميم اللغة، وربما بدراستها. ويمكن أن نسأل، على الأخص: ما مدى جودة هذا التصميم؟ وما مدى قرب اللغة مما يمكن لمهندس ماهر جدًا أن يصممه، حين يأخذ في الحسبان الظروف التي يجب على الملكة اللغوية أن تتوافق معها؟

ويجب أن تصاغ هذه الأسئلة بصورة أكثر تحديدًا ووضوحا، وهناك عدد من الطرق للسير في هذا السبيل. فالملكة اللغوية مدمجة في البنية الأوسع للذهن/ الدماغ، وتتفاعل مع الأنظمة الأخرى التي تفرض شروطا

يجب على اللغة التوافق معها إن كان لها أن تكون صالحةً للاستخدام ابتداء ويمكن أن ننظر إلى هذه الشروط على أنها "شروط المقروئية" legibility conditions، بمعنى أنه يجب أن يكون باستطاعة الأنظمة الأخرى أن "تقرأ" تعبيرات اللغة وأن تستخدمها بوصفها "تعليمات" للفكر والعمل. فيجب مثلاً أن يكون باستطاعة الأنظمة العصبية الحركية قراءة التعليمات ذات الصلة بالصوت، أي "التمثيلات الصوتية" التي ولّدتها اللغة. ولأعضاء النطق والإدراك تصميمٌ محدّد يجعلها قادرة على تأويل بعض الخصائص الصوتية المحدّدة، لا خصائص أخرى. وبهذا تفرض هذه الأنظمةُ شروطًا للمقروئية على العمليات التوليدية للملكة اللغوية، وهي التي يجب أن توفّر للتعبيرات الصورةَ الصوتية الملائمة. ويَصح الأمرُ نفسه في الأنظمة التصورية والأنظمة الأخرى التي تعتمد على موارد الملكة اللغوية، فلهذه الأنظمة خصائصُ ذاتية توجب أن يكون للتعبيرات التي ولّدتها اللغةُ أنواعٌ محدّدة من "التمثيلات الدلالية"، لا تمثيلات أخرى. لهذا ربما نسأل عن الحد الذي تكون اللغةُ عنده "حلاً جيدًا" لشروط المقروئية التي تفرضها الأنظمةُ الخارجية التي تتفاعل معها. ولم يكن من الممكن لهذا السؤال، إلى وقت قريب جدًا، أن يُطرح بشكل جاد، أو أن يصاغ بطريقة معقولة كذلك. لكن يبدو الآن أن هذا ممكن، بل هناك ما يدل على أن الملكة اللغوية ربما تكون قريبة جدًا من أن تكون نظامًا "مُحكمًا" بهذا المعنى؛ وإذا كان هذا صحيحًا فهو نتيجة مفاجئة.

وما اصطُلح على تسميته بـ "برنامج الحد الأدنى" جُهدٌ موجَّهٌ نحو تقصّي هذه المسائل. ومن المبكر جدًا تقديم حكم نهائي على هذا المشروع. أما حكمي الخاص فهو أن من الممكن وضع هذه المسائل بشكل مثمر على جدول العمل، وأن نتائجها المبكرة واعدة. وأود هنا أن أتحدث باختصار عن هذه الأفكار والتطلعات، ثم أعود بعد ذلك إلى بعض القضايا التي ما تزال على الأفق.

فيوجب برنامجُ الحد الأدنى إخضاع الافتراضات التقليدية للتقصي المتأني. وأكثر هذه القضايا تبجيلاً أنّ للغة صوتًا ودلالةً، وتترجم هذه

العصبية، في المصطلحات الجديدة بشكل طبيعي، إلى الدعوى التي تقضي بأن الملكة اللغوية تلتقي بالأنظمة الأخرى للذهن/الدماغ عند "مستويين وجيهيَّين" interface levels [1] يتصل أحدهما بالصوت والآخر بالدلالة. فحوى أي تعبير معين ولَّدته اللغة تمثيلاً صوتيًّا يمكن أن "تقرأه" الأنظمةُ العصبية الحركية، وتمثيلاً دلاليًّا يمكن أن "يقرأه" النظامُ التصوري والأنظمة الأخرى للفكر والفعل.

وأحد الأسئلة السؤالُ عن إن كان هناك مستويات أخرى غير المستويين الوجيهيين هذين: أي هل هناك مستويات "داخلية" للغة، وعلى الخصوص، مستويا البنية السطحية والبنية العميقة اللذان افترضا في البحث المعاصر؟ (انظر، مثلاً: تشومسكي ١٩٦٥؛ ١٩٨١؛ ١٩٨٦). ويسعى برنامج الحد الأدنى لتبيين أنَّ كلَّ ما حُلّل بموجب تينك المستويين كان ضحية لخطأ في الوصف، ويمكن فهمه بشكل مماثل أو أفضل في ضوء شروط المقروئية في المستويين الوجيهيين: ويعني هذا، عند المطلعين على الأبحاث المتخصصة، مبدأ الإسقاط، ونظرية الربط، ونظرية الحالة الإعرابية، وشرط السلسلة، وغيرها.

ويحاول كذلك أن نبيِّن أنَّ العمليات الحوسبية الوحيدة هي تلك التي لا يمكن تجنبها في ضوء أضعف الافتراضات عن خصائص المستويين الوجيهيين، ومن هذه الافتراضات أن هناك وحدات شبيهة بالكلمة: أي أنه يجب على الأنظمة الخارجية أن تكون قادرة على تأويل وحدات مثل "بيتر" و"طويل". والافتراض الآخر أن هذه الوحدات منظَّمة في تعبيرات أكبر، كـ "بيتر طويل" Peter is tall. والافتراض الثالث أن لهذه الوحدات خصائص صوتية ودلالية: فتبدأ الكلمة "بيتر" Peter بإغلاق الشفتين وتُستخدم في الإحالة إلى أشخاص. لذلك تتضمن اللغةُ ثلاثة أنواع من العناصر:

* خصائص الصوت والمعنى، وتسمى بـ"السمات"؛
* وتُبنى الوحدات بجمع هذه الخصائص، وتسمى "الوحدات المعجمية"؛
* وتَركّب التعبيرات المعقدة بجمع هذه الوحدات "الذرية" بعضها إلى بعض.

ويترتَّب على هذا أن النظام الحوسبي الذي يولِّد التعبيرات يقوم بعمليتين: فتَجمع الأولى السماتِ في وحدات معجمية، وتكوِّن الثانيةُ وحداتٍ تركيبيةً أكبر بجمع تلك الوحداتَ التي سبق تركيبها، بدءًا بالوحداتُ المعجمية.

ويمكن أن نَنظر إلى العملية الأولى على أنها قائمةٌ بالوحدات المعجمية أساسًا. وتحوي هذه القائمةُ، أي المعجم ـ بالمصطلحات التقليدية، "الاستثناءات"، أي الارتباطات الاعتباطية بين الصوت والمعنى، والاختياراتِ المعيَّنة للخصائص التصريفية التي توفِّرها الملكة اللغوية التي تحدِّد للكيفية التي يمكن بها أن يعبِّر عن كَون الأسماء والأفعال مفردةً أو جمعًا، وأنَّ الأسماء يمكِن أن تَكون مرفوعة أو منصوبة، إلخ. ومن الواضح أن هذه السمات التصريفية تؤدي دورًا رئيسًا في الحوسبة.

ولن يُدخل التصميمُ الأمثل optimal أية سمات جديدة في أثناء الحوسبة. لذلك ينبغي ألا تكون هناك إشارات [تُعيِّن العلاقة بين الأسماء] indices ولا وحدات مركَّبة ولا مستويات بشَرْطة bar levels (ومن هنا ليس هناك قواعد للبنية المركَّبة أو نظرية "س ـ بشَرْطة"؛ انظر Chomsky 1995c)[٢]. كما نحاول أن نبيِّن أنه لا تَفرض أيةُ علاقات بنيوية عدا تلك التي تَفرضها شروطُ المقرونية أو تستدعيها بعضُ الطرق الطبيعية للحوسبة نفسها. ومن الصنف الأول خصائصُ مثل شرط التجاور adjacency في المستوى الصوتي، وعلاقات البنية الموضوعاتية argument – structure وعلاقات السوَّر بالمتغيِّر quantifier-variable في المستوى الدلالي. أما في الصنف الثاني فهناك بعض العلاقات المحلِّية المحض بين السمات، وبعض العلاقات الأوَّلية بين موضوعين تركيبيين يوصل أحدهما بالآخر في أثناء الحوسبة؛ فالعلاقة التي تقوم بين أحد هذين الموضوعين وبعض أجزاء الموضوع الآخر هي علاقةُ التحكُّم المكوِّني c- command؛ وكما أشار

صموئيل إيبستين (١٩٩٩) فهذه فكرة تؤدي دوراً رئيساً عبر تصميم اللغة كلّه. وكان يُنظر إليها على أنها غيُر طبيعية إلى حد بعيد، إلا أنها تجد مكانها بطريقة طبيعية من هذا المنظور. لكننا سنتخلص من "العمل" government وعلاقاتِ الربط الداخلية في اشتقاق التعبيرات، إضافةً إلى أنواع أخرى من العلاقات والتفاعلات.

وكما يعرف أي مطّلع على الأبحاث التي أُنجزت في الماضي القريب، هناك أدلةٌ اختبارية وافرة تدعم النتيجة المضادة لهذا كله، وأسوأ من هذا أنّ إحدى المسلّمات المركزية في البحث الذي أُنجز في إطار نظرية المبادئ والوسائط، والإنجازاتِ الباهرة إلى حد بعيد التي حققتْها، تقضي بأنّ كل ما اقترحتُه آنفاً زائف ـ وهو ما يعني أن اللغة "غير محكمة" إلى حد بعيد بهذه المعايير. كما يمكن أن يُتوقع؛ فليست مهمةً سهلة - إذن - أنْ نبيّن أنّه يمكن التخلص من هذه الوسائل التقنية بوصفها تقنيات وصفية غير مرغوبة؛ وربما أفضل من ذلك، أنّ القوة الوصفية والتفسيرية ستتعاظم إن تخلّصنا من هذا "الحمل الزائد". لكني أظن، مع ذلك، أن الجهود البحثية التي أُنجزت في السنوات القليلة الماضية توحي بأن هذه النتائج، التي كانت تبدو مستحيلة قبل ذلك، ممكنة في الأقل، بل ربما صحيحة.

ومن الجلي أن اللغات تختلف الواحدة منها عن الأخرى، ونحن نرغب أنْ نعرف كيف تختلف. وأحد المعايير التي تختلف فيها اللغات بعضها عن بعض اختيارتُها من الأصوات، وهي التي تتنوع تنوعا محدودا. والمعيار الثاني أنها تختلف من حيث الارتباط بين الصوت والمعنى، وهو ارتباط اعتباطي أسسا. وهذان المعياران واضحان، وينبغي ألا نتوقف عندهما كثيرا. وأكثر من ذلك لفتاً للنظر اختلافُ اللغات في الأنظمة الصرفية: كاختلافها في أنظمة الإعراب، مثلا. فهذه الأنظمة غنية جدًا في اللاتينية، وأغنى من ذلك في السنسكريتية أو الفينلندية، لكنها محدودة في الإنجليزية وخفيّة في الصينية. أو هكذا تبدو؛ وتوحي اعتباراتُ الكفاية التفسيرية أن

المظهر ربما يكون مضللاً هنا كذلك، بل تشير الأبحاث التي أُجريت في الماضي القريب (تشومسكي ١٩٩٥ج؛ ١٩٩٨) إلى أن هذه الأنظمة تتنوع بقدر أقل مما يوحي به الوضعُ الذي يبدو من الصيغ السطحية. فمن المحتمل مثلاً أن يكون نظامُ الحالة الإعرابية في الصينية والإنجليزية هو نفسه الذي في اللاتينية، لكنّ تحقُّقه الصوتي مختلف. كما يبدو، زيادة على ذلك، أن من الممكن اختزال أكثر مظاهر التنوع إلى خصائص الأنظمة التصريفية. وإذا كان هذا الأمر صحيحًا فتنوعُ اللغات موجود، إذن، في جزء ضيق من المعجم.

وتفرض شروطُ المقروئية تفريعًا ثلاثيًا للسمات التي تُجمع في الوحدات المعجمية:

* سمات دلالية، وتؤوّل عند المستوى الوجيهي الدلالي؛
* سمات صوتية، وتؤوّل عند المستوى الوجيهي الصوتي؛
* سمات لا تؤوّل عند أي من المستويين الوجيهيين.

وكلُّ سمة، في اللغة المصمَّمة تصميمًا محكمًا، إما دلالية أو صوتية، لا مجرد وسيلة لخلق موضع أو تسهيل حوسبة. وإذا كان الأمر كذلك، فلا وجود لأية سمات صُورية غير مؤوَّلة. وهذا متطلَّب قوي جدًّا، كما يبدو. لذلك ليس هناك تأويل لبعض السمات الصورية النمطية كالحالة الإعرابية البنيوية ـــ كالرفع والنصب في اللاتينية، مثلا ـــ في المستوى الوجيهي الدلالي، ولا حاجة للتعبير عنها في المستوى الصوتي كذلك، وهناك أمثلة أخرى في الأنظمة التصريفية.

ويبدو، في الحوسبة التركيبية، أن هناك مظهرًا ثانيًا من عدم الإحكام في تصميم اللغة أكثر إثارة، وهو مظهرٌ سطحي في الأقل، ذلك هو "خصيصة الإزاحة" وهي من أكثر مظاهر اللغة شيوعًا: تؤوّل بعض العبارات كما لو أنها تحتل موضعًا مختلفًا [عن الموضع الذي توجد فيه] في الجملة، حيث يمكن أن تظهر أحيانًا بعضُ العبارات المماثلة ثم تؤوّل في

ضوء العلاقات المحلية الطبيعية. انظر إلى الجملة التالية:

Clinton seems to have been elected.

"يبدو كلنتون كأنه انتُخب".

ونحن نفهم العلاقة بين elect "ينتخب" و Clinton بالطريقة التي نفهم بها هذه العلاقة حين نربط الكلمتان ارتباطًا محليًّا في الجملة التالية:

It seems that they elected Clinton.

"يبدو أنهم انتخبوا كلينتون".

فتعبير Clinton مفعول مباشر، بالمصطلحات التقليدية، للفعل elect "ينتخب"، إلا أنها "نُقلت" إلى موضع فاعل الفعل seems "يبدو"؛ ويتطابق الفاعل والفعل في السمات التصريفية في هذه الحالة، لكن ليس هناك علاقة دلالية بينهما؛ ذلك أنّ علاقة الفاعل الدلالية مع الفعل البعيد elect "ينتخب".

فلدينا الآن حالتان من "عدم الإحكام": السماتُ التي لا يمكن تأويلها، وخصيصةُ الإزاحة. ونتوقع، بحسب مسلَّمة التصميم الأمثل، أن يكون بينهما صلة، وهذه هي الحال كما يبدو، فالسمات التي لا يمكن تأويلها هي الآلية التي تُنفذ خصيصة الإزاحة.

ولم يسبق أن جُعلت خصيصةُ الإزاحة جزءًا لازمًا في الأنظمة الرمزية التي تصمَّم من أجل بعض الأغراض الخاصة، وتسمى "لغات"، أو "لغات صورية" بمعنى مجازي، كـ "لغات الرياضيات"، و"لغات الحاسوب"، و"لغات العلم". وليس لهذه الأنظمة أنظمةٌ تصريفية كذلك؛ لهذا ليس فيها سمات لا يمكن تأويلها. والإزاحة والتصريف خصيصتان مقصورتان على اللغة البشرية، من بين خصائص كثيرة لا يُلتفت إليها حين تُصمَّم الأنظمة الرمزية لأغراض أخرى، وهي التي يمكن أن تتغاضى عن شروط المقروئية التي تفرضها بيئةُ الذهن/الدماغ على اللغة البشرية.

وتُنفذ خصيصةُ الإزاحة في اللغة البشرية بمقتضى التحويلات النحوية أو بوسائل أخرى، لكنْ لا بد أن تُنفَّذ بطريقة ما دائمًا. أما السبب الذي يوجب

وجود هذه الخصيصة في اللغة فأمر لافت للنظر، وكان محلاً للنقاش منذ الستينيات ولم يتحقق أي اتفاق نهائي بشأنه. ويعود جزءٌ من السبب، كما أظن، إلى الظواهر التي كانت توصف في ضوء تأويل البنية السطحية؛ وكثير منها مألوف في النحو التقليدي، كالمبتدأ والخبر Topic-Comment، التخصيص specificity، والمعلومات الجديدة والقديمة، والقوة المنفِّذة agentive force التي نجدها حتى في الموضع المنقول إليه، إلخ. وإذا كان ذلك صحيحا، فخصيصة الإزاحة تفرضها شروطُ المقروئية: فالدافع لها هو المتطلبات التأويلية المفروضة من الخارج على أنظمة تفكيرنا، وهي التي تتصف بهذه الخصائص الخاصة (كما تبيّن ذلك دراسةُ استخدام اللغة). وتناقَش هذه المسائل الآن بطرق لافتة للنظر حقًا، وهو ما لا يمكنني الحديث عنه بالتفصيل هنا.

وقد افتُرِض، منذ البدايات الأولى للنحو التوليدي، أن العمليات الحوسبية نوعان:

* قواعد البنية المركَّبية تؤلّف من الوحدات المعجمية قِطعًا تركيبية أوسع.
* قواعد تحويلية تنفّذ خصيصةَ الإزاحة.

وللعمليتين كلتيهما جذور تقليدية، لكنّ سرعان ما اكتُشف أنهما تختلفان اختلافًا كبيرًا عما كان يُفترض من قبل، مع قدر واضح من التنوع والتعقيد. وقد سعى برنامج البحث ليبيّن أن التعقيد والتنوع عارضان وحسبُ، وأنه يمكن أن يُختزل نوعا القواعدِ إلى شكل واحد بسيط. فربما يكمن الحلُّ "المحكم" لمشكلة تنوع قواعد البنية المركبية في التخلي عنها تمامًا في صالح العملية التي لا يمكن اختزالها وتتمثل في أخْذ موضوعين سبق التأليف بينهما وربْط أحدهما بالآخر، مما يُنتج موضوعًا أكبر يتصف بالخصائص المقصورة على هدف ذلك الربط وحسب، ويمكن أن نسمي هذه العملية بـ "الدمج" Merge. ويشير البحث الذي أُنجز في السنوات القريبة الماضية أن هذا هدف يمكن تحقيقه.

وبتكون الإجراء الحوسبي الأمثل، إذن، من عملية "الدمج" والعمليات التي تسوغ خصيصة الإزاحة، أي: العمليات التحويلية أو عمليات أخرى تماثلها. وقد سعى المنحى الثاني من المشروعين المتوازيين لاختزال المكوّن التحولي إلى أبسط شكل؛ ولا يبدو أن من الممكن التخلي عنه، بعكس قواعد البنية المركبية. وكانت النتيجة النهائية دعوى مفادها أنه فيما يخص مجموعة مركزية من الظواهر، هناك عملية واحدة فقط هي "النقل" Move — وتعني أساسا، انقل أية وحدة إلى أي مكان، وهي لا تتصف بأية خصيصة مقصورة على لغات أو تراكيب معينة. أما كيفية انطباقها فتحددها مبادئ عامة تتفاعل مع بعض الاختيارات المحددة للوسائط — أي: وضع المفاتيح — الذي يحدد لغةً معينة. فتأخذ عمليةُ "الدمج" موضوعين متمايزين "س" و"ص" وتدمج "س" بـ "ص". وتأخذ العمليةُ "النقل" موضوعًا مفردًا "س" وموضوعًا آخر "ص" هو جزء من "س"، وتربط "ص" إلى "ص".

والمشكلة التالية أن نبيّن أن السمات التي لا يمكن تأويلها هي، حقًا، الآليةُ التي تنفّذ خصيصة الإزاحة، وهو ما يعني اختزال النوعين الأساسيين من "عدم الإحكام" في النظام الحوسبي إلى نوع واحد. وإذا تبيّن أنّ الدافع وراء خصيصة الإزاحة هو شروط المقروئية التي تفرضها الأنظمةُ الخارجية للتفكير، كما اقترحتُ آنفا، فيعني هذا أننا تخلصنا من أنواع "عدم الإحكام" كلّه وأن تصميم اللغة أمثلُ، في نهاية الأمر، ذلك أن الغرض من اشتراط وجود السمات غير المؤوّلة أن تكون آليةً لإرضاء شروط المقروئية التي يفرضها المعمار العام للذهن/الدماغ.

والطريقة التي يسير بها هذا التوحيد بسيطة جدًا، لكن تفسيرها بشكل متماسك سيأخذنا بعيدًا عن مدى هذه الملحوظات. والفكرة الحدسية الأساسية انه يجب أن تُحذف السماتُ التي لا يمكن تأويلها لإرضاء شرط المستوى الوجيهي، ويتطلب هذا الحذف علاقةً محلية بين السمة المخالفة offending وسمة أخرى مشابهة لها يمكن أن تحذفها. وهاتان السمتان في العادة

متباعدتان لأسباب تتعلق بالطريقة التي يعمل بها التأويل الدلالي. كما في الجملة:

Clinton seems to have been elected.

إذ يتطلب التمثيل الدلالي أن يكون الفعل elect "ينتخب" والاسم Clinton مرتبطين محليًا في العبارة: elect Clinton كي يؤول التركيب تأويلاً ملائما، كما لو أن الجملة في الواقع:

seems to have been elect Clinton.

ويظهر الفعل الرئيس في الجملة seems "يبدو" بسمات تصريفية لا يمكن تأويلها؛ فهو متصرف للمفرد الغائب، وهي خصائص لا تضيف شيئًا مستقلاً إلى معنى الجملة، ذلك أنها موجودة في العبارة الاسمية [كلينتون] التي تتطابق معها، ولا يمكن حذفها هناك. ويوجب هذا أن تُحذف هذه السمات المخالفة في الفعل seems حين يكون في علاقة محلية، وهذا شكل صريح لمقولة "التطابق" الوصفية التقليدية. ولإنجاز ذلك تجذب السماتُ المخالفة في الفعل الرئيس seems السماتِ المماثلة لها في العبارة المطابقة Clinton، ثم تُحذف بعد ذلك في ضوء التماثل المحلي. لكن العبارة Clinton نُقلت الآن.

لاحظ أن سمات "كلينتون" وحدها هي التي جُذبت؛ أما العبارة بكاملها فتنتقل لأسباب تتعلق بالنظام العصبي الحركي، الذي لا يمكنه أن "ينطق" أو "يسمع" السمات المفردة معزولةً عن العبارة التي تنتمي إليها. أما إذا لم ينشّط النظامُ العصبي الحركي – لأسباب معينة – فالسمات وحدها "تُرفَع"، ونحصل من ثَمّ، بالإضافة إلى جمل مثل:

an unpopular candidate seems to have been elected

"يبدو أنّ مرشحًا غير محبوب انتخب".

التي تعرّضت لـ "نقل" ظاهر، على جمل مثل الجملة التالية:

seems to have been elected an unpopular candidate.

"يبدو انتخب مرشح غير محبوب" [يبدو أنه انتخب مرشح غير محبوب].

وتتطابق العبارة البعيدة an unpopular candidate ، في هذه الجملــة، مع الفعل seems ، وهو ما يعني أن سمات هذه العبارة جُذبت إلـــى علاقــة محليــة مع الفعل seem أما سائر العبارة فتترك في مكانه. ويسمى عدم تنشيط النظام الحسي الحركي بـــ "الإزاحــــة الخفيـــة" covert movement ، وهـــي ظاهرة تتسم بخصائص لافتة للنظر. وتوجد مثل هذه الجمل في بعض اللغات ــ ومنها الإسبانية مثلا. وفي الإنجليزية كذلك، وإن كانت بعـضُ الأســباب الأخرى توجب إدخال عنصر فارغ دلاليًا هو there "هناك" لتحـــصل علـــى الجملة:

there seems to have been elected an unpopular candidate.

كما توجب أسبابٌ أخرى لافتة للنظر أن يُعكس الترتيب بين مكوّنـــات الجملة لتظهر على الشكل التالي:

there seems to have been an unpopular candidate elected

وتترتب هذه الخصائص على بعض الاختيارات المحددة للوســائط، وهي التي تُحدث بعض الآثار في اللغات عمومًا وتتفاعل لتعطي طيفًا معقدًا من الظواهر التي لا يتمايز بعضها عن بعض إلا ظاهريًا. ويمكن في الحالة التي نناقشها هنا اختزال الأمور كلها إلى حقيقة بسيطة تتمثل في أنه يجــب حذف السمات الصورية التي لا يمكن تأويلها؛ حين تكون في علاقة محلية مع علاقة مماثلة، مما ينشأ عنه خصيصةُ الإزاحة الضرورية للتمثيل الدلالي في المستوى الوجيهي.

وهناك قدر من الإجمال في هذا الوصف المختــصر. أمـــا التفــصيل الكامل فيكشف لنا عن صورة أكثر لفتًا للنظرِ، وتترتب عليهـــا مقتــضيات كثيرة في لغات مختلفة من حيث التصنيف النَّسبي. لكن الاستمرار في هـــذا سيأخذنا بعيدًا عما تتسع له هذه الملحوظات.

وأود أن أختم بإشارة مختصرة في الأقل إلى بعض القضايا الأخـــرى.

وهي قضايا تتعلق بالطرق التي تتصل بها الدراسة "الداخلية" internalist للغة بالعالم الخارجي. وللتبسيط دعنا لا نتجاوز الكلمات البسيطة. افرض أن الكلمة book "كتاب" تنتمي إلى معجم "بيتر". وتتألف هذه الكلمة من مجموع معقد من الخصائص، الصوتية والدلالية. فتستعمل الأنظمةُ الحسية الحركية الخصائص الصوتية من أجل النطق والإدراك، وتصلهما بالأحداث الخارجية، كحركات الجزيئات، مثلاً. وتستعمل الأنظمةُ الأخرى للذهن الخصائص الدلالية للكلمة حين يتكلم بيتر عن العالم، وحين يؤوِّل ما يقوله الآخرون عنه.

وليس هناك خلاف بعيد الأثر عن كيف نقارب الأمر على الجانب الصوتي، أما على جانب المعنى فهناك خلافات عميقة جدًا. فيبدو لي أن الدراسات الاختبارية تقارب قضايا المعنى بطريقة لا تبعد كثيرًا عن الطريقة التي تَدرس بها الصوت، كما في الصواتة وعلم الأصوات. فتبحث هذه الدراسات عن الخصائص الدلالية لكلمة book: أي كونها اسميّة لا فعلية، وتُستخدم في الإحالة إلى شيء مادي مصنوع لا إلى جوهر طبيعي كالماء أو إلى شيء مجرد كالصحة، إلخ. وربما صح لسائل أن يَسأل إن كانت هذه الخصائص جزءًا من معنى الكلمة book أم أنها جزء من التصوُّر الذي يرتبط بها؛ وليس هناك – في الفهم السائد الآن – طريقة معقولة للتمييز بين هذين الاقتراحين، لكن ربما أمكن في المستقبل اكتشاف أن هناك قضية اختبارية. وبغض النظر عن أي الاقتراحين تبنيناه فبعضُ السمات الداخلية للوحدة المعجمية book تحدِّد طريقةَ التأويل من النوع الذي أشرنا إليه هنا.

ونجد، حين نَستقصي استخدام اللغة، أن الكلمات تؤوَّل في ضوء عوامل كالتكوين المادي، والصياغة، والاستخدام المقصود أو المألوف عادة، والوظيفة المؤسَّسية، إلخ. فتُصنِّف الأشياء وتُعزَى إلى المقولات في ضوء هذه الخصائص ــ التي أعدُّها سمات دلالية ــ بشكل مماثل للسمات الصوتية التي تُحدِّد صوتَها. ويمكن لاستخدام اللغة أن يَتعامل مع هذه السمات الدلالية

بطرق شتى. افرض أن مكتبة تحوى نسختين من رواية تولستوى "الحرب والسلام"، ثم أخذ بيتر واحدة وجون الأخرى. فهل أخذ بيتر وجون الكتاب نفسه، أم أخذا كتابين مختلفين؟ فإذا وجّهنا اهتمامنا إلى العامل المادى لهذه الوحدة المعجمية فقد أخذا كتابين مختلفين؛ أما إذا وجهنا الاهتمام إلى العامل المجرّد فقد أخذا الكتاب نفسه. ويمكن أن نوجه الاهتمام إلى العاملين المادى والمجرد في وقت واحد، حين نقول، مثلاً:

The book that he is planning will weigh at least five pounds if he ever writes it.

"الكتاب الذى يخطّط لتأليفه سوف يزن خمسة أرطال فى الأقل إنْ ألّفه".

أو:

His book is in every store in the country

"يوجد كتابُه في كل دُور بيع الكتب فى البلاد".

ويمكن، بالمثل، أن نصبغ الباب بلون أبيض ثم نمشى عبْره، مستخدمين الضمير it "هو" فى الإشارة بشكل غامض إلى الباب نفسه أو إلى المدخل. ونستطيع أن نروى الخبر التالى:

The bank was blown up after it raised the interest rate.

"نُسِف المصرفُ بعد أن رفع نسبة الفائدة".

أو:

It raised the rate to keep from being blown up.

"رفع الفائدة خوفا من أن يُنسف".

ويمكن أن يؤوِّل الضمير it هنا و"المقولة الفارغة" التى هى فاعل عبارة being blown up بالعاملين المادى والمؤسسى، بشكل متزامن.

والحقائق عن مثل هذه الأمور واضحة في الغالب، لكنها ليست تافهة لهذا تحترم العناصرُ التي تعتمد بعضها على بعض إجماليًّا، حتى أكثرها تقييدا، بعض التمييزات وتتجاهل بعضها الآخر، بطرق تتنوع بحسب تنوُّع أنماط مختلفة من الكلمات بطرق لافتة للنظر. ويمكن أن ندرس هذه الخصائص بطرق كثيرة، كأن ندرسها من حيث الاكتساب اللغوي، والشيوع بين اللغات، والكلمات المصطنعة، إلخ. وما نكتشفه معقد بصورة مدهشة، ويُعرف، بصورة غير معاجَنة، بشكل سابق على أي دليل، ومن هنا فهو مشترك بين اللغات. وليس هناك ما يُلزمنا بأن نتوقع وجود مثل هذه الخصائص في اللغة البشرية؛ وربما تكون لغة سكان كوكب المريخ مختلفة. أما الأنظمة الرمزية للعلم والرياضيات فمختلفة بكل تأكيد. ولا يَعلم أحد إلى أي مدى تكون الخصائصُ المحدِّدة للغة البشرية نتيجةً لبعض القوانين الكيميائية الأحيائية العامة التي تنطبق على أشياء لها السمات العامة للدماغ، وهذه قضية مهمة أخرى ما تزال على أفق أبعد.

وقد طوَّرت إحدى مقاربات التأويل الدلالي بأشكال مماثلة لهذه في فلسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر بطرق لافتة للنظر، مستخدمةً في الغالب مبدأ هيوم الذي مفاده أن "الهوية التي نعزوها" إلى الأشياء "لا تعدو أن تكون خرافة" (Hume 1740: section 27)، ليبتدعها الفهمُ البشري. وهذه النتيجة التي وصل إليها هيوم معقولة جدًا. فلا يتضمن الكتاب الذي أمامي على المكتب هذه الخصائص الغريبة في ضوء تكوينه الداخلي؛ بل في ضوء الطرق التي يفكِّر بها الناس، ومعاني الكلمات التي يصوغون بها هذه الأفكار. فتستعمل الخصائصُ الدلالية للكلمات للتفكير في العالَم والكلام عنه في ضوء المنظورات التي توفرها مواردُ الذهن، بشكل لا يبعد كثيرا عن الطرق التي يَستخدمها التأويل الصوتي فيما يبدو.

أما الفلسفةُ المعاصرة للغة فتنتهج مسارًا مختلفا. فهي تسأل عن ما الذي تُحيل إليه الكلمة، وتقدِّم أجوبة متنوعة. لكنْ ليس هناك معنى واضح

لهذا السؤال. ومثال "الكتاب" نموذجي. فلا يعني شيئًا مهمًا أن تسأل عن ما الشيء الذي يُحيل إليه التعبير:

Tolstoy's ***War and Peace.***

«كتاب تولستوي "الحرب والسلام"».

حين يأخذ جون وبيتر نسختين متماثلتين من المكتبة. فتعتمد الإجابة على كيفية استخدام السمات الدلالية حين يفكر ويتكلم، بأي واحد من الطرفين. وعلى العموم، فلا تُعيّن كلمةٌ ما، حتى أبسط أنواع الكلمات، شيئًا معينًا في العالم، أو في "حيّزنا الاعتقادي". وتبدو الافتراضات المتواضع عليها عن هذه الأمور مشكوكًا فيها إلى حد بعيد.

وقد ذكرتُ أن النحو التوليدي المعاصر سعى لتناول الاهتمامات التي شغلت أنظار التوجهات التقليدية، ومنها على وجه الخصوص الفكرة الديكارتية التي معناها أن "الفارق الحقيقي" (Descartes 1649/1927 360) بين البشر والمخلوقات الأخرى أو الآلات هو قدرة البشر على التصرف بالطريقة التي يرون أوضح تمثيل لها في الاستخدام العادي للغة، الذي يتصف بأنه: لا تحدُّه حدود نهائية، وتؤثر فيه الحالة الداخلية، لكنها لا تحدده، ويتوافق مع المقامات من غير أن يكون نتيجة لها، ومتجانسٌ ويثير الأفكار التي ربما أمكن للسامع التعبير عنها، إلخ. ويتمثل هدف البحث الذي أناقشه هنا في أن نكتشف بعض العوامل التي تدخل في مثل هذه الممارسة المألوفة. ومع ذلك فهي "بعض" العوامل وحسب.

ويسعى النحو التوليدي إلى اكتشاف الآليات التي تُستخدم في هذه الممارسة، لذلك يسعى إلى الإسهام في دراسة "كيف" تُستخدم هذه الآليات بالطريقة الخلاقة للحياة العادية. أما كيف تُستخدم فقضيةٌ شغلت أنظار الديكارتيين، وهي التي ما تزال تمثل لغزًا لنا كما كانت لغزًا عندهم، ذلك مع أن فهمهم اليوم عن تلك الآليات التي تدخل في هذه الممارسة أكثر مما كانوا يفهمونه عنها.

وتشبه دراسةُ اللغة من هذا الوجه، مرة أخرى، دراسةَ الأعضاء الأخرى؛ فقد كشفت دراسةُ الأنظمة الإبصارية والحركية الآليات التي يؤوّل بها الدماغُ المثيرات المشتّتة على أنها مكعَّب والذراع التي تمتد لتُمسك بكتاب على المكتب. لكن فروع العلوم هذه لا تثير أسئلةً عن كيف يقرّر الناسُ النظر إلى كتاب على طاولة أو الإمساك به، وليس من فائدة، كذلك، للتخرصات عن استعمال الأنظمة الإبصارية والحركية، أو الأنظمة الأخرى. إن هذه القدرات، التي تتمثل بأجلى مظاهرها في استخدام اللغة، هي لُبّ الاهتمامات التقليدية: فهي عند ديكارت في الفترة المبكرة من القرن السابع عشر "أكثر الأشياء التي يمكن أن نمتلكها نُبلاً" وهي ما "نمتلكه حقًّا". كما لاحظ الفيلسوف الطبيب الإسباني خوان هوارتي، قبل نصف قرن من ديكارت، أن هذه "الملكة التوليدية" للفهم والفعل البشريين العاديين غريبةٌ عند "الوحوش والنباتات" (Huarte 1575/ 3 .1698؛ انظر كذلك Chomsky 1966: 78 الهامش) مع أنها شكل متواضع من الفهم يقصُر عن الممارسة الحقيقية للخيال الخلاق. بل إن هذا الشكل المتواضع نفسه يقع خارج قدرتنا التنظيرية، إذا استثنينا دراسة الآليات التي تَدخل فيها.

وقد تعلّمنا في السنوات القليلة الماضية، في عدد من المجالات، ومن بينها اللغة، الكثيرَ عن هذه الآليات. والمشكلاتُ التي يمكننا الآن أن نواجهها صعبةٌ ومتحدِّية، لكن كثيرًا من الألغاز ما تزال بعيدة عن متناول شكل التقصي البشري الذي نسميه "علْمًا"، وهذه نتيجة ينبغي ألا تفجعَنا إن نظرنا إلى البشر على أنهم جزء من العالم العضوي، وربما ينبغي ألا نجدها مُحبِطة كذلك.

هوامش الفصل الأول

(١) والمصطلح interface مأخوذ من لغة الحاسوب، ويعني الحدّ المشترك بين نظامين مختلفين. ويعرّف محمد غاليم هذه القوالب "الوجيهية" بأنها ". هي التي تضمن التواصل بين مستويات الترميز عن طريق ترجمة جزئية للمعلومات من صورتها في مستوى معين إلى صورة موافقة في مستوى آخر، أو أن القالب الوجيهي يقيم تشاكلا جزئيًا بين مستويين للمعلومات. فتصبح ملكة مثل ملكة اللغة قائمة على تفاعل عدد من القوالب التمثيلية والقوالب الوجيهية" (محمد غاليم. المعنى والتوافق: مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي. ص ٤٢٩). (المترجم)

(٢) انظر مقدمة المترجم عن هذه المصطلحات والمصطلحات الأخرى التي ترد في الكتاب. (المترجم)



الفصل الثاني
تفسير استخدام اللغة

يُجادل هيلاري بتنام، في [سلسلة المحاضرات التي ألقاها بعنوان] "محاضرات جون لوك"، "أنّ بعض القدرات البشرية ــ والمثال النموذجي لها "تكلّمُ اللغة" ــ ربما يتعذّر تفسيرها نظريًّا حين تؤخذ متفردةً"، إلا إن أُخذت ضمن نموذج كامل "للتنظيم الوظيفي البشري" الذي ربما "يستعصي على فهم البشري حين يُبيّن بأي قدر من التفصيل". وتكمن المشكلةُ في أننا لن نستطيع، واقعيًا، الظفر بنموذج تفسيري مفصّل للنوع الطبيعي natural kind "بشر"، لا بسبب "التعقيد وحسب"، بل "لأننا محجوبون جزئيًا عن أنفسنا، أي أنه يتعذر أن يفهم أحدنا الآخرَ بالطريقة التي نفهم بها ذرات الهايدروجين". وهذه "حقيقة تكوينية" عن "البشر في الفترة الحاضرة"، مع احتمال ألا تكون كذلك بعد مئات قليلة من السنين (Putnam 1978).

يتطلب "النوعان الطبيعيان": "بشر" و"ذرة الهايدروجين"، إذن، نوعين مختلفين من البحث، يقود أحدهما إلى "نماذج تفسيرية مفصّلة"، أما الآخر فلا، في الوقت الحاضر في الأقل. والصنف الأول "بحث علمي"، نسعى عن طريقه إلى الوصول إلى نظريات تفسيرية يمكن فهمها ونتطلع إلى دمجه في نهاية الأمر بالعلوم الطبيعية الصِّرفة؛ ولنسمِّ هذا المنحى من البحث بـ "البحث العلمي الطبيعي"، مركّزين على ما لهذا النشاط من خصائص وأهداف معقولة، بمعزل عن الإنجازات العملية التي حققها. ويقع وراء ما يمكن أن يشمله "التنظيمُ الوظيفي البشري" الكاملُ قضايا تتعلق بالمدى الذي يصل إليه. وليس هذا المدى موضوعًا جادًّا للبحث العلمي الطبيعي (في الوقت الراهن) فهو أكثر شبهًا بـ "دراسة كل شيء"؛ إذ يُشبه محاولات الإجابة عن أسئلة واسعة مثل: "كيف تعمل الأشياء؟" أو "لماذا تحدث؟" ويمكن الادعاء بأن أسئلة كثيرة ــ ومنها بعضُ الأسئلة المهمة جدًّا للبشر ــ لا تدخل في إطار البحث

العلمي الطبيعي؛ وهو ما يجعلنا نقاربها بطرق أخرى. وليست هذه الفوارق صارمة، كما يؤكد بتنام، لكنها مفيدة، مع ذلك.

ويضيف بتنام، في نقاش نقدي للنزعة الذهنية المُحْكَمة من النوع الذي يُنتج في جامعة إم. آي. تي" (ويمثلها كتاب جيري فودر: "لغة التفكير"، Fodor 1975، تحديدا) بعضَ الملحوظات المتمِّمة عن البحث النظري الذي ربما "لن" يساعدنا في تفسير تكلُّم اللغة. ومنها احتمالُ اكتشاف العلوم المتخصصة في دراسة الدماغ أنه حين "تفكِّر بالكلمة cat "قطة"" (أو حين يفكِّر متكلمُ اللغة التايلندية بما يقابلها) تتكوّن الصورة C [الصوت الذي تبدأ به كلمة Cat] في الدماغ. ويخلُص إلى القول بـ "أن هذا شيء مثير إن كان صحيحا"، بل ربما يكون إضافةً مهمّةً لعلم النفس وعلوم الدماغ، "لكنْ ما الصلة بين هذا و"معنى قطة"" (أو ما يناظرها في اللغة التايلندية، أو الصوت C)؟ — ومقتضى قوله أنْ ليس هناك صلة (Putnam 1988a).

فلدينا الآن دعويان مترابطتان. الأولى: أنَّ "تكلُّمَ اللغة" والقدرات البشرية الأخرى لا تدخل في الوقت الراهن في البحث العلمي الطبيعي. والثانية: أنه ليس هناك ما يُمكن أن نتعلّمه عن المعنى (وهو ما يعني أنه لا يمكن أن نتعلّم شيئًا عن أحد المظاهر الأساسية لتكلُّم اللغة) من دراسة التكوينات في الدماغ والعملياتِ التي يعدّها (من النوع الذي تكلّم عنه، في الأقل). ويبدو لي أن تعبيره عن النتيجة الأولى ليس كافيًا ولم يَصغها بشكل ملائم؛ أما الثانية فقوية جدا. فدعنا نتفحّصهما بالترتيب.

والتصوُّر "بشر" جزء من فهمنا البديهي، وله خصائص مثل: الفرادة، والثبات النفسي، إلخ، مما يُصوِّر بعض اهتمامات البشر المعينة، وتوجهاتهم، ومنظوراتهم. والشيء نفسُه صحيح عن تصوُّر "تكلُّم اللغة". ولن تدخل مثل هذه التصورات، إذا غضضنا النظر عن الصُّدَف غير المتوقَّعة، ضمن النظريات التفسيرية التي تنتمي إلى البحث العلمي الطبيعي؛ ليس الآن وحسب، بل إلى الأبد. ولا يعود ذلك لبعض الموانع الثقافية أو حتى لأنواع

التصور البشري الدلالية (مع أن مثل هذه موجودة فعلا)، بل لطبيعتها. وربما يمكن أن نقول أشياء كثيرة عن الناس، حين نتصورهم بهذا الشكل؛ بل أن يأتي كذلك ببعض التعليلات التي تقدّم بعض التفسيرات الصحيحة. لكن لا يمكن لمثل هذه التعليلات أن تندمج في العلوم الطبيعية إلى جانب النماذج التفسيرية لذرات الهايدروجين، والخلايا، أو الوحدات الأخرى التي تعترضها في سعينا نحو صياغة نموذج تفسيري متماسك معقول ينتمي إلى التفسيرات العلمية الطبيعية. ومن هنا ليس هناك سبب لافتراض وجود "النوع الطبيعي 'بشر'"؛ إن كانت الأنواع الطبيعية أنواعًا موجودة في الطبيعة، في الأقل، أي تلك الأصناف التي نكتشفها عن طريق البحث العلمي الطبيعي.

وليس السؤال عن إن كان من الممكن أن تُدرس تصورات الفهم البديهي نفسها في فرع من فروع البحث العلمي الطبيعي؛ فربما يكون ذلك ممكنا. بل السؤال عن إن كنا ننظر إلى العالم الطبيعي حين ندرسه (وفي دراستنا لهذه التصورات بوصفها جزءًا من العالم الطبيعي كذلك) من الزاوية التي توفّرها لنا مثلُ هذه التصورات. والأمر ليس كذلك بالتأكيد. فربما يكون هناك دراساتٌ علمية لبعض مظاهر ماهية الناس وما يفعلونه، لكنها لن تستخدم الفكرتين البديهيتين "بشر" أو "تكلُّم اللغة" في صياغتها لمبادئها التفسيرية ـــ بما لهما من دور خاص في حياة البشر وفكرهم.

والشيء نفسه صحيح عن التصورات البديهية عموما. فلا تلائم بعضُ الأفكار كـ"مكتب" أو "كتاب" أو "بيت"، ناهيك عن معظم الأفكار الأكثر "تجريدا"، البحث العلمي الطبيعي؛ ذلك أنّ وصف شيء ما وصفًا ملائمًا بأنه "مكتب"، بدلا من كونه "طاولة" أو "سريرًا صلبًا"، يعتمد على قصد مصممه وعلى الطرق التي "نقصد"، نحن والآخرون، أن نستعمله بها، من بين عوامل أخرى. فالكتب أشياء مادية. ويمكن أن نحيل إليها على أنها كذلك بجمل مثل:

The book weighs five bounds.

"يزن الكتاب خمسة أرطال".

أو نتكلم عنه من منظور تجريدي:

Who wrote the book?

"من ألّف الكتاب؟"

و:

He wrote the book in his head, but then forgot about it.

"ألف الكتاب في ذهنه، لكنه تخلى عنه".

أو من المنظورين كليهما في وقت واحد:

The book he wrote weighed five bounds.

"يزن الكتابُ الذي ألفه خمسة أرطال".

و:

the book he is writing will weigh at least five pounds if it is ever published.

"سوف يزن الكتاب الذي يؤلفه الآن خمسة أرطال في الأقل إن نُشر".

وإذا قلت:

That deck of cards, which is missing a Queen, is too worn to use.

"تلك المجموعة من ورق اللعب، التي فُقدت منها "الملكة"، بالية جـداً حتى إنها لا تصلح للاستعمال".

فستؤخذ هذه المجموعة في آن واحد على أنها مجموعة معيبة وأنهـا "شيء مادي" غريب مشتت، ومن المؤكد أنهـا ليسـت مجمـوع أعـدادها. ونستعمل الكلمة house "بيت" في الإحالة إلى أشياء محسوسة، انطلاقا مـن منظور الاهتمامات البشرية والأهداف الخاصة مع بعض الخصائص اللافتة للنظر. فيمكن أن يُدمَّر "بيت" ويُبنى، شأنه شأن مدينة؛ فيمكن أن تُدمَّر مدينة لندن تدميراً كاملاً ثم يُعاد بناؤها على ضفة نهر التيمز بعد ألف سنة لكنهـا

ستظل هي لندن، تحت ظروف معينة. ومن الصعب أن نتخيل كيف يمكن لهذه الأمثلة أن تكون تصورات ملائمة للدراسة النظرية للأشياء والأحداث والعمليات في العالم الطبيعي. ولا خلاف على أن الأمر نفسه صحيح عن أفكار مثل "مادة" و"حركة" و"طاقة" و"عمل" و"سائل"، وغيرها من الأفكار البديهية التي يُتخلَّى عنها حين يقام بالبحث العلمي الطبيعي؛ فحين يسأل عالم فيزياء إن كان "كوم" من الرمل جمادًا، أو سائلاً، أو غازًا ــ أو نوعًا آخر من المادة ــ فهو لا يُضيع وقته في السؤال عن كيفية استخدام هذه الكلمات في الخطاب العادي، ولن يتوقع أن تكون للإجابة عن السؤال الأخير علاقة بالأنواع الطبيعية، إن كانت هذه أنواعًا في الطبيعة (Jaeger and Nagel 1992).

ولا يبدو المعقول أنْ نتوقع أنَّ هذا الأمر سيكون صحيحًا عن أفكار مثل "اعتقد" و"رغبة" و"معنى" و"صوت" الكلمات، و"قصد"، إلخ، بقدر ما تكون مظاهرُ الفكر والفعل البشريين صالحةً لتكون موضوعًا للبحث العلمي الطبيعي. ويبدو أنَّ كون المرء "يقول بواقعية القصد" Intentional Realist يكاد يستوي في معقوليته كونه "يقول بواقعية المكتب"، أو "يقول بواقعية صوت اللغة" أو "يقول بواقعية القطة" أو "يقول بواقعية المادة"؛ ليس لأنه لا توجد أشياء مثل "مكاتب"، إلخ، بل لأن الأشياء، في المجال الذي تثار فيه أسئلة "الواقعية" بشكل جدّي، أي في سياق البحثِ عن قوانين الطبيعة، لا تُتصور اعتمادًا على المنظورات الغريبة التي توفرها تصوراتُ البديهة. ومن الآراء الشائعة جدًا أنه "يجب أن يتخلى الكلام ذو النزعة الذهنية والوحدات الذهنية عن مكانها في نهاية الأمر في محاولاتنا وصف العالم وتفسيره" (Burge 1992). وهذا صحيح إلى حد بعيد، لكنّه يصعب أن نرى كيف يكون هذا الموقف مهمًا، إذ لا خلاف على أن الشيء نفسه صحيح عن "النقاش الفيزيائي والوحدات الفيزيائية" (بقدر ما يكون التمييز بين "ذهني" و"فيزيائي" مفهومًا).

بل إنّ بعض الأفكار المعقدة كـ "الفاعلية البشرية" human agency لتدخل بشكل جوهري حتى في أكثر الأفكار أوّلية كـ "الشيء القابل للتسمية"،

ذلك أنّ ما ننظر إليه على أنه "أشياء"، والكيفية التى نحيل بها إليها وكيفية وصفنا لها، وأنواع الخصائص التى نسبغها عليها، تعتمد كلُّها على الموقع الذى نحتلّه فى مصفوفة الفعل البشرى والاهتمامات والمقاصد البشرية فى ضوء معايير تقع بعيدًا وراء المدى المحتمل للبحث العلمى الطبيعى. كما يمكن لكلمات اللغة أن تُعيِّن مواضع معينة فى أنظمة الاعتقاد، وهو ما يُضفى مزيدًا من المعنى على المنظورات التى توفِّرها هذه الكلمات من أجل النظر إلى العالم، وإنّ بطرق لا تلائم أهداف البحث العلمى الطبيعى. وربما لا يمكن لبعض الكلمات ــ خاصةً ما يفتقر منها إلى "البنية العلائقية الداخلية" internal relational structure (ومن أبرزها ما يُطلق عليه: "مصطلحات الأنواع الطبيعية") ــ أن تفعل أكثر من ذلك، بقدر ما يتعلق الأمر بمعجم اللغة الطبيعية. (انظر، من بين آخرين، Moravcsik 1975، Chomsky 1975b، Moravcsik 1990، Bromberger 1992a). وأعنى بـ "البنية العلائقية الداخلية" الخصائص الانتقائية selectional properties لكلمات مثل "أعطى" (التى تأخذ فاعلاً منفذًا، ومفعولاً محورًا theme ومفعولاً غير مباشر هدفا)، وهى خصائص لا تتوفر فى كلمات مثل "قطة" و"سائل"، وغيرهما؛ فلا تبلغ تصوراتُ اللغة الطبيعية – والتصوراتُ البديهية عمومًا – حتى أن تكون موضوعًا مرشحًا للنظريات العلمية الطبيعية.

ويوسِّع بتنام نتائجه لتشمل دعوى برينتانو Brentano التى مفادها أن "القصديَّة لن يمكن اختزالها ولن تختفى"[1]، فيقول: إنه "ليس هناك خصيصة يمكن وصفها علميًّا تشترك فيها الحالاتُ كلُّها لأية ظاهرة قصدية معينة" (كالتفكير فى القطط، مثلا) (Putnam 1988a). ذلك أن الظواهر القصدية، على وجه أعم، تتعلق بالناس وبما يفعلونه حين يُنظَر إليها من زاوية الاهتمامات البشرية والتفكير العفوى، لهذا لن تقع (إذا نُظر إليها هكذا) ضمن النظرية العلمية الطبيعية التى تسعى إلى تنحية مثل هذه العوامل جانبا. ويمكن أن ترتبط "إحدى الظواهر القصدية المحدَّدة" بمنطقة المطابقة فى

فضاء معقد جدًا ومتحوّل للشئون والاهتمامات البشرية"، شأنها شأن الأجساد التي تهوى إلى أسفل أو السماء أو السوائل. لكنها ليست تصورات ملائمة للبحث العلمي الطبيعي.

ويمكن أن نفترض أن إحدى مكوّنات الذهن (سمّها "ملكة صياغة العلم"، إن شئنا الجهل بلقب) تدخل في البحث العلمي الطبيعي، بالطريقة نفسها تقريبًا التي تدخل بها الملكةُ اللغوية (التي نعرف عنها قدرًا لا بأس به) في اكتساب اللغة واستخدامها. وما تنتجه ملكةُ صياغة العلم شذراتٌ من الفهم النظري، أي نظريات علمية طبيعية على درجات متفاوتة من القوة والمعقولية تتضمن بعض التصورات التي تصاغ ويُسبغ عليها معنى بطريقة منضبطة ومحدّدة، قدر الإمكان، مع النية في صقلها أو، إن تعذر ذلك، تعديلها كلما حققنا مزيدًا من الفهم. وتنتج ملكاتُ الذهن الأخرى تصورات الفهم البديهي، وهي التي تدخل في دلالة اللغة الطبيعية وأنظمة الاعتقاد. و"تنمو [هذه الملكات] في الذهن" بشكل لا يبعد كثيرًا عن الطريقة التي ينمو بها الجنين كي يصير شخصًا، أما السؤال عن درجة الدقة التي تكون عليها هذه الفوارق [بين الملكات] فربما كان سؤالاً مفتوحًا، لكنها تبدو واقعية، مع ذلك.

وهناك تشابه أحيانًا بين التصورات التي تنشأ بهذه الطرق المختلفة؛ إذ ربما أمكن للبحث العلمي الطبيعي أن يصوغ نظيرًا للفكرة البديهية "بشر"، مثلما يشبه الرمزُ الكيميائي H_2O تقريبًا "ماء" (وإن كانت "أرض" و"هواء" و"نار"، التي كانت تصنّف مع الماء عند القدماء، ليس لها مثل هذه النظائر). ومن المعلوم أنه لا يترتب على أي تشابه مع الأفكار البديهية أيةُ مقتضيات للعلم. فليس مطلوبًا من الكيمياء الأحيائية، مثلاً، أن تحدّد النقطة التي توجد عندها "جوهر الحياة" essence of life، في سلّم الانتقال من الغازات البسيطة إلى البكتيريا؛ أما إن فرض مثل هذا التصنيف عليها فلن يكون التشابه بينها وبين فكرة بديهية ما أكثرَ من التشابه في حالة أشياء كـ "جوار" (المكاني)، أو "طاقة"، أو "سمك".

ولا يُعنى البحثُ في نفسية الأحياء العضوية وبنيتها الأحيائية، كـذلك، بتناول بعض الأفكار التقنية في الخطـاب الفلـسفي، كمفهـوم "المـضمون الإدراكي"، بخصائصه المعترضة (ويعزى أحيانًا بشكل مشكوك فيه إلى "علم النفس الشعبي"، وهو مصطلح يبدو أنه مشتق جزئيًا من الأعـراف الثقافيـة الضيقة وتقاليد الخطاب الأكاديمي). ولا يلزم هذين النوعين مـن البحـث، كذلك، أن يُحدّدا وصفًا خاصًا "للإدراك الحقيقي" veridical perception تحت الشروط "العادية". لهذا فليس من المهمّ، في دراسة تحديد البنية مـن خـلال الحركة، إن كان الحدثُ الخارجي الذي أنتج التجربة البصرية لمكعب يتأرجح في الفضاء حزمةً من الأشعة الواضحة المتتالية تسقط على شاشـة عَـرْض tachistoscope، أو مكعبًا فعليًا يتـأرجح، أو حفـزًا للـشبكة البـصرية، أو للعصب البصري، أو للقشرة المخية البصرية. فـتُعنى الدراسةُ الموسـسية، في أية حال، بطبيعة التمثيلات الداخلية التـي يَـستخدمها نظـامُ الإبـصار والعمليات التي تشتق بها" (Ullman 1979: 3)، كمـا تفعـل ذلـك دراسـة الخوارزميات والآليات في هذا البحث وغيره بالطرق التي رادها ديفيد مـار (David Marr, 1982). وليس مهمًا كذلك إن كان الناسُ يقبلون حالاتِ الرؤية غير الحقيقية على أنها "رؤيةُ مكعب" (إذا أخذنا كلمة "رؤية" لتعني المـرور بتجربة، سواء أكانت "وهمية" أم حقيقية)؛ أو إن عُنـي البحـثُ باهتمامـات النظرية القلمية الخاصة بالعزو القصدي أم لا. ولن يكون "علمُ النفس" الذي ينشغل بالاهتمامات الأخيرة معنيًا بدراسة الحالات الفردية، كما يجادل مارتن ديفز (Martin Davies 1991)، لكنه ربما يُفارق البحثَ العلمي الطبيعي فيمـا يخص طبيعة الكائنات العضوية كذلك، وربما يفارق علم النفس الشعبي بشكله المعروف[٢]. وإذا أخذنا مثالاً نموذجيًا آخر، انطلاقًا من التسليم (غير المعقول إلى حد بعيد) بأن المقاربة العلمية الطبيعية للغَيْرة، مثلاً، ممكنة، سنجد أنـه ربما لا يكون محتملاً أن تُميّز هذه المقاربةُ بين الحالات التي تـدخل فيهـا أشياءُ حقيقية أو متخيّلة. وإذا نظرنا إلى "علم المعرفة" على أنه علـم يعنـى بالعزو القصدي فربما يكون اهتمامًا لافتًا للنظر (كما هي حال الأدب)، لكنه ربما لن يوفر لنا نظريةً تفسيرية يمكن دمجها بالعلوم الطبيعية.

وبنحو مسارُ البحث العلمي الطبيعي، مع التقدم في الفهم وتحديد التصورات تحديدًا صارمًا، نحو اقتراح نظريات تُخلِّص فيها الكلمات من شوائب المصللة للفهم البديهي، ثم تقام الصلة بينها وبين بعض الوحدات المفترضة وبعيّن لها مكانٌ في مصفوفة من المبادئ، كالأعداد الحقيقية، والإلكترون، الخ. ومفارقتها اللغة الطبيعية من جهتين: فتجرّد هذه الكلمات المصطنعة من الخصائص المتشابكة للتعبيرات اللغوية الطبيعية؛ وتُعطى خصائص دلالية ربما لا تصح في اللغة الطبيعية، كـ"الإحالة" (وينبغي أن نحذر مما سمّاه ستراوسون مرةً بـ "خرافة اسم العَلَم المنطقي"، في اللغة الطبيعية، والخرافة ذات الصلة به التي تُعنى بإشارات التوافق والضمائر؛ P Strawson ,1952 216). وتتزايد المفارقة، مع التقدم في هذه المقاربة؛ وتتزايد معها المفارقةُ بين الطرق التي نفهم بها ذرة الهايدروجين، من جهة، و"بشر" (و"مكتب" و"سائل"، و"السماوات"، و"يقع"، و"يطرد"، و"لندن"، و"هذا"، إلخ)، من جهة أخرى.

لكننا لا نستطيع، وإنْ بوجه مُقوّى من دعوى بتنام الأولى، أن ننتقل إلى دعواه الثانية، وبشكل أعم، أنْ نستنتج أنه لا صلة للنظريات العلمية الطبيعية عن الدماغ بفهم ما يفعله الناس. فالناس يرون، تحت شروط معينة، العروض على شاشة لوحة tachistoscopic إما مكعبًا يتأرجح أو شعاعًا من الضوء يتحرك في خط مستقيم. وربما أمكن لدراسة القشرة البصرية للدماغ أن تُعيننا على فهم سبب حدوث هذا، أو لماذا يسير الإدراك بالكيفية التي يعمل بها في الظروف العادية. كما يمكن للأبحاث المماثلة أن تقول أشياء كثيرة عن "تكلُّم اللغة" والنشاطات البشرية الأخرى.

انظر الآن إلى المثال الذي أورده بتنام: أي الاكتشاف أنّ التفكير في cats "قطط" يثير الصوت C. فمن المؤكد أنه ربما يكون هذا الاكتشاف ذا صلة بالبحث فيما يعنيه بيتر (أو يحيل إليه، أو يفكر به) حين يستعمل كلمة cat، ومن هنا، ببعض "النقاش عن معنى كلمة cat". فقد كان هناك نقاش، مثلاً —

كان يتكلم طرفًا فيه ــ عن الخصائص الإحالية لـ cat إن اكتُشف أن cats "القطط" أجهزةٌ آلية يُتحكَّم بها من المريخ. افترض أنه بعد أن صار بيتر يعتقد هذا، أخذ دماغه يكوّن، أو لا يكوّن، الصوت C حين يُحيل إلى cats (أو يفكر بها، إلخ). وربما يكون لهذا صلة بالحوار. أو، إذا أخذنا مثالاً واقعيًا: أنّ الأبحاث التي أُنجزت مؤخرًا عن النشاط الكهربائي للدماغ ("الإمكانات الكهربائية ذات الصلة بالحدث" event-related potentials) تكشف عن استجابات متمايزة للتعبيرات اللغوية الصحيحة والمُخالفة، ومن الأخيرة، مخالفاتُ:

١- التوقعاتِ عن معنى الكلمة؛

٢- قواعد البنية المركّبة؛

٣- قيد دقة تحديدِ الإحالة بعد "استخراج الروابط" operators' extraction؛

٤- قيود المحلّية على النقل (Neville et al. 1991).

ومن المؤكد أنه ربما يكون لهذه النتائج صلةٌ بدراسة استخدام اللغة، وبدراسةِ المعنى خاصة.

ويمكن أن نذهب إلى أبعد من هذا، فنربط أنماطَ النشاط الكهربائي للدماغ بأصناف البنية المجسمة التي أشرنا إليها، أي: البنية القياسية، وأنواع المخالفة الأربعة. لكنَّ دراسة هذه الأصناف دراسةٌ للدماغ كذلك، فهي دراسة لحالاته وخصائصه، مثلما أن دراسة الخوارزميات التي تدخل في رؤية خط مستقيم أو القيامِ بعملية طرح حسابية طويلةَ دراسةٌ للدماغ. ويمكن أن يُدرس الدماغ، شأنه شأن الأنظمة المعقدة الأخرى، في مستويات متعددة، كالذرات، والخلايا، ومجموعات الخلايا، والشبكات العصبية، والأنظمة التمثيلية الحوسبية، إلخ. وتَصِل دراسةُ "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" بين مستويين من هذه المستويات: أي بين النشاط الكهربائي للدماغ والأنظمة التمثيلية الحوسبية. ودراسةُ أي من المستويين دراسةُ علميةُ طبيعيةٌ من حيث طبيعة البحث ومن حيث أنّ توحيدها مع العلوم الطبيعية الصِّرف مطمحٌ

يمكن السعي إليه بشكل معقول. وتتماثل الاكتشافاتُ عن الدماغ في مثل هذه المستويات، في سياق مناقشة بنام، مع التكوُّر (المتخيَّل) للصوت C، حين يفكِّر بينر في cats.

وتتمتع نظرياتُ التمثيلات الحوسبية، في حال اللغة، بقدر أعلى من التأييد الاختباري يفوق أي شيء متوفر في المستويات الأخرى، وهي أكثر تفوقًا من حيث القوة التفسيرية؛ وتقع ضمن العلوم الطبيعية إلى حد لا تبلغه دراسةُ "تكلُّم اللغة" في المستويات الأخرى. بل إن الأهمية الراهنة لدراسات "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" تقع في المقام الأول في التلازم بينها وبين نظريات التمثيلات الحوسبية التي تقوم على أسس أكثر غنى وصلابة. وتتبوأ الأصنافُ الخمسة مكانًا في إطار نظريات التمثيلات الحوسبية، وتتمتع تبعًا لذلك بمدى واسع من التأييد الاختباري غير المباشر؛ أما حين تكون ملحوظاتُ "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" معزولةً عن نظريات التمثيلات الحوسبية فلا تزيد عن كونها مجموعة من الغرائب وحسب، وتفتقر إلى مصفوفة نظرية. وبالمثل، سيكون اكتشافُ أنَّ الصوت C يرتبط باستخدام cat، حين يكون حقيقة معزولة، مجردَ اكتشاف عن C بدلاً من كونه اكتشافًا عن معنى cat ــ ولهذا السبب وحده لن يُلقي [هذا الاكتشاف] إلا ضوءًا باهتًا على الخلاف بشأن الأجهزة الآلية المتحكم بها من المريخ. وإذا أخذنا حالة أخرى، فلا يبدو اكتشافُ الإزاحة الإدراكية لـ "الطقطقات" clicks إلى حدود المركَّبات، في الوقت الحاضر، أن يكون اكتشافًا عن صحة التجربة أكثر من كونه اكتشافًا عن حدود المركبات. والسبب أن أنواعًا أخرى من الأدلة عن حدود العبارات ــ التي تسمى أحيانًا أدلةً "لغوية" لا "نفسية" (وهو مصطلح مضلِّل جدًا) ــ أكثرُ إقناعًا بكثير ومدمجة في بنية تفسيرية أكثر غنى. وإذا وُجد أنه من الممكن الاعتمادُ بشكل مُرْضٍ على تجارب الطقطقات في تعيين الوحدات التي تُفترض في نظريات التمثيلات الحوسبية، وإذا ما عُمِّقت أُطُرها النظرية، فربما يمكن الاعتماد

عليها في حالات لا تكون فيها "الأدلة اللغوية" حاسمة؛ بل ربما يكون ذلك بشكل أكبر، مع التقدّم في البحث. (انظر، بشأن بعض حالات سوء الفهم لهذه القضايا، الفصل الثالث في هذا الكتاب، و Chomsky 1991a; 1991b).

ونظرياتُ التمثيلات الحوسبية أفضلُ النظريات العلمية الطبيعية للغة واستخدامها تأسيسًا، في الوقت الراهن. ونحن نفترض، بناءً على الاعتقاد أساسًا، أنّ هناك نوعًا من الوصف في ضوء الذرات والجزيئات، وإن كنا لا نتوقع أن يكون من اليسير تبيين مبادئ اللغة العاملة وبنى اللغة والتفكير في هذه المستويات. كما نميل، بقفزة أعلى من اليقين، إلى افتراض أن هناك تفسيرًا في ضوء المصطلحات العصبية (بدلاً منه في ضوء الخلايا أو الأوعية الدموية glial and vascular، مثلاً، مع أن فحص الدماغ يكشف عن أن هناك خلايا وأوعية دموية glial cells إلى جانب العصبونات)[٣]. وربما يوحي هذا بأن العناصر والمبادئ ذات الصلة في بنية الدماغ لم تكتشف بعد. وربما ستوفّر نظرياتُ التمثيلات الحوسبية بعض الإرشادات للبحث في مثل هذه الآليات بشكل لا يبعد عما وفّرته الكيمياء في القرن التاسع عشر من شروط اختبارية حاسمة للمراجعة الجذرية للفيزياء الأساسية. ويَضع الشعارُ المألوفُ: "إن الذهني هو العصبي العضوي في مستوى أعلى" ــ حيث تُدمج نظرياتُ التمثيلات الحوسبية في "الذهني" ــ الأمور بشكل معكوس؛ إذ يجب أن تعاد صياغة هذا الشعار، ليصير افتراضًا يقضي باحتمال أنْ يُكتشف أنَّ العصبي العضوي "ذهني في مستوى أدنى" ــ أي الافتراض بأنّه ربما نجد، في المستقبل، أن لعلم وظائف الأعصاب بعضًا من الاهتمام بـــ "الظواهر الذهنية" التي تدرسها نظرياتُ التمثيلات الحوسبية. أما فيما يخص المزاعم الأخرى لـ"الإقصائية المادية"[٤]، فسيظل هذا الموقفُ لغزًا حتى يُقدّم تحليل لطبيعة "المادي"؛ وإذا ما قدّم ذلك التحليل فيجب أن تقدّم بعضُ الأسباب التي توجب الاحتفاء أو الاهتمام بما تقوله إن كانت النظريات الناجحة تقع وراء حدودها المفترضة.

وتُقدِّم مقاربات التمثيلات الحوسبية، في الوقت الراهن، أفضل التفسيرات العلمية الطبيعية وأكثرها غنى للمظاهر الأساسية لاستخدام اللغة. فهناك تصورٌ أساسي، في هذه النظريات، شبيه بالفكرة البديهية للغة، وهو: "الإجراء التوليدي" الذي يكوِّن "الأوصاف البنيوية" Structural Descriptions (SDs)، حيث يكون كلٌّ منها مجموعًا معقَّدًا من الخصائص الصوتية والدلالية والبنيوية. دعنا نسمِّ هذا الإجراء بـ "اللغة ــ د" I-language، وهو مصطلح اخترناه لتبيين أن هذا الإجراء "داخلي"، و"فردي"، و"مفهومي"(٤) (ليكون من المحتمل أن تولِّد "اللغات ــ د" I-languages المتمايزة، من حيث المبدأ، المجموعة نفسها من الأوصاف البنيوية، مع أن من المحتمل أن تترك خصائصُ الملكة اللغوية الفطرية المقيَّدة تقييدًا صارمًا هذه الخصيصة من غير تحقُّق). ويمكن أن ننظر إلى التعبيرات اللغوية في "لغة ــ د" ما على أنها الأوصاف البنيوية التي ولَّدتها [هذه اللغة ــ د]. فالتعبير اللغوي، إذن، مجموعٌ معقَّد من الخصائص الصوتية والدلالية، وخصائص أخرى. ويُشبه امتلاكُ "لغة ــ د" امتلاك "طريقة للتكلُّم والفهم"، وهذه إحدى الصور التقليدية للغة. وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن "اللغات ــ د" (أي "المعرفة النحوية") متمايزةٌ عن التنظيم التصوري و"المعرفة الذرائعية"، وأنه يمكن أن تتعطل أيَّة واحدة من الثلاث بشكل منفرد وأن تنفصل في أثناء فترة النمو (انظر: Yamada 1990, John Marshall 1990).

وتُعيِّن "اللغةُ ــ د" أشكال بعض العناصر المعجمية مثل: "مكتب"، و"عمل"، و"يقع"، ومعانيها، بقدر ما تكون هذه العناصر محدَّدةً بالملكة اللغوية نفسها. ويجب، بالمثل، أن تفسِّر [اللغةُ ــ د] خصائص تعبيرات أكثر تعقيدًا، نحو: أن الجملة:

John rudely departed

"غادر جون بصلف".

تعني إما أنه غادر "بطريقة صلفة" أو أنه كان صلفًا منه أن يغـــادر"، وأنه، في الحالتين كلتيهما، غادر (لذلك ربما يحسن اقتراحُ "دلالـــة للحـــدث" event semantics لتكون إحدى مستويات التمثيل لكي يمكن التعامل مع حقائق كهذه، انظر Higginbotham 1985; 1989). كما ينبغي أن تُفسِّر [اللغة ـــ د] أن الفاعل المفهوم [المستتر] للفعل expect "يتوقع" في (١) يعتمد على هل X "س" صبعرٌ أم أنه Bill، مع ما يصحب ذلك من أنواع أخرى من المقتضيات الدلالية:

1- John is too clever to expect anyone to talk to X

"جون أذكى من أن يتوقع أنّ أحدًا يتكلم مع "س"".

وأنّ كلمةَ ladder "سُلَّم"، في لهجتي، تسجع مـــع matter "أمـــر" أمـــا madder "أكثر جنونًا" فلا. وهناك بعضُ التفسيرات غير التافهة الممكنة لكثير من هذه الحالات. وتُلقي أنظمةُ التمثيلات الحوسبية قدرًا غير قليل من الضوء على الكيفيةِ التي يعبِّر بها الناس عن أفكارهم ويؤولون بها ما يسمعون، مع أنها لا تقل ـــ ولا تزيد، بالطبع، في كونها دراسةً لهذه الأحداث عن كـــون دراسة العمليات العضوية والنفسية للإبصار دراساتٍ للبشر وهُـــم يَـــرون الأشياء.

وسيسعى البحثُ الأكثر عمقًا للغات ـــ د" إلى تفسير حقيقةِ أنّ بيتـــر يمتلك "اللغةَ ـــ د": "لب" [لغة بيتر] أما خوان فيمتلك "اللغة ـــ د": "لخ" [لغة خوان] ـــ وهذان حكمان تجريبيّان إلى حد بعيد جدًا، ذلك أنّ أهميةَ ما فـــي رأسي بيتر وخوان للبحث العلمي الطبيعي لا تزيد، حقيقة، عن أهمية مـــسار ريشةٍ في يوم عاصف. ومن هنا يجب أن يتمثّل التفسيرُ الأساس [لمثل هـــذه الحقائق] في خصائص الملكة اللغوية للدماغ. فتماثل الحالـــةُ الأولـــى للغـــة المحدَّدة أحيائيًا عند بيتر وخوان وغيرهما من البشر، إلى حد بعيد. ولا تسمح إلا لنوّعٍ محدَّد من "اللغات ـــ د" أن يتطور تحـــت تـــأثير التجربـــة القـــادح المشكِّل. ويمكن أن نفترض بقدْر من المعقولية، في ضوء فهمنا الراهن، أنّ

الحالة الأولى تحدّد النظام الحوسبي للغة بشكل فريد، بالإضافة إلى تحديدها مدىً للاحتمالات المعجمية محدّدًا تحديدًا بنيويًا دقيقًا وبعض الخيارات من "العناصر النحوية" الوظيفية التي لا معنى لها في ذاتها. أما وراء هذه الاحتمالات، فربما أمكن اختزال تنوُّع "اللغات ــ د" إلى خصيصة الاعتباطية التي اقترحها دى سوسور (أي الارتباط بين التصورات والتمثيلات المجردة للصوت) وإلى بعض أجزاء النظام الصوتي التي يمكن النفاذ إليها، وهو ما يسمى "إمكانَ تعلُّمِها" (إن استعملنا مصطلحًا ذا إيحاءات دلالية مضلِّلة). ويمكن للاختلافات الضئيلة في نظام معقّد، بالطبع، أن تؤدى إلى اختلافات ظواهرية ضخمة، لكنّ ربما لا يَجد عالِمٌ مريخي واعٍ يَدرس البشرَ الاختلافَ بين الإنجليزية ولغة النفاهو [إحدى لغات الأمريكيين الأصليين] لافتًا للنظر.

و"اللغة ــ د" خصيصةٌ للدماغ (حين توصف وصفًا دقيقًا محدّدًا)، وهي عنصر قارّ نسبيًّا للحالات المتحوّلة للملكة اللغوية. ويتضمن أى تعبير لغوى (أى كلُّ "وَصْف بنيوى") مما تولِّده "اللغةُ ــ د" تعليماتٍ لأنظمة الأداء التى تُدمج "اللغةُ ــ د" فيها. ولا تتأهّل حالةُ الدماغ هذه لتَكُون لغةً إلا بسبب اندماجها فى أنظمة الأداء هذه. فربما تملك بعضُ الكائنات العضوية، من حيث المبدأ، "اللغةَ ــ د" نفسها (أى حالة الدماغ) التى لدى بيتر، لكنها مُدمَجة فى أنظمة أداء تَستعملها [أى اللغة ــ د] من أجل الحركة. فما ندرسه، إذن، موضوع حقيقى، أى الملكة اللغوية للدماغ، يتخذ صورة "لغة ــ د" كاملةً ومُدمجة فى أنظمة أداء تؤدى دورًا فى النطق والتأويل والتعبير عن الاعتقادات والرغبات والإحالة وسرد الحكايات، إلخ. فموضوع البحث، لهذه الأسباب، هو دراسةُ اللغة البشرية.

ويبدو أن أنظمة الأداء تتبع نمطين عامّين: الأول "نطقى ــ إدراكى"؛ والثانى "تصوُّرى ــ قصدى"[3]. وإذا كان الأمر كذلك فمن المعقول افتراضُ أن التعبير المولَّد يَشتمل على "مستويين وجيهيين"، يوفّر أحدُهما معلوماتٍ وتعليمات للأنظمة النطقية ــ الإدراكية، ويوفر الآخر معلوماتٍ وتعليمات

للأنظمة التصورية ـ القصدية. ويُفترض عموماً أن أحد المستويين الوجيهيين هو التمثيل الصوتي: أي: "الصورة الصوتية" (ص ص). أما طبيعة المستوى الثاني فموضوع لخلاف أكبر؛ ولنسمه بـ"الصورة المنطقية" (ص م).

وخصائصُ هذه الأنظمة، أو وجودُها، من أمور الحقائق الاختبارية. ويجب ألا يُضلِّل أحدٌ بالإيحاءات غير المقصودة لمصطلحي "صورة منطقية" و"تمثيل" اللذين اجتُلِبا من الاستخدام الاصطلاحي في أنواع أخرى مختلفة من البحث. وبالمثل، فمع أن هناك ما يوحي بفكرتي "النحو العميق" و"النحو السطحي" في التحليل الفلسفي، إلا أن هذه التصورات لا تتماثل تماما. فما يُعدّ "سطحيًّا" من وجهة نظر "اللغة ـ د"، إن كان هناك شيء من ذلك، ليس إلا "الصورة الصوتية"، على أبعد تقدير، أي المستوى الوجيهي مع الأنظمة النطقية والإدراكية. وكل شيء غير ذلك "عميق". ولا يتمتع النحوُ السطحي في التحليل الفلسفي بوضع خاص في الدراسة الاختبارية للغة؛ فهو أشبه ما يكون بالأحكام الظواهرية، ويُكتسب عن طريق التعليم وتَفرِضه السلطاتُ التقليدية والمواضعات، والوسائل الثقافية، إلخ. وتَبرز أسئلةٌ مماثلة عما يسمى، بصورة عامة جدًّا، بـ"علم النفس الشعبي"، كما أشرنا من قبل. لهذا يجب أن يُنظر إلى مثل هذه الأفكار بحذَر؛ ذلك أنه من الممكن أن تتخفى أشياءُ كثيرة وراء الوضوح الظواهري الخادع.

ويدخل المجموعُ المعقَّد المؤلَّف من "اللغة ـ د" وأنظمة الأداء في الفعل البشري. وهو موضوعٌ صالح للنظريات العلمية الطبيعية التي يمكن أن تأخذنا إلى موقع متقدم جدًّا نحو فهم الكيفية التي يَفعل الناسُ بها ما يفعلونه ولماذا، مع أنها تَقصُر دائمًا عن أن تكون تفسيرا كاملا، وهو ما يُشبه تماما احتمال إخفاق النظريات العلمية الطبيعية التي تَدرس الجسد في أن تفسِّر تفسيرا كاملاً الأحداث أو الإنجازات البشرية مثل رؤية شجرة أو المشي.

لذلك ربما يكون مضلِّلاً، أو أسوأ من ذلك، أن نقول إن جزءًا معينا من

الدماغ أو نموذجًا مجردًا له (نحو: شبكة عصبية أو حاسوب مبرمج) يرى شجرة أو يستنتج الجذور التربيعية. ذلك أن الناس ينطقون الكلمات تحت عدد من الظروف النموذجية غير الواضحة أو يحيلون إلى القطط أو يعبّرون عن أفكارهم أو يفهمون ما يقوله الآخرون أو يلعبون الشطرنج، إلخ؛ أما أدمغتهم فلا تقوم بشيء من ذلك ولا تفعل ذلك البرامج الحاسوبية ـ مع أنه يمكن لدراسة «الأنمذة، التي ربما تستعين بنمذجة مجردة لبعض خصائصها، أن توفر لنا فهمًا أكثر عمقًا لما يفعله الناس في مثل هذه الحالات. فيمكن أن يقدّم خوارزمٌ يصاغ في ضوء نظرية للتمثيلات الحوسبية تفسيرًا صحيحًا لما يحدث في دماغ بيتر وهو يرى خطأً مستقيمًا أو حين ينفّذ عملية طرح حسابية طويلة أو "يفهم اللغةَ الصينية"[7]، ويمكن [لهذا الخوارزم] أن يندمج دمجًا خالصًا في نظريةٍ تقوم على أسس قوية في مستوى آخر من التفسير (كمستوى "الخلية"، مثلاً). أما الخوارزم، أو الآلة التي تنفّذه، فربما لا يُنفِّذان هذه الأحداث، مع أنه يمكن لنا أن نقرر تعديلَ الاستخدامات اللغوية، كما في قولنا إن الطائرات تطير والغواصات تبحِر (لكنها لا تَسبح). وليس لشيء من هذا أهمية. ومثل ذلك أنه مع أن الناس ربما يُنفِّذون الحدثَ لأن أدمغتهم تنفذ الخوارزم، فإن هؤلاء أنفسهم ربما لا ينفذون الحدث إن كانوا ينفّذون التعليمات بصورة آلية، بطريقة تشبه عمل الآلة (أو عمل أدمغتهم). فربما أرى خطًا مستقيمًا (أو أقوم بعملية طرح حسابية طويلة، أو أفهم اللغة الإنجليزية، إلخ) لأنَّ دماغي ينفذ خوارزمًا معينًا؛ لكنْ إن كنت، أنا الشخص، أنفّذ التعليماتِ بصورة آلية، مُحوِّلاً تمثيلاً رمزيًا معينًا للدّخل إلى تمثيل معين للخرْج، فإني لا أرى، ولا يرى المجموعُ المكوَّن مني والخوارزم والذاكرة الخارجية خطًا مستقيمًا (إلخ)، وذلك مرة أخرى، لأسباب غير مهمة[8].

وسيكون من الخطأ كذلك، حين ننظر في طبيعة أنظمة الأداء، أن ننتقل سريعًا إلى "دراسة كل شيء" الفارغة. وكمثال على ذلك، انظر إلى مناقشة دونالد ديفيدسون لـ"بيتر" بوصفه "مؤوّلاً" يحاول أن يخمّن ما في ذهن "توم"

حين يتكلم. فيلاحظ ديفيدسون أن بيتر ربما يستخدم أية معلومات أو مسلّمات سابقة أو تخمين، أو غير ذلك، ليصوغ "نظرية عابرة" تلائم المقام؛ لهذا ينقل النظرَ في فكرة "المؤول" إلى نماذج كاملة للتنظيم الوظيفي البشري الكامـل. ويستنتج ديفيدسون أنه لا حاجة "لتصور اللغة" الذي يَعمل كـ "آلة تأويليـة جاهزة تَعمل على تحليل أي تعبير لاعتصار معناه"؛ ويقودنا هـذا "لا إلـى التخلي . . . عن المفهوم المألوف للغة وحسبُ، بل إلى إلغاء الحدّ بـين معرفة لغة ما ومعرفةِ الطرق التي نتعامل بها مع الأشياء في العالم عموما". ولعدم وجود قواعدَ للوصول إلى نظريات عابرة"، يجب علينا "أن نتخلى عن فكرة وجود بنيةٍ مشتركة محدَّدة تحديدًا واضحًا يكتسبها مستعملو اللغـة ثـم يطبقونها على الحالات" (Davidson 1986b: 446;). وتَبدأ إحدى الدراسـات التي أُنجزت حديثًا عن فلسفة ديفيدسون بالقول إنه "ليس هناك شيء يمكن أن يُسمى لغة"، وهو قول حظي بموافقته (Davidson: 1986b; Ramberg 1989).

والملاحظة الأولى عن "النظريات العابرة" صحيحة، لكن النتائج التـي انتهى إليها [ديفيدسون] لا تترتب على تلك الملاحظة. فأحد الأجوبة المعقولة عنها ــ إن كان هدفنا فهمَ البشر وما يفعلونه ــ أن نحاول عـزلَ الأنظمـة المتماسكة التي تَقبل الخضوعَ للبحث العلمي الطبيعي، وتلك التـي تتفاعـل لتُنتج مظاهرَ التعقيد كلها. وسيؤدي ذلك، إن اتَّبعنا هـذا المـسار، إلـى أن نفترض وجودَ إجراء توليدي يَعمل على "تحليل" التعبيرات اللغوية بما تتصف به من خصائص المستويات الوجيهية، وتبيين أنظمةِ الأداء التي تَنفذ إلى هذه التعليمات وتُستخدم في تأويل أفكار المتكلم والتعبير عنها.

والآن ماذا عن "فكرة البنية المشتركة المحدَّدة تحديدًا واضحًا ويكتسبها مستخدمو اللغة ويطبقونها من ثمَّ على الحالات"؟ أيوجب هـذا أن نفتـرض كذلك وجودَ "بنى مشتركة"، إضافةً إلى "اللغة ــ د" وأنظمة الأداء؟ وكثيرًا ما يُجادَل بأن بعض المفاهيم الشائعة كـ "اللغة المشتركة" أو "المعاني المشتركة" ضروريةٌ لتفسير إمكان التواصل أو إمكان وجود "كنزِ الأفكـار المـشترك"،

بمعناه عند غوتليب فريجه (Frege 1892/1965: 71). لهذا، فإذا لم يمتلك بيتر وماري "لغة مشتركة"، بـ"معان مشتركة" و"إحالة مشتركة"، فكيف يمكن بيتر أن يفهم ما تقوله ماري؟ (ومن اللافت للنظر أنه لم يستخلص أحد النتيجة المماثلة عن "طريقة النطق المشتركة"). وترى إحدى الدراسات الحديثة أنه لا يمكن للسانيين أن يقولوا بـ "اللغة ـ د" إلا بـ إنكار أن الوظيفة الأساسية للغات الطبيعية أنها وسيلةٌ للاتصال بين المتكلمين"، ويشمل ذلك مسألة "التواصل بين الفترات الزمنية في اكتساب لهجة فردية" (وهو ما يسمى بـ "التعلُّم التدرُّجي"؛ (Fodor and Lepore 1992)[9].

ولا تقوم وجهاتُ النظر هذه على أسس قوية. فلا يلزم عن التواصل الناجح بين بيتر وماري وجود معانٍ مشتركة أو طرائق نطق مشتركة في لغة مشتركة معينة (أو كنز أفكار مشترك أو كيفيات مشتركة للتعبير عنها) إلا بقدر ما أنه يلزم عن التشابه في الشكل بين بيتر وماري وجودُ شكلٍ عام يشتركان فيه. أما فكرة أنّ "وظيفة اللغات الطبيعية الأساسية أن تكون وسيلة للتواصل"، فليس من الواضح ما المعنى الذي يمكن أن يُسبغ على فكرة خالصة "للوظيفة الأساسية" في أي نظام أحيائي؛ وإذا أمكن التغلبُ على هذه المشكلة فربما نَسأل عن سبب كون "التواصل" هو "الوظيفة الأساس" [للغة]؟. كما يبدو أن مشكلة الانتقال [من مرحلة إلى مرحلة أخرى في أثناء اكتساب الطفل للغة] ليست أكثر غموضًا من مشكلة كيف يمكن لبيتر أن يكون هو الشخص نفسه، إذا نظرنا إلى الأطوار التي مر بها؛ لذلك فليس الأمر أن منظورَ "اللغة ـ د" وحده المنظورُ الملائم للتعامل مع المشكلة التي بين أيدينا، بل أنه يصعب أن نتخيل بديلاً متماسكًا له.

وربما يكون الأمر أن بيتر حين يستمع إلى ماري وهي تتكلم يتعاملُ مع هذا الحدث مفترضًا أنها تماثله، مع بعض الاختلافات التقريبية، وهو ما يوجب أن يُجري بعض التعديلات. وهذه مهمة سهلة أحيانًا، وصعبة في بعض الأحيان، ومستحيلة أحيانًا أخرى. ويستعمل بيتر، لكي يتعامل مع هذه

الاختلافات، أية وسيلة تتوفر له، وإن كان معظم هذا العمل يحدث، من غير شك، بشكل آلي وعفو الخاطر(٠). وسيستخدم حين يكتشف هذه الاختلافات

وبشكل مماثل أية وسيلة ليصوغ "نظرية عابرة" ـ بل حتى إن لم يكن هناك اختلافات. وبقدر نجاحه في هذه المهمات فإنه يفهم ما تقوله ماري على أنه هو ما يعنيه بتعبيره المشابه. فـ "البنية المشتركة" (المعطية) الوحيدة بين البشر عمومًا هي الحالة الأولى للملكة اللغوية. أما وراء ذلك فلا نتوقع أن نجد أكثر من مقاربات، وهو ما يماثل ما نجده في حالة الأشياء الطبيعية الأخرى التي تنمو وتتطور.

ويقدِّم النقاشُ عن اللغة واستخدامها دائمًا أنواعا أخرى من البنية المشتركة، كالجماعات بلغاتها، واللغات المشتركة عبر ثقافة أوسع، إلخ. وهذه الممارسات نموذجيةً في النقاش اليومي العام كذلك. لهذا نقول إن بيتر وتوم يتكلمان اللغة نفسها، لكن خوان يتكلم لغة أخرى مختلفة. ونقول، بالمثل، إن بوسطن قريبة من نيويورك، لكنها ليست قريبة من لندن، أو إنَّ بيتر وتوم يتشابهان، لكنَّ أيًا منهما لا يُشبه جون. أو ربما نرفض هذه المزاعم كلها. وليس هناك اختيار بين الصواب والخطأ حين نجرِّد من الاهتمامات التي ربما تتنوع بطرق لا حصر لها. ولا توجد كذلك أصنافٌ طبيعية ولا تجريدات مثالية. ويتشابه تكلُّمُ اللغة نفسها، بهذه الاعتبارات، مع القُرْب المكاني أو التشابه في المظهر. والملحوظة النموذجية في الدرس الأول لمادة اللسانيات في المستوى الأول من الدراسة الجامعية هي قول [اللساني الأمريكي المعاصر] ماكس فينرايخ الساخر إن اللغة لهجة بجيش وسلاح بحرية [لهجة تتبناها دولة وتجعلها لغة رسمية لها]، و"اللهجات" مفاهيم غير لغوية كذلك، ويمكن أن تحدَّد بأية طريقة، بناء على بعض الاهتمامات والأهداف المعينة. ويمكن لبعض العوامل كالحدود الطبيعية (مثل المحيطات والجبال) والتلفاز الوطني، وغير ذلك، أن يؤسِّس بعض الصور الخادعة في هذا الشأن، لكن أحدًا لم يصنع إلى الآن مفهومًا "للغة المشتركة" بأية طريقة

مفيدة أو متماسكة، ولا يدعو المستقبل إلى التفاؤل كذلك، كما يبدو. ومن هنا فإن مقاربة لدراسة اللغة أو المعنى تعتمد على مثل هذه المفاهيم مشكوك فيها إلى أبعد الحدود.

افرض مثلاً أن مفهوم "اتّباع القاعدة" حُلِّل في ضوء الجماعات، أي: أن جونز يتبع قاعدةً ما إن كانت ممارسته تتطابق مع ممارسة الجماعة التي ينتمي إليها أو مع معاييرها. وإذا كانت "الجماعة" متجانسة فالإحالة إليها لا تفيد شيئا (وتثير مفاهيمُ: "المعيار"، و"الممارسة" و"العُرف"، وغيرُها أسئلةً أخرى). أما إن كانت "الجماعة" غير متجانسة ــ بغض النظر عن القدر الكبير من عدم الوضوح في مفهوم "المعايير" (والممارسة، وغيرها) في هذه الحالة ــ فيبرز عددٌ من المشكلات. وإحداها أن التحليل المقتَرح غيرُ صحيح وصفيًا. ذلك أننا نُسبغ في العادة اتّباع القاعدة على الحالة البيِّنة لعدم "التطابق" مع الممارسة الاتباعية أو المعايير المزعومة. لهذا ربما نقول إن جوني، ذو الثلاث سنوات، يتبع القاعدة الخاصة به حين يقول brang بدلاً من brought [الصيغة المألوفة لماضي الفعل bring "يحضر"]؛ أو أن والده بيتر يتبع "القاعدة الخطأ" ("يخالف القواعد") حين يستعمل disinterested ليعني uninterested "غير مهتم" (كما يفعل أكثر الناس). لكن اللساني وحده هو الذي يمكن أن يقول إن جوني وبيتر يحترمان الشرط "ب" في نظرية الربط العاملي (Chomsky 1981a: 188)، وهو ما تفعله "الجماعة" عموما (بل جماعةُ متكلمي اللغات كلها، على أكثر الاحتمالات). والاعتراضُ الأكثر خطرا أنه ليس لمفهوم "الجماعة" أو "اللغة المشتركة" من المعنى أكثر مما لمفهوم "المدينة القريبة" أو "التشابه في المظهر"، في غياب مزيد من التحديد للاهتمامات، وهو ما يجعل التحليل فارغا[11].

ولا يوحي شيء في هذا الاقتراح، لأسباب مألوفة، بأي مشكل في الاستخدام العام، أكثر مما يوحي به الاستخدامُ العادي لتعبيرات مثل: Boston is near New York "بوسطن قريبة من نيويورك" أو John is almost home

"يكاد جون يصل إلى منزله". فغاية الأمر أننا لا نتوقع أن تدخل هذه الأفكار في الخطاب النظرى التفسيرى. إذ ربما تكون ملائمة فى مناقشة عامة لما يفعله الناس، بناءً على بعض الافتراضات الضمنية التى يقوم عليها النقاش العادى في ظروف معينة؛ أو حتى في النقاش التقنى، حيث تكون التحديداتُ ذات الصلة مفهومةً ضمنًا. فليس لهذه الأفكار منزلةٌ أبعد من هذه في البحث العلمي الطبيعي، أو في أية محاولة للوصول إلى فهمٍ أدق.

وللعوامل الاجتماعية المزعومة فى استخدام اللغة تأويل فردى طبيعى غالبا — أى، تأويل داخلى. فإذا كان بيتر يحاول إجادة اللغة الإيطالية التى يتعلَّمها، أو كان "جيانى" يتعلم لغته [الإيطالية] فيمكن أن نقول إنهما فى طريقهما إلى التشابه (بطريقتين مختلفتين إلى حد بعيد) مع طيف واسع من الناس؛ مع تنوع طريقيهما للاقتراب من النموذج واختياراتهما للقدوة بشكل يتماشى مع اهتماماتنا، ولن يزداد فهمنا عمقًا بما يعملانه إنْ افترضنا أن هناك وحدة قارّة يحاولان الوصول إليها، حتى إن استطعنا أن نضفى على هذه الفكرة الغامضة شيئًا من المعنى. فإذا اشتكى "بيرت" من التهاب المفاصل فى كعْبه وفخذه، وأخبره طبيبُه بأنه مخطئ فى شكايته من كليهما، فيمكنه (أو لا يمكنه)، وبطرق مختلفة، أن يختار تغيير استخدامه اللغوى ليتوافق مع استخدام الطبيب. وبغض النظر عن التفاصيل الأكثر توسُّعا، وهى التى ربما تتفاوت تفاوتا واسعًا تبعًا لتغيُّر الاحتمالات والاهتمامات، لا يبدو أننا فقدنا شيئا نتيجة لهذا التفسير. ولا يتطلب الكلامُ العادى، كذلك، التساؤل عن إن كان شخصٌ قد اكتسب تصورًا معينًا فكرة اللغة المشتركة. فلا يعدو القولُ بأن بيرت لم يكتسب تصورَ "التهاب المفاصل" أو "الزكام" قولنا إنَّ استخدامه [اللغوى] لا يتماثل تماما مع استخدام الذين نلجأ إليهم ليعالجونا — وهذا وضعٌ مألوف. فإذا حكى لى جارى "بيرت" عن التهاب المفاصل الذى يشكى منه، فسيكون افتراضى الأول أنه يماثلنى فى هذا الاستخدام. وسأحاول إدخال بعض التعديلات من أجل تأويل استخدامه فى ضوء ما تتطلّبه الظروف؛ لكن

الإحالة إلى "لغة مشتركة" مفترضة ذات "مضمون حقيقي" لـ "التهاب المفاصل" لن تُلقي مزيدًا من الضوء على ما يحدث بيننا، حتى إن أمكن إسناد معنى واضح على الأفكار الضمنية المفترضة. وإذا كنت لا أعرف شيئًا عن أشجار الدردار والزان يتجاوز كونهما نوعين من الأشجار الضخمة، فربما لا يمكن لشيء وراء هذه المعلومات أن يُمثّل في معجمي الذهني (وربما لا يكون حتى هذا، كما أشرنا من قبل)؛ إذ ربما يكون الاختلاف المفهومُ في الخصائص الإحالية ناتجًا عن وضع يَصحّ عن المعجم بصورة عامة: فربما يؤخذ غيابُ الدليل على وجود علاقة دلالية دليلاً على عدم وجودها(٢٢).

وتبقى بعض الأسئلة — وهي أسئلة عن الحقائق، في رأيي — عن أنواع المعلومات التي توجد في المعجم على وجه الدقة، بوصفها متمايزةً عن الأنظمة الاعتقادية. وربما تكون التغييرات في الاستخدام، كما في الحالات التي أوردناها، تغييرات هامشية في "اللغة — د"، حقيقةً، أو تغييرات في أنظمة الاعتقاد، التي نفهمها هنا على أنها (إن وُصفت وصفًا دقيقًا) أنظمةٌ للتمثيلات الحوسبية للدماغ، وهي التي تعني المنظورات وزوايا النظر للفكر والتأويل واستخدام اللغة والأحداث الأخرى (ولنسمّها "أنظمة "الاعتقاد — د""، وهي نظائر للاعتقادات يمكن اكتشافها بالبحث العلمي الطبيعي). ويقدّم البحث في علم الدلالة المعجمي، إن اقتصرنا على الإطار الفردي الداخلي، أساسًا لحلّ اختباري في بعض الحالات (خاصة في نظام الأفعال، التي تتصف ببنية علائقية أكثر غنى).

ولا يفهم الباحثون إلا قليلاً عن المسار العام للذهن/الدماغ، وراء عدد قليل جدًا من المناطق المتفرقة [فيه]، ولا تشمل هذه المناطق التي ظلّت مركز الانتباه لأكثر الاهتمامات العامة لما يسمى بـ"علم المعرفة". فقد كان هناك، مثلاً، قدر كبير من النقاش المهم عن نظرية للاعتقاد وعن موضعها المحتمل في الجهود التي تبتغي تفسير الفكر والفعل، إلا أنه لا يوجد إلا قدر

محدود من البحث الاختباري المثمر الذي ربما يساعد في فحص هذه الأفكار، وصقلها، واختبارها. فيبدو من المعقول في الأقل، أن نفترض أن "الاعتقادات ـــ د" لا تكوّن مجموعة متجانسة؛ ذلك أن للنظام مزيدًا من البنية يمكن أن يوفر بعض المواد الضرورية لاتخاذ القرار عما يكون اعتقادات زائفة وخطأ في التعيين. افرض أن بعض "الاعتقادات ـــ د" اعتقاداتُ "تعيين" وبعضها غيرُ ذلك، أو أنها تتوزع على طول مثل هذا الطّيف، حيث يمكن أن تكون الأخيرةُ (أو الأقل) أكثر عُرضة للترك من غير أن تؤثر على شروط الإحالة. افرض، مثلاً، أن معلومات بيتر عن "مارتن فان بيرن" يستغرقها الاعتقادُ بأنه كان (١) رئيسًا للولايات المتحدة و(٢) أنه كان الرئيس السادس عشر، حيث يكون الاعتقاد (١) أكثرَ اتصافًا بأنه اعتقادُ تعيين من (٢). فإذا تعلم بيتر أن لينكولن كان الرئيس السادس عشر فقد يتخلى عن "الاعتقاد ـــ د" غير المُعيِّن في حين يستمر في استخدام العبارة في الإحالة. أما إذا أُكِّد له أن كتب التاريخ كلها خاطئة وأن "فان بيرن" لم يكن رئيسًا قط، فسيحتار كيف يتصرف. وتبدو هذه خطوة معقولة أولى نحو ما يصلح أن يكون تحليلاً يمكن أن يوفره منظورٌ داخلي، وأن يكون واضحًا من حيث الواقع. ويمكن إطلاق مزيد من الأحكام أحيانًا في بعض الظروف المعينة، وبطرق متنوعة ومتعارضة[١٣].

وربما كان سبب ذلك وجود خصيصة عامة (أو مشتركة بين الناس) للفكر والمعنى تَنتج عن التماثل في الإعداد [الأحيائي] الأولي، وهي التي لا تسمح إلا بـ "اللغات ـــ د" التي تتشابه من حيث بعض المعايير المهمة، ومن هنا توفر بعضَ الأسباب الاختبارية لتبنّي إحدى صيغ مبدأ فريجه الذي يقول: "إنه لا يمكن إنكار أنّ البشر يمتلكون كنزًا مشتركًا من الفكر يُنقل من جيل إلى جيل" (Frege 1892/1965: 71). وربما تقرُب الصياغاتُ المعيَّنة لملكة صياغة العلم أيضًا من كونها خصيصةً عامة (وهذا أكثر أهمية، لاهتمامات فريجه المحدَّدة). لكن طبيعة الفكر والمعنى، فيما يخص الأنظمة التي تنمو

بصورة طبيعية في الدماغ، بعد تشخيص الإعداد الأولي على صورة "لغة ـــ د" (وربما "اعتقاد ـــ د" والأنظمة ذات الصلة، كذلك)، تتنوع تبعًا لتنوع الاهتمامات والظروف، مع عدم وجود طريق واضح لوضع تصنيفات أخرى، حتى على المستوى المثالي. لذلك يبدو اللجوءُ إلى التفسير بالأصل المشترك للغة أو بالتخرصات عن مبدأ الانتقاء الطبيعي، وهو ما يشيع في الأبحاث المتخصصة، غير مفيد.

انظر إلى الحالة الأولى المشتركة لملكة اللغة في الدماغ، وإلى المدى المحدود لـــ "اللغات ـــ د" التي يمكن تحصيلها في أثناء تطوّرها في السنوات الأولى من حياة الطفل. فنجد، حين نبحث الخصائص المعجمية، نسيجًا غنيًا من الدلالة الداخلية الصِّرفة مع خصائص عامة لافتة للنظر، وبعض الأدلة على وجود علاقات دلالية صورية (ويشمل ذلك العلاقات التحليلية، انظر المراجع في س). كما يبدو، زيادة على هذا، أن جزءًا كبيرًا من هذه البنية الدلالية مُشتق من طبيعتنا الداخلية، وتحدده الحالةُ الأولى لملكتنا اللغوية، ومن هنا فهو غير متعلَّم وكُلِّي في "اللغات ـــ د". ويصح الشيء نفسه تقريبًا عن الخصائص الصوتية والخصائص الأخرى، ويبدو، باختصار، أن "اللغة ـــ د" (ويشمل ذلك الدلالة الداخلية) تشبه الأجزاء الأخرى من العالم الأحيائي.

ويمكن أن نأخذ هذا كله على أنه شكل من التركيب، أي أنه دراسةٌ للأنظمة الرمزية لنظريات التمثيل الحوسبي ("التمثيل الذهني"). وتبقى المصطلحاتُ نفسُها ملائمةً إن طوّرنا هذه الوسائل النظرية لتَشمل النماذج الذهنية، وتمثيلاتِ الخطاب، والقيمَ الدلالية، والعوالم الممكنة على الوجه الذي تُفهم به عادة، وتركيباتٍ نظريةً أخرى يجب النظر إليها على أنها ترتبط بشكل ما بالأشياء في العالم؛ أو بالوحدات التي تفترضها ملكةُ صياغة العلم لدينا، أو تصوغها ملكاتٌ أخرى من ملكات الدماغ.

ويمكن أن تصل خصائصُ التعبيرات اللغوية المحدَّدة داخليًّا إلى أمداء بعيدة جدًا، حتى في أبسط الحالات البسيطة. انظر مرة أخرى إلى الكلمة house "بيت" في التعبير التالي، مثلاً:

John is painting the house brown.

"يصبغ جون البيتَ بنِّيًا".

وهو تعبير يتصف بأنه مجموع معيَّن من الخصائص البنيوية والصوتية والدلالية، ولا يمكن أن نقول إنَّ هذا التعبير هو نفسه عند بيتر وتوم إلا بالمعنى الذي يمكن أن نعنيه حين نقول إن نظام دورتهما الدموية أو نظام الإبصار عندهما متماثلان، أي أنهما متماثلان إلى درجة كافية للأغراض التي تعنينا. وإحدى الخصائص البنيوية لهذا التعبير أنه يتكون من ست كلمات [في الإنجليزية]. وتميِّز خصائصُ بنيويةٌ أخرى هذا التعبير عن التعبير التالي:

John is painting the brown house.

"يصبغ جون البيتَ البني".

وهو يتصف بشروط مختلفة للاستخدام. وإحدى الخصائص الصوتية أن الكلمتين الأخيرتين فيه house "بيت" و brown "بني" تشتركان في الحركة نفسها؛ فهما في علاقة صورية للتجانس الصوتي، أما كلمتا: house و mouse فهما في علاقة صورية للسجع، وهاتان علاقتان بين التعبيرات اللغوية يمكن تعيينهما في ضوء سماتهما الصوتية[14]. وإحدى الخصائص الدلالية أن إحدى الكلمتين الأخيرتين يمكن استخدامها في الإحالة إلى أنواع محددة من الأشياء، وتعبِّر الأخرى عن خصيصة أخرى لـ [هذه الأشياء]. ونجد هنا، مرة أخرى، علاقات صورية يمكن التعبير عنها في ضوء بعض سمات الكلمات، مثل ما بين house و building "مبنى"، مثلاً. أو، إن أخذنا خصيصةً أكثر لفتًا للنظر، إن كان جون يصبغ البيت بنيًّا، فهو يصبغ السطح الخارجي للبيت، لا السطح الداخلي؛ وهي علاقة "اقتضاء" تلزَم بين التعبيرات اللغوية.

وحين ننظر في علاقات الاقتضاء صوريًا نجد أن لها المنزلة نفسها تقريبًا التي للسجع؛ فهي علاقات صورية بين التعبيرات، ويمكن وصفها في ضوء سماتها اللغوية. وبعضُ العلاقات مهمة، بوصفها متمايزة عن علاقات أخرى كثيرة ليست كذلك، وذلك للطرق التي تُدمج بها "اللغات ــ د" في أنظمة الأداء التي تستخدم هذه التعليمات من أجل أنشطة بشرية مختلفة.

وبعضُ خصائص هذا التعبير كلِّية، وبعضُها خاص بلغة معينة. فمن الخصائص الصوتية الكلية أن الحركة في house أقصر من الحركة في brown؛ ومن الخصائص الخاصة أن هذه الحركة في "لغتي ــ د" أماميةٌ لا متوسطة، كما في بعض "اللغات ــ د" الشبيهة بلغتي. ويبدو أن كون البيت البني يتصف بأن سطحه الخارجي بني، لا داخله، حقيقةٌ لغوية كلية، تصدق على الكلمات التي تدل على "الاحتواء"، ويشمل ذلك الكلمات التي يمكن اختراعها، مثل: box "صندوق"، و airplane "طائرة"، igloo "نوع من الأكواخ عند الإسكيمو"، و lean-to "ملحق بالبيت له سطح منحدر"، إلخ. فأن تصبغ مكعبًا كرويًا بلون بني يعني أن تجعل له سطحًا خارجيًا بنيًا. وتمييزُ house "بيت" في الإنجليزية عن home "منزل" سمةٌ خاصة في "اللغة ــ د". فأنا أعود، في اللغة الإنجليزية، إلى "منزلي" home بعد العمل؛ أما في العبرية فأنا أعود إلى "بيتي" house [١٠].

وإذا تجاوزنا البنية المعجمية، نتلقى النتائجُ عن غنى الحالة الأولى للملكة اللغوية، وبنيتها المقصورة عليها فيما يبدو، دعمًا أقوى. انظر إلى تعبيرات كالتي في المثال رقم (٢):

٢أ ــ He thinks the young man is a genius.
"يظن أن الفتى عبقري".

٢ب ــ The young man thinks he is a genius.
"يظن الفتى أنه عبقري".

٢ح ــ His mother thinks the young man is a genius.
"تظن أمه أن الفتى عبقري".

فيمكن أن يعتمد الضمير في (٢ب) أو (٢ج) إحاليًا على the young man ؛ أما في (٢أ) فذلك غير ممكن (مع إمكان استخدامه في الإحالة إلى الغنى المتحدَّث عنه هنا، وهو أمر لا صلة له هنا). فيبدو أن المبادئ التي تقوم عليها هذه الحقائق كلية، إلى حد بعيد في الأقل[16]؛ كما ينتج عنها شروطًا غنية على التأويل الدلالي، والارتباطات الذاتية للمعنى بين التعبيرات، ومن تلك الارتباطات التحليلية. يضاف إلى ذلك أن لدينا في هذا المجال نتائج نظرية على درجة بعيدة من العمق، ولها مقتضيات معاجلة. فيبدو – لذلك – أن هذه المبادئ نفسها تنتج الخصائصَ الدلالية للتعبيرات التي تماثل من حيث الشكل المثال رقم (١)، في ص.

ويعرض التمثيلُ في المستوى الوجيهي "ص ص"، في ضوء أنظمة الأداء، شروطًا تقييدية على الاستخدام (أي على النطق والإدراك، في هذه الحالة). ويصح الشيء نفسه عن التمثيل "ص م"، كما يوضّح المثالان (١) و(٢)، أو كما يتمثل، في المستوى المعجمي، في الوضع الخاص للسطح الخارجي في الكلمات التي تدل على "الاحتواء". ويبيّن الفحصُ المحقّقُ مزيدًا من التعقيد. فيميّز السطحُ الخارجي بطرق أخرى ضمن دلالة "اللغة ـــ د". فإذا كنت أرى البيت فإني أرى سطحه الخارجي؛ أما رؤية سطحه الداخلي فلا تكفي. وإذا كنت داخل طائرة فلا أرى سطحها الخارجي إلا إذا نظرت عبر النافذة لأرى سطح الجناح، أو إذا كانت هناك مرآة في الخارج تعكس سطح الطائرة الخارجي. لكن البيت ليس سطحه الخارجي وحسب، فهو وحدة هندسية. فإذا كان بيتر وماري على مسافة متساوية من السطح ــ حيث يكون بيتر داخل البيت وماري خارجه ــ فلا يكون بيتر قريبًا من البيت، أما ماري فربما تكون، تبعًا للظروف الحالية للقُرب. ويمكن أن يحوي البيت كراسي في داخله أو في خارجه، وهو ما يتماشى مع اعتباره سطحًا. ومع أنه يمكن أن تكون الكراسي التي في خارج البيت قريبة منه، إلا أن التي في داخله ليست كذلك بالضرورة. لذلك يدخل في البيت سطحُه الخارجي وسطحُه الداخلي، لكنَّ داخله يترك شكل تجريدي؛ فيظل البيت نفسه إن ملأْتَه بالجُبن أو

أزلت جدرانه ــ مع أنني إن نظفت البيت فربما أتعامل مع الأشياء التي في حيزه الداخلي فقط، وأنا أحيل إلى هذه الأشياء وحدها حين أقول إن البيت غير مرتب أو أنه بحاجة إلى زخرفته من جديد. فيُدرك البيت على أنه سطح خارجي وحيز داخلي (بخصائص معقدة). صحيح أن البيت نفسه شيء مادي محسوس؛ إذ يمكن أن يبنى بالطوب أو الخشب، كما أن البيت الخشبي ليس مكونا من سطح خارجي خشبي فقط. والبيت الخشبي البني له سطح خارجي بني (بالمنظور المجرد) وهو مبني من الخشب (بالمنظور الحسي). وإذا كان بيتي my house في فيلادلفيا لكنه الآن في بوسطن، فهذا يعني أن شيئًا ماديًّا انتقل. وبالمقابل، فإذا كان منزلي my home في فيلادلفيا لكنه الآن في بوسطن فلا يعني هذا بالضرورة أن شيئًا ماديًّا انتقل، مع أن منزلي my home شيء مادي كذلك ــ وإن كان بطرق أخرى مجردًا كذلك، سواء أفهم أنه البيت الذي أعيش فيه أم المدينة أم البلاد أم الكون؛ فالبيت مادي حسي بمعنى مختلف جدا. وللتمييز بين house-home "بيت ــ منزل" مقتضيات كثيرة؛ فأن:

I can go home.

"أستطيع العودة إلى منزلي".

لكن:

I can not go house.

"لا أستطيع العودة إلى بيتي".

و:

I can live in a brown house.

"يمكن أن أعيش في بيت بني".

لكن:

I can not live in a brown home.

"لا يمكن أن أعيش في منزل بني".

وتأتي الكلمة المماثلة لـ home "ظرفا" في كثير من اللغات، كما هي الحال في الإنجليزية جزئيا.

فنحن نرى [من هذا] أن الشروط الداخلية على المعنى، حتى في هذا المثال البسيط، غنية ومعقدة ولا تلفت النظر؛ بل لا تكاد تُعرف. ولا تحلم أكثرُ المعاجم تفصيلا أن تبيِّن مثل هذه التفصيلات الدقيقة؛ فهي لا تـوفِّر إلا بعض الإيحاءات التي ربما تُساعد الذين يعرفون التصور المقصود (من حيث بعض الاعتبارات الأساسية، في الأقل) على اكتشافه. لذلك يعمل "النوع ـ د" عند فريجه بطرق متداخلة غريبة.

ويبدو للنظر الأول أن هناك شيئًا متناقضًا في هذه التوصيفات، ذلك أن houses "البيوت"، و homes "المنازل" أشياء مادية، لكنه يُنظر إليها، من زاوية أخرى، على أنها مجرَّدة إلى حد بعيد، وإن كانت مجردة بطرق مختلفة جدًا؛ كذلك الكتبُ ومجموعةُ أوراق اللعب والمدن، إلخ. ولا يعني ذلك أن لدينا أفكارًا مشوشة ــ أو اعتقادات غير مطردة ــ عن البيوت أو المنازل أو الصناديق أو الطائرات أو الكهوف أو المكعبات المكوَّرة، إلخ. بل يعني أن الوحدة المعجمية تمدُّنا بعدد من الزوايا للنظر إلى ما نعدُّه أشياء في هذا العالم، أو ما ندركه بطرق أخرى؛ وتُشبه هذه الوحداتُ المصافي أو العدسات، فهي توفِّر لنا طرقًا للنظر إلى الأشياء وطرقًا للتفكير فيما تُنتجه عقولُنا. والكلمات نفسُها لا تُحيل، إن استخدمنا الكلمة "يُحيل" بمعناها في اللغة الطبيعية، في الأقل، لكن الناس يمكن أن يستعملوها في الإحالة إلى الأشياء حين ينظرون إليها من زوايا معينة ــ وهي زوايا بعيدة جدًا عن طرق العلوم الطبيعية، كما أشرنا.

ويصح الشيء نفسه في أي جانب ندرُسه من "اللغة ـ د". فليست "لندن" خرافة، لكن حين ننظر إليها على أنها "لندن" ــ أي من خلال منظور اسم مدينة، وهو نوع خاص من التعبير اللغوي ــ فإننا نُسبغ عليها بعض الخصائص الغريبة: فنسمح، كما لاحظنا سابقًا، بأنه يمكن في بعض الظروف أن تدمَّر تدميرًا تامًا ثم يعاد بناؤها في مكان آخر، بعد سنين بل بعد آلاف السنين، لكنها تظل هي "لندن"، أي المدينة نفسها. وقد وصف تشارلز ديكنز

مدينة وشنطن بأنها "مدينة ذات مقاصد عظيمة"، فهي تتميز بـ "طرق واسعة، تبدأ من لا شيء، وتؤدي إلى لا مكان؛ وبشوارع طول الواحد منها ميل، لكنها لا تحتاج إلا إلى بيوت وجواد وسكان ومبان حكومية؛ لا تحتاج إلا إلى أناس لتكون كاملة [يتلاعب ديكنز بكلمة public في عبارة public buildings "مكاتب حكومية"، و public "الناس"]؛ وأبهة في الشوارع، لكنها لا تحتاج إلا لشوارع عظيمة ذات أبهة" ــ ومع ذلك تظل هي واشنطن. ويمكن أن ننظر إلى لندن باعتبار سكانها أو من غير اعتبار لهم؛ فهي، من جهة، المدينةُ نفسُها حتى إن هجرها سكانها؛ ونستطيع أن نقول، من جهة أخرى، إن لندن صارت ذات شعور فظ إبان رئاسة مارجريت تاتشر للحكومة، وهو تعليق يتصل بالكيفية التي يتصرف فيها الناس ويعيشون. وربما كنا نتحدث، في إحالتنا إلى لندن، عن موقعٍ أو منطقة أو أناسٍ يعيشون هناك أحيانا، أو عن الهواء في سمائها (لكن يجب أن يكون الهواء القريب من سطح أرضها فقط)، أو عن مبانٍ أو مؤسسات، إلخ، وبطرق كثيرة للجمع بين هذه الأشياء (كما في: "لندن تعيسة جدا، وقبيحة وملوثة إلى درجة توجب تدميرها وإعادة بنائها على بعد مائة ميل من موقعها الحالي"، لكنها تظل هي المدينة نفسها). فنستعمل كلماتٍ مثل "لندن" للحديث عن العالم الواقعي، لكن ليس هناك "أشياء في العالم" تتصف بالخصائص المعقدة لطرق الإحالة التي يلخصها اسمُ مدينة ولا يعتقد أحد أن هناك شيئًا مثل ذلك. ويمكن أن يدخل منظوران من مثل هذه المنظورات بشكلين مختلفين في نظام الاعتقاد عند بيتر، كما في الاختبار المحيّر عند سول كْريبك Kripke's puzzle. (للاطلاع على نقاش مستفيض من وجهة نظر مماثلة تقريبا، انظر Bilgrami 1992).

ونحن نصوغ، من أجل أهداف البحث العلمي الطبيعي، صورةً للعالم منفصلة عن هذه المنظورات "البديهية" (ولن يكون هذا الانفصال تامًّا بالطبع؛ إذ لا يمكن أن نكون إلا الكائنات التي هي نحن)[27]. أما إذا مزجنا بين هذين الضربين المختلفين للتفكير عن العالم فربما نكتشف أننا نعزو إلى الناس

اعتقادات غريبة بل متعارضة أحيانًا عن أشياء ينبغي أن يُنظر إليها بمعزل عن الوسائل التي توفرها "اللغة ـــ د" وأنظمة "الاعتقاد ـــ د" التي تضيف مزيدًا من التعقيد للتأويل. وسيبدو الوضع أكثر غموضًا إن تبنينا الفكرة الغامضة التي مفادها أن لبعض الكلمات علاقة بالأشياء (أي: "إحالة") محددة في لغة عامة مشتركة ما، وهي التي ربما توجد "باستقلال عن أي متكلمين معيَّنين" يمتلكون "فهمًا جزئيًا باللغة، وربما يكون وعيًا جزئيًا خاطئًا" (Dummett 1986)؛ وأنّ هذه "الكلمات في لغة عامة" تحيل في اللغة المشتركة (بمعنى ما يزال بحاجة إلى تفسير) إلى أشياء مثل "لندن" منظورًا إليها على أنها شيء منفصل عن الخصائص التي يوفرها اسمُ المدينة (أو بعض الطرق الأخرى للتعيين) في "لغة ـــ د" ما، ومنفصل عن العوامل الأخرى التي تدخل في الطريقة التي يحيل بها بيتر إلى "لندن". وسيبدو كأن المشكلات تتعمق بشكل أكبر حين تجرّد من خلفيات الاعتقادات الفردية أو المشتركة التي تقبع وراء الاستخدام المألوف للغة. وتذهب هذه المحاولات جميعها وراء حدود أية مقاربة علمية طبيعية، بل ربما يكون بعضها وراء أي نقاش معقول.

كما تذهب هذه المحاولات وراء حدود المقاربة الداخلية، وهو أمر مختلف. فلا تَفرض المقاربة العلمية الطبيعية حدودًا داخلية فردية. ومن هنا، فإذا درَسنا (بعض الأشياء المناظرة) للأشخاص بصفتها أطوارًا في تاريخ بعض الخلايا الجرثومية التي لا تفنى في الحالات المثالية، أو بصفتها مراحل في تحولِ الأكسجين إلى ثاني أكسيد الكربون، فإنا بذلك نتخطّى هذه الحدود. أما إن كنا نهتم بتفسير ما يفعله الناس، وبمعرفة السبب الذي يجعلهم يعملون ما يعملون، بقدر ما يكون ذلك ممكنًا عن طريق البحث العلمي الطبيعي، فستبدو الحجة التي يُحتج بها لعدم تجاوز هذه الحدود مقنعة[٢٨].

وكنا بدأنا بالنظر في الاكتشاف (الافتراضي) أن دماغ بيتر يُنتج الصورة C حين يفكر بالقطط. ثم انتقلنا إلى المثال الأكثر واقعية وهو

"الإمكانات الكهربائية ذات الصلة بالحدث" ERP ، وانتقلنا بعد ذلك إلى مثال نعرف من سمعه واقعية (من وجهة نظر علمية) وهو "أنظمة التمثيلات الحوسبية"؛ ويمكن النظرُ إلى عناصرها على أنها تشبه C، لكنها الآن عناصر واقعية، لا افتراضية، كما توحي بذلك الأدلةُ المتوفرة. وربما يكون الأمر نفسه صحيحًا عن مقاربة طبيعية علمية تتجاوز هذه الحدود الداخلية، ناظرة إلى دماغ بيتر بوصفه جزءًا من نظام أوسع للتفاعلات. لذلك ربما لا يكون التشابهُ الآن مع الصورة C التي تتكوّن في دماغ بيتر حين يفكر بالقطط، بل مع صورة مادية ما ´C تتضمن C إلى جانب أشياء أخرى، وربما يكون هذا الشيء عن القطط. ونحن الآن في مجال الافتراض ــ ولا أعرف بديلاً جادًا آخر. لكن افترض أنه صار من الممكن صياغة مثل هذا البديل، وبرهن على أنه يؤدي إلى فهم أعمق للأسئلة المتعلقة باستخدام اللغة. وإذا كان الأمر كذلك فربما يعدّل هذا الطرق التي ندرس بها اللغة وعلم النفس، لكنه لن يقودنا إلى تفسير للناس وما يفعلونه.

ويلزم أن نميّز بين مقاربة علمية طبيعية خارجية افتراضية من النوع الذي بيناه باختصار آنفًا ومقاربة خارجية غير طبيعية تحاول أن تعامل الفعل البشري (كالإحالة إلى القطط أو التفكير عنها، إلخ) في سياق الجماعات، سواء أكانت أشياء حقيقية في العالم أم متخيلة، إلخ. ويجب الحكم على هذه الأنواع من المقاربات انطلاقًا من طبيعتها، بوصفها جهودًا لإضفاء معنى على الأسئلة التي تقع خارج البحث العلمي الطبيعي ــ كالأسئلة عن الطاقة والأحجار الساقطة والسماء، إلخ ــ بالمعنى المألوف لهذه الكلمات. وقد ذكرتُ بعض الأسباب التي تشكك في اللجوء إلى الجماعات وممارساتها، أو اللغات العامة بما لها من معان عامة. لكن دعنا نوجّه أنظارنا إلى وجه آخر من المقاربة الخارجية، وهو العلاقة المزعومة بين الكلمات والأشياء.

فهناك نظريات تفسيرية مهمة جدًا ضمن علم الدلالة الداخلي طُوِّرت بحسب علاقة "ح" R (من refer) [يُحيل] يُفترض أنها موجودة بين التعبيرات

اللغوية وأشياء أخرى، أي وحدات تُستخلص من مجال "م" D [Domain] مفترضٍ ما (وربما يكون "القيم الدلالية")[19].

فتلزم العلاقة "ح" R ، مثلاً، بين تعبيراتٍ مثل "لندن" ("بيت"، إلخ) ووحدات المجال "م" D التي يفترض أن لها علاقة بما يحيل الناسُ إليه حين يستخدمون كلمة "لندن" ("بيت"، إلخ)، مع أن تلك العلاقة المدّعاة ما تزال غامضة. وكما لاحظنا من قبل، ينبغي، كما أظن، أن يُنظر إلى هذه النظريات على أنها نوع من التركيب. ذلك أن العناصر التي تفترضها شبيهةٌ، من حيث الاعتبارات ذات الصلة هنا، بالتمثيلاتِ الصواتية أو تمثيلات البنية المركبية، أو الصورة المفترضة C في الدماغ؛ وربما صح لنا دمج "ح" و"م" (D و R) في الوصف البنيوي SD (أي التعبير اللغوي)، بوصفهما جزأين من مستوى وجيهي ما.

ويصاغ تفسيرُ الظواهر التي في المثال (٢) (ص ١٣٢-١٣٣) عادةً في ضوء العلاقة "ح". فيمكن أن نطبّق عليها نظرياتِ الربط وعودِ الضمائر نفسها من غير تغيير جذري إن استبدلنا بـ young في المثال (٢) صفاتٍ كـ average "متوسط"، أو typical "نمطي"، أو استبدلنا John Doe بـ the young man ، إذا أخذناه على أنه الرجل المتوسط من أجل أغراض خطاب معين[20]. ويمكن أن تنطبق النظريات نفسُها على خصائص عود الضمائر في الأمثلة (٣) و(٤):

٣أ ـ It brings good health's rewards.

"إنها تأتي بفوائد الصحة الجيدة".

٣ب ـ Good health brings its rewards.

"الصحة الجيدة تأتي بفوائدها".

٣ج ـ Its rewards are what make good health worth striving for.

"إن فوائدها هي ما يجعل الصحة الجيدة تستأهل السعي لها".

٤أ ــ [There is a flew in the argument], but it was quickly found.

"[هناك عيب في الحجة]، لكنه اكتُشف بسرعة".

٤ب ــ [The argument is flawed], but it was quickly found.

"[الحجة معيبة] لكنه سرعان ما اكتُشف".

نحن نستطيع في ضوء العلاقة "ح" التي تفترض بين the average man و John Doe, good health, flaw، والوحدات المستخلَصة من "م"، أن نعلل السلوكَ المختلِف للضمير بالطريقة نفسها التي يمكن أن نفسر بها حالة the young man, Peter, fly (كما في الجملة there is a fly in the coffee "هناك ذبابة في القهوة"). فتختلف علاقات الضميرين العائدين في (٤أ، و ٤ب)، مع أنه ليس هناك اختلاف في المعنى بين العبارتين المحصورتين بين الأقواس المعقوفة. وربما نكتشف أن هذه التعبيرات، إلى جانب تعبيرات أخرى مثل the argument has a flaw "في الحجة عيب" (مع اختيارات عود الضمائر في (٤أ))، ما تزال تشترك في بعض الخصائص البنيوية الأكثر عمقا، بل ربما تشترك حتى في التمثيل البنيوي نفسه في المستوى ذي الصلة بالدلالة الداخلية للعبارات، وهو احتمال كان مجالاً للبحث منذ سنوات عدة (انظر Tremblay 1991)[٣١] ويصح الشيء نفسه في حالات أكثر غرابة. فربما يبدو نوعًا من الحُمْق أن نبحث عن علاقة بين بعض الوحدات في "م" والأشياء الموجودة في العالم ــ سواء أكانت تلك الأشياء حقيقية أم متخيلة، أم غير ذلك ــ أي علاقة تتصف بأي قدر من العمومية، في الأقل. وربما يتخيل أحدٌ أنّ علاقة العناصر في "م" بالأشياء في العالم أكثرُ "شفافية" مما هي في حالة التمثيلات التركيبية الأخرى، مثلما أن علاقة الموجات الصوتية أكثرُ "شفافية" بالأصوات منها بالتمثيلات الصواتية؛ لكن حتى إن كان الأمر كذلك، فلا تتجاوز هذه الدراسات حدود تركيب التمثيلات الذهنية. أما العلاقة "ح" والمركبُ "م" فيجب تفسيرهما بالأسباب نفسها التي تسوّغ الأفكار التركيبية المعينة الأخرى، أي الأفكار الصواتية، أو أصناف المقولات الفارغة في

التركيب. ومن هنا قليس للتشابه العارض بين العلاقـة "ح" R والمصطلح refer "يحيل" فى اللغة العادية من الأهمية ما يزيد عن الأهمية التـى ربمـا تكون له في حال المصطلحين [الفيزيائيين التقنيين] momentum "الزّخم"، و undecidability "اللايقين ".

فنحن لا نمتلك، على وجه التحديد، أى حدس عن "ح" إلا بقـدر مـا نمتلكه من حدس عن كلمات مثل momentum أو undecidability بمعنييهما التقنيـين، أو عـن c-command "الـتحكّم المكـوّني" أو autosegmental "المستوى القطعي المستقل" في (الأجزاء الأخرى) من النظريات الحوسـبية للتركيب[22]؛ إذ تأخذ هذه المصطلحات المعاني التي نسبغها عليهـا. ونحـن نمتلك أحكامًا حدسية عن الفكرة المستخدمة في تعبيرات مثل:

Mary often refers to the young man as a friend.

(to the average man as John Doe, to good health as life's highest goal)

"تحيل مارى غالبًا إلى الفتى بوصفه صديقا (وللرجل المتوسط بوصفه جون دو، وللصحة الجيدة بوصفها أسمى هدف للحياة)"

لكننا لا نملك مثل هذه الأحكام عن العلاقة "ح" الموجودة بـين Mary (أو: the average man, John Doe, good health, flaw) والعناصر المفترَضة فى "م". ذلك أن "ح" و "م" هما ما نحدد أنه هما، ضمن إطار معين للتفسـير النظرى. ويمكن أن نقارن "ح" و "م" بـــ P "ص" و PF "ص ص"، حيـث تكون "ص" P علاقة بين تعبير ما والتمثيل الصوتي "ص ص" PF له (وربما بين الكلمة took وكيفية نطقها، أي: [thuk])، مع أن التصورات فى الحالـة الأخيرة تدخل ضمن نظرية أقوى تأسيسا وأكثر غنى للعلاقات الوجيهية.

هب أننا استطعنا تسويغ افتراض وجود "ح" و "م" بحجاجه التفسيرى ضمن نظرية التمثيلات الحوسبية "للغة ـــ د"، إلى جانـب "ص" و "ص ص" و "الـتحكم المكـوّني" c-command و "المسـتوى القطعـى المسـتقل"

autosegmental، لكن هذه النتيجة لن تعزّز الاعتقاد بأن هناك علاقة شبيهة بالعلاقة "ح"، ولنسمها العلاقة R´ "ح"، تقوم بين الكلمات والأشياء، أو بينها وبين الأشياء كما نتخيّل أن تكون، أو كما نتصوّر بدلاً من ذلك. فيجب أن يسوّغ افتراضٌ مثل هذه العلاقة على أساسٍ ما، كما هي الحال في أية فكرة تقنية مخترعة أخرى. ثم إنا إنْ صغنا علاقة R´ "ح" تلزم بين التعبيرات اللغوية و"الأشياء" التي تفهم بشكل ما، فلن نمتلك حدسًا عنها؛ إذ لا تزيد الأمورَ إلا غموضًا إنْ توسّلنا ببعض الأفكار التي لم تُفسَّر "للجماعة" أو "اللغة العامة"، حين نأخذهما بمعنى خالصٍ ما. ومع ذلك فنحن نمتلك بالفعل أحكاما حدسية عن التعبيرات اللغوية والمنظورات وزوايا النظر المعينة التي توفّرها للتأويل والتفكير. ويمكن كذلك أن ندرس كيف تدخل هذه التعبيرات والمنظورات في النشاطات الإنسانية المختلفة، كالإحالة. أما وراء ذلك، فندخل في مجال النقاش التقني، محرومين من الأحكام الحدسية.

انظر مثلاً إلى التجربة الذهنية المشهورة "توءم الأرض" عند بتنام (Putnam 1975). فهي تبيّن أنه لا يمكن الحدس بما إن كان لـ water "ماء" "المرجعُ" نفسُه عند أوسكار وتوءم أوسكار؛ إذ الحكمُ في هذا من أمور القرار بشأن المصطلح التقني الجديد "إحالة" (وهو اختيار معين لـ "ح" R´). لكننا يمكن أن نُصدر بعض الأحكام عن الشيء الذي ربما كان أوسكار وتوءم أوسكار يحيلان إليه، وهي أحكام يبدو أنها تتنوع بشكل كبير، تبعًا لتنوع الظروف. وتبدو اقتراحات بتنام عن "السائل نفسه"، وهي فكرة (ربما لا تكون معروفة) في العلوم الطبيعية معقولةً جدًا، في بعض الظروف المعينة؛ كما يبدو أن فكرتَي "التماثل" و"التشابه" المأخوذتين من الفهم البديهي أكثرُ ملاءمة، في بعض الظروف الأخرى، ويمكن أن يقودا إلى أحكام مختلفة. ولا يبدو لي واضحا أنه يمكن أن نقول شيئًا عامًّا عن هذه الأمور، أو أنه يمكن أن نُسبغ معنى عامًّا أو مفيدًا على أفكار تقنية كـ "المضمون الواسع" (أو أية فكرة أخرى لتحديد "الإحالة") في أي تأويل خارجي.

وإذا كان الأمر كذلك فهذا يثير عددًا من الأسئلة عن وضع ما يسميه بتنام، في محاضرات لـوك (Putnam 1988a: Chapter 2)، بـ "التعاون الاجتماعي مضافًا إليه إسهامُ النظرية البيئية في تحديد الإحالة"، وهو وجهة أكثرُ كمالاً "للنظرية السببية للإحالة" التي طوّرت في بحثه: "معنى "المعنى"" (Putnam 1975) وفي بحث سول كريبك: "التسمية والضرورة" (Kripke 1972)، وهما البحثان اللذان صارا الآن من المعالم البارزة في هذا المجال.

ويتعلق "التعاون الاجتماعي" بـ"تقسيم العمل اللغوي": أي بدور الخبراء [اللغويين] في تحديد ما تحيل إليه الكلمتان: Elm "شجر الدردار" و beech "شجر الزان"، في لهجتي، مثلاً. ويقدّم بتنام تفسيرًا مقنعًا لبعض الظروف المحدّدة. فيمكن لي في بعض الظروف أن أوافق، حقيقةً، على أنّ ما أُحيل إليه حين أستخدم كلمة Elm هو المعنى الذي يعنيه أحدُ الخبراء، وربما كان هذا الخبير إسبانيًا أو إيطاليًا لا أشترك معه إلا في المصطلحات اللاتينية (مع أنه ليس هناك معنى حقيقي نكون أنا وهو في ضوئه منتميين إلى "الجماعة اللغوية" نفسها أو نتكلم "لغة مشتركة")؛ أما في ظروف أخرى، فربما لا أتفق معه، لكن هذا متوقع في بحث يتوسّع ليشمل "التنظيم الوظيفي البشري" الكامل، وهو ما يكاد يكون دراسةً لكل شيء. وكما ذكرنا من قبل، فليس واضحًا إن كان هذا السؤال يتعلق بـ "اللغة ـ د" أم بـ "الاعتقاد ـ د"، إن افترضنا صحة الصياغة النظرية.

أما "نظرية البيئة" فربما لا تستطيع الإسهام في تعيين الإحالة إلا بوجود فكرة متماسكة "للإحالة" ("ح" R) تلزم بين التعبيرات اللغوية والأشياء، وهو أمر غير واضح تمامًا، وإن كان الناس يستخدمون، حقيقة، هذه التعبيرات (بطرق مختلفة) في الإحالة إلى الأشياء، متبنين وجهات النظر التي توفرها هذه التعبيرات. فهناك ظروف يمكن فيها أن تكون بعضُ النتائج المعيّنة التي نستخلص عادةً ملائمةً، وهي التي تساعد فيها أفكارٌ مثل "النوع نفسه" و"السائل نفسه"، إلخ، في تحديد الأشياء التي أُحيل إليها؛ كما أن هناك

بعض الظروف الأخرى التى لا يتحقق فيها ذلك[٢٣].

ولا يبدو واضحا كذلك إن كانت بعضُ القضايا الغيبية metaphysical مبرر فى هذا السياق. ولا شك أن هناك اختلافًا حدسيًا، حين ننظر فى بعض الأمثلة التى جاء بها كريبك، بين الحكم باحتمال أن يكون نيكسون "الشخص نفسه" إن لم يكن قد انتُخب رئيسًا للولايات المتحدة سنة ١٩٦٨، في حين أنه ربما لن يكون الشخص نفسه إن لم يكن شخصًا أصلا (كأن يكون تمثالا له مصنوعا من مادة السليكون، مثلا). لكن هذا يترتب على كون "نيكسون" اسم علَم، وهو ما يوفِّر طريقةً للإحالة إلى نيكسون "بوصفه شخصا"؛ وليس لهذا أهمية غيبية. أما حين نجرِّد من المنظور الذى توفِّره اللغة الطبيعية التى لا يبدو أنها تحوى أسماء خالصةً بالمعنى الذى عند المناطقة (ويصح الشيء نفسه عن "المتغيِّرات"، إن عُدَّت الضمائر متغيرات، في الأقل، وعن الإشارات indexicals ، إن نظرنا إلى الشروط الفعلية لاستخدامها في الإحالة)، فإن هذه الحدوس تتهاوى حينئذ: فربما يكون نيكسون، كما أفترض، "وحدةً" مختلفة، إن رُجِّل شَعرُه بطريقة مختلفة. وليس الشيء الذى أمامي مكتبًا أو طاولة أساسا؛ إذ ربما يكون ذلك الشيء على وجه الدقة عددا من الأشياء المختلفة، تبعًا لتنوُّع الاهتمامات والوظائف ومقاصدِ مخترعه، إلخ. ومما يمكن الاستشهاد به البحثُ الذى أنجزه جوزيف ألموج مؤخرا؛ ويتضمن أنه يمكن فهم الحكم بأنّ جبل Nanga Parbat جبلٌ "أساسًا" في ظروف معينة؛ إلا أنه يبدو لي أن "اختبار التجريد المتماسك" الذى اقترحه، وخلافًا لما يفترضه، يسمح لنا، في ظروف أخرى، أن نحرم Nanga Parbat من هذه الخصيصة، ومع هذا يظل الشيء نفسه: كأن يرتفع البحرُ إلى مستوى كاف لتصير قمتُه جزيرة، وهي الحالة التى لن يكون عندها جبلاً أكثر من كون بريطانيا جبلا؛ أو إن تجمَّع الترابُ حوله حتى لم يبق بارزًا من قمته إلا مليمتر واحد، وهي حالة لن يكون عندها جبلاً، بل جزءًا من هضبة يحيط بها منخفض، ومع هذا يظل هو الشيء نفسه تماما (Almog 1991).

ولتلخيص ما قلناه، فمن المشكوك فيه أن تستطيع النتائج النموذجية الصمود في وجه تحليل مدقق للفكرتين التقنيتين لـ"إحالة" (بأحد المعاني الشبيهة بـ "ح" R) أو "تحديد الإحالة". وربما يكون هناك مسوغ للفكرة "ح" R في نظريات التمثيل الحوسبية (وهي فكرة تركيبية أساسًا، بالرغم من المظاهر التي تظهر بها). لكن لا يبدو أن هناك سببًا قويًا للافتراض بأنه يمكن أن تصاغ فكرة شبيهة بـ "ح" ´R بصورة متماسكة ومفيدة بوصفها علاقة تلزم بين التعبيرات وبعض أنواع الأشياء، بمعزل عن بعض الشروط والظروف الخاصة بالإحالة. وإذا كان الأمر كذلك فلن يكون هناك أيضًا بحث معقول في فكرة لـ"معنى" أو لـ"مضمون" تعمل على "تثبيت الإحالة" ("ح" R)، في اللغة الطبيعية في الأقل، مع أن هناك بحثًا (تركيبيًا) واعدًا عن الشروط التي تحكم استخدام اللغة (ويشمل ذلك الإحالة).

وكما ناقشنا من قبل، فربما يؤدي البحث العلمي الطبيعي إلى إيجاد أشباه للغة تزاد على "اللغة ـ د"؛ وربما تكون هذه الفكرة الشبيهة بـ ´R ملائمة لهذه؛ ذلك أن الكلمات تجرّد الآن من خصائص "اللغة ـ د" التي توفر منظورات تأويلية وعلاقات دلالية، ويفك ارتباطها بـ"الاعتقاد ـ د"، ويُسبغ عليها خصائص لا توجد في اللغة الطبيعية. وربما تَستخدم هذه الأنظمة الاصطناعية موارد "اللغة ـ د" (كطريقة النطق والصرف وبنية الجملة، إلخ)، أو تتجاوزها (باستخدام بعض الصياغات الرياضية الصورية، مثلا). و"اللغة ـ د" نتاج للملكة اللغوية، وهي مجرّدة عن المكونات الأخرى للذهن؛ وهذه أمثلة بالطبع، لذلك يجب تسويغها أو رفضها اعتمادًا على الدور الذي تقوم به في إطار تفسيري. ويمكن توسيع هذه الصورة، بشكل معقول كما يبدو، بالتمييز بين نظام الاعتقاد البديهي وما تنتجه ملكة صياغة العلم. ولا ينتمي ما تنتجه ملكة صياغة العلم إلى أنظمة "اللغات ـ د" ولا لأنظمة "الاعتقاد ـ د"، لهذا ربما يكون من الملائم افتراض علاقة "ح" ´R لها.

وتأتي بعض الدوافع للمقاربات الخارجية من الانشغال بإضفاء معنى

على تاريخ العلم. لهذا، يرى بتنام أنه ينبغي أن نأخذ نتائج أبحاث نيلز بور Neils Bohr المبكرة على أنها تحيل إلى الألكترونات بمعناها في النظرية الكمية، وإلا ربما يلزمنا "أن ننظر إلى اعتقاداته كلها التي كان يعتقدها في سنة ١٩٠٠م على أنها خاطئة تماما" (Putnam 1988a)، وهي التي ربما كانت شبيهة بالاعتقاد بالملائكة [أي بأشياء غيبية]، وهذه نتيجة رائعة بكل وضوح. ويصبح الأمر نفسه عن حديث علماء الكيمياء قبل دالتون Dalton عن الذرات. فربما نقول أيضا، تأسيسا على الأسباب نفسها، إن علماء الكيمياء قبل أفوجادرو Avogadro كانوا يحيلون إلى ما نسميه ذرات أو جزيئات، مع أنهم كانوا يستخدمون هذه المصطلحات بعضها مكان بعض، كما يبدو.

وتفترض هذه المناقشة أن مصطلحات كـ"الألكترون" تنتمي إلى النظام نفسه الذي تنتمي إليه كلمات مثل "بيت" و"ماء" والضمائر العائدة، لذلك يمكن انطباق النتائج عن "الألكترون" بحذافيرها على الأفكار من الصنف الثاني. وتبدو تلك الفرضية ضمنيةً في اقتراح بتنام الذي مفاده أنه "لكي نكتشف التعقيد الذاتي لمهمة ما ينبغي أن نسأل: How hard is it in the hardest case? "ما مبلغ صعوبة هذه المهمة في أصعب حالة؟"، حيث تمثل بعض التصورات مثل "الزخم" momentum، أو "ألكترون" electron في الفيزياء "أصعب حالة" لـ "المرجع نفسه" أو "المعنى نفسه". لكن هذه الفرضية مشكوك فيها. إذ يجب أن تسعى دراسة اللغة إلى الوصول إلى صورة أكثر تبيينٌ للفوارق، ثم إنّ ما يصح في الصياغات التقنيّة التي تنتجها ملكة صياغة العلم ربما لا يصح عن معجم اللغة الطبيعية، لكن افرض أننا سلمنا بهذه النقطة مع ذلك. ثم وافقنا كذلك على أن الاهتمام بالمعقولية intelligibility في الحصاب العلمي عبر الزمن اهتمامٌ مقبول، فإن هذا ما يزال غير صالح ليكون أساسا لنظرية عامة عن المعنى؛ فهو اهتمام واحد من بين اهتمامات كثر، كما أنه لا يمثّل اهتماما مركزيًّا في دراسة النفسية البشرية. رد على ذلك أن هناك طرقًا تفسيرية داخلية بديلة. لهذا ربما نقول إن بور عبّر، في

استخدامه المبكر، عن اعتقادات كانت رائعة تماما، إذ لم يكن هناك شيء من النوع الذي كان في ذهنه حين كان يحيل إلى الألكترون؛ لكن صورة العالم في ذهنه والتعبير عنه كانتا شبيهتين بيوياً إلى حد بعيد للتصورات اللاحقة، وهو ما يجعلنا نستطيع التمييز بين اعتقاداته عن الألكترون واعتقاداته عن الملائكة. وأكثر من ذلك أن هذا يبدو طريقاً معقولاً في البحث.

وإذا أخذنا مثالاً أبسط من ذلك بكثير من دراسة اللغة، انظر إلى النقاش الذي كان يجري قبل ثلاثين عامًا عن طبيعة الوحدات الصواتية. فقد افترض الصواتيون البنيويون وحدات صوتية (أي: الصوتيات phonemes) وسمات صوتية تتصف بمجموعة معيَّنة من الخصائص. وقد جادل الصواتيون التوليديون أنَّ مثل هذه الوحدات غير موجودة، وأن للعناصر الموجودة فعلاً خصائصَ مختلفة نوعًا ما. افرض الآن أن إحدى هاتين المقاربتين تبدو صحيحة (ولنقل الأخيرة). فهل يعني هذا أن الصواتيين البنيويين كانوا يحيلون طوال الوقت إلى الوحدات الصوتية والسمات بمعانيها في الصواتة التوليدية؟ ومن المؤكد أن الأمر ليس كذلك؛ فقد كان الصواتيون البنيويون ينكرون ذلك بصورة حاسمة، وكانوا محقِّين في هذا الإنكار. أيعني هذا أنهم كانوا يتكلمون كلامًا فارغا؟ ومرة أخرى نقول إن الأمر لم يكن كذلك بكل تأكيد. ذلك أن الصواتة البنيوية معقولة؛ بل إن من الممكن، إنْ نحَّينا افتراض وجود الوحدات التي افترضتْها، إعادة تأويل أكثر تلك النظرية ضمن الصواتة التوليدية، مع التطابق في النتائج إلى حد بعيد. ولا يوجد طريق مقنَّن لتحديد الكيفية التي يُنجز بها هذا، أو لتحديد "التشابه في الاعتقاد" بين المدرستين الفكريتين أو لتحديد ما الأفكار والاعتقادات التي تشتركان فيها. ومن المفيد أحيانًا الإشارة إلى أوجه التشابه وإعادة صياغة الأفكار، وأحيانًا لا. ويصدق الشيء نفسه عن الأفكار المبكرة والتالية عند بور. ولا يتطلب الأمر تحديدًا أكثر من هذا كي نحافظ على كرامة البحث العلمي، أو المحافظة على الفكرة المحترمة للتقدم باتجاه كشف ما هو صحيح عن العالَم، بقدر ما يقع [البحث العلمي] في حدود القدرة المعرفية البشرية.

ومن الجدير بالملاحظة أن تحليلاً في ضوء هذه الطرق، إنْ غضضنا النظر عن المسلّمات الخارجية الخاصة بتحديد المرجع، يتوافق مع حدوس العلماء البارزين. ويلتفت النقاش عن معنى الألكترون والماء وغيرهما إلى المعنى. لكننا يمكن أن نوجّه أنظارنا نحو المستقبل كذلك. انظر إلى السؤال عن إن كانت الآلات تفكّر (أو تفهم أو تخطط أو تحل مشكلات، إلخ). فتقضي الحججُ الخارجية النموذجية بأن جواب هذا السؤال ينبغي أن يقرَّر بموجب الحقيقة عن التفكير، أي: ما معنى أن يفكر بيتر بأطفاله، أو يحلّ معادلة من الدرجة الثانية، أو يلعب الشطرنج، أو يؤوّل جملة، أو يقرر أن يرتدي معطفا أوّلا؟ لكن المسألة لا تبدو بهذه الشكل عند فتجينشتاين وآلان تيرنج، إن أخذنا مثالَين مشهورين. أما عند فتجينشتاين فلا يمكن أن يكون السؤالُ عن إن كانت الآلات تفكّر سؤالاً جاداً؛ ذلك "أنه لا يمكن أن نعزو التفكير إلا لمن ينتمي إلى بني البشر أو من يشبهه"(Wittgenstein 1958: 113)؛ ويمكن أن يدخل في ذلك الدمى والأرواح [الجن والملائكة]؛ فتلك هي الطريقة التي تستعمل بها الآلة. أما تيرنج فقد كتب في بحثه الكلاسيكي الذي نشره سنة ١٩٥٠م أنّ السؤال عن إنْ كان يمكن للآلة أن تفكر:

"ربما يكون سؤالاً لا معنى له حتى إنه لا يستحق النقاش، ومع هذا فأعتقد أن استخدام الكلمات والرأي العام المثقف سيكونان قد تغيرا عند نهاية القرن [العشرين] إلى حد سيجعل من الممكن لفرد أن يتكلم عن أن الآلات تفكر من غير أن يتوقع أن يعترض عليه أحد" (Turing 1950: 442).

فلا يتبنى فتجينشتاين وتيرنج التفسير الخارجي النموذجي. أما عند فتجينشتاين فهذه الأسئلة ساذجة وحسب: ذلك أن الآلات تُستعمل في ضوء طبيعتها التي تكون عليها؛ أما إذا تغير الاستخدام فيعني هذا أن اللغة تغيرت؛ إذ لا تزيد اللغة عن كونها الطريقة التي تستعمل بها الآلات. كما يتحدث تيرنج عن التغير الذي يعرض للغة "الرأي العام المثقف" تبعًا لتغير الاهتمامات والانشغالات. سوف يحدث، بحسب مصطلحاتنا، تحوّلٌ من

"اللعبات ــ د" التي يصفها فتجينشتاين إلى "لعات ــ د" جديدة ستختفي منها الكلمة القديمة "يفكر" لتحل مكانها كلمة جديدة يمكن استخدامها عن الالات بالصورة التي نستخدم بها عن الناس. فيتماثل السؤال في سنة ١٩٥٠ عن إن كانت الالات تفكر في احتمال أن يكون له معنى أن تسأل عن إن كانت الطائرات تطير فعلاً وكذلك الناس (كهواة القفز العالي، مثلا)؛ فالطائرات في اللغة الإنجليزية تطير أما هواة القفز العالي فلا (إلا بمعنى مجازي)، أما في اللغة العبرية فالاثنان لا يطيران، ويطير كلاهما في اللغة اليابانية. ولا تفيد هذه الحقائق شيئًا عن السؤال (غير المفيد) الذي أثير، إذ لا تفيدنا إلا عن بعض التنوعات الهامشية والعشوائية إلى حد كبير "لغة ــ د". ويبدو أنه يمكن أن يقارن السؤال عما كان يعنيه مصطلح "ذرة" قبل دالتون، أو مصطلح "الكترون" عند بور سنة ١٩٠٠م، في بعض الاعتبارات، بالسؤال عما كانت تعنيه كلمة "يفكر" عند فتجينشتاين وتيرنج؛ لكنها مقارنة غير تامة؛ ذلك أنه ربما ينبغي ألا يُنظر لكلمات "يفكر" و"ذرة" و"الكترون" على أنها تنتمي إلى "لغة ــ د" متجانسة. ويبدو أن المنظور الداخلي، في هذه الحالات كلها، كاف، لا لحدوس فتجينشتاين وتيرنج وحسب، بل لتفسير ما هو واضح؛ أو ما يمكن أن يحدث تبعًا لتنوع الظروف والاهتمامات.

وربما صح لأحد أن يحتج بأن النظريات الدلالية التي اقتُرحت في الفترة الأخيرة تتجاوز حدوس فتجينشتاين وتيرنج بسبب النجاح التفسيري الذي حققته. لكن هذا لا يبدو فكرة واعدة؛ إذ ربما لا يمكن للنجاح التفسيري أن يدّعي ذلك. ويبدو أن لدينا الآن، على العموم، من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن لدينا الآن قدرًا يفوق الأشياء المعينة التي كان ينظر إليها فتينجشتاين وتقع وراء حدود البحث العلمي الداخلي الذي يتصف بأنه أكثر غنى وأكثر دلالة مما يفترضه فتجينشتاين وجون أوستن (١٩٦٢) وآخرون.

وسوف يقصُر البحث العلمي الطبيعي دائمًا عن [تناول] القصدية؛ ذلك "أن القصدية لن يمكن اختزالها ولن تختفي"، كما يقول بتنام، بحسب هذه الشروط في

الأقل، وسيظل "تكلّمُ اللغة" "عصيًا على التنظير" (Putnam 1988a.1). وتبـدو دراسة أنظمة التمثيل الحوسبي الآن، ويشمل ذلك "الدلالة الداخليـة"، أكثـر أشكال البحث العلمي الطبيعي وعداً، بما برنامج البحث الناجح لها إلى حـد معقول، أما فهمُ أنظمة الأداء فما يزال في بداياته، لكنه يدخل في حدود هـذا البحث، من زوايا معينة في الأقل. وتثير هذه المقاربات مشكلات من النـوع المألوف في أنواع البحث العلمي الطبيعي كلها، لكن لا يبدو شيء منها مختلفا من حيث النوع. ونحن نأمل، في تقصينا لها، أن نتعلم شـيئًا كثيـرًا عـن الوسائل التي تستخدم في التعبير عن الأفكار، والتأويل، إلخ. ولا تلامس هذه المقاربات عددًا كبيرًا من الأسئلة، لكن يبقى أن نبيّن أن هذه الأسئلة حقيقية، لا زائفة، وتشير إلى بعض مواضيع البحث التي يود المرء أن يبحثهـا، ولا شيء غير ذلك.

هوامش الفصل الثاني

(١) تعني "القصدية" عند برينتانو أن الظواهر الذهنية "... تتجه إلى موضوع معين. فإذا رأينا، رأينا موضوعا، وإذا سمعنا وشممنا وذقنا، فإننا نسمع ونشم ونذوق موضوعا. وإذا افترضنا وعرفنا أو اعتقدنا، فإننا نفترض ونعرف ونعتقد موضوعا. ويصف برينتانو هذه الخاصية التي تميّز، في نظره، الظواهر النفسية من كل الظواهر الأخرى، باعتبارها "علاقة بمحتوى" أو "اتجاها إلى موضوع" ليس واقعا بالضرورة، أو باعتبارها أيضا "موضوعية ملازمة" (محمد عاليم، هامش (٤١)، ص ٣٩٤. (المترجم)

(٢) وينقل ديفز موقف بيرج الذي يرى أن البحث الذي ينتسب إلى مدرسة مار إنما يهتم بالتمثيلات "المعلوماتية" ذات المحتوى القصدي (ومن هنا فهو يهتم بالسوابق السببية العملية)، لكن لا يبدو ممكنًا أن يتماشى ذلك الموقف مع الممارسة الاختبارية العملية أو النتائج النظرية (كـ "مبدأ الصلابة" عند أولمان، مثلا)؛ بل من الصعب أن نرى كيف يمكن أن يكون هذا الموقف صحيحا، وإن لم يكن لذلك من سبب ــ كما يؤكد ديفز ــ إلا أنّ أبحاث مار لا تقارب أن تكون من نموذج التمثيل ثلاثي الأبعاد 3D أبدا. وبقدر ما تبلغ دراسة الإدراك البصري هذا الحد (كما في أبحاث أليزابث سبيلك عن تماسك الشيء في مرحلة الطفولة المبكرة، مثلا؛ Spelke 1990)، فإنها تقف عند حدود التجربة البصرية، لا المحتوى الإدراكي بالمعنى التقني في الخطاب الفلسفي (Ullman 1979; Davis 1991).

(٣) يلاحظ ريتشارد ليونتن أن مما يشهد بمثل هذا العمى في نظم الأوعية الدموية أنه يمكن أن نضيف إلى تلك القصص المبهرجة التي تُلفَّق عن تطور المعرفة التخرصات التي تقول إن الدماغ تطوّر بوصفه منظما

حرارياً، يعمل على تبريد الدم كما كان أرسطو يظن وهو يُنتج النظام المعرفي البشري بوصفه ناتجاً ثانويا (Lewontin 1990).

(٤) الاقصائية المادية eliminative materialism هي وجهة النظر التي ترى أن تصوراتنا الذهنية، كالاعتقاد والرغبة، ليست ملائمة للتحليل العلمي الجاد للبشر، لذلك ينبغي إهمالها. (المترجم)

(٥) فهي "داخلية" internal لأنها تدرس الحالة اللغوية الداخلية عند فرد معين باستقلال عن العوامل الأخرى الموجودة في الكون، وهي "فردية" individual لأنها تعنى بدراسة فرد معين، ولا تعنى بدراسة "الجماعة اللغوية" التي ينتمي إليها الفرد إلا بصورة ثانوية، وهي "مفهومية" intensional بمعنى أنها تنشغل باللغة "انشغالاً ذهنيًا مفهوميًا بالأساس، وليس انشغالاً بالتمظهرات السلوكية أو المنتوج، أو بمجموع العبارات التي تنتجها جماعة لغوية معينة، أي ما يمكن أن ننعته بأنه انشغال خارجي ماصدقي" (عبد القادر الفاسي الفهري، البناء الموازي، ص١٨) كما تنشغل بـ"تخصيص الإمكانات الذهنية التي تجعل المعرفة اللغوية أمرا ممكنا" (محمد غاليم، ص ٧٠). (المترجم)

(٦) ومرة أخرى، فهذا لا يعني أن أنظمة الأداء العملية ستتماثل إلى حد بعيد مع المصطلحات التي يستخدمها غير المتخصصين، أو في الخطاب الفلسفي أو في الأنواع الأخرى من الخطاب التقني.

(٧) بل أقل من ذلك بكثير، حتى إن أمكن إعطاء العبارة معنى إلى حد من الوضوح يجعل من الممكن إثارة السؤال بشكل أكثر معقولية.

(٨) وقد ظل هذا الموضوع مجالاً للنقاش منذ مقال جون سيرل: Minds, Brains, and Programs "الأذهان، والأدمغة، والبرامج" (Searle 1980). وليس من الواضح إن كان هذا النقاش قد أدى إلى صياغة أية قضية جوهرية حتى الآن.

(٩) ويُعتقد أن مشكلة الانتقال بين أطوار [الاكتساب] لا تبرزُ إلا عند افتراض "الشبكية الدلالية" semantic holism .

(١٠) ويجب عدم الخلط بين هذه الإجراءات ومبادئ التصدّق charity وأشباهها، إن كان التمييز بين "اللغة والاعتقاد" صحيحا؛ انظر أدناه في هذا الفصل. ولكي نحقق أقلّ قدر ممكن من الواقعية يجب علينا أن نميز بين حالات كثيرة. لذا، فما يفعله بيتر حين تتكلم ماري لغة قريبة جدًّا [من لغته] ربما لا يكون له إلا علاقة واهية بالإجراء الذي يقوم به حين تتكلم لغة لا يعرفها؛ لذلك فجمع هذه الأحداث جميعا تحت مسمى "التأويل" أو "الترجمة" لا يُعدّ خطة جيدة للبحث.

(١١) انظر، عن تطوير سول كريبك لهذا التناول، والنتائج التي وصل إليها عن صلة [هذا التناول] باللسانيات: Chomsky 1986a: chapter 4.1 .

(١٢) يجادل بتنام في كتابه "التمثيل والواقعية" Representation and Reality (Putnam 1988a) ضد افتراض أن المدخل المعجمي يتضمن إحالة محددة لأحكام الخبير. وتقوم هذه الحجة على بعض الافتراضات الضمنية عن اللغة العامة المشتركة والترجمة يصعب الدفاع عنها، أو حتى صياغتها، كما يبدو. ومع ذلك ربما نقبل هذه النتيجة أحدين الاعتماد على حكم الخبير (من بين خيارات أخرى) خصيصةً عامة لعدد كبير من المداخل المعجمية، وهو ما يتصل بالطرق التي تدخل بها [هذه المداخل] في أنظمة الاعتقاد.

(١٣) انظر Stich 1983. وتتضح المشكلة الأساسية ــ التي تتمثل في أن أي إجراء نقترحه يمكن أن يكون مباشَرةً قويًّا جدًّا وضعيفًا جدًّا ــ فيما كتبه شيفلر Scheffler 1955 .

(١٤) وينبغي أن نتكلم هنا، تقنيًّا، عن "السجع ــ د"، إلخ.

(١٥) لا يبدو أن في اللغة العربية تمييزًا يماثل التمييز الذي في الإنجليزية بين الكلمتين. فهناك كلمات كثيرة يمكن أن تطلق على أي من المعنيين، نحو: "بيت"، و"دار"، و"منزل". وسوف أستعمل "منزل"

ترجمة لـــ home ، و"بيت" لـــ house من أجل تبيين المعنيـــين فـــي الإنجليزية فقط. (المترجم)

(١٦) انظر Lasnik 1989 : خاصة الفصل التاسع. وتبرز أسئلة مهمة في حالة (٢ج) (أي في حالة "عود الضمير على متـــأخر") عـــن أمـــور كالاستخدام الإحالي للأوصاف المحددة [المعرفة] والمعلومات القديمة والجديدة.

(١٧) يؤكد بنتام دائما أن المعايير التي تُستخدم في الاستدلال على الاعتقاد وتسويغه ترتبط بالاهتمام ارتباطًا لازما. زيادة على ذلـــك، تفـــرض الطبيعةُ الخاصة للفهم البشري (وحدودها، من ثم) بعض الاختيارات التأطيرية التي ربما لا تكون ملائمة على النظريـــة، وبـــذلك تتـــرك المنطق المشكلة التي تتصف بأنها ألغـــاز حقيقيـــة للبـــشر (وهـــذه خصيصة عامـــة للعـــضويات). انظـــر Chomsky 1975; McGinn 1991).

(١٨) واعتماد ما يفعله الناس على بعض الأحداث التي توجد فـــي مكـــان وزمان مختلفين ليس موضع شك، بالطبع؛ أما الـــسؤال فهـــو: هـــل سيكون البحث العلمي الطبيعي "ماركوفيًا" أم لا (انظـــر Miller and Chomsky 1963: 422ff)، حيث تؤخذ الحالةُ الناتجة للعضويات فقط لتدخل في عملية الأداء المحلية الحاليّة. لهذا قد تضمحل الـــذاكرة أو تُعدَّل، لكننا نسأل، من أجل أن نفهم ما يفعله شخص هنا والآن، عما يمثل داخليًا، لا ما يمكن أن يكون قد حدث في الماضـــي. وبالمثـــل، يعتمد نمو خلية ما لتصبح إصبعًا أو عظمًا في الذراع على ما انقضى من وقت، أما دراسة هذه العملية فتتوقف عنـــد بعـــض المؤشـــرات كالمكونات الحالية للتركز الكيماني التي تزود الخلية بهذه الحقـــائق. وهذا إجراء نموذجي، ويبدو معقولاً جدًا.

(١٩) أما السؤال عن وجوب تطوير النظريات بحسب هذه الكيفيات فأمر مختلف. أما ما يعنيني توضيحه هنا فهو ببساطة أنه إن كانت هذه النظريات تعتمد على أفكار الإحالة المقصودة، أو الاعتماد الإحالي، إلخ، بصفتها تمثل شيئًا أكثر من مظاهر للكلام façon de parler فذلك يعني أن شيئًا آخر من النوع الذي بينته هنا يبدو معترضا — لا أنه إحالة إلى أشياء في الكون (أو ما يعتقد أنها فيه).

(٢٠) وهناك بعض الاختلافات في عود الضمير على متأخر، انظر الهامش ١٦.

(٢١) والنقطة الأساسية عن "التعبيرات المضلِّلة باطراد" بالمعنى عند رايل Ryle يمكن إرجاعها في الأقل إلى النقد الذي وجه في القرن الثامن عشر لنظرية الأفكار عند دو مارسي وبعد ذلك عند توماس ريد؛ انظر (Chomsky 1965: 199-200).

(٢٢) أو عن "المضمون الإدراكي" بالمعنى التقني الخاص في الخطاب الفلسفي؛ انظر الهامش (١) والمتن. والفارق الذي يرسمه ديفر بين "التأويل "المحافظ" والتأويل "المراجع" لهذه الفكرة التقنية ليس واضحا، بأكثر من الفارق الذي يمكن أن نرسمه بين التأويل المحافظ والتأويل المراجع لمصطلح electromagnetic force "القوة الكهربائية المغناطيسية".

(٢٣) انظر ملحوظات ستك (١٩٨٣) عن عدم قدرة "أكثر الأسماع التي لم تتلوث بالنظرية الفلسفية" عن الوصول إلى أي حكم في كثير من هذه الحالات. وليست هذه الملحوظة مقنعة بالضرورة؛ فربما لا يمكن الوصول إلى حقائق علم النفس الشعبي إلا عن طريق الحدس المدرَّب أو الموجَّه. وربما كانت هذه الملحوظة نتيجةً معقولة في سياق نظري أغني، لكن لا يوجد سياق نظري، بشكل يكاد يكون نهائيًا، ومن هنا ربما لا يكون هناك سبب يجعلنا ننظر إلى الأحكام المعزولة كأنها تعني شيئًا كبيرًا.

الفصل الثالث
اللغة والتأويل:
التأملات الفلسفية والبحث الاختبارى

ظهر في الكتابات الفلسفية خلال الأربعين سنة الماضية عددٌ من التيارات المؤثِّرة التي تبدو لي مثيرةً للإشكال من بعض الزوايا المهمة بل الأساسية. وأقصد هنا، في المقام الأول، المقارباتِ التي تنطلق من بعض التصورات للكيفية التي يدرس بها العالِمُ الاختبارى ـ أو "اللساني الميداني" بمصطلحاتِ برنامج البحث المألوف عند ويلارد كوين، اللغة، أو ينبغي له أن يدرسها بها. ويمكن أن نذكر هنا كوين ودونالد ديفيدسون وآخرين ممن اتجهوا نحو شكلٍ من الذريعية و"الإبستيمولوجية العلمية الطبيعية"، يتضمن بعضَ القضايا التي يُظَن أن لها أهميةً فلسفية ضمن تصوُّرهم للعِلم الاختبارى، ويمكن أن نضيف إليهم آخرين ينطلقون من منطلق مختلف: مثل: مايكل دوميت، وكثير من الذين تأثروا بفتجينشتاين و"فلسفة اللغة العادية"، مثلا.

وللتمثيل على مذاق هذه الأفكار، انظر إلى بعض تعليقات رورتي في كتاب ليبور (١٩٨٦) عن ديفيدسون. فهو يقول إن "ديفيدسون مُحقٌ بالتأكيد في قوله إن كوين "أنقذ فلسفة اللغة بوصفها موضوعًا جادًا" بتخليصها من التمييز بين التحليل والتأليف. وكانت أفضل حجج كوين في عمله ذلك أن هذا التمييز غير مفيد للساني الميداني" (Rorty 1986: 339).

أما "اللساني الميداني" فكلُّ ما "يجب أن ينشغل به أن يلاحِظ الطريقة التي يتآلف بها السلوكُ اللغوي مع أنواع السلوك الأخرى غير اللغوية في أثناء تفاعل متكلم اللغة الأصلي مع بيئته، وهو التفاعل الذي ينظر إليه [اللساني] على أنه موجَّه بقواعد الحَدْث. . ."، وعلى وجه أخص بـ"المبدأ التنظيمي" الذي ينص على "أنّ أكثر القواعد التي يتبعها متكلمُ اللغة مماثلة

للقواعد التي نتبعها نحن، وهو ما يعني أن أكثرها صحيح" (ص ٣٤٠؛ وربما يشير مصطلح "قواعد" هنا إلى الاعتقادات). وينبغي ألا ننشغل بـ "خطة تصوُرية، أو بطريقة للنظر إلى الأشياء، أو بمنظور (أو . . . بلغة، أو بتقليد ثقافي)، [لأن] اللساني الميداني لا يحتاج إلى شيء من ذلك، [ومن هنا] فالفلسفة ليست بحاجة لها أيضا" (ص ٣٤٤). ويوافق كوين وديفيدسون على أن "نظرية المعنى للغة ما هي ما يتحصّل من البحث الاختباري في السلوك اللغوي"، حين يقام به بطريقة ملائمة، وبما يتوافق مع مبدأي "شبكية المعنى holism والسلوكية" (ص٣٥٢).

ويَمضي رورتي قائلاً إن هذا الخط من التفكير يقود إلى شكل من الذريعية التي يعتنقها هو وينسبها إلى [الفيلسوفين الأمريكيين المعاصرين] جيمس وديوي، وتتضمن بصورة جذرية نفي أية علاقة من نوع "أن يُجعل صادقًا" [يُبرهن على صدقه] being made true التي تلزم بين الاعتقادات والعالَم". وبدلاً من ذلك "فإننا نفهم كلَّ ما يلزم فهمُه عن علاقة الاعتقادات بالعالَم حين نفهم علاقاتها السببية بالعالَم" (ص٣٣٥).

وإذا نحينا النتائجَ التي انتهى إليها رورتي جانبا[1]، دعنا ننظر في مسلّماته. فإذا كانت أفضل حجة للتخلي عن التمييز بين التحليل والتأليف أنَّ هذا التمييز لا يفيد اللساني الميداني فيجب، إذن، أن يكون كلُّ من يشتغل بعلم الدلالة الوصفي تقريبا، أو حدث أن اشتغل به، مخطئًا خطأً كبيرًا؛ لأن مثل هذا البحث محمَّل بالمسلمات عن ارتباطات المعنى، وهي التي ستستدعي (على التحديد) أمثلةً من التمييز بين التحليل والتأليف. فمن الصعوبة بمكان أن نجد أية دراسة للغة لا تعيِّن بِنيً وتصف معنى للفعل kill والأداة so ، إلخ، بطرق توضِّح أن هناك تمييزًا نوعيًا ــ تحدِّده اللغةُ نفسُها ــ بين الجملتين:

John killed Bill, so Bill is dead.

"قتل جون بيل، لذلك فبيل ميت".

John killed Bill, so John is dead.

"قتل جون بيل، لذلك فجون ميت".

أو ربما يصعب، إن أخذنا حالة أخرى، أن نجد دراسةً للاعتماد الإحالي في اللغة الطبيعية لا تستنتج أن اللغة نفسها تحدّد وجود علاقة لازمة بين Mary و herself في (1)، لكنها لا توجد حين يكون التعبير نفسه مُدمجًا في سياق جملة رئيسة من نوع "ليت شعري مَن. . . I wonder who.."، وهو ما يُنتج الجملة في (٢):

١- Mary expects to feed herself.

"تتوقع ماري أن تُطعم نفسها".

٢- I wonder who Mary expects to feed herself.

"ليت شعري مَنْ تتوقع ماري أنْ تطعم نفسَها".

فستفرض مثل هذه الخصائص التركيبية ـ الدلالية حالاتٍ من التمييز بين التحليل والتأليف، لهذا سينتج عنها تمييزٌ بين:

Mary expects to feed herself, so Mary expects to feed Mary.

"تتوقع ماري أن تطعم نفسها، لذلك تتوقع ماري أن تُطعم ماري".

(وهي تحليلية، حيث تؤخذ الحالات الثلاث التي ظهرت بها ماري على أنها "شريكة إحاليًا")،

و:

I wonder who Mary expects to feed herself, so I wonder who Mary expects to feed Mary

"ليت شعري من تتوقع ماري أن تطعم نفسها، لذلك ليت شعري من تتوقع ماري أن تطعم ماري".

(وهي غير تحليلية، في ضوء التأويل نفسه). لكنَّ ما يُزعم أن كـوين برهن عليه يتجاوز مسألة التحليل، إذ يصل إلى نتيجة مفادها أنه ليس هنـاك ارتباطات دلالية يمكن أن تُعزى إلى الملكة اللغوية تحديدًا بوصفها متمـايزة عن الأنظمة العامة للاعتقاد لدينا، ويأخذ رورتي، في بحث آخر، هذه النتيجة على أنها أحد اكتشافين جوهريين يهدّدان صورةَ العالم التقليدية.

وقدّم كوين وآخرون، كما هو مـشهور، تفسيراتهم الخاصـة لهـذه التمييزات. وسأعود إلى هذه الاقتراحات، وإلى الكيفية التي يمكن أن نقوّم بها في ضوء معايير البحث في العلوم الطبيعية، لكني سأكتفي هنا بملاحظـة أنّ من المؤكد أنه لا يمكن أن تُفهم الإحالة إلى "اللساني الميداني" على أنها إحالة إلى أولئك الذين يقومون بالبحث اللساني فعلاً. فهي تتصف، بدلاً من ذلـك، بطعْم معياري، إذ تشير إلى الطريقة التي ينبغي لمثل هذا البحث أن يُنجـز بها، مع المحافظة على شروط "الشبكية الدلالية والسلوكية" التـي يفرضـها الفيلسوف، ويخالفها العلماء الخاطئون حين يبحثون. ومع أن البحـث ربمـا يكشف لنا احتمال أن يكون هذا الموقف مسوّغا، إلا أنه ربما ينبغي التسامح مع أولئك الذين يقرّرون تاريخ [دراسة اللغة] إن عبّروا عن بعض التـشكك الأولي.

ومن الأمثلة الأخرى التي تبين طعمَ هذه النقاشات، انظر إلـى حجـة دوميت في الكتاب نفسه (Dummet 1986) وهي أن "المعنى الأساس" الـذي يجب علينا أن نفهم به تصوُّرَ اللغة هو ذلك الذي تكون به اللغـةُ الهولنديـة واللغة الألمانية لغتين مختلفتين (وهو يعطي مثالاً مختلفا، لكن المسألة هـي نفسها)، وكلٌ واحدة منهما ممارسةٌ اجتماعية خاصة "ينخرط فيهـا النـاس"، وهي ممارسةٌ تُتعلّم من الآخرينَ وتقوم على قواعد تتصف بأنها جزء مـن الممارسة الاجتماعية التي يلزم اتباعها" (ص ٤٧٣). فتوجد اللغتان الهولندية والألمانية بهذا "المعنى الأساس"، "باستقلال عن أي متكلم لهما"؛ و"يمتلك" كلُّ متكلمٍ مثل هذه اللغة، لكنه لا يمتلك عادةً إلا "معرفةً جزئية بها، وهي معرفة خاطئةٌ جزئيًا". وتذهب الأهميةُ المقصودة لاقتراح دوميت إلى مدى أبعد. فهو

يُبيِّن لنا مفهوم "اللغة" الذي يُعدّ أساسيًّا للأغراض الفلسفية، ولنظرية المعنى خاصة؛ ويبيِّن لنا بجلاء أيضًا، أن هذا التصور للغة ضروري في رأيه لتفسير استخدام اللغة، وعلى وجه الحصر، لفهم "ما النظرية البعيدة المدى التي يأتي بها شخصٌ ما في أول لقاء لغوي له مع شخص آخر". فلهذا الاقتراح إذن – صلة وثقى بالدراسة الاختبارية للغة، وبالناس، وبما يعرفونه ويفعلونه. وربما يقصد أنه يمكن السماح للسانيين بأن ينتهجوا مسارًا ممثلًا من أجل اهتماماتهم الخاصة، لكن الواضح أن لهذه الاقتراحات علاقة وثقى بالممارسة الملائمة في الدراسة الاختبارية للغة واستخدامها.

ويستمر الطعمُ التناقضي هنا إلى رتبة مختلفة شيئًا ما. فهو يتمثَّل في التضارب بين اقتراح دوميت والمسلَّمة المألوفة في الممارسة الاختبارية التي تقضي بانتفاء وجود معنى علمٍ مفيد يمكن من خلال وصفُ "اللغة" بطريقة تكون بها اللغةُ الهولندية واللغة الألمانية "لغتين" مختلفتين لا يعرفهما الناس إلا "جزئيًا" وبصورة "خاطئة". وهذه هي الحال سواء كنا ندرس بنيةَ اللغة، أم اللسانيات النفسية، أم التغير اللغوي، أم التصنيف اللغوي، أم مشكلات التواصل، إلخ. فيمكن للمتكلمين الذين يعيشون قريبًا من الحدود الهولندية أن يتواصلوا بشكل جيد مع الذين يعيشون على الجانب الألماني من الحدود، لكنهم يتكلمون لغتين مختلفتين بالمصطلح الذي يدّعي دوميت أنه "أساسي"؛ كما أن الذين يعيشون على الجانب الألماني من الحدود، لا يستطيعون، بـ "معرفتهم الجزئية" للغة الألمانية"، فهمَ شيء مما يقوله الذين يعيشون في أقاليم أخرى [من ألمانيا] وهم الذين "يمتلكون" "معرفةً جزئية" أخرى بـ "اللغة الألمانية"، بالمعنى الذي يقصده دوميت. ولأسباب كهذه تحديدًا لا يوجد تصورٌ مثل هذا يمكن أن يؤدي دورًا في البحث الاختباري للغة أو علم النفس. وتُستخدم مصطلحاتٌ مثل مصطلح "اللغة الإنجليزية" أو "اللغة اليابانية" في الدراسات العامة للغة، لكنَّ هذا مصحوبٌ بفهمٍ مؤداه أن هذا الاستخدام البديهي لها، وهو الذي يعتنقه دوميت من غير مساءلة، ينبغي أن يُستغنى عنه حين نتوجه إلى الدراسة الفعلية للغة، والسلوك والتواصل(٢).

وإذا كان تصورُ دوميت أساسيًّا للبحث الاختباري وللأغراض الفلسفية حقًّا، فالفلسفةُ أو البحث العلمي للغة والسلوك، أو لكليهما، يواجهان مشكلات جمة، لأسباب ينبغي أن تكون واضحة. ذلك أنَّ تصور اللغة الذي يـراه دوميـت أساسيًّا يتضمن عناصر اجتماعية ـ سياسية، وتاريخية، وثقافية، ومعيارية ـ غائيَّة معقدة وغامضة. وربما تكون هذه العناصـر مهمـة لعلـم اجتمـاع الانتماء identification داخل مختلف الجماعـات الاجتماعيـة والـسياسية ولدراسة بنية السلطة، لكن الواضح أنها تقع بعيدًا خارج متنـاول أي بحـث مفيد عن طبيعة اللغة أو علم نفس مستعمليها.

ولكي نأخذ مثالاً آخر، انظر إلى دراسة اكتساب اللغة. فنحن نقول، في الاستخدام العادي، إن الطفل ذا السنوات الخمس والبالغَ الأجنبي يسيران نحو اكتساب اللغة الإنجليزية، لكننا لا نملك وسيلةً لوصف ذلـك الـشيء الـذي "يمتلكانه". ذلك أن الطفل سوف ينتهي إلى "امتلاك" الإنجليزية، في المـسار المألوف للأحداث (جزئيًّا في الأقل وبشكل خاطئ)، أما البالغ الأجنبي فربما لن يحقق ذلك. ولو حدثَ أن مات البالغون كلُّهم فجأة وتمكَّن الأطفـال مـن البقاء أحياء بطريقة ما، فسيكون أي شيء يتكلمـه الأطفـال – إذن – لغـةً إنسانية، مع أنها لغة لا توجد الآن. ولا يوفِّر الاستخدامُ العادي طريقةً مفيدة لوصف شيء من هذا، فهو يتضمن قـدرًا كبيـرًا جـدًّا مـن الاهتمامـات والانشغالات المتضاربة الغامضة، وهذا أحد الأسباب التي تجعل تصور اللغة الذي يراه دوميت غير مفيد لأغراض البحث العلمي الفعلي. ولهـذا الأمـر أهمية خاصة حين ننظر في الاعتماد على أفكار "الخطأ في استخدام اللغـة"، و"معايير الجماعة"، و"الممارسة الاجتماعية"، و"اتِّباع القاعدة" التي تـستعمل كأنها واضحة إلى حد كافٍ؛ مع أنها ليست كذلك[٣].

وربما يكون مفيدًا، في هذا المجال، أن نتذكَّر بعض الحقائق البديهيـة الأخرى؛ ومنها أنه لا يوجد، في البحث المنـضبط والعلـوم الطبيعيـة أو غيرها، موضوعاتٌ مثل "دراسة كلِّ شيء". فليس جزءًا من الفيزياء أن تحدِّد

حقة كيف يتحرك جسمٌ ما تحت تأثير أي جُسيْم أو قوة في الكون، مع تدخُّل بشري محتمل، إلخ. فليس هذا موضوعًا [صالحًا للبحث]. فما نقوم به عادة، بدلاً من ذلك، أننا في البحث المنهجي نؤمِّل مـن أجـل أن ننتقـي بعـض المجالات المحدَّدة بطريقة تمكِّننا (كما نأمل) من اكتشاف الـسمات المهمـة للعالم. فتتصف المواد الأولية والملحوظات، في العلـوم، بأنهـا أدوات ذات خصائص أداتية. فهي غير مهمة بنفسها، لكنها مهمة بقدر ما تكـوِّن دليـلاً يسمح بتحديد السمات الأساسية للعالَم الواقعي، في مسارٍ للبحث يُنجَز دائمـًا تحت أمثلة صارمة، ضمنية غالبًا وتمثِّل فهمًا مشتركا، لكنها حاصرة دائمـًا. أما دراسةُ "اللغة" بالمعنى الذي يراه دوميت فلا تبعد أن تكون "دراسةً لكـل شيء"، ومن هنا ليست موضوعًا مفيدًا للبحث، وإن كنا نأمل، ربمـا، أنهـا ستتطور لتصير دراسةً لبعض المظاهر لقضايا مثل هذه في ضوء ما سيتيسَّر فهمُه عن بعض المكوِّنات المحدَّدة لهذا المجموع المستحيل.

ويثير تصورُ اللغة بوصفها "ممارسة اجتماعية" الذي يقترحه دوميت وآخرون مزيدًا من الأسئلة، كما سيتَّضح حين يطبق علـى بعـض الأمثلـة الواقعية. انظر مرة أخرى إلى المثالين (١) و(٢) أعلاه (ص ١٥٩). فتؤخذ عبارة feed herself في المثال (١) على أنها ترتبط بماري، أما في المثال (٢) فترتبط بشخص (أنثى) مختلفة عن ماري؛ لهذا يترتب على المثـال (٢) أنني أتساءل عن مَن الأنثى التي تتوقع ماري أن تُطعم [هي] تلـك الأنثـى تحديدا، لا من الأنثى ماري التي تتوقع ماري أن تُطعم ماري نفسها. ويثيـر المثال عددًا من الأسئلة ذات الصلة، ومنها: كيف نعـرف هـذه الحقـائق، والإجابة، كما يبدو، أن الحالة الأولى للملكة اللغوية المشتركة تتضمن بعض المبادئ عن الاعتماد الإحالي (أي نظرية الربط العاملي)، وحين تُثبَّت بعضُ الخيارات المعيَّنة عن طريق التجربة الأولية وهي التي تُركت من غير تحديد في الحالة الأولى، لا يبقى لنا خيار بشأن الكيفية التي ينبغي أن نـؤول بهـا المثالين (١) و(٢) أكثر من الخيار المتوفر لنا عن إدراك شيء ما على أنـه

إما مثلث أحمر أو شخص. ولا يبدو أن للممارسة الاجتماعية أثرًا في مثل هذه الحالات، مع أن التجربة المبكرة تساعد، فيها جميعا، على تحديد بعض التفصيلات المعينة لآليات الذهن/الدماغ غير المتنوّعة المحدّدة أحيانيا. ويبدو أن الأمر نفسه صحيح بشكل عام. أما إذا أخذنا اقتراحات دوميت وآخرين عن "الممارسة الاجتماعية"، حرفيًّا في الأقل، فإنها تبدو زائفة، كأمر من أمور الحقائق الاختبارية. إذ يجب، في الأقل، تقديم بعض الحجج لتبيين السبب الذي يوجب أن نأخذ هذه الاقتراحات بجد.

ومن المغري – حين نَفهم اللغةَ على أنها ممارسة اجتماعية بالطريقة التي تصوّرها هذه المناقشات – أن ننظر إلى معرفة اللغة على أنها القدرة المتعلَّمة من أجل القيام بمثل هذه الممارسات، كما يقترح دوميت أو ـ على وجه أعم ـ كأنها قدرة يمكن ممارَستُها بالتكلم والفهم والقراءة والحديث إلى النفس، إلخ: أي أنّ "معرفةَ لغةٍ ما لا تعدو امتلاكَ القدرةِ على القيام بهذه الأمور وأمور أخرى مماثلة" (Kenny: 1984: 138)[4]. ويَقوَى هذا الإغراء بالفهم الشائع للمعرفة بشكل عام على أنها قدرة. وتتقابل وجهةُ النظر هذه مع تصورِ اللغة بوصفها إجراءً توليديًّا يعيِّن الأوصافَ البنيوية للتعبيرات اللغوية، حيث تكون معرفةُ اللغة التمثيلَ الداخلي لمثل هذا الإجراء في الدماغ (أي الذهن، كما يحتمل أن نقول حين نتكلم عن الدماغ في مستوى معين من التجريد). فتتميز قدرةُ شخصٍ ما على استخدام لغته (أي استخدامه لمعرفته) بشكل حاسم، من وجهة النظر هذه، عن امتلاكِه مثل هذه المعرفة. وللتصور الأخير ميزتان أساسيتان:

١ـ فيبدو أن هذا التصور هو الطريق الصحيح لدراسة المعرفة البشرية ـــ ومعرفة اللغة بشكل خاص ـ ضمن الإطار العام للعلوم الطبيعية، كما برهن على أنه تناولٌ مثمر إلى أبعد الحدود.

٢ـ وهو يتوافق إلى درجة بعيدة مع الاستخدام [اللغوي] المألوف السابق على التحليل، وهذا أمر ثانوي لكنه ليس خلوًا من الأهمية تماما.

وفي مقابل هذا، فقد برهنت المقاربةُ في ضوء القدرة العملية أنها غير مثمرة أبدًا وأنه لا يمكن التمسكُ بها إلا حين تفهم "القدرةُ" بطريقة مفارقة للاستخدام اللغوي اليومي بشكل حاسم.

ولكي يتضح السببُ الذي يجعل الأمر على هذا الوجه، افترض أن جونز، وهو متكلم لنوع مما نسميه "اللغة الإنجليزية" في الاستخدام اللغوي اليومي، حسَّن من قدرته على تكلُّم لغته بالتحاقه بدرس للخطابة، أو أنه فقد هذه القدرة بسبب جرْح أو مرَض (ثم استردَّ هذه القدرة نتيجة لأخْذه علاجًا، مثلا). لاحظ أن متكلم اللغة "اليابانية"، في الظروف نفسها، سوف يَستعيد "اليابانية"، لا الإنجليزية، حين يستعمل العلاجَ نفسَه، ثم إن الاستعادة في مثل هذه الحالات تختلف اختلافًا جذريًا عن الاكتساب؛ ذلك أن الطفل لا يمكن أن يكتسب الإنجليزية أو اليابانية في غياب أي دليل. وفي هذه الحالات جميعها، فإنَّ شيئًا ما ظلَّ ثابتًا، ولنقل "الخصيصة "م""، مثلاً، في الوقت الذي تتنوع فيه القدرةُ على الكلام والفهم، إلخ. فنحن نقول، في الاستخدام اليومي، إن الخصيصة "م" هي المعرفة اللغوية؛ لهذا بقيت معرفةُ جونز ثابتة في الوقت الذي تَحسَّنت فيه قدرتُه على استخدام معرفته، أو تضاءلت، أو استُعيدت، إلخ. ويتوافق التفسيرُ في ضوء التمثيلِ الداخلي للإجراء التوليدي مع الاستخدام [اللغوي] اليومي في هذه الحال. ثم لاحِظ أنه ربما تقودنا الأدلة الأخرى (من التشريح، مثلا، لو كنا نعرف ما يكفي عن العلوم المتخصصة بالدماغ) إلى استخلاص أن سميث، الذي لم يستعِدْ لغتَه الإنجليزية، لعدم تناوله العلاج، احتفظ مع ذلك بمعرفته باللغة الإنجليزية كاملة بعد أن فقد قدرتَه على تكلُّمها وفهْمها فقْدًا كليًا. (وللمزيد من النقاش المفصل لهذه الأمور والتفسيرات البديلة الممكنة، انظر Chomsky 1980; 1986).

فيجب إذن، إن كانت المعرفةُ هي القدرة، أن تكون الخصيصة "م" نوعًا من القدرة، وإن لم تكن، بجلاء، قدرةً بالمعنى المفيد جدًّا للكلمة، ذلك أن القدرة تنوعت أما الخصيصة "م" فظلت ثابتة. لهذا يجب علينا أن نختلِق معنى

نقيئًا جديدًا للكلمة "قدرة"، ولنسمّها بـ "القدرة ــ م"". ويعني هذا أن "القدرة ــ م" ظلت ثابتة في الوقت الذي تنوعت فيه القدرة[*]. ومن الواضح أنّ "القدرة ــ م" معزولة تمامًا عن القدرة، وتتصف بخصائص التصور القديم للمعرفة؛ بل ربما أمكن تسميتها بـ "المعرفة"، حين تتخلى عن المواقف المذهبية.

ومن المفارقة، كما يبدو، أن يَجرؤ أحدٌ على تقديم هذه المحاولات كأنها تنطلق من روح آراء فتجينشتاين الأخيرة، وهو الذي كان يجادل باطراد ضد الممارسة التي تسعى لصياغة تصورات اصطناعية، معزولة عن الاستخدام اليومي، من أجل الدفاع عن بعض الاعتقادات الفلسفية المعينة. بل يبدو أن فهم موقف فتجينشتاين عن المعرفة كأنها نوع من القدرة مثالٌ نموذجي للممارسة التي كان فتجينشتاين ينظر إليها على أنها مصدرٌ رئيس للأخطاء الفلسفية.

لاحِظ أن بعض الاعتبارات المماثلة تُبيِّن أنّ "الدُّربة" ــ أي معرفة كيف تركب الدراجة، مثلاً ــ لا يمكن أن تُحلَّل في ضوء القدرات، أو الاستعدادات، إلخ؛ إذ يبدو جليًّا أنه يَدخل فيها عنصر إدراكي لا يمكِن اختزاله. لاحِظ أخيرًا أنّ من الواضح أنّ أي تفسير للمعرفة بأنها قدرة، إنْ أُخذت بأي معنى مماثل لمعناها المألوف، غيرُ مثمر إطلاقًا. وربما كان من الممكن أن نحاول تفسير المثالين البسيطين في (١) و(٢) أعلاه في ضوء قدرات جونز، مثلاً. لكن لم يَسبق لأحد أن حاول سلوك مثل هذا المنحى، ثم إنّ نظرةً فاحصة لهذه القضايا ستُسهم إسهامًا بيّنًا في إيضاح السبب الذي يجعل النجاح في هذا المنحى مستحيلاً.

ويُصبح التناقضُ بين الأفكار في المدى الذي أوردتُ أمثلةً منه هنا أكثر وضوحًا حين نتفحّص بعض الشروط المحددة. لننظر مرة أخرى إلى ملاحظة رورتي، التي تؤخذ على أنها أمر واضح لا يحتاج إلى نقاش، وهي أنّ كلّ ما "يجب أن ينشغل به [اللساني الميداني] أن يلاحظ الطريقة التي

يتآلف بها السلوكُ اللغوي مع أنواع السلوك الأخرى غير اللغوية في أثناء تفاعل متكلم اللغة الأصلي مع بيئته" (Rorty 1986: 339)، بغض النظر عن "المبدأ التنظيمي" الذي يقضي بأن الراوية [اللغوي] صادقٌ في روايته عموما. ويلاحظ أنّ هذا التصور مبني على آراء كوين وديفيدسون. لهذا يجب على "اللسانيين الميدانيين" الذين يدرسون جونز، في ضوء نموذج كوين المألوف "للترجمة الجذرية" (Quine 1960; 1987)، أن يؤيدوا فرضياتهم بشكل "مطلق" عن طريق ملاحظتهم لسلوك جونز (أو في ضوء سلوك أعضاء "جماعة العابة"، التي تُصنف بأنها متجانسة؛ وإذا كانت غير متجانسة، فلن يَصلح شيء من هذه الحجج، أما إن كانت متجانسة فربما نلغي الجماعةَ في مقابل الاعتداد بجونز من غير أن نفقد شيئًا ذا بال لهذه الأهداف، كما سأفعل أنا). وينبغي أن ألاحظ هنا أنّ بعض القضايا النَّصيّة تَبرز، حين الإحالة إلى كوين، ذلك أنه يعطي ــ في إجابته عن بعض التساؤلات والنقد الذي يوجهُ إليه ــ عددًا كبيرًا من الوجوه المختلفة لنموذجه، وهذه الوجوه غير مطردة (انظر Chomsky 1975: 187f, 198ff). ومع ذلك فالحجة التي أوردتُها آنفا، وهي التي يتبناها ديفيدسون وروِرتي، ضروريةٌ إن كان لنا أن نستخلص من النموذج الكويني أيًا من النتائج التي تُعدُّ مهمة.

وقبل أنْ نبدأ النقاش دعنا نلحظ مرة أخرى أن هذه الوصفات المعيارية تَختلف اختلافًا جذريًا عن الممارسة الفعلية "للساني الميداني". وهي غريبة تمامًا عن المناهج النموذجية في العلوم الطبيعية كذلك. أما في الكتابات الفلسفية فتُناقش هذه القضايا عمومًا من حيث صلتها بنظرية المعنى، خصوصًا من حيث صلتها ببعض مظاهر نظرية المعنى التي لا نعرف عنها إلا القليل (لا من حيث صلتها، مثلا، بما يتعلق بأمور كالاعتماد الإحالي، الذي نعرف شيئًا كثيرًا عنه). وهذه ممارسة مشكوك فيها، لأنها تعني أن ضبط التخرصات عن طريق المعرفة الاختبارية والفهم النظري محدودٌ جدًا. أما إن كان لهذا المذهب نصيب من الصحة، فيَجب أن يلْزَم في كل ما يتصل

بما نعرو ه للمعرفة اللغوية، كما كان كوين، في الأقل، واضحًا فـي أنْ هـذا صحيح. لذلك يجادل بشكل صريح أن الاعتبارات نفسها تلزَم حـين يـزعم "اللسانيُّ الميداني" أن الجملة:

John contemplated the problem.

"تمعّن جون في المشكلة".

تتضمن مركَّبين:

المركَّب الاسمي:	John
والمركَّب الفعلي:	contemplated the problem
لا المركَّبيْن:	John contemplated
و:	the problem
أو:	John contemp
و:	lated the problem

مثلا. ويجب، تبعًا لكوين، حين يكون وفيًّا للمسلمات التي تتطلبها نتائجُه المشهورة لتكون صحيحة، في الأقل، أن يؤسّس هذا العزو لبعض الخصائص (سمّها معرفةً أو ما شئت) إلى الراوية جونز على الأدلة عن "سلوك جونز" بصورة خالصة؛ وهي أدلة تُستعمل في ضوء المعايير الصارمة التي بيَّنها. وربما يكون الأمر نفسه صحيحًا في دراسة البنية الصوتية، والعلاقات بين الضمائر العائدة ومفسِّراتها، أو أي شيء آخر[1].

وتجدر الإشارة إلى أنه لن يقبل أي لساني، أو أي عالِم اختباري عمومًا أنْ يُحدَّ بهذه القيود. وربما تكون المسلَّمةُ في علم الأحياء التي يمكن مقارنتها بهذه المسلمة أنه لا يمكن، في اختبارنا للفرضيات عن التطور الجيني البشري، أن نستأنس بأي دليل يأتي من دراسة "الحمض" E. coli أو ذباب

الفكهة أو الفرود أو الفيزياء. وإحدى الحالات الجوهرية، في الممارسة العلية، أن أي لساني يتناول دراسة لغة معينة إنما ينطلق من مسلمات استُخلصت من دراسة لغات أخرى. لهذا لن يتردد أي لساني، يعمل في ضوء المعايير التي تخضع لها العلوم، في استعمال الأدلة التي وُصل إليها من دراسة اللغة اليابانية لكي تساعده في إرساء فرضياته عن معرفة جونز للغة الإنجليزية. وهذا المنطق واضح، وهو صحيح إلى حد بعيد. فهناك أدلة اختبارية مقنعة جدًا على أن الناس ليسوا "مهيئين" وراثيًا لاكتساب لغة ما بدلا من لغة أخرى؛ بل يمكن الافتراضُ بدلاً من ذلك أن "الحالة الأولى" لملكاتهم اللغوية متماثلةٌ إلى حد بعيد. فإذا قُدّم للطفل كمٌّ من الأدلة فإنه يكتسب لغة معينة، مستفيدًا من موارد الحالة الأولى التي تحدّد قدرًا عاليًا من المعرفة (القدرة) التي اكتسبها؛ ويمكن عدّ الحالة الأولى دالّةً function ثابتةً محدَّدةً أحيانيًا تُحوّل الأدلةَ المتوفرة إلى معرفة مكتسبة، وبشكل متماثل في اللغات جميعها[٧]. وربما توفّر دراسةُ اليابانية لنا دليلاً، وقد يكون دليلاً قويًا، عن الحالة الأولى، أي عن طريق مقارنة ما سيُعرَف بما يقدَّم، حيث تتوسّط مواردُ الحالة الأولى بين الطورين. فإذا استخدم متكلمو اليابانية إحدى الخصائص الصورية لبنية اللغة (كخصيصة: "التحكُّم المكوِّني" c-command، مثلا) في تأويلهم الاعتمادَ الإحالي، ولم يُلزِم" الدليلُ المتوفرُ للطفل الياباني بشكلٍ ما بهذه النتيجة المتماثلة أو لا يصلح حتى أن يكون سببا فيها فسنكون محقّين في أن نعزو للحالة الأولى وجهًا من أوجه نظرية الربط العاملي، التي تشتمل على هذه الخصيصة والمبادئ ذات الصلة التي تدخل فيها، وهو ما يقود إلى تفسير الحقائق الملاحظة. لكن متكلم الإنجليزية جونز يشترك [مع متكلم اليابانية] في الحالة الأولى، وسيترتب على فرضياته عن الحالة الأولى بالطبع بعض المقتضيات عن الوصف الملائم للحالة المعرفية التي حصّلها. وربما تكون النتائجُ المحصّلة من اليابانية عن معرفة جونز للإنجليزية بعيدة المدى. لهذا ربما يُبرهن الدليلُ عن الاعتماد الإحالي في اليابانية أنه ذو صلة

بتحديد موضع حدود المركّبات في الإنجليزية[٨].

وهذا كلُّه نموذجي في الممارسة العلمية، ولم يكن يومًا موضعًا للتشكُّك في العلوم الطبيعية – أو النقاش، ذلك أنه واضح إلى حد لا يجعله موضعًا للخلاف. ومع ذلك نجد كوين والمتأثرين بنموذجه يلزمون "اللسانيين الميدانيين" بالمخالفة الجذرية للإجراءات المتَّبعة في العلوم، وقصرْ عملهم على جزء ضئيل من الدليل ذي الصلة، يُنتقى في ضوء معايير المذهبية السلوكية؛ وأن يرفضوا الإجراءات النموذجية التي تُستخدم في بناء النظرية في العلوم كذلك. وليست هذه مسألة نظرية؛ ذلك أن ممارسة اللسانيين الوصفيين المألوفة تعتمد على هذه المسلمات اعتمادًا حاسما، مع أنها ينبغي أن تكون أوضح الحقائق البديهية.

ويمكن أن نصوغ هذه المسألة بشكل مختلف. فيواجه اللساني والطفلُ مهمَّتين تختلفان اختلافًا جذريًا. فيكتسب الطفل، المزوَّدُ ببعض القدرات الفطرية المعينة، معرفتَه اللغوية بلغة ما – بصورة آليَّة، ولا يتوفر له إلا خيارات محدودة جدًّا من هذا الأمر، إن كان هناك خيار أصلا. أما اللساني فيحاول أن يكتشف ما المعرفة التي اكتَسبها الطفل، وما خصائص الذهن/الدماغ الفطرية المسئولة عن هذه العملية لنمو المعرفة (فهو يحاول أن يكتشف ما يعرفه الطفلُ قبل التجربة، إن استعملنا التعبير الذي يبدو ملائمًا جدًا). وسيستعمل اللساني بصورة ملائمة إلى حد بعيد النتائجَ ذات الصلة بالخصائص الفطرية، بغض النظر عن المصدر الذي جاءت منه، لوصف المعرفة المحصلة، في دراسة المعنى خاصة، حيث يكون لهذا المجال المنزلة التي لغيره.

بل إن إلزامات كوين، إن طبِّقت تطبيقًا مطَّردا، ستكون أكثر تطرُّفًا مما يوحي به هذا المثال. لذلك سوف ينظر أي عالم إلى الأدلة التي تأتي من الأمراض اللغوية أو التنوعات اللغوية بين الأسر اللغوية أو البنية العصبية أو الكيمياء الأحيائية، بل من أي دليل مهمَا كان مصدره، على أنها ذات صلة

محتمله من حيث المبدأ بتحديد طبيعة الحالـة الأولـى أو حالـة المعرفـة المُحصّلة، لأن هذه الحالات ببساطة عناصرٌ للعالم الأحيائي الطبيعي. ويُؤكد كوين نفسُه هذه النقطة فيما يخص دراسة العالم الطبيعي، باسـتثناء دراسـة البشر في "ما فوق الرقَبة" حين يقوم بها "اللسانيون"، بمعنى هذا المـصطلح عنده. فإذا أمكن بيانُ أنّ بعض الحقائق عن البنية العصبية للدماغ توفر تحققا طبيعيًا لأنظمة القواعد من نوع معين (ولنقل عن تقسيم الجملة:

John contemplated the problem.

إلى مركّبين هما: John و contemplated the problem) بدلاً مـن تقسيمات أخرى، فستكون هذه الطريقة في النقاش مقبولةً – إذن – في العلوم للوصول إلى قرار بشأن الوصف الصحيح لمعرفـة جـونز — أي الحالـة المعرفية التي حصلّها جونز (وتعني هنا قضية اختيـار بنيـة المركبـات). ويصح الأمرُ نفسه عن نظرية المعنى، أو عن أي بحث اختباري آخر. لكن هذه الطرق كلها، المألوفةَ في العلوم الطبيعية، مرفوضةٌ رفضًا قاطعًـا فـي ضوء القيود التي يضعها كوين على عمل "اللساني" تبعًا للنموذج المـستخدَم استخدامًا واسعًا في النقاش الفلسفي.

ويقيّد كوين هذه المذاهب بطرق تلفت النظر. وتكشف النظرةُ الفاحصة لهذه القيود بجلاء الطبيعة الاعتباطية للافتراضات التي يصدر عنها، وعـدم فهمه المستمر للقضايا الاختبارية. وكمثال على اعتباطية هذه الافتراضـات، انظر إلى نقاشه للدليل الذي ربما يقودنا إلى تعيين بنيةٍ مركبيّـة أو أخـرى لجُمل جونز الإنجليزية (Quine 1986). فإذا جاء هذا الدليل مـن التجـارب اللسانية النفسية عن إدراك إزاحة الطقطقات[4]، فهو مقبول، أما إن جاء مـن القيود على الاعتماد الإحالي في اليابانية أو على صياغة التركيبات الـسببية في عدد لا يحصى من اللغات فغير مقبول – إذن – مع أنه دليلٌ يمكـن أن يؤوّل بالكيفية المألوفة في العلوم الطبيعية، في ضوء الطرق التي ناقـشناها قبل قليل. وربما تؤوّل آراءُ كوين على أنه يرى أن الدليل من النـوع الأول

(الذي يسمى "الدليل النفسي") أقوى وربما أكثر إقناعا مما يسمى بـ "الـدليل اللغوي"؛ وإذا كان الأمر كذلك، فسيكون هذا ببساطة خطـأ احـر، ذلك أن الأمر بخلاف ذلك، في الوقت الحاضر في الأقل. بل يبدو كأنَّ كوين يرى أن الدليل يختلف من حيث طبيعته الإبستمولوجية، وهذه فكرة مستحيلة. ذلك أن الأدلة لا تلقى ممهورةً بأنها "صالحةٌ لإثبات النظريات" (كالدليل النفسي") أو "صالحةً من أجل "البساطة وقبولها للترجمة"" ("الدليل اللغوي")، فهـي أدلـةٌ وحسب، وربما تكون جيدة أو رديئة، مقنعة أو غير مقنعة، في ضوء الأطر النظرية التي يمكن أن تزوِّل في ضوئها لتحديد الفرضيات تحديدًا صارمًا أو تأكيدها.

ومن أمثلة عدم فهم كوين للقضايا الاختبارية، مناقشته لما يسمى بـــ "القيدِ على بِنْية العطف"، وهو تعميمٌ وصفي يشمل، مثلاً، الفارقَ الجذري من حيث المكانة بين التعبيرين الاستفهاميين اللذين يُشتَقان عن طريق السؤال عن ماري في الجملتين التاليتين:

John saw Bill and Mary.

"رأى جون بيل وماري".

و:

John saw Bill with Mary .

"رأى جون بيل مع ماري".

أي الاختلاف بين:

Who did John see Bill and?

Who did John see Bill with?

[حيث لا يمكن السؤال عن أحد المتعاطفين وترك الآخر (في المثـال الأول)، وإمكان السؤال عن أحد الاسمين المتعاطفين في غير هـذه البنيـة (المثال الثاني)].

ويستنتج كوين أن "التماثل اللافت للنظر" [بين اللغات] الذي يبينه هـذا القيد "لا يوحي بأنه سمة موجودة في اللغات كلها"، بل "هو إشارة إلى صـلة نسبية بين اللغات من الواضح أنها تحولت إلـى خصيـصة نحويـة بهـذه الأشكال"[10]. لكن هذه النتيجة تقوم على سوء فهم خطير للقضايا الاختبارية ذات الصلة هنا. إذ تكمن المشكلة في أن نفسّر كيف يعرف الأطفال جميعًـا الفارقَ ذا الصلة بين:

Who did John see Bill and?

[وهي خاطئة]

و:

Who did John see Bill with?

[وهي صحيحة]

ولا يُمكِن القول هنا إن الطفل يَعتَمد على دليل يستقيه من تاريخ اللغة، وهو لا يمتلك في العادة تجربةً ذات صلة لكي يُحدِّد (بـــ "الاسـتقراء"، أو غيره) أن القاعدة البسيطة "قدّم عبارة ـــ wh" مُبعَدت من العمل بصورة ما في الجملة:

John saw Bill and who.

"رأى جون بيل ومَن".

لكنها لم تُمنع في الجملة:

John saw Bill with who.

"رأى جون بيل مع/من".

(في العامية الإنجليزية). فلا يُنتج الأطفال، مثلاً، جملاً مثل:

Who did John see Bill and?

ثم يُرشِدهم أهلوهم إلى أن هذه ليست الطريقة التي تُنتَج بهـا هـذه الجملة؛ كذلك فاللغات لم "تنحُ" نحو هذا "التبسيط" في قاعدة الاسـتفهام عبـر آلاف السنين[11]. فتكمن المشكلة، باختصار، في "فقر المنبه"، كما أنه لـيس

للتحرصات عن الصلة النسبية بين اللغات صلةً بها إطلاقًا، في هذه الحالة وفي حالات أخرى مماثلة لا حصر لها(٢٢).

وتُبين حالاتٌ أخرى عن نوع مماثل من رفض السماح لدراسة اللغة بأن تسير بالكيفية التي تسير بها العلوم الطبيعية. انظر مقال ديفيدسون بعنوان: A Nice Derangement of Epitaphs "تحريف بسيط في شاهد قبر" في الكتاب الذي أشرنا إليه من قبل (Lepore 1986). فينظر ديفيدسون في الدعوى التي مفادها أن هدف الدراسة الوصفية للمعنى أن يصوغ "نظرية صريحة" تكون "نموذجًا لمعرفة المؤوِّل اللغوية"، أي "نظرية تكرارية من نوع ما"، وأننا لا نستطيع "وصفَ ما يقوم به المؤوِّل" إلا باللجوء إلى مثل هذه النظرية. ثم يمضي قائلاً إنه: "لا يُضيف شيئًا إلى هذه الدعوى أن نقول إنه إذا وُصفت النظريةُ المعرفةَ اللغوية عند مؤوِّلٍ ما وصفًا صحيحًا، فيلزم أن يكون عند المؤوِّل بعضُ الآليات التي تتماثل مع النظرية" (Davidson 1986b, 438). وقد اقترح دوميت وآخرون مثل هذه النقاط كذلك(٢٣).

وسيجد مَن يقارب هذه المسائل من منظور العلوم الطبيعية أن التعليق الأخير الذي أوردناه خاطئ تمامًا؛ إذ لو كان صحيحًا لكان التعليق المماثل صالحًا في دراسة الإدراك أو الكيمياء. وكما هو الأمر في العلوم كلها، فقد يضيف إلى الدعوى إضافاتٍ مهمة أن يقال إن "بعض الآليات عند المؤوِّل . . يوجد ما يماثلها في النظرية". أي إن علماء العلوم الطبيعية الذين يصوغون نظريةً "تَصف ما يمكن أن يفعله مؤوِّل" سيستمرون ليعبروا إلى الشخص الذي يدرسونه بعضَ الآليات الثابتة الصريحة التي ستتصف بالخصائص التي تفترض في هذا التصور الوصفي، لا في غيره. وربما يكون هذا العزو في مستوى مجرد، في ضوء أنظمةِ قواعد ممثَّلة في الذهن، أو في ضوء وحدات مجردة أخرى كالشبكات العصبية، أو في ضوء بنية الخلايا، إلخ؛ وهذا كلُّه نموذجي في العلوم الطبيعية. ويعد أن يعزو المشتغلُ بالعلوم الطبيعية بنيةً معينة وبعض الآليات المحدَّدة لذهن/دماغ شخصٍ ما ــ وغالبًا ما يكون ذلك

في مستوى مفارقٍ جداً للآليات الفيزيائية "الأكثر أولية" غير المعروفة ــ سيكون عندئذ قادراً على اختبار النظرية في ضوء مجموعة من الأدلة الكثيرة، ومنها مثلاً، الدليلُ الذي يؤخذ من لغات أخرى بالطريقة التي بيَّناها آنفاً، والدليلُ من الأمراض التي تصيب الدماغ أو من العلوم المتخصصة في الدماغ أو الكيمياء الأحيائية. لكن اشتراط ديفيدسون يمنع هذه الجهود التي تستخدم مناهج البحث المنضبط في العلوم لتحديد إن كان التحليلُ المفترض للمؤوِّل صحيحًا حقًا، وأنْ نعدّله إن لم يكن كذلك (كما هو المحتمل).

وتَبرز المشكلةُ نفسُها حين يَعترض كوين وديفيد لويس (١٩٨٣) ودوميت، وكثير غيرهم بأن هناك مشكلةً تَبرز حين يَعزو اللسانيون إلى متكلم ــ سامعٍ معيَّن نظام قواعد داخليًّا محدَّداً، ثم يَسعى هؤلاء إلى استقصاء صدق هذه النظرية عن الشخص مستخدمين المناهج النموذجية التي تُستخدم في العلوم. بل يُجادل كوين (Quine 1972: 447)، أن هذا المنحى ربما لا يزيد عن "حماقة" خالصة، وينبغي التغلبُ عليها بالتأمل الملائم عن المنهجية. وتكمن المشكلةُ الملاحظةُ في أنَّ من الممكن أن نسوغ لأي مجموع من السلوك الملاحَظ، أو أي مجموع غير نهائي من الأقوال نختاره اعتمادًا على بعض الأسس الغامضة ويأخذه الفيلسوفُ على أنه "اللغة"، عدداً كبيراً غير نهائي من النظريات التي تتوافق مع هذا الدليل (ونسمي أحيانًا: "أنحاء")؛ لذلك يُنظر إلى الافتراض بأن واحدة من هذه النظريات "صحيحة" والأخريات "زائفة" على أنه توجُّه غيرُ مسوَّغ ــ إلا، كما يرى كوين أحيانًا، إنْ كان هناك "دليل نفسي" ــ بخصائصه الغامضة التي يفتقر إليها "الدليلُ اللغوي" ــ يؤيد فرضيةً معينة أو أخرى. وتُدعَم هذه الحجة في الغالب بالقياس على دراسة اللغات الصورية، التي ليس لها صلة لبتة ومضلِّلةٌ إلى حد بعيد. ولو كانت هذه الحجة صحيحة لكان المتوقع أن تصحَّ في العلوم كلها؛ لكنها ليست إلا شكلاً من التشكُّك الذي لا يحمله أحدٌ على محمل الجد في دراسة العالم الطبيعي لأسباب اتضحت في القرن السابع عشر، كما يلاحظ

بوبكين (Popkin 1979)[٤٤]. وسيعزو المشتغل بالعلوم الطبيعية إلى الشخص الذي يدرسه نظامًا محدّدًا، بدلاً من نظام آخر (أي: "نحوًا"، إن استعملنا المصطلح المضلّل)، ثم ينتقل بعد ذلك إلى التأكد من صحة هذه الفرضية عن طريق البحث عن أدلة متعددة بقدر الإمكان، ويشمل ذلك بصورة خاصة الأدلة من لغات أخرى، بالمعايير التي ناقشناها آنفًا. ومن الطبيعي أنه سيظل هناك دائمًا شيء من عدم التحديد الاختباري، لأن هذا علمٌ اختباري، لا رياضيات، لكن هذا هو كلُّ ما يمكن قولُه عن هذا الأمر. وهناك أبحاث كثيرة جدًا تجادل بأن العكس هو الصحيح، إلا أنها تقوم على احتجاجات واهمة جدًا[٤٥]. ومن هذه الأوهام الفرضياتُ الخاطئة التي ناقشناها آنفا: أي أنه لا يمكن أن يأتي الدليلُ عن معرفة جونز اللغوية إلا من سلوك جونز (حين يؤوّل في ضوء المبدأ التنظيمي عن الصدق)، وأنه لا يضيف إلى وصف سلوك جونز شيئًا أنْ تعزو إليه آليةً داخلية محدّدة، وربما كانت هذه نظامًا معينًا من القواعد أو شكلاً ما من التنظيم العصبي الذي تتحقق به.

ويمكن إيضاح هذه النقطة، مرة أخرى، بالنظر في مسألة حدود البنية المركّبية. افرض أن لدينا نوعين من الأدلة لوضع الحد الأكبر [للمركّبات] بعد الفاعل في:

John --- contemplated the problem

ويأتي النوع الأول من الاعتماد الإحالي في اليابانية ("الدليل اللغوي") والثاني من الإزاحة الإدراكية للطقطقات ("الدليل النفسي"). ويخضع الدليل الأول للنوع المألوف من عدم القدرة على التحديد. وكذلك الثاني. افرض أن الطقطقات، في ضوء الشروط الاختبارية التي وُضعت للحصول على النتائج الصحيحة (بعد عدد كبير من المحاولات التي تنتهي بالخطأ، كما هو المعهود)، ستُزاح إدراكيًا إلى الحدّ بين الفاعل والمفعول، لا إلى الحد بين الفعل والمفعول. ويمكن تأويل هذه النتائج على أنها تؤيد النتيجة التي مفادها أن بنية هذا المثال هي:

NP -V NP

[مركّب اسمي ــ فِعل مركّب اسمي]

لا:

[NP V –NP]

[مركب اسمي فعل ــ مركب اسمي]

أو:

[NP – V NP]

[مركب اسمي ــ فعل ــ مركب اسمي]

لكن من السهل أن نستخدم حجة كوين لتبيين أنه "ليس هناك أمر من أمور الحقيقة" في هذه الحالة (Quine 1960: 303؛ وانظر Chomsky 1980: 15). فمن الواضح أن هناك تأويلات أخرى كثيرة لهذه النتائج الاختبارية. فيمكن تأويلها بأن الطقطقات أزيحت إدراكيًا إلى وسط "مكوّنٍ ما"، لا إلى حدِّه؛ أو ربما كان المجرَّب عليه يجيب بتعيين حدود المكوّن الذي يلي المكوّن الأكبر مباشرة. ويمكن أن تؤوَّل التجاربُ الأخرى ذات الصلة كلُّها بطرق مماثلة، كما يمكن القيام بذلك من حيث المبدأ بكل تأكيد ــ وإن لم يكن بسيطًا من حيث الممارسة، سواء في حالة الدليل "النفسي" أو الدليل "اللغوي". فالقضايا هي نفسها في الحالتين كلتيهما؛ بل لا توجد قضايا خاصةٌ هنا، ذلك أنها تصح في البحث الاختباري بصورة عامة.

ويتردد كوين في قبول النتائج حين تُستخلص عن حدود المركّبات أو عن المظاهر الأخرى للغة اعتمادًا على "الدليل اللغوي"، إن لم يصحب ذلك مزيدٌ من الوضوح عن الآلة المفترضة[١٩]، لكنه لا يثير هذه الاعتراضات حين تُستنتج هذه النتائج نفسُها اعتمادًا على "الدليل النفسي". وليس لهذه الثنائية الإبستيمولوجية من معنى البتة؛ وهي خطوة واسعة إلى الخلف من الثنائية الميتافيزيقية التقليدية، التي كانت ردَّ فعل معقولاً على مشكلات اختبارية ملحوظة، تنطلق من مسلمات نعرف الآن أنها كانت خاطئة[٢٠].

وهذه الاعتراضات، على الوجه الذي هي عليه، متماثلة من حيث المبدأ، مهما كان الدليل الذي تقوم النتائج عليه، وهي لا تزيد عن كونها سمات للبحث الاختباري. أما فيما يخص "الآلة المعترضة" فلا تثير مشكلة مبدئية تختلف عن تلك المشكلات المعهودة في الأنواع كلها لصياغة النظرية في العلوم الاختبارية.

ومع ذلك فهناك نوع آخر من التناقض يبرز في هذا الإطار، فيجادل كوين بأنه من غير المسموح للسانيين أن يعزوا نظامًا لغويًا محددًا، بدلاً من أنظمة أخرى، للفرد أو الجماعة المؤمثلة التي يدرسونها[18]، ولا يسمح لهم أن يتفحصوا ما يكون صحيحًا عن الدماغ، حين يوصف في المستوى الذي تصوغ فيه أنظمةَ القواعد وما يشبهها. لكنْ هنالك شيئًا صحيحًا عن الدماغ؛ فهناك شيء معينٌ عن دماغي يكون فيه مماثلاً تقريبًا لدماغك ومختلفًا اختلافًا مهمًا عن دماغ متكلم اللغة السواحلية. لهذا يجب أن يُسمح لأحدٍ ما أن يدرس مظاهر العالم الواقعي هذه، لكن ليس اللسانيين، الذين يقصرون على بحث سلوك جونز، وربما لا يمكنهم أن يعزوا بعضَ الآليات المحددة إلى ذهن/دماغ جونز أو أن يستخدموا أدلةً من اللغات الأخرى (أو من أي مجال آخر، من حيث المبدأ) لكي يختبروا دقة نتائجهم عن هذه الآليات، وستكون الخطوة المنطقية - إن قبلنا بهذه القيود المصطلحية على ما يجب أن يفعله اللساني - أن نهجر اللسانيات (ويشمل ذلك دراسة المعنى في ضوء الشروط المفروضة في نموذج البحث عند كوين). أما حين نتخلى عن هذه الممارسات غير المفيدة، فيمكن لنا الآن أن نلتفت إلى هذا الموضوع الآخر حيث يُسمح لنا بأن نعزو بعضَ الآليات المحددة إلى ذهن/دماغِ جونز وأن نتفحص هذه الفرضيات مستخدمين المناهجَ التي تتبعها العلوم، مستعينين بأي دليل ممكن؛ والحق أن هذه الممارسة هي ما يقوم به اللسانيون، وهي التي أُدينت في هذا التقليد الغريب، وإن كان تقليدًا مؤثرًا جدًا في الفلسفة الحديثة، وهو الذي يتباهى، وهذه مفارقة، بانتمائه إلى "النزعة الطبيعية" وبالتزامه بالمناهج العلمية.

ويقدّم كوين، في أحدث جهوده لتسويغ القيود التي يفرضها (Quine 1987) الحجة التالية. فهو يجادل بأنّ "المنهج السلوكي لازم" للساني؛ ذلك أننا في اكتسابنا اللغة "نعتمد حصراً على السلوك الظاهر في السياقات الملاحظة. . . لذلك لا يتضمن المعنى اللغوي شيئًا وراء ما يُلتقط من السلوك في الظروف الملاحظة" (Quine 1987: 5)، ويصح الشيء نفسه، اعتمادا على تماثل الحجة، في دراسة طريقة النطق، أو البنية المركبية، أو غيرها من مظاهر اللغة. زيادة على ذلك، وكما يبيّن كوين بجلاء مرة أخرى، فالسلوكُ الذي يهتم به اللساني إنما هو سلوك متكلمي اللغة الذين يعزو إليهم معرفة لغة: "فإذا اختلف المترجمون في ترجمة جملة من لغة سكانٍ غابة ولا يمكن لأي سلوك عند هؤلاء [الذين يسلّم ضمنا بأنهم متجانسون] أن يقرّر أمرَ هذا الاختلاف، فيعني هذا أنه ليس هناك، ببساطة، شيء يمكن عدُّه أمرًا من أمور الحقيقة" (Quine 1990: 38)، وأن اللساني الذي يعتقد أن هناك حقائق يمكن اكتشافها، وأن بعض النظريات (الأنحاء) صحيح وبعضها غير صحيح، يرتكب خطأ منهجيًا خطيرًا أو هو ضحية لـ "حُمْق" خالص (لنتذكر أن "المترجم" يمثل متعلِّم اللغة كذلك(١٩) وأنّ الحجة نفسها تنطبق على طريقة النطق، والبنية المركبية، وغير ذلك).

انظر الآن إلى الحجة الشبيهة التالية، فيعتمد الكائنُ العضوي بشكل خالص، في مساره من الحالة الجنينية إلى الحالة الناضجة ليصل إلى بنيته المادية النهائية، على التغذية التي يستمدها من الخارج (ويشمل ذلك الأوكسجين، إلخ). فلا يوجد شيء في البنية المادية للكائن العضوي الناضج - إذن - وراء ما يمكن أن يُلتقط من الدخول الغذائية. لهذا يجب على دارس التطور البشري وما يؤول إليه، إذن، أنْ يَقصر انتباهه على هذه الدخول وحدها؛ وهو ما يعني أن "المقاربة الغذائية لازمة" عند عالِم الأحياء. وتماثل هذه الحجة حجة كوين، وهو ما يجعلنا نرى سببَ عدم إمكانها فورا. فصحيح أن الجنين "يعتمد" على البيئة الغذائية مثلما "يعتمد" متعلمُ اللغة على السلوك

الظاهري. لكن ما الذي يتضمنه مصطلحُ "يعتمد"؟ وهنا نلتفت إلى بنية الكائن العضوي التي يمكن أن ننظر إليها بشكل مجرد بوصفها تحويلاً لدخول خارجية إلى حالة ناضجة. وفي غياب مثل هذه البنية لن يؤدي السلوكُ الملاحظُ إلى معرفةِ اللغة، ولن تقود التغذيةُ إلى نمو. وكوين يعرف هذا بالطبع. لهذا يربط "اللساني الميداني" في عُرْف كوين، في تتبُّعه مسارَ متعلمِ اللغة، "بشكل مؤقت أقوالَ المتكلم بالسياق الملاحظ المصاحب"، كما يُسمح له أن يستفيد من الفرضيات الأخرى التي يُزعم أنها تمثّل القدراتِ التي زوِّد بها متعلمُ اللغة، وربما أمكن لهذه الفرضيات، إذا ما وُضّحت، أن تكون أساساً لنظريةٍ عن البنية الفطرية للكائن العضوي وللتحويل.

وكما يتفق الجميع، فليس هناك أثرٌ للبيئة الخارجية على نمو اللغة (أو غيرها) في غياب البنية الفطرية؛ ولن يمكن لجونز، على وجه الخصوص، في غياب البنية الفطرية، أن يتطور بطريق محددة من جنين إلى شخص، ولا يمكن أن تصل ملكتُه اللغوية إلى حالة المعرفة الناضجة التي تؤسِّس لسلوكه وتفسِّره. لكن الطفل مزودٌ بهذه البنية الفطرية، لهذا ينمو ليصل حدَّ النضج بحسب مسارٍ موجَّه داخليًا بشكل كبير؛ ومهمةُ العالم أن يكتشف طبيعةَ هذا الإعداد الداخلي وطبيعةَ الحالة التي حُصِّلت. وأفضل نظرية – الآن – أنّ الحالة الأولى للملكة اللغوية تتضمن بعض المبادئ العامة لبنية اللغة، ويشمل ذلك المبادئَ الصوتية والدلالية، وأنّ الحالة الناضجة للمعرفة اللغوية إجراءٌ توليدي يعيِّن الأوصاف البنيوية للتعبيرات اللغوية وتفاعلاتها مع النظام الحركي والنظام الإدراكي والأنظمة الإدراكية الأخرى للذهن/الدماغ؛ لتُعطي تأويلاتٍ دلالية وصوتية لقولٍ ما. وهناك أنواعٌ كثيرة جداً من الأدلة الاختبارية ذات الصلة المبدئية بتحديد الكيفية الدقيقة التي يجب أن يبيَّن بها هذا الاقتراح بالتفصيل. ومرة أخرى، لا يعدو هذا كلُّه أن يكون علماً نموذجيًا، وهو يؤدي إلى نظريات إما صحيحة أو زائفة(٢٠) عن المعرفة اللغوية لجونز وحالته الأولى، التي هي جزء من الإعداد الأحيائي البشري.

وربما يجب التخلى عن هذا الاقتراح فى ضوء بعض التصورات الأخرى التى لا توجد الآن، لكن الوصول إلى هذه النتيجة لا يكفى لأن نطلب من اللسانى هجر المناهج العلمية.

وكما هى الحال فى صياغات كوين المبكرة لهذه الأفكار، فتقريراته المحدَّدة عن البنية الفطرية (ومن هنا عن "التحويل") اعتباطيةٌ خالصة، وليس لها صلة هنا، بغض النظر عن سوابقها التاريخية. فليس هناك من سبب لأنْ نَقبلها فى حال اللغة، مثلما أن شبيهتها المذهبية عن "الاعتماد" ستُرفض فوراً فى دراسة المظاهر الأخرى لنمو الكائنات العضوية. وهناك أدلة مقنعة، زيادة على ذلك، على أنها زائفة، على حدِّ ما صيغت به من وضوح. وكما هى الحال فى دراسة التطور المادي عموماً، سوف يَضرب الباحث المنهجى صفحاً عن هذه المسلمات المذهبية عن طبيعة "الاعتماد" (الذى يتعلق بطبيعة البنية الفطرية) مع الاعتقادات الأخرى، كتلك التى أشرنا إليها آنفاً، وسيَستعمل أى دليل متوفر يتيسر وجوده عن بنية الكائن العضوى والتحويل وطبيعة الحالات المحصَّلة فى حالات معينة. وتبقى النتائجُ التى استخلصها كوين وديفيدسون وروورتى وكثير غيرهم مفتقرةً إلى الحجة. وليس هناك ما يمكن بعثُه من الصورة التى يَرسمها كوين لهذه الأمور، على حد ما أرى، مع أن بعض نتائجه — خاصة ما يتعلق منها بـ "شبكية المعنى" — ربما يثبت أنها صحيحة، إلى حد كبير فى الأقل.

لنعُد الآن إلى التمييز بين "التحليل والتأليف"، وإلى حجة ديفيدسون (Davidson 1986a: 312) التى مفادها أن كوين استطاع "بالتخلص [من هذا التمييز] إنقاذَ فلسفة اللغة بوصفها موضوعًا جادًا". لنتذكر أن موضوع النقاش هنا ليس هذا التمييز ببساطة، بل مسألةُ الارتباطات الدلالية التى تحدِّدها اللغة عموما. ونحن لا نستطيع، كما ذكرتُ، الاحتجاج بحجة روورتى، المنسوبة إلى كوين، ومفادها أن "اللسانى الميدانى" يَجد هذا التمييز "غير مفيد". أما من حيث الممارسة فتُعزى البنيةُ الدلالية دائمًا إلى الوحدات المعجمية فى الأبحاث

الوصفية والدراسات النظرية لدلالة اللغة الطبيعية، ثم تُشتق الارتباطات الدلالية مختلفةُ الأنواع من هذه الخصائص البنيوية وغيرها، ويشمل ذلك الارتباطات التحليلية، وهناك أسباب وجيهة وراء هذه المسلمات النموذجية عن البنية المعجمية. ذلك أن اكتساب الوحدات المعجمية يثير ما يسمى أحيانًا بـ "مشكلة أفلاطون" بشكل أكثر جلاء. فكما يعي كلُّ منْ حاول جمْع معجم أو اشتغل بالوصف الدلالي أنَّ من الصعب أن نصيب معنى أية كلمة، ثم إن مثل هذه المعاني تبلغ حدًّا عاليًا جدًّا من التعقيد، وتشتمل على أكثر المسلمات لفتًا للنظر، حتى في حالة أبسط التصورات، كما هي حالة الشيء الذي يمكن أن يكون قابلاً للتسْمية. ويكتسب الأطفال ("يتعلمون")، في ذروة فترة اكتسابهم للغة، عددًا كبيرًا من الكلمات يوميا، ربما يصل عدد هذه الكلمات أكثر من عشر، وهو ما يعني أنهم يكتسبون الكلمات في سياق عددٍ قليل جدًّا من مرات التَّعرُّض [للغة]، بل ربما لا يتعرضون لها إلا مرة واحدة. وربما يوحي هذا بأن التصورات متوفرة [في دماغ الطفل] بشكل مسبق، مع تحديد الجزء الأكبر من تعقيدها وبنيتها بشكل مسبق، إن لم يكن تحديد ذلك كله، وأنَّ مهمة الطفل لا تعدو أن تكون إعطاء أوصافٍ لهذه التصورات، وهو ما يمكن أن يُنجز بناء على عدد محدود من الأدلة في وجود بنية فطرية غنية بشكل كاف. كما يبدو أن هذه البنى التصورية تَعمل على إنتاج ارتباطات دلالية من النوع الذي سيسمح – بصفة خاصة – بوجود تمييز تحليلي – تأليفي، بوصفه حقيقة اختبارية.

ويبدو أن الوحدات المعجمية وطبيعتها، على حد ما يُعرف عنها، مؤسسة على بنى تصورية من نوع محدد ومتماسك جدًا. وتدخل التصورات ذات الطبيعة الموضعية بصورة واسعة في البنية المعجمية، وبطرق محسوسة إلى حد بعيد غالبا، كما يُجادل بصورة معقولة أن بعض التصورات ذات الطبيعة المحلية ــ ويشمل ذلك هدف الحدث ومصدره، والشيء الذي حرك، إلخ ــ تدخل فيها كذلك وبالكيفية نفسها. يضاف إلى ذلك أن مفاهيم كالمقصد

وهدف الحدث، وآلة التنفيذ، والحدث والقصد والتسبيب وغيرها عناصرُ لازمة في البنية المعجمية، بخصائصها وعلاقاتها الداخلية المحدَّدة، خذ مثلاً كلمات مثل chase "يطْرد" أو persuade "يُقنع". فيدخل في هاتين الكلمتين بوضوح الإحالةُ إلى القصد البشري. فلا يعني أنْ تطردَ جونز أنك تتبعه وحسب، بل أنْ تتبّعه بقصد أن تسلك الطريق التي يسلُكها، ربما لتُمسك به. ويعني أن تقنع سميث أنْ تفعل شيئًا يَجعله يقرّر أو يقصد أن يفعل ذلك الشيء؛ فإذا لم يقرِّر أو يقصد أن يفعل ذلك الشيء فيعني هذا أننا لم ننجح في إقناعه. ويجب، زيادة على ذلك، أن يقرِّر هو أو يقصد برغبته هو، لا بسبب إلزامه بذلك؛ فإذا قلنا إن الشُّرطة أقنعتْ سميث، باستخدام التعذيب، أن يعترف فإننا نَستعمل الكلمةَ حينئذ للمفارقة. وبما أن هذه الحقائق معروفة أساسًا من غير دليل فلابد أن نستنتج أن الطفل يقارِب اللغةَ مزوَّدًا بفهم حدسي عن التصورات التي تشتمل على القصد والتسبيب والحدث وهدف الحدث إلخ؛ وأكثر من ذلك، لابد أنَّ الطفل يضع الكلمات التي يَسمعها في سلسلة تَسمح بها مبادئ النحو الكلي، وهي التي توفِّر الإطارَ للفكر واللغة، وتكون مشتركةً بين اللغات البشرية بوصفها المبادئ التي تدخل في مختلف مظاهر الحياة البشرية. كما يبدو أن هذه العناصر تدخل في "خطة تصوُّرية" متماسكة، وهي إحدى مكوِّنات الحالة الأولى للملكة اللغوية التي تتخذ شكلها النهائي بطرق محددة، ولها مدىً وحدودٌ محدَّدة مسبقة، في أثناء نمو اللغة، وهذا واحد من مظاهر التطور الإدراكي. وربما تخضع هذه الخطط التصورية لبعض التنقيحات وإعادة البناء (انظر Carey 1985)، لكنْ يجب أن ندقِّق في التمييز بين العوامل المختلفة التي تَدخل في مسار التطور، ويشمل ذلك، إلى حد بعيد من المعقولية، النضجَ المحدَّد وراثيًّا الذي يؤدي إلى بعض المؤثرات التي لا تُلحَظ إلا في المراحل المتأخرة من النمو الإدراكي.

لاحظ مرة أخرى أنه يبدو أن هناك ارتباطات للمعنى في حالات مثل هذه؛ فلدينا فارق واضحٌ إلى حد بعيد بين صدق المعنى وصدق الوقائع. لهذا

فإذا أقنع جونُ بيلاً بأن يذهب إلى الجامعة فيعني هذا أن بيل قرّر عند حد معين أن يذهب إلى الجامعة أو قصد أن يذهب إليها وقام بذلك من غير إرغام؛ أما إذا لم يكن الأمر كذلك فجون لم يقنع بيل بالذهاب إلى الجامعة. وبالمثل، فإذا "قتل جونُ بيلَ"، فيعني هذا "أن بيل مات" (مع أنه يمكن أو لا يمكن أن يكون جون مات، تبعًا الوقائع). وهذه أمثلة لصدق المعنى لا صدق الوقائع. ويُوفِّر الإطارُ المسبق للفكر البشري، الذي تكتسب اللغةُ ضمنه، بعض الارتباطات الضرورية بين التصورات، وهي التي تُبيِّنها ارتباطاتُ المعنى بين الكلمات، وعلى نطاق أوسع، بين التعبيرات التي تظهر فيها هذه الكلمات، كما في مثال الاعتماد الإحالي الذي أشرنا إليه سابقًا. وتوفِّر العلاقاتُ التركيبية مجموعةً غنية من الأمثلة الأخرى. ومن ذلك، أنه يبدو أنَّ هناك فارقًا واضحًا بين الجملة:

Everyone who lives upstairs lives upstairs.

"كلُّ إنسان يعيش في الطابق الأعلى يعيش في الطابق الأعلى".

والجملة:

Everyone who lives upstairs is happy

"كلُّ إنسان يعيش في الطابق الأعلى سعيد".

ويبدو أن كوين يعتقد أن هذا الفارق أكثر إشكالاً وغموضًا من التمييز الذي وضعه بين "صحيح نحويًا" و"غير صحيح نحويًا"، الذي يَعدُّه حاسمًا شيئًا ما للاستقصاءات التي يقوم بها اللساني[21]. لكن العكس هو الصحيح، ذلك أنه يبدو أنْ ليس للفارق المطلَق بين "صحيح نحويًا" و"غير صحيح نحويًا" إلا أهمية ضئيلة - إن كان له من أهمية أصلا - فهو فارق يمكن رسمُه بأية طريقة أو، وربما بشكل أفضل، ألا يُرسم إطلاقًا، ذلك أن من المشكوك فيه أن يؤدي هذا التصور، بمعناه عند كوين، أي دور في أية نظرية عن اللغة. وقد نوقشت أسبابُ ذلك في الأبحاث المبكرة في النحو

التوليدي، بل إنها الأبحاثُ الوحيدة التي سعتْ لتطوير مثـل هـذا التـصور بطرق ربما تكون ذات صلة بالنظرية اللسانية، وإن كان ذلك بمعايير نُظِـر إليها منذ زمن بعيد أنها غير ملائمة(٢٢).

فيظهر، إذن، أن إحدى النتائج المركزية في الفلسفة الحديثة مـشكوك فيها إلى حد بعيد، وهي: الاعتقاد ــ الذي يؤخذ غالبًا على أنه قد بُرهن عليه في أبحاث كوين وآخرين ــ بأنه لا يمكن لأحد أن يرسم فارقًا مبـدئيًا بـين مسائل الوقائع ومسائل المعنى، فلا يعدو التمييز بينهما أن يكون من أمـور الاعتقاد العميقة إلى حد ما، وقد دُعمت هذه النتيجة بالتأمل في صنفٍ محدود من الأمثلة السطحية، ومنها بعض التصورات التي إما أن لها بنية علائقيـة محدودة أو ليس لها مثل هذه البنية إطلاقًا. فليس من السهولة العثورُ في جمل مثل:

Cats are animals

مثلا، على دليل يقرِّر إن كانت هذه الجملة صحيحة بحسب المعنى أم بحسب الوقائع، أو إن كانت هناك إجابة عن السؤال في هذه الحالة، كما كان هناك خلاف واسع لم يؤدِّ إلى نتيجة محددة في هذا الشأن، أمـا إن وجّهنـا أنظارنا إلى تصورات ذات بنية علائقية لازمة مثل persuade أو chase أو إلى عبارات ذات تركيب معقَّد كالعبارات التي تشي بالاعتمـاد الإحـالي أو السببية أو عبارات الصلة، فيبدو أنه من الممكن حينئذ اكتـشاف العلاقـات الدلالية فورا. وعلى عكس ما يدعي رورتي وآخرون، فهذه مسلَّمة عامة من مسلمات البحث الاختباري في دراسة الدلالة اللغوية، وهي، زيادة على ذلك، فرضية معقولة، كما يبدو.

ولا يُمكن تقريرُ إن كان حكمٌ ما ينتمي إلى صدق المعنى أم أنه حقيقة اختبارية إلا بالبحث الاختباري، وربما يكون هناك صـلةٌ لاعتبـارات مـن مختلف الأنواعِ بهذه المسألة؛ كالبحث في اكتساب اللغة والتنوع بين اللغات،

مثلا. فمسألةُ وجود الصدق التحليلي والارتباطات الدلالية بصورة أعمّ مسألة اختبارية، ويجب تقريرها عن طريق البحث الذي يذهب إلى حدٍّ بعيد جدًّا وراء الأدلة التي يُحتجّ بها عادة في الأبحاث التي تتناول هذه القضايا. افرض أن شخصين يختلفان في حكميهما الحدسيين عن إن كان باستطاعتي إقناعُ جون بأن يذهب إلى الجامعة من غير أن يقرِّر هو أو يقصد أن يفعل ذلك (انظر Harman 1980). ولا نواجه هنا طريقًا مسدودًا أبدًا. بل إن بإمكاننا أن نصوغ نظريات متعارضة ثم نختبرها. فسيعمد مَنْ يرى أن العلاقة بين persuade "يُقنع" و decide "يقرر" أو intend "يقصد" علاقةٌ تصوُّرية إلى تفصيل بنية هذه التصورات، كبيان عناصرها الأولية، والمبادئ التي تُلحقها ببعض الأنظمة الإدراكية الأخرى وتصلها بها، إلخ؛ ثم يسعى لتبيين أنه يمكن تفسير الخصائص الأخرى للغة والمظاهر الأخرى لاكتسابها واستخدامها في ضوء المسلمات نفسها عن البنية الفطرية للملكة اللغوية، في اللغة نفسها وفي اللغات الأخرى، وأنّ التصورات نفسها تؤدي دورًا في المظاهر الأخرى للفكر والفهم. أما من يرى أن العلاقة علاقةُ اعتقاد عميق يُعتقد لا علاقة ارتباط معنى فستكون مهمتُه أن يطوِّر نظريةً عامة لتثبيت الاعتقاد من النوع الذي سيؤدي إلى العلاقات الملائمة في هذه الحالات وحالات أخرى كثيرة. هب أننا افترضنا – مع بول تشيرشلاند مثلاً – أن الارتباط يقوم على "الأهمية الدلالية" للجمل التي تصل: persuade و decide أو intend (أي أن هذه الجمل تؤدي دورًا مهمًّا في الاستدلال، أو أنها تُستخدم لتقديم الكلمة persuade لرصيد الطفل من المفردات؛ ولهذا فهي أكثر أهمية من الكلمات الأخرى من أجل التواصل (Paul Churchland 1979: 51f)). ويواجه الباحث حينئذ مهمةَ تبيين أن هذه المزاعم الاختبارية حقيقيةٌ في الواقع. ويبدو الطريق الأول ـــ الذي يقوم على البنية التصورية الفطرية ـــ أكثر وعدًا كما أظن، وهو المقاربةُ الوحيدة التي تؤدي إلى نتائج بل إلى بعض الاقتراحات التي تُحمد له؛ لكنّ هذا من أمور البحث الاختباري، لا من أمور الادعاء

الذى لا يقوم على دليل تقريبا. وبصورة أكثر تحديدًا فالحجج التى يؤتى بها لمعارضة المقاربة الأولى (التصورية)، بناء على بعض الأسباب مثل عدم التحديد وعدم الوضوح والقضايا التى لا حل لها، إلخ، لا تثبت شيئًا إلا إنْ تبيَّن أن المقاربات البديلة التى تقوم على نظريات (لا توجد الآن) لتثبيت الاعتقاد أو الأهمية الدلالية ليست عرضةً لهذه المشكلات.

ويتطلب الأمرُ كلُّه إعادة تفكير واسعة، كما يبدو أنَّ أكثر ما افتُرِض عمومًا فى العقود القريبة الماضية عن هذه المسائل مشكوك فيه على أفضل تقدير. فهناك، كما يبدو واضحًا، بنيةٌ تصورية غنية تحدِّدها الحالةُ الأولى للملكة اللغوية (وربما تعتمد على موارد ملكاتٍ أخرى للذهن محدَّدة أحيانًا)، تنتظر أن توقظها التجربة، ويتوافق هذا كله مع التصورات العقلانية التقليدية، بل يتوافق كذلك – بمعايير أخرى – مع ما يسمى بالتفكير "التجريبى" عند جيمس هاريس وديفيد هيوم، وآخرين.

ويجد كثير من الناس أن هذه النتائج لا يمكن قبولها إطلاقًا، بل هى سخيفة؛ ذلك أن فكرة وجود ما يُشبه أن يكون مجموعةً من التصورات الفطرية وأنَّ الأمر لا يعدو "وَسْمَ" هذه التصورات بملامح فى أثناء اكتساب اللغة ــ كما يوحى الدليلُ الاختبارى ــ تخالِف جذريًا بكل تأكيد كثيرًا من المسلَّمات الشائعة. فيجادل بعضُ الباحثين، ومنهم هيلارى بتنام مثلاً، أنه ليس من المعقول أبدًا افتراضُ أننا نمتلك "رصيدًا فطريًا من الأفكار" يشمل كلمة carburetor "آلة احتراق الوقود فى الآلات" وكلمة bureaucrat "موظف حكومى" (Putnam 1988a: 15). لكنْ حتى إن صحَّ رأيُه هذا فلن يكون دقيقًا؛ إذ تبرز المشكلةُ بطريقة أكثر جدًّا عن كلمات بسيطة مثل: table و person، و chase، و persuade، و kill ، وغيرها. ومع هذا فحجَّتُه عن المثالين اللذين أوردهما ليست مقنعة. فتعنى هذه الحجة أنه لكى تمدَّنا عمليةُ التطور الأحيائى برصيد فطرى من الأفكار "لا بد أنها كانت قادرةً على توقُّع الاحتمالات كلِّها التى ستحدُث نتيجةً لتأثير البيئات المادية والثقافية فى

المستقبل. ومن الواضح أنها لم تفعل ذلك ولا تستطيعه" (ص ١٥).

لاحظ أن هذه الحجة غير صحيحة ابتداء؛ ذلك أنّ افتراض أنّ اكتساب البشر في مسار التطور رصيدًا فطريًا من الأفكار يشمل كلمات مثل: carburetor و bureaucrat لا يعني أنّ عملية التطور تستطيع توقُّعَ "كلّ" احتمالٍ مادي أو ثقافي في المستقبل ــ وهذه الاحتمالات فقط. وإذا تركنا هذا جانبا، لاحظ أنّ هناك حجةً تكاد تكون مماثلة لهذه الحجة كانت مقبولة منذ زمن طويل في علم المناعة: وهي أن عدد المستَضِدّات antigens كبير جدًا، ويشمل ذلك حتى المواد المصنوعة التي لم توجد من قبل في العالم، وكان يُعدُّ أمرًا سخيفًا أن نفترض أنّ عملية التطور وفّرت "رصيدًا فطريًا من المصادّات antibodies"؛ فيجب، بدلاً من ذلك، أن يكون تخلُّقُ المضادات نوعًا من "عمليةِ التعلُّم" تؤدي فيها المستضدات "دورًا توجيهيًا". لكن هذا الافتراض ربما يكون زائفًا؛ فقد نال نيلز كاج جيرن جائزةَ نوبل عن أبحاثه التي تحدى بها هذه الفكرة، وعن تمسكه بتصوُّره الخاص الذي يقضي بأنه "لا يمكن أن يحثَّ حيوانٌ لكي ينتج أنوعًا محدّدة من المضادات، إلا إنْ كان قد أُنتج مضاداتٍ من هذا النوع المحدّد، قبل وجود المستضد" (Jerne 1985: 1059)، فتخلُّقُ المضادات - إذن - عمليةٌ انتقائية يؤدى فيها المستضد دورًا انتقائيًا توسيعيا[٢٢]. وبغض النظر عن إن كان رأى جيرن صحيحًا أم لا، وربما يكون صحيحا بكل تأكيد، فالشيء نفسه ربما يكون صحيحًا فيما يخص معنى الكلمة؛ ذلك أن الحجة مماثلة إلى حد بعيد.

وهناك سبب وجيه، زيادة على ذلك، لافتراض أنّ هذه الحجة صحيحة إلى حد بعيد في الأقل حتى عن كلمات مثل carburetor و bureaucrat ، وهي التي تثير المشكلةَ المعروفة لفَقْر المنبّه إن تأمّلنا بعناية الفجوةَ الواسعة جدًا بين ما نعرفه والدليلِ الذي تستند إليه هذه المعرفة. والشيء نفسه صحيح غالبا عن المصطلحات التقنية في العلوم والرياضيات، وهذه هي الحال فيما يبدو مؤكدًا عن مصطلحات الخطاب العادي. ومهما كانت درجة المفاجأة في

القول بأن الطبيعة أمدّتنا برصيد فطري من التصورات، وأن مهمة الطفل أن يكتشف علاماتها، فلا تترك الحقائق الاختبارية لنا فيما يبدو إلا احتمالات قليلة أخرى. أما هذه الاحتمالات الأخرى (ومنها الاحتمالات التي تصاغ في ضوء "آليات التعلّم المعمَّمة"، مثلا) فما نزال بانتظار أن تصاغ بشكل متماسك، وإذا نجح أحدٌ في صياغتها مستقبلاً، فربما يُسهم ذلك في حل هذه المسألة المتحيِّلة.

وليس واضحًا ما الفرضية التي يقترحها بتنام والآخرون الذين يرفضون ما يدْعونه بـ "الفرضية الفطرية"؛ وينبغي أن أضيف هنا أنه مع أنني أتّهم بأني من القائلين بهذه الفرضية، بل ربما المجرمُ الرئيس، إلا أنه لم يسبق أن دافعتُ عنها ولا أعرف الوجه الذي يُفترض أن تكون عليه. ومهما كانت الحقيقة عن تخلّق المضادات فهي تعتمد على الموارد الفطرية للجسد ونظامِه المناعي، ومهمةُ العالِم أن يكتشف ماهيةَ تلك الموارد. وهذا الأمر صحيح تمامًا عن تكوّن التصورات واكتساب اللغة. وهذا هو السبب الذي يَجعل أولئك الذين يُفترض أنهم المدافعون عن "الفرضية الفطرية" لا يُدافعون عنها، بل لا يَستخدمون هذه العبارة، إذ لا توجد فرضية عامة كهذه، أما ما يوجد ففرضياتٌ محدّدة عن الموارد الفطرية للذهن، وعن ملكته اللغوية على وجه الخصوص. وليس للحجج العامة التي لم تُصَغ ضد "فرضية فطرية" صلةٌ بالفرضيات الفعلية عن مفهوم "الفطرية"، في حالة نمو اللغة والأنظمة التصورية أو الأشكال الأخرى للنمو المادي.

ويقدِّم بتنام حجةً مضادة للحجة التي أوضحتُ معالمها العامة آنفًا قياسًا على نظام المناعة. فيشير إلى أنّ التصورات "كثيرًا ما تنشأ عن "النظريات""، وأن عدد النظريات الممكنة (وربما "أنواع" النظريات) كبير جدًا، حتى في النظريات "القصيرة"، وهو ما يَجعل فكرة استغراق عملية التطور للاحتمالات كلها بشكل مسبق غير معقولة إلى حد بعيد" (Putnam 1988a 128). وهذه حجة صحيحة، لكن لا صلة لها – مرة أخرى – بما

سنناقشه. ذلك أننا معنيُّون، في المقام الأول، بما يمكن أن يكتسبه البشر، وليس هناك سبب لأن نعتقد بأن البشر يستطيعون تعلُّم "النظريات كلها" أو أن يصوغوها، بل إن مغزى تلك الأطروحة ليس واضحًا(٢٤). كما يفترض أن لحجّة بتنام الأساسية صلة بالكلمتين المحددتين: carburetor و bureaucrat ، وأنه ليس لأية حجة مبدئية صلة بهما، أو بأية فرضية اختيارية جوهرية أخرى عن البنية الفطرية. وبكلمات أخر، فحجته التي مفادها أن "عملية التطور لا يمكنها أن تقوم بذلك" لا تصح في الحالات التي قدَّمها من أجلها. أما الاحتجاج بأنه لا يمكن أن تكون عمليةُ التطور قد أنجزت كلَّ شيء" ـــ حتى ما يقع خارج القدرة البشرية ـــ فيمكن أن تكون صحيحة إن استطعنا إضفاء معنى عليها؛ وليس لهذه الحجة صلة هنا، حتى إن كان من الممكن صياغتها بشكل متماسك.

ويجادل بتنام، في السياق نفسه، أن دعوى "شبكية المعنى" مصحوبةً بمبدأ كواين القائلِ بأن "المراجعة يمكن أن تحدث في أي مكان"، تُسهم في تقويض بعض النتائج المحدَّدة عن البنية الفطرية للأنظمة التصورية واللغة عموما. لكن هذا النهج من الاحتجاج لا يستقيم. هب أن دعوى "شبكية المعنى" صحيحة بمعنى أنه "ليس هناك، كما يقول بتنام، وحدات 'واقعية نسبيًّا' تتحلى بما يكفي من الخصائص التي نُسبغها على "المعاني" قبل التحليل من أجل أن تكون صالحةً للتعيين"، وأن الإحالة تُحدَّد تحديدًا خالصًا اعتمادًا على أسس شبكية فقط. لكنْ لا يترتب على هذا أن الارتباطات الدلالية لا يمكن أن تكون مثبَّتة وقارة بشكل خالص نتيجة للإعداد الأحيائي. لهذا ربما تظل بعضُ العلاقات المحدَّدة قارَّةً في الوقت الذي تقود فيه بعضُ الاعتبارات الأخرى إلى اختيارات أخرى مختلفة فيما يخص تثبيت الإحالة. إضافة إلى ذلك، فللاعتبارات الاختيارية من النوع الذي ناقشناه من قبل صلةٌ بالسؤال عن إن كان صحيحًا حقًّا أنّ "المراجعة يمكن أن تحدث في أي مكان". ولا يمكن أن تقوم هذه الفكرة عن اللغة الطبيعية بالإحالة إلى الممارسة في العلوم

الطبيعية التي يأخذ بتنام منها كثيرا من أمثلته؛ ذلك أن هذه الحجج، إن افترضنا صحتها، لا تكفي لتبيّن عدم وجود بنية دلالية وتصورية ذاتية تقوم على خصائص قارّة للذهن البشري. وربما كانت دعوى "شبكية المعنى" صحيحة بمعيار معين أو شكل ما، لكنّ مسائل الارتباطات الدلالية في اللغة الطبيعية ما تزال تنتظر أن تحلّ عن طريق الدراسة الاختبارية، كما يبدو أن الدليل يؤيّد وجودها ــ في الوقت الحاضر في الأقل ــ بل يؤيده بشكل قوي، كما يبدو لي.

دعنا نستمر في استقصاء حجة ديفيدسون في بحثه: A Derangement of Epitaphs (1986b)، "تحريف بسيط في شاهد قبر " الذي قصد به أن يبيّن أنّ دراسة التواصل الفعلي تقوّض "التصير الشائع للمعرفة اللغوية والتواصل" وأنه "ليس هناك ما يمكن أن يسمى لغة، إن كانت اللغة شيئا يُشبه ما يفترضه كثيرٌ من الفلاسفة واللسانيين. لهذا فليس هناك شيء يمكن أن يُتعلَّم، أو يُجاد، أو نولد به" (Davidson 1986b: 446). ويقوم تصور اللغة هذا، الذي يعتقد ديفيدسون أنه أثبت خطأه، على ثلاث مسلمات أساسية عما يسميه بـ "اللغة الأولى" أو "النظرية المسبقة"، أي "نظام معقد أو نظرية" يشترك فيها المتكلمُ والسامع تقريبا (ص ٤٣٦). والمسلمات هي:

١ــ أن النظرية المسبقة "نَسَقيّة" systematic بمعنى أن "المؤوّل" الذي يمتلك هذه النظرية يستطيع أن يؤوّل الأقوالَ انطلاقًا من خصائص الأجزاء المكوّنة لهذه الأقوال وبنيتِها.

٢ــ أن منهج التأويل هذا مشترك.

٣ــ أن العناصر المكوِّنة للنظام محكومة بالمواضعات المتعلَّمة أو الاطرادات.

والمسلمة الثالثة غير ممكنة لأسباب أخرى، لكن بدلاً من الانشغال بها دعنا نقدّمها بالشكل الذي توجيه حجةُ ديفيدسون: فالعناصرُ المكوِّنة للنظام

متوفرة، كما يقول، "بشكل سابق على مناسبات التأويل"؛ فهي عنصر قارٌ في السياقات التواصلية، عند مؤوّلين في حالةٍ قارة من المعرفة اللغوية.

ويلاحظ ديفيدسون، ليبين خطأ هذا التصور، أن المؤوّل يستغلُّ في المعاملات التواصلية العادية أنواعًا كثيرةً من الحدوس والمسلمات عما يمكن أن يكون في رأس المتكلم، معتمدًا على خصائص السياق، والقصد المفترض للمتكلم، إلخ. لهذا فالمؤوّل "يكيّف نظريته"، ويعدّل "النظرية المسبقة" لتصير "نظريةً عابرة" "مناسبةً للمقام". لكن هذه "النظرية العابرة لا يمكن في العموم أن تكون متوافقة مع المعرفة اللغوية عند المؤوّل". ذلك أن هذه "النظرية العابرة ليست نظرية عما يمكن لأحد (باستثناء الفيلسوف، ربما) أن يسميه لغة طبيعية حقيقة" (Davidson 1986b: 443)، ويستمر قائلاً، و: "ربما لا تكون "إجادة" مثل هذه اللغة مفيدة؛ ذلك أن معرفةَ نظريةٍ عابرة لا تعدو أن تكون معرفةً بكيفية تأويل قول ما في مناسبة معينة" (ص٤٤٣). يضاف إلى ذلك، أنه يمكن للتواصل أن يحدث بصورة جيدة إلى حد بعيد في حالٍ لا تكون النظريةُ المسبقة فيه مشتركةً بين المتكلم والسامع، كما أن النظرية المسبقة نفسها ليست ما "يمكن أن نسميه عادةً لغة" ذلك أنها خصيصة نفسية، مقصورة على المتكلم ـ السامع وسماتها ليست مشتركة بين أفراد "الجماعة". فيمتلك المؤوّل نوعًا من "الحطة"، أي "عمليةً غامضة يمكن أن يستخدم المتكلمُ أو السامع بواسطتها ما يعرفه من قبل بالإضافة إلى المادة الحاضرة ليصوغ نظريةً عابرة". أما ما يحتاجه شخصان لإنجاز التواصل، فهو "القدرة على الوصول إلى نظريات عابرة لكلِّ قول على حدة". وفي ضوء هذه الحقائق ليس هناك مكان لـ "تصوُّر اللغة"، أو لـ "نحوٍ مشترك أو قواعد مشتركة"، أو "آلة خفيفة مؤوّلة لاعتصار المعنى من قولٍ ما"؛ فما نحتاجه، بدلاً من ذلك، شيءٌ أقلُّ وضوحًا، وأكثر غموضًا وأكثر اتصافًا بـ "تسكية المعنى"، وهو "قدرة الاتفاق على الوصول إلى نظرية عابرة من حين إلى آخر" (ص ٤٤٥). ويقودنا هذا إذن "لا إلى التخلي. . . عن المفهوم العادي

للغة وحسب، بل إلى إلغاء الحدّ بين معرفة اللغة ومعرفة كيفية التعامل مع العالم بصفة عامة . . . لهذا ليس هناك شيء في التواصل اللغوي يمكن أن يتماثل مع أية معرفة لغوية" (ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦) تقوم على المبادئ الثلاثة التي أوردناها آنفا، إذ "ليس هناك قواعد للوصول إلى النظريات العابرة". ويؤكد ديفيدسون، في ختام النقاش، مع ذلك، أنه يمكن أن تُشتق نظريةٌ عابرة بشكل ما "من المفردات والنحو عند فردٍ معين" أي من "نظرية مسبقة" تتوافق مع الشرط الأول وربما مع إحدى صيغ الشرط الثالث، لكنها قد لا تكون مشتركة بين أفراد "الجماعة"؛ فهناك إذن، "نظرية مسبقة" وهناك على اليقين بعض الطرق المعينة، بدلاً من طرق أخرى، "للوصول إلى نظريات عابرة"، سواء أردنا تسمية هذه الطرق "قواعد" أم لا (ص ٤٤٦).

والأقسام المتعددة للحجة صحيحة عموما، لكن لا يبدو أنها تكشف عن شيء كثير. فلم يقدِّم، على الأخص، أي سبب للتشكيك في وجود "نظرية مسبقة" بالمعنى المألوف في دراسة اللغة ومعرفة اللغة؛ أي إجراءٍ توليدي محدَّد مدمج في حالة للملكة اللغوية تتصف بأنها ناضجة محـدَّدة. وستكون هذه "النظرية المسبقة" بالطبع، مختلفةً جدًا عما يسمى "لغة" في الاستخدام العادي، لكن هذا يعود إلى أن أي تصور مثل هذا لا يؤدي دورًا في البحث الاختباري في اللغة والذهن، كما لاحظنا من قبل.

ويمكن لنا، في مواجهة حجج ديفيدسون، أن نستمر في افتراض أن هناك، إلى حد بعيد من التقريب، ملكةً لغوية ثابتة غير متنوِّعة تُحوِّل الدليل المقدَّم إلى نظامٍ من القواعد والمبادئ (أو أي شيء يثبت أنه صحيح عن الحالة الإدراكية المحصَّلة) التي تعطي تأويلات للتعبيرات. دعنا نسمِّ هذا النظام المكتسب "إجراءً توليديًا". فيعني أنْ تعرفَ لغةً ما أن يكون لديك تمثيلٌ داخلي لهذا الإجراء التوليدي، وهو الذي سنعبِّر عنه في مستويات متعددة من التجريد عن الآليات "الأكثر أولية" وسنسعى لربطه بمثل هذه الآليات، بالطرق المعهودة في العلوم الطبيعية[٢٥]. كما يمكن أن نسعى إن اتبعنا الممارسة

المعهودة إلى صياغة "محلّل" ــ وهو آلة تُعزى إلى الذهن/الدماغ كذلك ــ يدخل فيه الإجراء التوليدي الذي حُصِّل مع البنى والخصائص المحدّدة الأخرى[٢٦]، ويحوّل الأقوال المقدّمة إلى أوصاف بنيوية تؤوّلها المكوّنات الأخرى للذهن. وإلى هنا نحن نتعامل مع الأسئلة الممكنة في البحث الاختباري.

وهناك مشكلة أخرى، يمكن أن نصوغها بطريقة تقريبية لكن لا يمكن دراستها عمليًا: وهي أن نصوغ "مؤوّلا" يشتمل على المحلِّل بوصفه أحد مكوناته إلى جانب القدرات الذهنية الأخرى كلها ــ أيًا كانت ــ ويقبل الدخول اللغوية إلى جانب الدخول غير اللغوية. ويعطي هذا المؤوّلُ، حين يقدَّم له قولٌ ومقام، تأويلاً معينًا لما قاله شخصٌ ما في هذا المقام. ودراسةُ التواصل في عالم التجربة الفعلي دراسةٌ للمؤوّل، لكن هذا ليس موضوعًا للبحث العلمي، للأسباب المعهودة: وأهمها أنه لا يوجد موضوع يتصف بأنه دراسةُ كل شيء. كذلك لا يدرس العلمُ المظاهرَ الأخرى للعالَم كما تُقدَّم لنا في التجربة اليومية. فيشمل المؤوّلُ ــ كما يلاحظ ديفيدسون بحق ــ على أي شيء يستطيع الناسُ فعلَه، وهذا ما يمنعه أن يكون موضوعًا للبحث الاختباري، وهو ما يمنعنا أن نقول أي شيء ذا معنى عنه. وربما نأمل أن نتعلم شيئًا عن عناصر المؤوّل المتعددة، متوسلين بالمناهج المعهودة في العلوم، بادئين بـ "المفردات والنحو عند فردٍ ما" وهذا ما يكوِّن اللغةَ المحصلّة، ثم ننتقل إلى المحلِّل، ثم نلتفت، ربما ــ بأقصى ما يمكن من الوضوح ــ إلى العناصر الأخرى للذهن والمقامات التي تدخل في الحياة البشرية العادية. ومع ذلك، فإذا بدأنا بالمطالبة بنظرية لكل شيء فلن نحصل على شيء؛ وليس ضروريًا هنا صياغةُ حجج مفصلّة لتأكيد هذه النقطة[٢٧]. ولا يختلف هذا الوضع عنه في العلوم التي حققت قدرًا كبيرًا من التقدم. ولا تتمثل النتيجةُ الملائمة في وجوب أن نتخلى عن تصورات اللغة التي يمكن أن تُدرس بطريقة مثمرة، بل في أنّ موضوع التواصل الناجح في العالم

الفعلي للتجربة معقد جدًّا وغامض مما يجعله لا يستحق الدرس في البحث الاختباري، إلا بوصفه دليلاً على الحدوس في أثناء اشتغالنا بالبحث الذي يصمَّم لكي يقود إلى قدرٍ من فهم العالم الواقعي، ويشمل ذلك التواصل. وليس لهذه الملحوظات أهمية لوجود "نظرية مسبقة" أو عدم وجودها، أي لوجود أو عدم وجود إجراء توليدي مستبطَن، بالمعنى المألوف في الممارسة الاختبارية.

و"النظرية العابرة" عند ديفيدسون فكرة غير مفيدة؛ وكلامُه عن هذا الأمر صحيح بالتأكيد. فسيصوغ المؤوِّل "نظريات عابرة" كثيرة (لكن ليس "أي" نوع منها، وهذا أمر مهمّ)، وهي تتغير من لحظة إلى أخرى، ذلك أن المؤوِّل كما يرى ديفيدسون يشتمل على أي شيء متاح للذكاء البشري؛ ومع هذ، ليس هناك معنى لأن نسمي حالاتِها الانتقاليةَ "نظرياتٍ" أو نعدَّها موضوعًا للبحث المباشر. وليس لحجة ديفيدسون، من ناحية جوهرية، صلة بمسلَّمة أنّ "النظرية المسبقة" (مع فهمها بطريقة مغايرة شيئًا ما لفهمه هو) تظل عنصرًا قارًّا غير متنوِّع لـ "المؤوِّل" (وللمحلّ المؤمثل المحدَّد تحديدًا أضيق)، وأنها تدخل في الطريقة التي يقوم بها المؤوِّل بوظيفته.

ويركِّز ديفيدسون انتباهه، في هذا النقاش، على ظاهرة سبْقِ اللسان في نطق الأصوات malapropisms وعلى ما يسمى بـ "الخطأ في استخدام اللغة" بصفة عامة. وينبغي الاحتراس شيئًا ما هنا. لنأخذ مرة أخرى جونز، وهو متكلم لنوع مما نسميه عمومًا بـ "الإنجليزية". فقد أجاد جونز إجراءً توليديًّا يربط الأقوال بأوصاف بنيوية، ويشمل ذلك الخصائصَ الدلالية، ويمتلك قدراتٍ ذهنية أخرى تسمح له بإنتاج بعض التعبيرات اللغوية وتأويلها بناء على هذه الأوصاف البنيوية. ولنسمِّ هذا الإجراء التوليدي بـ "اللغة ـ د" لجونز، حيث توحي "د" بـ "داخلي" (في الذهن/الدماغ) و"مفهومي" (بمعنى أنّ الإجراء دالَّةٌ تحدِّد الأوصاف البنيوية، منظورًا إليه على أنه مفهوم يرتبط بوصف حاصر به)[٢٨]. ونحن نشير هنا إلى آليات مفترضة معيَّنة

للذهن/الدماغ، منظوراً إليه بشكل مجرد.

ويمكن لجونز أن يتكلم بطريقة لا تتوافق مع "لغتـه ــ د" أو يُـصدر أحكامًا لا تتوافق معها؛ وربما تكون أحكامُنا عن أنفسنا، كالآخرين، خاطئة، وربما يدخل في السلوك ما هو أكثر من "اللغة ــ د". وهذه حالة من الخطـأ في استخدام اللغة لا تلفت النظر؛ ولنسمها بـ "المعنى الفردي".

افرض أن جونز، شأنه شأن كثير منا، يقول عادة جملاً مثل:

Hopefully, we'll be able to solve that problem.

"آملاً، سوف نتمكن من حل تلك المشكلة"

أو يستخدم كلمةً مثل disinterested ليعني uninterested "غير مهتم"، ويقول لنا كثير من المهتمين بالتصحيح اللغوي إن هذه الاستخدامات "غيـر صحيحة" أو "خطأ"، أو لا تتوافق مع "قواعد اللغة الإنجليزية"، فجونز "مخطئ في استخدام لغته"، أي الإنجليزية، ولا يملك إلا معرفة جزئية بهـا وربمـا تكون معرفةً مشوشة، كما في مفهوم "المعنى الأساس" للغة عند دوميت. بـل حتى إنْ تكلم ٩٥ بالمائة من متكلمي الإنجليزيـة ــ أو متكلموهـا جميعًـا باستثناء وليم سافير [وهو صحفي أمريكي يكتب عمودًا أسبوعيًا بعنوان "عن اللغة" في مجلة نيويورك تايمز التي تصدر مع عدد يوم الأحد] وعدد قليـل آخر ــ بالطريقة التي يتكلم بها جونز، فستظل هذه الحالات تمثل "خطأ فـي استخدام اللغة". وربما كان جونز يحاول التكيفَ مع ممارسـة جماعـة مـا لأسباب معينة، أو لغير ما سبب، وربما يُخفق في هذا التكيف، وهـي حالـة ربما يَصفها الذين يلاحِظون جونز من غير المتخصصين بأنها خطـأ فـي استخدام لغة هذه الجماعة. وقد تكون هذه التصورات "للخطأ فـي اسـتخدام اللغة"، وهو ما يمكن أن نسميه "معنى الجماعة"، مهمـةً لدراسـة اجتمـاع التماهي مع الجماعة، وبنية السلطة، وما أشبه ذلك، لكن ليس لـشيء منهـا صلة مهمة بدراسة اللغة، على حد ما نعلم. ونحن نفهم هذا الأمر فهمًا جيـدًا

في مسألة طريقة النطق. لهذا ليس القول بأن نوعية معينة من الإنجليزية "صحيحة" وأخرى "خاطئة" من المعنى إلا ما القول بأن الأسبانية صحيحة والإنجليزية خطأ؛ والأمر نفسه صحيح عن المظاهر الأخرى للغة — وإن بدتْ هذه النقطة، لبعض الأسباب، أكثر غموضا.

ويأتي أحد المعاني المحتملة لفكرة "الخطأ في استخدام اللغة" من فكرة هيلاري بتنام عن "تقسيم العمل اللغوي". لهذا ربما تشتمل كلمات: elm و beech أو mass "كتلة" و kinetic energy "الطاقة الحركية" في المعجم الممثَّل في ذهني/ دماغي على الإيحاء بأن المحال إليه في هذه الكلمات يجب أن يحدِّده الخبراءُ الذين أرجع إلى أحكامهم. وربما استَخدمتُ هذه الكلمات استخدامًا غير دقيق، بمعنى أن المحال إليه لا يتوافق مع التحديدات التي يراها هؤلاء الخبراء. وفي هذه الحالة، ربما يقال عني إنني "مخطئ في استخدام لغتي"[29]. دعنا نسمِّ هذا بـ "المعنى عند الخبير" للخطأ في استخدام اللغة. ومرة أخرى، لا يبدو أن شيئًا مهمًا يترتب على هذا، ومن المؤكد أنه لن يترتب شيء له صلة بمقاربة اللغة في إطار علم النفس الفردي الذي أشرنا إليه باقتضاب فيما مضى، وهو الذي يتّبع في الممارسة عادة[30]. لاحظ أنه لا ينتج عن هذه الاعتبارات أي تصور مفيد لـ "اللغة" أو "الجماعة". لهذا ربما يكون الخبير الذي أقلده بشأن كلمتي elm و beech ستانيًا إيطاليًا لا يعرف كلمةً من اللغة الإنجليزية، وهو الذي يصحح لي استخدامي بالإحالة إلى الأسماء اللاتينية التقنية التي نشارك أنا وهو فيها، وربما يكون الخبير الذي أقلده بشأن كلمتي mass و kinetic energy عالم فيزياء ألمانيًا لا يتكلم إلا الألمانية. لكن لا يمكن لنا أن نستنتج من هذا أن الألمانية والإيطالية داخلتان في الإنجليزية، أو أننا جميعًا ننتمي إلى "جماعة" واحدة بأي معنى مفيد للمصطلح.

فهل هناك تصور آخر لمفهوم "الخطأ في استخدام اللغة"؟ أما أنا فلا أعرف تصورا كهذا. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يؤدي هذا التصور أي دور

مهمّ في دراسة اللغة أو المعنى أو التواصل أو غير ذلك. وإذا أخذنا بعض الأمثلة من النوع الذي ناقشه تايلور بيرج، افرض أن جونز يستخدم مصطلح "التهاب المفاصل" في الإحالة إلى ألم في الفخذ. ثم افرض أن هذا هو المستخدم في قريته، لكنه ليس الاستخدامَ خارج تلك الجماعة. ويعني هذا أن جونز ليس مخطئًا في استخدام لغته بالمعنى الفردي؛ إذ إن استخدامه صحيح في "لغته ـ د". وهو ليس مخطئًا في استخدام لغته في قريته بمعنى الجماعة، أما خارج حدود قريته فمخطئ. ويحدَّد كونُ استخدامِ جونز للغته خاطئًا أم لا بـ "المعنى عند الخبير" اعتمادًا على الكيفية التي يمثّل بها مصطلحَ "التهاب المفاصل" في معجمه الذهني. لكن كيف ينبغي لنا أن نعزو الاعتقاد عن التهاب المفاصل إلى جونز؟ وهنا تختلف الحدوس، وربما يكون السبب أنَّ الدليل الذي يمكن أن يحلّ هذا الإشكال بطريقة مرضيّة ضئيل في هذه اللحظة. دعنا ننحّ "المعنى عند الخبير" جانبا، ثم نفترض أننا استخدمنا مصطلح "الاعتقاد ـ د" في الإحالة إلى تصوُّرٍ يشبه الاعتقاد، باستثناء أن جونز يمتلك الاعتقادَ نفسه في قريته وفي الجماعة الأوسع، أي الاعتقاد الذي يمكن أن نعبر عنه في "لغتنا ـ د"، بالقول بأن لديه نوعًا من الألم الجسدي[31]. وربما يكون هذا مماثلاً لتصور الاعتقاد في لغتنا العادية أو لا يكون، لكنه هو التصور الذي يبدو ضروريًّا لدراسة ما يسمى خطأً بـ "تسبيب السلوك" ـ ونقول "يسمى خطأً" لأنه ليس واضحًا إن كان السلوك أمرًا "يتسبَّب في حدوثه" بأي معنى مفيد لهذا المصطلح. ومن الواضح أنه لن يكون هناك سبب للافتراض بأن تصورات علم النفس العام سوف تكون هي نفسها في الاستخدام العادي، مثلما أن الأمر في تصورات الفيزياء، أو في علم النفس الفرعي الذي يسمى "اللسانيات"، ليس كذلك، بصفة عامة. كما لا يبدو لي واضحًا إطلاقًا أنّ هناك فرعًا معقولاً للعلم (أو بصورة أدق، للعلم البشري وهو ما يعني نوعًا من البحث العلمي الذي يستطيع البشر، بقدراتهم المعرفية الخاصة، أن يقوموا به) يشتغل بأسئلة من هذا النوع.

ولم يُثبت أحدٌ، كما أظن، أن هناك ما يمكن قوله أكثر من هذا عن هذا الأمر. ويبدو، على وجه الخصوص، أن الإحالة إلى "الخطأ فـي اسـتخدام اللغة"، وإلى "المعايير"، وإلى "الجماعات" إلخ، تتطلب مزيدًا من العناية يفوق العناية التي تُتناول بها هذه القضايا عادة. ذلك أن هذه التصورات غامـضة، ولا يبدو واضحًا أنها مفيدة في مجال البحث في اللغة والسلوك البـشري. وتستحق أيةُ حجة تعتمد على مثل هذه الأفكار استقصاء أدق، وربما لا يمكن أن تصمد الحجج المألوفة [عن هذه القضية] أمام هذا الاستقـصاء؛ ذلـك أن الجماعات تتألف بطرق عديدة جدًا ومتداخلة، وسرعان مـا تتحـولُ دراسـة الجماعات لتصير دراسةً لكل شيء. أما الحقيقةُ الباقية فهي أن جونز يـتكلم ويفهم بالطريقة التي هو عليها معتمدًا على "اللغة ـــ د" التي اكتسبها في أثناء نمو لغته، وإذا اتّبع جونز أو لم يتبع ما يمكن أن نسميه، من أجـل بعـض الأغراض العابرة، بـ "معايير الجماعة" أو "الممارسة الاجتماعية"، فهو يقوم بذلك انطلاقًا من هذه "اللغة ـــ د" المستبطَنة (إلى جانب أشياء كثيـرة). أمـا بورس، الذي لا يتكلم إلا اللغة الروسية، فيمتلك "لغةَ ـــ د" مختلفـة، ويتبـع "معايير" مختلفة. وقد أفهم ما يقوله جونز، إلى حدٍّ مـا؛ لأن "لغتـي ـــ د" لا تختلف كثيرًا عن لغته؛ ولأننا نتشارك تقريبًا في الخصائص الأخرى غيـر المعروفة التي يتضمنها المؤوِّل الكامل. لكن هذا لا يصلح أن يكون موضوعًا للبحث الاختباري على الحال التي هو عليها، أي على حاله المعقدة قبـل أن يحلَّل. ويبدو لي أن هذا هو الطريق الواجب اتباعه في مقاربة هذه المسائل.

ويمكن أن نطوِّر، بمقتضى هذه الطرق، تصورًا لـ"المعرفة اللغويـة" يكون ملائمًا للبحث في اللغة والذهن؛ وهو إجادةُ "لغة ـــ د" معينة وتمثيلاتُها الداخلية. والنحو الذي يصوغه اللساني نظريةٌ عن "اللغة ـــ د"، كما أن النحو الكلي نظريةٌ للحالة الأولى للملكة اللغوية. وتمثِّل "اللغة ـــ د" عند جونز حالة معينة ناضجة ـــ أو خرْج، إذا نظرنا إلى الملكة اللغوية على أنها دالّةٌ تحوِّل الدليل إلى "لغة ـــ د". لكن ماذا عن تصور "اللغة"؟ وربما نفهم اللغات ببساطة

على أنها لغات ــ د"، أي أن ننظر إلى اللغة على أنها تشبه أن تكون "طريقة في الكلام"، أي "الوسائل المتناهية" التي تمكّن من "الاستخدام غير المتناهي"، كما يحدّد وليم فون همبولت اللغة (von Humboldt 1836: 122, paragraph 13; 1988: 91؛ انظر Chomsky 1964. 17)، كما أنها جهدٌ للإحاطة بتصوُّره للغة على أنها "عمليةَ توليد" بدلاً من كونها "وحداتٍ مولَّدة". لهذا بأخذ اللغة على أنها - في نهاية الأمر - "فكرةً للبنية" توجّه المتكلم عند صياغته "للتعبيرات الحرة"، كما يقول أوتو جسبرسن (19 .1924؛ وانظر Chomsky 1977). وهذا قرار ملائم لغرض البحث العلمي، في ظني، وإن لم يكن كذلك في الخطاب العادي. وربما كنا نرغب، بدلاً من ذلك، في أن نصوغ تصورًا للغة مفصولاً عن الحالات الإدراكية، وقد يكون ذلك بشكل يشبه اقتراح جيمس هيجنبوثم (James Higginbotham 1989). وإذا نظرنا إلى معرفة اللغة على أنها حالة إدراكية فربما نفهم "اللغة" على أنها شيء مجرد، أي "موضوعًا للمعرفة"، أي نظامًا مجردًا يتألف من قواعد ومبادئ (أو أي شيء نكتشف أنه صحيح) يمثّل صورةً للإجراء التوليدي، أي "اللغة ــ د"، التي تمثَّل في الذهن، ومن ثم في الدماغ بآليات "أكثر أوّلية" لا نعرفها الآن. ولما كانت اللغة بهذا المعنى تحدَّد تحديدًا كاملاً بـ "اللغة ــ د"، وإن كانت مجردةً عنها، فمن غير الواضح تمامًا إن كانت هذه الخطوة الإضافية ضرورية؛ إلا أنها ربما تكون، مع ذلك، كذلك.

ويبدو، مع ذلك، أنّ صياغة الأسئلة التي يمكن أن تكون موضوعًا للبحث الاختباري عن اللغة واستخدامها ممكنةٌ بهذه الطرق، وأن هذه الطرق هي الأفضل لمقاربتها، على حد ما نعلم. وربما يكون هناك مزيد من الأسئلة التي لا تصلح أن تكون موضوعًا للبحث الاختباري بالطرق المستخدمة في العلوم ــ وقد لا تخضع لها أبدًا ــ إنْ كان البشر أنفسهم جزءًا من العالم الطبيعي، وهو ما يعني أنهم يمتلكون بعض القدرات الأحيائية المحدَّدة التي تتصف بمدى وحدود خاصة بها، كالكائنات العضوية الأخرى جميعها. ويجب

علينا بذل مزيد من العناية كي لا نقع فريسة لبعض التخيلات المرّابية عن عملية التطور ومعجزاتها التكيفية. ولا تتضمن نظريةُ التطور شيئًا يوحي بأنه ينبغي أن يكون بإمكاننا الإجابة عن بعض الأسئلة التي نستطيع إثارتها، حتى من حيث المبدأ، بل حتى إن كان من الممكن الإجابة عنها، أو إن كنا نستطيع إثارة الأسئلة الصحيحة. وبقدر ما لدينا من قدرة فإننا نمتلك العلم الاختبارى، وهو نوع من التلاقي المُتّفق بين خصائص الذهن وخصائص العالم غير الذهنية. وليس هناك شيء مفاجئ في هذا؛ ذلك أننا نراه أمرًا مسلمًا أنّ شيئًا شبيهًا صحيحٌ عن الفئران والنمل، ويجب ألا نُفَاجأ حين نكتشف أن البشر كائنات عضوية أحيائية، لا ملائكة. ويبدو لي مع ذلك، وفي حدود العلم البشري، أن أفضل تخمين في الوقت الحاضر هو أن الإطار الذي بيّنت ملامحه العريضة باختصار آنفًا ملائم للبحث في الأسئلة الاختبارية عن اللغة والذهن؛ وقد تحقق، في إطاره، قدر عظيم من النجاح وكثير من المنظورات العميقة.

هوامش الفصل الثالث

(١) لهذا يترتب على النص الأخير الذي أوردناه، أنني إن اعتقدتُ أن السماء تمطر؛ لأنني سمعت ذلك من المذياع، أي أنّ هذا التفاعل هو التفسير التام للعلاقة السببية بين اعتقادي والعالم، فلن نكون بحاجة، إذن، إلى أن نعرف أي شيء آخر عن علاقة اعتقادي بأن السماء تمطر بحقيقة كونها تمطر أو لا تمطر؛ فليس هناك حاجة إلى مزيد من الأسئلة بخصوص علاقة اعتقادي بالعالم.

(٢) ومع هذا ربما يختار باحثٌ، بالطبع، أن يتجاهل فارقًا أو آخرَ من أجل بعض الأغراض في نوع معين من البحث. أما النقطة الأساسَ هنا فهي أنه ليس هناك تأويل عام لـ"المعنى الأساس" عند دوميت (ليس له تأويل ضيق، مثلا) يمكن أن يتغلب على مشكلات من النوع الذي أشرنا إليه، وليس من طريق معروف لصياغة تصور عام كهذا بوصفه أمثلةً معيدة، أو أي سبب لمحاولة القيام بذلك. لاحظ أنه ليست كلُّ أمثلة تستحق أن تصاغ، أما هذه الأمثلة فيبدو أنها ليست كذلك، بغض النظرْ عن المقصود بها.

(٣) ولا أعرف إلا محاولةً واحدة نجحت في فهم هذه القضايا (Pateman 1987). فقد طوَّر باتيمان فكرةَ اللغة بوصفها "حقيقة اجتماعية" بطريقة تبدو معقولة، لكنها لا تتصل بأي من القضايا التي أناقشها هنا. فسيتكلم الشخصُ الذي يعي بعض الحقائق الأولية عن اللغة والمجتمع، بالمعنى الذي يقصده باتيمان، عددًا كبيرًا من اللغات يتغير من لحظة إلى أخرى، اعتمادًا على الكيفية التي يختارها للتماهي مع هذه الجماعة أو تلك، أما الذي لا يعي هذه الحقائق فسيكون لديه مدى واسع جدًا من الاعتقادات (والتخيلات، كالعادة) عما يفعل، وهي اعتقادات يمكن أن تؤدي دورًا اجتماعيًا معينًا في بعض الجماعات.

(٤) وعن خطأ كيني في فهم رفضي لهذه الآراء، والنتائج المترتبة على عدم صلة ردّه على ذلك الرفض، انظر (Chomsky 1988b).

(٥) وهذا هو المنحى تحديدًا الذي اتخذه كيني (Kenny 1984) ضد بعض الاعتبارات التصورية من هذا النوع، مع أنه لم يكن واعيًا بأن تغيرًا جوهريًا حدث عن فهم التمييز بين "القدرة" أو "الطاقة"، انظر (Chomsky 1988b).

(٦) سأعود مباشرة إلى بعض التقييدات التي وضعها كوين، فيما يخص هذه المذاهب الغريبة.

(٧) ولتركيز المناقشة سوف أترك جانبًا كثيرًا من التعقيدات؛ ومن ذلك مثلا، حقيقةُ أنَّ موارد الحالة الأولى تؤدي دورًا في تحديد ما يُعدُّ دليلاً وكيف يُستَعمل (أو يُهمل)، وسيؤدي النظر في مثل هذه العوامل الإضافية إلى دعم النتائج هنا.

(٨) وهذا المثال حقيقي، في الواقع، انظر (Chomsky 1986: 61).

(٩) وهو يقترح كذلك دراسات التماثل في اكتساب اللغة؛ وتنطبق الاعتبارات نفسُها في هذه الحالة.

(١٠) ويمكن لنا أن نلحظ، عرَضًا، أن العبارة الأخيرة ليست ملائمة إلا إن أمكن رفض الكلام عن النظريات بأنها صحيحة في الفيزياء، أي حين تكون مفيدة لبعض الأغراض في مجالٍ من الظواهر؛ وربما رفض كوين هذه النتيجة انطلاقًا من شروطه الخاصة بدراسة "التمثلي" للذهن/الدماغ، وهي الحال التي تعدُّ فيها المعاييرُ السائدة في العلوم الطبيعية (بصورة ضمنية) غيرَ مقبولة، كما ناقشنا ذلك في النص.

(١١) وأنا أضع كلمة "التبسيط" بين مزدوجات؛ لأن هذا التصور مضلِّل جدًا، فستكون قاعدةُ "ضمّ عبارة –who"؛ لأنها ليست موضوعًا لـ قيد

البنية على العطف" والشروط المحليّة الأخرى، أبسط بالتأكيد من القاعدة الحقيقية، التي تخضع لهذه الشروط عند كائن عضوي يفتقر لهذه الشروط (أو بشكل أكثر ملاءمة، للمبادئ التي تُشتق منها) بوصفها جزءًا من بنيتها الفطرية؛ أما عند البشر، فالعكس صحيح. وبعض النظر عن معنى تصور "البساطة المطلقة"، باستقلال عن بنية النظام المناقش، فليس له صلة هنا. للاطلاع على مناقشة هذه الأمور، انظر (Chomsky (1955/1975)).

(١٢) ويفترض كوين أن "قيد البنية" على العطف مربوط بالقابلية للترجمة، مسلّمًا بأننا يجب، إن أردنا تحديد إن كان صحيحًا في بعض اللغات، أن نحدّد التعبيرات التي تصلح أن تكون نظائر لعبارات العطف في الإنجليزية. ولهذا القيد صلة بالبنى، باستقلال عن علاقاتها الدلالية بعبارات العطف في بعض اللغات، وربما أمكن اشتقاقها، في جزء مهم، في الأقل، من بعض الشروط الأكثر عمومية على محلّية العلميات النحوية المستقلة تمامًا عن الارتباط بأي تعبير معين، ومن المؤكد أن كثيرًا من أمثلة القيود التي تثير القضايا نفسها تتسم بهذه الصفة، وربما كلها.

(١٣) ولمناقشة وجه هذا الرأي عند دوميت، انظر تشومسكي ١٩٨٦، لاحظ أنه يبدو أن ديفيدسون يقصر عنايته هنا على ما يسمى بـ "كفاية الملاحظة"، لا "كفاية الوصف"، في الأبحاث اللسانية، وإذا صح أن نفهم نظرية المعرفة اللغوية بالمعنى الأخير فربما تمـزو بعض الآليات المحدّدة (وسيكون ذلك، في مستوى مجرد، بكل تأكيد).

(١٤) انظر تشومسكي (Chomsky 1986: 240) للاطلاع على مناقشة هذه المسألة، وينسب روجر جيبسون إلى الاعتقاد بأنه "ليس في علم الفيزياء واللسانيات حقائق" (Gibson 1986: 141)، وهي نتيجة لا أقبلها ولا توحي بها الحجة، التي يشير إليها، وهي أن دراسة اللغة لا

تواجه مشكلةً من عدم التحديد لا نجدها في العلوم الطبيعية. ويُخفق جهده الأخر لرسم فارق يقوم على أسس وجودية، وهو الفارق الذى وافقه عليه كوين في إجابته إياه، وذلك لأسباب أشار إليها في المراجع التي أوردها. ويمكن أن نؤكد بكل ثقة، وبصوت عال إن أردنا، أنه لا توجد إلا عناصر كيميائية وتكوينات مادية (غير معروفة) تعمل على تحديد مسار النضج الجنسي، وأنه ليس هناك معانٍ معجمية إطلاقا، ولا ارتباطات للاعتماد الإحالي، ولا مكوّنات، وربما سيظهر في المستقبل أن هذه النتيجة معقولة؛ أما ما نحن بحاجة إليه هنا فأن نجد حجة على هذا. أما القول بأنه "يمكن لكتابين تعليميين في الترجمة متعارضين أن يفيا بتحويل الميول إلى سلوك" وأنهما "يتماشيان مع التوزيعات نفسها للحالات والعلاقات في الجسيمات الأولية كلها" (Quine 1981: 23) – فليس له من المعنى أكثر من معنى قول الشيء نفسه عن نظريتين في الكيمياء أو النضج المادي؛ وربما كان بإمكان أحد أن يضيف في القرن التاسع عشر، بقدر مماثل من عدم الصلة، أنه لا يمكن كذلك دمج النظرية الكيميائية في "نظرية طبيعية ــ مادية معقولة" (Gibson 1986: 143)، إن كنا نعني بالنظرية الأخيرة "علمَ الفيزياء الأساسية" الذي يجب أن يُعدَّل بطريقة مهمة لكي يكون صالحًا ليشمل اكتشافات الكيميائي. وليس لشيء من هذه الاعتبارات مقتضيات سواء أكانت إبستيمولوجية أو وجودية، على اللغة أو أي شيء آخر.

(١٥) للاطلاع على بعض النقاش، انظر (Chomsky 1987) ــ ومنه أخذنا بعض هذه الملحوظات، وفيه توجد المراجع.

(١٦) يصف كوين (Quine 1986: 186) "الآلة المفترضة" بأنها "أنحاء هيكلية فطرية" ويوحي هذا بأنه يخلط بين بنية الحالة الأولى للملكة اللغوية والحالات الناضجة المحصَّلة لها.

(١٧) وكانت الفرضية الأساس أن نظرية الجسد يمكن أن تُحدَّد بحدود صارمة، وهي أساسًا حدودُ آليات التماس عند ديكارت، وقد هدم إسحاق نيوتنُ هذه الحدود، ولم يعد من الممكن - منذئذ - صياغة مشكلة متماسكة للذهن — الجسد عن طريق أي شيء يشبه المصطلحات الديكارتية، أو أية مصطلحات أخرى، على حد ما أرى، ذلك أنه لا يوجد أي تصور ثابت للجسد.

(١٨) وتختلف الأنحاء، عند كوين، "ماصدقيًّا" extensionally إن "تمايزت في الخرْج المحصّل" (Quine 1986). وهذا التعبير المألوف مضلِّل، ذلك أنه قُرن بالاشتراطات عما يكوِّن "الخرجَ المحصّل" لنحو ما. لنتذكر مرة أخرى أن كوين ليس مشغولاً بالتصور المهم اختباريًّا، وهو: "التوليد القوي" للأوصاف البنيوية، بل بـ "التوليد الضعيف" لفصيلة "م" من التعبيرات تُختار على أساس يبدو اعتباطيًّا إلى حد بعيد. فالفصيلة "م" هي "الخرج الخالص"؛ لكن بغض النظر عن الطريقة التي اختيرت بها الفصيلة "م"، لا يبدو أن لخصائصها أهمية اختبارية. انظر عن هذه الأمور (Chomsky (1955/1975); 1965))
وقد دأب كوين على أخذ "الصحة النحوية" لتعني "وجود معنى"، ويَعتقد أن هذا التصور "بغض النظر عن أوجه القصور فيه أفضلُ درجة بكثير من تصور: "التشابه في المعنى"" (Quine 1986). لكن "الصحة النحوية"، على حد ما نفهمها، ربما لا تكون ذات صلة بـ "وجود معنى" كما يبدو، ثم إنه ليس لتصوري "الصحة النحوية" و"وجود معنى" كما يراهما، أي معنى واضح بشكل مقبول، أو أية منزلة في دراسة اللغة.

(١٩) وهذه فرضية خاطئة؛ ذلك أن مهمة الطفل ومهمة اللساني، كما أشرت من قبل، مختلفتان اختلافًا جذريًّا.

(٢٠) إلى الحد الذي تستحق عنده أية نظرية علمية هذا اللقب. وربما صح

لنا أن ننحي هنا أي سؤال يمكن أن ينطبق على البحث العلمي بصفة عامة. ولا يكاد يكون هناك من معنى لإثارة مثل هذه الأسئلة بخصوص "العلوم الهشّة" soft sciences. وإذا كان هناك من يهتم بالوصول إلى أجوبة عن بعض الأسئلة، بدلاً من أن يكون مُغرمًا بالتعيص على العلوم الناشئة، فيمكنه أن ينظر إلى المجالات التي يمكن أن توجد فيها إجابات؛ وهي في هذه الحالة، تلك المجالات التي تتصف بعمق كاف من المعرفة والفهم الصالحين لتوجيه البحث بطريقة جادة.

(٢١) للاطلاع على تكرار كوين لهذه الفكرة مؤخرا، انظر (Quine 1986). وهو يصف هنا "فكرةً بارعة" اقترحها هاس W. Hass تتصل بطريقةٍ لرسم الفارق الذي يراه، فيما يبدو، لكن هذه الطريقة، بشكلها هذا، لا توفر إلا فارقًا لا قيمة له في دراسة اللغة. ويقوم الاعتقاد المضاد الشائع جدًا جزئيًا على قياس خاطئ على اللغات الصورية، حيث القضايا هناك مختلفة جدًا، وربما نال هذا الاعتقاد بعضَ الدعم من بعض الفقرات التي ظهرت في الأدبيات المبكرة في النحو التوليدي التي يبدو جليًا أنها مضلِّلة، وإن كان الباحثون قد بينوا بعض التحفظات الملائمة.

(٢٢) انظر تشومسكي ((Chomsky (1955/1975)) حيث نوقشت هذه القضايا بطرق يبدو لي أنها ما تزال دقيقة، وكان هناك محاولة لتعريف هذا التصور بموجب المبادئ التي تقوم بتعيين بنية المكوِّنات المشتقّة.

(٢٣) للاطلاع على مناقشة في سياق لغوي ــ إدراكي، انظر (Jerne, 1985) ولمناقشة مستفيضة انظر ((Piattelli-Palmarini (1986)).

(٢٤) وليس ضروريًا أن تكون "النظريات القصيرة" هي تلك التي يمكن للبشر أن يكتسبوها، أو يدركوها كنظريات مفهومة، إذا أخذنا في

الصبيان قدراتهم الفكرية المعيَّنة المحدَّدة أحيائيًا.

(٢٥) ونفترض هنا، مرة أخرى، الأمثلة المعهودة، كما ناقشنا ذلك في مكان آخر.

(٢٦) كالخطط وبنية الذاكرة، إلخ. لاحظ أن المحلِّل، كما يُنظر إليه في البحث الحالي، يُفترض، صوابًا أو خطأً، أنه مكوِّن واقعي للذهن/الدماغ، أي أنه نظام فرعي متماسك من نوعٍ ما يتضمن بعض العناصر المحددة للمحلل الكامل، بدلاً من عناصر أخرى. وهذه الافتراضات موضوع لتلك الأسئلة العامة نفسها التي تبرز في البحث الاختباري. ويُنظر إلى دراسة المحلِّل دائمًا على أنها ليست عرضة نوعًا ما للمشكلات العامة التي تبرز في دراسة المعرفة اللغوية (أي: دراسة الإجراء التوليدي الذي يؤخذ كأحد مكوِّنات المحلِّل)، لكن هذا خطأ. ويُعترض أحيانًا بأنه لمّا كان الدليل يؤخذ دائمًا من الأداء فلا يحقّ لنا استخدامه لتحديد طبيعة المعرفة اللغوية العميقة. ويمكن أن نستنتج، بناء على هذه الحجج (الزائفة) نفسها أننا لسنا محقّين في استخدام مثل هذا الدليل لتحديد طبيعة المُحلِّل المؤمثَل، مثلما أنه لن يكون لدينا أي أساس لافتراض أن الفيزياء دراسة كلّ شيء يتجاوز قراءة العدّاد. لكن المادة الأولية لا تأتي معلَّمةً بأنها "دليل صالح لـ "س"، لا لـ "ص"".

(٢٧) وتساعد بعضُ الاعتبارات ذات الصلة في تفسير السبب الذي يجعل الجهود في مجال الذكاء الاصطناعي الذي يتحمس له دانيال دينيت كثيرًا فقيرةً من حيث المقتضيات (انظر Putnam 1988b; Dennett 1988). ويعتقد دينيت أن هناك، أو ربما يكون هناك، نتائج جوهرية تحت ما يسميه بـ "الهندسة"، لكن ليس من الواضح ما الذي يعنيه؛ كما يبدو لي أيضًا أن روايته للنقاش العام الذي جرى قبل سنوات، وهو الذي يقوم تفسيرُه جزئيًا عليه، خاطئةٌ إلى حد بعيد، إن لم أقل أكثر من ذلك.

(٢٨) لاحظ مرة أخرى أنه ليس هناك سبب لافتراض أنّ "اللغة ـــ د" تولِّد توليدًا ضعيفًا" بعض المجموعات المركّبة تركيبيًا صحيحًا من التعبيرات، وهو ما يجعلها تعطي معنى للكلام عن "اللغات ـــ د" (أي: "الأنحاء") بوصفها "متماثلة ماصدقيًا" أوْ لا، بمصطلحات كوين؛ وحتى لو اكتُشف أن لهذا التصور معنى أو أنه مهم، وهو ما لا نعرفه الآن، فليس هناك سبب لافتراض أنه ستكون للخصائص الصورية لهذه المجموعة أهميةٌ في دراسة بنية اللغة أو المعنى أو التعلّم أو التواصل أو التحليل، أو غير ذلك. انظر (Chomsky 1965). وقد حدث لبس كبير جدًا عن هذه الأمور، لكني لن أتحدث عنه هنا.

(٢٩) بمعنى غريب، مع ذلك. وأنا في هذه الحالة أستخدم كلمة تفتقر إلى دليل له علاقة باستخدامها، كما يُحدِّده معجمي الداخلي. وربما لن نقول إن جونز مخطئ في استخدام لغته حين يشير إلى شيء أمامه بأنه شيء مكوَّر، حين لا يعرف أن للجزء المختفي منه شكلاً مختلفا.

(٣٠) ويشمل هذا المتخصصين في اللسانيات الاجتماعية والأخرين الذين يزعمون أنهم لا يتبعون هذه الممارسة. انظر عن هذا الموضوع (Chomsky 1986: 17-18).

(٣١) لنفرض أن معجم جونز يتضمن تقليدًا لتعبير ما، ولنقل متكلِّمًا للغة الألمانية، في مدخل معجمي لـ "مرض التهاب المفاصل". وحينها ربما اشتمل سَنَبُ "اعتقاد" لجونز تفصيلاً أكثر، أو ربما نرغب في إهمال هذا التصور؛ بوصفه غير مفيد بأي معنى من معانيه المألوفة في علم النفس. ولا يبدو أن هناك شيئًا مهمًا هنا. للاطلاع على تفصيل أكثر عن المسائل التي أثيرت هنا باختصار انظر (Bilgrami 1987; Segal 1987).



الفصل الرابع
المقاربة الطبيعية والمقاربة الثُّنائية
في دراسة اللغة والذهن

يمكن فهمُ المصطلحات في عنوان هذا الفصل بطرق شتى، هي والأُطر التي تُدمج فيها. وأود هنا أن أبيِّن الخطوط العريضة لتأويلات أراها مفيدة وملائمة، وأن أقترح دعوى أكثر عمومية، ربما تتطلب حجة أكثر شمولا، وهي أنه ليس هناك بديل متماسك للبحث في ضوء هذه الطريقة لنقاش القضايا المتعددة المنظورة هنا، وأنّ المشاريع الأخرى في المجال نفسه تقريبًا ستكون أكثر وضوحًا وأسهل تناولاً، إن فهمناها على أنها توسُّعات للمقاربة التي نرسم خطوطها العامة هنا.

التهوين من شأن المصطلحات

دعنا ننحِّ مصطلح "اللغة" جانبًا الآن ونبدأ النظرَ في المصطلحات الأخرى في العنوان بطرق بريئة من بعض المقتضيات بعيدة المدى، وعلى الأخص، بمعزل عن أية إيحاءات دلالية غيبية. خذ مصطلح "ذهن" أو، بدايةً، مصطلح "ذهني". انظر الآن إلى الكيفية التي نَستخدم بها مصطلحات مثل "كيمائي" أو "مغناطيسي" أو "كهربائي". فنُسمي بعضَ الظواهر والأحداث والعمليات والحالاتِ "كيميائيةً" (إلخ)، لكن هذا الاستخدام لا يعني أي مُميِّز غيبي؛ فلا تَزيد هذه الظواهر والعمليات والأحداث والحالات عن كونها مظاهر متنوعة للعالَم نَختارها لتكون محورًا توجَّه إليه الانتباه لأغراض البحث والتبيين. وسوف أفهم مصطلح "ذهني" بالطريقة نفسها تقريبا، أي مما يُشبه ما يعنيه في الاستخدام التقليدي، لكنّ مجرَّدًا من أية أهمية غيبيةً ومن غير إيحاء بأنه ربما يكون مهمًا أن نحاول تعيينَ المعيار الصحيح لما يكون ذهنيًا أو ما يكون علامةً عليه. وأعني بـ "ذهن" المظاهر الذهنية للعالَم، من

غير أن أتلبّث لتعريف هذه الفكرة تعريفًا أكثر دقة أو أن نتوقّع اتصافها بنوع لافت للنظر من الوحدة أو الحدود، يزيد عما في المجالات الأخرى؛ فلا أحد يأبه بتبيين حدود [ما يسمى] "كيميائيًا" تبيينًا صارمًا.

وأقصُر اهتمامي هنا على الذهن البشري (أي على نظام الإبصار، والتعليل، واللغة، إلخ). ذلك أنه لا يسعى أحد إلى تأسيس علمٍ موحَّد للحركة، بدءًا من الأميبيا وانتهاء بالنسر، فالسفنِ الفضائية في روايات الخيال العلمي؛ أو [تأسيس علمٍ موحد] للتواصل بدءًا من الخلية وانتهاء بالخطاب البشري، ثم إلى الكائنات غير الأرضية المتخيَّلة. فيدرس علماءُ الأحياء، بدلاً من ذلك، كيف تسبح الدلافين وكيف تتواصل النملُ، بادئين بتحليلٍ "داخلي" و"فردي" (بالمصطلحات المعاصرة). ولا يهتمون كثيرًا، حين يعملون بهذه الطريقة، بالكيفية التي تُستخدم بها كلماتُ "دلفين" و"يتواصل"، إلخ، في الخطاب العام الذي أُثيرتْ فيه هذه المسائل للمرة الأولى. فهم يعملون، بدلاً من ذلك، في تطويرِ بعض التصورات الملائمة لأغراض التفسير والفهم التي يسعون إليها. ولا يقلِّل هذا الإجراءُ من شأن الخطاب العام والتفكير البديهي بحال؛ بل إن ذلك مما يحرِّرهما من بعض المتطلبات الخطيرة غير الملائمة. والشيء نفسه صحيح في أنواع البحث العلمي الأخرى ذات الاهتمامات الأوسع (كدراسة جماعات النمل، مثلا)[1].

ويمكن أن ننقل هذه الملاحظات ــ وهي بديهيات، كما أظن ــ إلى دراسة اللغة البشرية والذهن البشري. ولكون الدماغ، أو بعض عناصره، يتدخل بشكل مهمٍّ جدًا في الظواهر اللغوية والظواهر الذهنية الأخرى، فيمكن أن نستخدم مصطلح "ذهن" ــ بصورة تقريبية لكن واضحة ــ في كلامنا عن الدماغ، منظورًا إليه من زاوية مخصوصة طُوِّرت في مسار البحث في بعض المظاهر المحدَّدة للطبيعة البشرية وتحقُّقاتها. ولدينا هنا مسلمات اختبارية ــ منها أن الذهن، لا القدم، هو العضو الذي له صلة بـ [اللغة]، وأن البشر يتشابهون إلى درجة كافية في القدرة اللغوية وهو ما يسمح بعدِّ

اللغة البشرية موضوعًا طبيعيًا، إلخ. لكن ينبغي ألا تشغلنا هـذه المسلمات كثيرا.

دعنا كذلك نفهم مصطلح "المقاربة الطبيعية" بمعزل عن الإيحاءات العيبية: فتبحث "المقاربةُ الطبيعية" للذهن المظاهر الذهنية للعالم بالكيفية التي يمكن أن نبحث بها مظاهرَه الأخرى، ساعين إلى صياغة نظريات تفسيرية معقولة، مع الأمل بدمجها في نهاية الأمر بالعلوم الطبيعية "الصِّرف". ويمكن أن تقابَل هذه "المقاربةُ الطبيعية المنهجية"، بما يمكن أن يسمى بـ "المقاربة الثنائية المنهجية"، التي توجب التخلي عن المنهجية العلمية حين ندرس البشر "ما فوق الرقَبة" (مجازًا)، أي أن نتحول إلى متصيدي غرائب في هذا المجال الفريد، وأن نفرض بعضَ المصادرات الاعتباطية والمتطلبات "المسبقة" من أنواع لا يمكن أن ترد على أذهان المشتغلين بالعلوم، أو أنها تفارق، بطرق أخرى، المعاييرَ المألوفة الموجِّهة للبحث العلمي.

وهناك أسئلة مهمة عن الكيفية التي ينبغي أن يَسير البحثُ العلمي الطبيعي بها، لكن يمكن تنحيتها جانبًا هنا، إلا إنْ قدِّم سببٌ يبيِّن أنَّ لها صلةً فريدة بهذا البحث تحديدا. ولم يقدِّم أحدٌ سببًا كهذا، على حدِّ ما أعلم، بل يمكن على وجه التعيين اطِّراح الحجج المتشكِّكة في هذا السياق. فيمكن ببساطة أن نتبنى المنظورَ النموذجي السائد للعلم المعاصر، وهو، أساسًا، ردُّ فعل علماء القرن السابع عشر المتمثل في معارضة النزعة الأُسُسِيَّة anti- foundationalism [٢] على أزمة الشك الديكارتية، التي كانت تتمثل، كما يقول ريتشارد بوبكين، في "إدراك أنَّ من المستحيل إعطاءَ أسباب نهائية محدَّدة لتفسير معرفتنا، ومع هذا فنحن نمتلك معاييرَ نموذجية نقوِّم بها مدى ثقتنا بما اكتشفناه عن العالم ومدى انطباقه عليه"، وهو ما يعني "قبولنا بالمعرفة نفسها وزيادتها" في الوقت الذي ندرك فيه أنَّ "أسرار الطبيعة، وطبيعة الأشياء الذاتية، محجوبةٌ عنا إلى الأبد" (Popkin 1979: 139ff). وربما يكون مهمًا أن نذهب إلى أبعد من هذا، لكن المكان الذي ينبغي أن

توجيه أبصارنا إليه بحثًا عن إجابات، إن كان الأمر كذلك، هو حيث يحتمل أن نجدها فيه: أي العلوم الصرفة، حيث يمدنا غنى الفهم وعمقه بقدرٍ من الأمل في تحصيل معرفة أعمق بهذه المسائل. أما إثارة هذه الأسئلة عن ميادين بحثٍ ما تزال في بداياتها الأولى فغير مفيدة، وربما لا تزيد عن كونها شكلاً من التنغيص على هذه العلوم الناشئة.

وينبغي ألا تكون المقاربة العلمية الطبيعية، حين تُفهم على هذا الوجه، موضعَ خلاف، وإن كان المدى الذي يمكن أن تصل إليه لم يحدَّد بعدُ. أما البديل الثنائي لها فينبغي أن يكون موضع خلاف كبير جدًا. ومع ذلك فالعكس هو السائد الآن، كما أظن، وهذه سمة غريبة لتاريخ الفكر المعاصر. فقد اقتُرحت بعضُ النظريات التفسيرية للذهن، وفي دراسة اللغة خاصة. لكنها قوبلت بمعارضة قوية، لا لأنها تخالف معايير المقاربة الطبيعية المنهجية (التي يبدو أنها تتبعها، إلى حد بعيد)، بل انطلاقًا من بعض الاعتبارات الأخرى، كـ "الاعتبارات الفلسفية"، التي يُزعم أنها تشهد بأن هذه النظريات مُريبة، وربما متطرفة، على الرغم من النجاح الذي حققته بمقاييس النجاح المألوفة في العلوم؛ أو ربما تكون ناجحة، لكنها لا تعالج [مفهومَي] "ذهن" و"ذهني". وسأقترح أنَّ هذا النقد غالبًا ما يكون شكلاً من أشكال النزعة الثنائية المنهجية، وأنَّ تبنّي هذا الموقف (أو قبوله ضمنيًا) كان أحد المواقف البارزة في أكثر الأبحاث لفتًا للنظر في الفلسفة المعاصرة للذهن واللغة.

ومن الواضح أن المقاربة الطبيعية لا تُلغي الطرقَ الأخرى لمحاولة تفهُّم العالم. إذ يمكن لمن يتبنى [هذه المقاربة] أن يعتقد باطراد (كما أفعل أنا) أن بإمكاننا أن نعرف عن اهتمامات البشر بالكيفية التي يفكِّر بها الناس ويشعرون ويتصرفون من قراءتنا للروايات أو دراسة التاريخ أو النشاطات اليومية العادية أكثر مما نعرفه عنها من مجمل النتائج التي نحصِّلها من علم النفس الذي يقوم على المقاربة العلمية الطبيعية، وربما سيظل الأمر كذلك دائمًا، كما يمكن بالمثل أن تقدِّم الفنون مستوى عاليًا من التقدير لأسرار

السماء يفوق ما تحلم علومُ الفضاء الفيزيائية بالوصول إليه. ونحن نتحدث هنا عن الفهم النظري، وهو نوع خاص من الفهم. ويتحمل أي انحراف عن هذه المقاربة، في هذا المجال، عبء التسويغ لهذا الانحراف. وربما أمكن تقديم تسويغ ما، لكنني لا أعرف تسويغًا واحدًا.

اللغة في البحث العلمي الطبيعي:

ولتأطير النقاش دعنا ننظر بإيجاز إلى المسار الذي تقودنا إليه المقاربة المنهجية الطبيعية في دراسة الذهن، واللغة خاصة. إنها تقودنا، كما أظن، إلى شيء يشبه الوضع التالي، على حد ما نفهمه في الوقت الحاضر.

ليحوي الدماغ مكوِّنًا ــ سمِّه "الملكةَ اللغوية" ــ مقصورًا على اللغة واستخدامها. وللملكة اللغوية، عند أي فرد، حالةٌ أولى، يحدِّدها الإعدادُ الأحيائي. وتتشابه هذه الحالات، إذا استثنينا الحالات المرضيَّة، عند أفراد النَّوع إلى حد بعيد حتى ليُمكن أن نجرِّد "الحالة الأولى" للملكة اللغوية، وهي خصيصة مشتركة بين البشر. وتقدَح البيئةُ مسار النمو الموجَّه داخليًا وتشكِّله شيئًا ما، وهو الذي يستقر عند سن البلوغ تقريبا. وستحاول أيةُ دراسة جادة تحديد ماهية الحالات "الخالصة" للملكة اللغوية تحت الظروف المثالية، بتجريدٍ عن كثير من الاستثناءات والتدخُّلات التي تنتج عن عدد كبير من الظروف المعقَّدة للحياة اليومية، وتأمل بهذا أن تُحدِّد الطبيعةَ الحقَّة للملكة اللغوية وتحققاتها؛ وهذا ما تمليه معاييرُ المنهجية الطبيعية، في الأقل. وتُعَد وجهةُ النظر هذه، التي تؤخذ في البحث العلمي الطبيعي أمرًا مسلَّما، مثيرةً للخلاف دائمًا، أو ربما أسوأ من ذلك، في مجال اللغة والذهن، وهو ما يبرهن على النزعة الثنائية التي أشرت إلى مدى شيوعها وضررها.

وتُحدِّد حالةُ الملكة اللغوية المحصَّلةُ فصيلةً غير نهائية من التعبيرات اللغوية، يتألف كلٌّ منها من مجموع محدَّد من الخصائص الصوتية والبنيوية

والدلالية. فتحدد هذه الحالةُ عندى خصائصَ الجملة السابقة [هنا]؛ وتماثل حالتُك حالتى إلى حدٍّ يستطيع ذهنك عنده (أحيانًا) اكتشاف شبيهٍ ملائم للجملة التى قلتُها، وهو ما يعنى أنك تمتلك وسائل معينة تعينك على تحديد ما قصدتُه (ولا يمثِّل التعبيرُ الذى سمعته إلا جزءًا من الدليل لديك، أما التوصل فأمر "تقريبى"). والحالةُ المحصَّلةُ نظامٌ حوسبي (توليدى). ويمكن أن تسمى تلك الحالة "لغةً" أو، لكي نتجنَّب خلاف المصطلحات، I- language "لغة ــ د"، وقد اخترتُ I "د" للإيحاء بأن هذا التصورَ داخلي، وفردي، ومفهومي (بالمعنى التقنى؛ أى أنه تحديد لدالَّة فى الفهم). فيعنى امتلاك جونز "لغة ــ (د)"، أى "ل" [لغة]، أنْ تكون لغتُه فى الحالة "ل". وتمثل الإشاراتُ المعينةُ تحققات للتعبيرات اللغوية (المتكلَّمة والمكتوبة والمؤشَّرة، إلخ)؛ والأفعالُ الكلاميةُ تحقُّقاتٌ للتعبيرات اللغوية بمعنى أوسع، ويمكن أن تُفهَم التعبيرات على أنها "تعليمات" للأنظمة الأخرى فى الذهن/الدماغ "تتبعها" فى استخدام اللغة.

وانطلاقًا من المسلمات الاختبارية (الصحيحة جدًا) لهذه الملحوظات فإن فكرة "لغة ــ د" واضحةٌ جدًا؛ أى لا خلاف على أن الدماغ نظامٌ معقَّد يتصف ببعض الحالات والخصائص. ويبقى بعد ذلك أن نفصِّل تصورَ "حالة الدماغ" وأن نكتشف خصائصها. وتتطلب الأفكارُ الأخرى "للغة" مزيدًا من التسويغ ــ الذى ربما لا يكون سهلاً، كما أظن.

ويجب عدم الخلط بين فصيلة التعبيرات التى تولِّدها "اللغةُ (ــ د) "ل"" وفصيلةِ الجملِ الصحيحة صوريًّا، وهى فكرة ليس لها مكانٌ معروف فى النظريةِ اللغوية، وإن تسببت بعضُ الكتابات غير المتخصصة أحيانًا فى غموض هذه النقطة، وهو ما أدى إلى كثير من اللغط والجهد الضائع. لهذا ربما تُعيِّن لغةُ جونز "ل" خصائص محدَّدة لما يسمى بالتعبيرات "الشاذة" إلى حد بعيد؛ وربما تعطى تأويلاً محدَّدًا لأية إشارة ممكنة، حيث تُحدِّد خصائصُ الحالة الأولى هذا الفكرةَ الأخيرة.

وربما يكون النظام الحوسبي نفسُه غير متنوِّع (أساسًا)، ومثبَّتًا بالإعداد الأحيائي الفطري، حيث تقتصر التنوعاتُ بين اللغات وأنماط اللغات على بعض الخيارات المعجمية؛ وهي خيارات محدودة إلى حد بعيد. وربما تؤدي بعضُ التغيُّرات الضئيلة في نظامٍ معقَّد إلى ما يبدو كأنه اختلافات مثيرة كبرى؛ لهذا، يبدو كأن اللغات تختلف الواحدة منها عن الأخرى اختلافًا جذريًا، مع أنه لا يختلف بعضها عن بعض إلا بأشكال هامشية جدًا، كما يبدو. وهذا ما يمكن أن يتوقعه أي عالمٍ منهجي يلاحظ البشر؛ أما لو لم يكن الأمر كذلك، وربما لن يتيسَّر لنا تعليل ما تتصف به الحالةُ المحصَّلة من تحديد دقيقٍ غنيٍّ وتعقيدٍ بناءً على معلومات محدودة جدًّا توفِّرها البيئة. وتؤخذ بعض الافتراضاتُ المماثلة أمرًا مسلَّمًا في دراسة النمو والتطور عامة؛ لذلك لا تميِّز المقاربةُ الطبيعية الحالة الفريدة للعمليات الذهنية [عن غيرها].

ولا توجد خصائصُ الحالة الأولى والحالات المحصَّلة، حتى أكثر أشكالها بدائيةً، على حد ما نعلَم، عند الكائنات العضوية الأخرى أو في العالم الأحيائي، باستثناء ما يتعلق منها بنقاط الالتقاء بينها وبين المادة غير العضوية. ولا توجد إلا علاقات ضعيفة جدًّا بينها وبين ما اكتشفتْه العلومُ المتخصصة بالدماغ. وينشأ عن هذا أننا نواجه مشكلات التوحيد المألوفة في تاريخ العلم، ونحن لا نعرف كيف ستُحَلُّ هذه المشكلات ـ أو إن كانت قابلة للحل ابتداء.

وسأتوقف هنا عن إيراد مزيد من التحليل لنتائج البحث العلمي الطبيعي؛ وأعود إلى قضايا المقاربة الطبيعية والمقاربة الثنائية بصورة أكثر عمومية.

أنواعٌ من المقاربة الطبيعية:

ينبغي ألا نخلط بين المقاربة الطبيعية المنهجية وبعض التنوعات الأخرى [للمقاربة الطبيعية]. ولإيضاح ما أعنيه وما لا أعنيه، دعني أورد

أحد التصورات المفيدة لتصوُّر المقاربة الطبيعية، وهو مـا كتبـه بولـدوين مؤخرًا (Baldwin 1993: 171). فيبدأ بولدوين بحثه بملاحظة أنَّ "أحد أبـرز الموضوعات في الفلسفة المعاصرة هو "إخضاع الفلسفة للمقاربة الطبيعيـة" [تطبيع الفلسفة]. فقد كتب دانيل دينيت أن "أحد أسعد التوجهات الفلسفية فـي العشرين سنة الماضية كان "إخضاع الفلسفة للمقاربة الطبيعية"" (ص١٧١). أما كون تلك التوجه بارزًا فصحيح، لكنَّ وصفَه بأنه سعيد يبدو أمرًا خلافيًا. فهو يختلف، على أية حال، عن المقاربة الطبيعية التي أتبنّاها هنا.

ويجد بولدوين "نمطين مختلفين من المقاربة الطبيعيـة فـي الفلـسفة المعاصـرة"، ويُـسميهما المقاربـةَ الطبيعيـة "الغيبيـة" والمقاربـة "المعرفية" epistemic. والنمط الأول هو "ما كان يعنيه دينيت حين يحتفي بـ "إخضاع الفلسفة للمقاربة الطبيعية": أي الفكرة التي مفادها، كما يقول دينيت، "أنه يجب أن تكون التصورات الفلسفية لعقولنا ومعرفتنا ولغتنا متماشية، في نهاية الأمر، مع العلوم الطبيعية ومتناغمـة معهـا"" (ص١٧٢) – خلافـًا للمقاربة الغريبة الأفلاطونية، مثلاً، التي لا تتماشى مع الفرضـيات "التـي طوّرتها العلومُ الطبيعية"، كما يُزعم.

وتُشتق المقاربةُ الطبيعيةُ المعرفية المعاصـرة مـن "علـم المعرفـة epistemology المُخضَع للمقاربة الطبيعية" عند ويلارد كوين، وهي تشترط وجوبَ أن تُلحق دراسةُ المعرفةِ والاعتقاد بفرع ضـيِّق مـن علـم الـنفس السلوكي الذي ليس له أهمية علمية معروفة، وهذا تصرُّف غريب بذاته، ومن المدهش أنه لم يثر إلا اعتراضًا قليلاً. ويلاحظ بولدوين أن توجهـا أوسـع [منها] يعني بالنظر في "العلاقات الطبيعية" بين الأوضاع الخارجية والحالات الذهنية بعيدًا عن أية قيود اعتباطية. ويمكن عدُّ هذا الوجه الأوسـع شـكلاً متطوّرًا من علم النفس الذهني في القرن السابع عشر الميلادي، الذي كـان يرى، كما يقول لورد هيربرت، أن هناك "مبادئ أو أفكـارًا مغروسـة فـي الذهن" وهي التي "تضفيها على الأشياء من داخلنا. . . . [بوصفها]. . . هبة

مباشرة من الطبيعة، وتُمليها الغريزة الطبيعية" أي "أفكارًا مشتركة" و"حقائق فكرية" "طبعتها على الروح إكراهاتُ الطبيعة نفسها"، وهي التي، وإن كانت "الأشياءُ تحفزها"، إلا أنه لا يُعبر عنها عن طريق [هذه الأشياء] (Herbert 1624 1937 133). ويورد بولدوين [الفيلسوف] توماس ريد بوصفه مصدرًا لأحد أشكال "علم المعرفة المُخضع للمقاربة الطبيعية"، حيث يعبّر عن وجهة نظر مشابهة لكنها "محرَّرةٌ من التزام هيوم بنظرية الأفكار" [أو أي التزام مبكر آخر] (Baldwin 1993: 181)؛ أي محرَّرةٌ من المحاولات المبكرة التي سعتْ إلى بيان ما يسميه ريد بـ "الأحكام الأصيلة والطبيعية" التي "زوَّدت الطبيعةُ بها الفهم البشري" بوصفها "جزءًا من كينونتنا"، وهي ما يكوِّن "البديهة البشرية" (Reid 1785: 600-601). ولما لم يؤتَ ببديلٍ للخطوط العريضة للنظرية التي تُخلي عنها، فمن الصعب أن نرى كيف يتقدم هذا "الإخضاع للمقاربة الطبيعية" إلى ما يتجاوز الأشكالَ المبكرة. لكن الأمر بعكس ذلك، فتنظيراتُ الفلاسفة الديكارتيين وفلاسفة كامبردج الأفلاطونيين أكثرُ تقدمًا [من تلك النظرية] من وجوه عدة، كما أرى. وقد اقترح تشارلز ساندرز بيرس في فترة لاحقة (Peirce 1957: 253) أن الفكر الإنساني موجَّه بمبدأ "القياس الاحتمالي" abduction الذي "يضع قيودًا على ما يمكن قبوله من الفرضيات" وهو فطري فينا، ويُزوِّد الذهنَ البشري بـ "تكيُّف طبيعي ليتخيَّل النظرياتِ الصحيحة من نوع معين" (ص ٢٣٨) وهو (مع قليل من المعقولية) نتيجةٌ لمبدأ الانتقاء الطبيعي. وهناك مقتضيات أخرى كثيرة، ومنها "علمُ المعرفة التطوري" الذي ظهر في السنوات الأخيرة. (للاطلاع على بعض النقاش، انظر: Chomsky 1966: Chapter 4; 1968/1972; 1975 Chapter 1).

ومشروعُ المقاربة الطبيعية المعرفية غيرُ خلافي، باستثناء المصطلح، وهو [مصطلح] مصاغٌ بطريقة معاصرة غريبة. فقد كانت المقاربةُ الطبيعية المعرفية علمًا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أي أنها محاولة لصياغة نظرية اختبارية عن الذهن؛ وكان هيوم، مثلاً، يقارن مشروعه

مشروع إسحاق نيوتن. أما المقاربة الطبيعية المعرفية [الآن] فقد قُدّمت، بالمقابل، على أنها "موقف فلسفي"، وهو أمر مختلف، كما يبدو. ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نفهم الآن ما كُتب في فترات متقدمة على أنه مماثل للتمييز المعاصر بين العلم والفلسفة الذي طوّر في فترة لاحقة. وربما لا يمكننا إطلاق مصطلح "المقاربة الطبيعية الإبصارية" على الدراسة الاختبارية لنمو النظام الإبصاري ووظيفيّته (الذي كان موضوعًا لاهتمام علم النفس الذهني في فترة مبكرة، كذلك)، قاصدين بذلك أنه كان هناك بديل متماسك لدراسة المشكلات نفسها. ويبدو لي أن مصطلح "المقاربة الطبيعية المعرفية" مضلّل بالطريقة نفسها تقريبا، هذا إن لم نذكر بعض أوجُهها المعيَّنة المشتقّة من مصطلح كوين: "علم المعرفة المُخضع للمقاربة الطبيعية".

والمقاربةُ المعرفية الطبيعية التقليدية عند المشتغل بالمنهجية الطبيعية نوعٌ من العلم العادي normal science (انظر الفصل الثالث في هذا الكتاب)[٢]، بغض النظر عن الكيفية التي تقوّم بها بعضَ تطبيقاتها المحددة. فالبحث العلمي في الحالة الأولى للملكة اللغوية، مثلاً، محاولةٌ لاكتشاف "المبادئ والأفكار المغروسة في الذهن" التي هي "هبة مباشرة" من الطبيعة، أي إعدادنا الأحيائي. وينطلق البحث، كما في المجالات الأخرى، من الصياغات البديهية. انظر الجملة التالية، مثلا:

Jones knows (speaks, understands, has) English.

"يعرف جونز (يتكلم، يفهم، يمتلك) اللغة الإنجليزية".

فتوجّه هذه الملاحظةُ الانتباهَ إلى حالة معيَّنة للعالَم، ومنها إحدى حالات دماغ جونز، وهي حالة إدراكية، تقوم عليها معرفةُ جونز بأشياء معيَّنة كثيرة، نحو: معرفته بكيفية تأويل الإشارات اللغوية، أو أنّ بعض التعبيرات اللغوية تعني ما تعنيه، إلخ. ونحن نودُّ أن نعرف كيف وصل دماغ جونز إلى هذه الحالة الإدراكية. ويقود البحثُ في هذا الأمر إلى بعض

الفرضيات الاختبارية عن الإعداد الأحيائي، والتفاعلات مع البيئة، وطبيعة الحالات المحصّلة، وتفاعلاتها مع الأنظمة الأخرى للذهن (كالأنظمة النطقية والإدراكية والتصورية والقصدية، إلخ). وتسمى النظريات التي تصل إليها عن نمو اللغة أحيانًا بنظريات "جهاز اكتساب اللغة" Language Acquisition Device (LAD)، وهي التي تُحدِث تحوُّلاً لحالة الملكة اللغوية الأولى إلى حالات تالية، أي تحوِّل التجربة إلى الحالة المحصَّلة؛ وتسمى النظرية عن الحالة الأولى أحيانًا بـ"النحو الكلي"، وهو استخدامٌ [معاصر] لمفهوم تقليدي في سياق مختلف شيئًا ما. (ولن أعرض فيما يأتي للفروق بين نظريتَي "جهاز اكتساب اللغة" و"النحو الكلي"). وهذه دراسةٌ للذهن، كما أرى؛ وهناك آخرون يخالفونني، لأسباب سأعود إليها فيما بعد.

وتبدو المقاربةُ الطبيعية الذهنية أكثرَ إشكالاً من المقاربة الطبيعية المعرفية التقليدية. فأحد الأسئلة التي يثيرها بولدوين هو: "ما العلوم الطبيعية". ومن الإجابات الممكنة: إنها أي شيء يُنجَز بالعمل بانتهاج المقاربة العلمية الطبيعية. لكنْ لا يبدو أن هذا هو المقصود؛ فلنؤجل هذا السؤال قليلاً. ومن القضايا ذات الصلة أن نفسِّر ما "التعليلات الفلسفية لعقولنا، ومعرفتنا ولغتنا"، وكيف تختلف عن "التعليلات العلمية"، خاصة إن كانت "تتماشى مع العلوم الطبيعية" (Baldwin 1993: 172). فهل يعني هذا الاعتقادُ أنه ينبغي أن تكون أيةُ نظرية عن الذهن "متماشيةً" و"متناغمة" مع الفيزياء في الوقت الحاضر؟ ومن المؤكد أن هذا غير مقبول؛ إذ يحتمل ألا تتوافق فيزياءُ المستقبل مع هذا الشرط. أم ينبغي أن تتوافق مع أحد أشكال المثال البيرسي [نسبة إلى بيرس] لما سيكون عليه العلمُ في "الحدود القصوى"؟ لكن هذا لن يساعدنا كثيرًا، حتى إن كان له معنى. ذلك أنه ربما تتضمن فيزياء المستقبل وجهًا من التعليلات الممكنة في الوقت الحاضر (سواء سميتْ "فلسفيَّةً" أم لا)، حتى إن لم تتماش هذه التعليلاتُ مع الفيزياء في الوقت الحاضر.

وإذا كان الأمر كذلك فلن يكون هذا جديدًا في تاريخ العلوم؛ فقد ظل

توحيدُ النظريات المختلفة عن العالم هدفًا دائمًا للعلوم، لكنّ السعي نحو هــذا الهدف اتخذ مسارات مختلفة عديدة. ولم يكن الاختزالُ الشاملُ النمط المعهود [نحو هذا التوحيد]؛ ويجب ألا تخدعنا بعضُ الأمثلة المثيرة كاختزال كثير من علمِ الأحياء إلى علم الكيمياء الأحيائية في أواسط القرن العشرين. أمــا مــا يحدث دائمًا فهو أنّ العلم الأكثر "أساسية" هو الــذي اضــطُرَّ لأن يخــضع للمراجعة، وبشكل جذري أحيانًا، من أجل أن يُنجز التوحيد. هب أن فيلسوفًا في القرن التاسع عشر أصرّ على أنه "يجب أن تتماشى التحليلاتُ الكيميائيــة للجزيئات، والتفاعلات، وخصائص العناصر، وحالات المادة، إلخ مع العلوم الطبيعية وأن تتناغم معها، في نهاية الأمر"، حيث يُقصد بــالعلوم الطبيعيــة الفيزياء كما كانت تفهم حينذاك. لكن تلك التحليلات لم تكــن تتماشــى مــع الفيزياء آنذاك؛ لأن الفيزياء في تلك الفترة لم تكن قد تطورت بما يكفي. وقد تغيرت الفيزياء في ثلاثينيات القرن العشرين تغيرًا جوهريًا، ثــم أصــبحت التحليلات (التي عُدّلت هي نفسُها) "متماشيةً" مع الفيزيــاء الكميــة الجديــدة و"متناغمة" معها. افرض أن عالمًا في القرن السابع عشر أوجب الشرطَ نفسه على آلية الأجرام السماوية celestial mechanics، مشيرًا إلى "الفلسفة الآلية" السائدة [آنذاك] ورافضًا نظرية نيوتن الغامضة (كما فعل لايبنيز وهوبجينز)، لأنها لم تكن تتوافق مــع "قــوانين الآليــة" Laws of Mechanics (انظــر Dijksterhuis 1986: 479f). ومع احتمال أن يكون رد الفعل هذا مفهومًا إلا أنه كان سيكون (وقد كان) خاطئًا؛ ذلك أنه لزِم أنْ تتغير الفيزياء الأساســية تغيرًا جذريًا لكي تبدأ عمليةُ التوحيد.

ونحن لا نعرف إلى أين ستقودنا تلك العملية، بل لا نعرف حتى المدى الذي يمكن أن يصل إليه الذكاء البشري في تحصيله مثل هذا الفهــم للعــالم الطبيعي؛ ذلك أننا لسنا إلا عضويات أحيائية، لا ملائكة. وتوحي الملاحظــة الأخيرة، وهي، مرةً أخرى، غير خلافية، بطريق آخر للإجابة عن سؤال "ما العلوم "الطبيعية"". فمن مظاهر الذهن المظاهرُ التي تدخل في البحث العلمي الطبيعي؛ ولنسمّها "ملكة صياغة العلم". فيُواجه الناسُ، المزوّدون بــ"ملكــة

صياغة العلم"، "أوضاعاً مشكلة" تتكون من بعض الحالات الإدراكية المحددة (للاعتقاد والفهم أو عدم الفهم)، والأسئلة التي تثار، إلخ (وهي، أساساً، ما سماه سيلفين برومبيرجر "معضلة ح" p-predicament؛ انظر كتابه الذي يحوي مقالاته Bromberger 1992b [وترمز "ح" لكلمة "حيرة"]. ولا تؤدي "ملكة صياغة العلم" غالباً إلا إلى طريق مسدود. وتوفر أحياناً بعض الأفكار عن الكيفية التي يمكن بها أن يجاب عن بعض الأسئلة أو كيف تعاد صياغتها، أو عن الحالة الإدراكية التي تُعدّل، وهي أفكار يمكن تقويمها بعد ذلك بالطرق التي توفرها "ملكة صياغة العلم" (كالفحص الاختباري، والتناغم مع الأجزاء الأخرى للعلم، ومعايير المعقولية والأناقة، إلخ). ولـ "ملكة صياغة العلم"، كالأنظمة الأحيائية الأخرى، مدىً ممكن وحدود، ويمكن أن نميّز بين "مشكلات" تقع في مداها من حيث المبدأ، و"أحاج" لا تقع ضمن هذا المدى. وهذا التمييز مقصور على البشر؛ أما الفئران وسكان المريخ فلهم مشكلاتهم المختلفة وأحاجيهم، بل إننا نعرف، في حال الفئران، قدراً لا بأس به عن تلك المشكلات والأحاجي، وليس هناك حاجة لأن يكون هذا التمييز صارماً، وإن كنا نتوقع وجوده بكل تأكيد، عند أية عضوية وأية ملكة إدراكية. لتقع العلومُ الطبيعية الناجحة، إذن، داخل منطقة تماسٍّ المدى الذي تصل إليه "ملكة صياغة العلم" مع طبيعة العالَم؛ وهي تتعامل مع مظاهر العالَم (المشتتة والمحدودة) التي يمكن أن نحيط بها ونفهمها عن طريق البحث العلمي الطبيعي، من حيث المبدأ. وهذا التماس نتيجةٌ صُدفية للطبيعة البشرية. وليس في نظرية التطور، أو في أي مصدر آخر مما يمكن لنا فهمُه، على الضد من بعض التخرصات منذ بيرس، ما يوحي بأنه ينبغي أن تتضمن إجاباتٍ عن بعض الأسئلة المهمة التي نثيرها، أو حتى أن نكون قادرين على صياغة الأسئلة صياغةً ملائمة في بعض المجالات المحيِّرة.

ونحن لا نعرف، تحديداً، إن كانت مظاهرُ النظرية عن الذهن كالأسئلة عن الشعور consciousness، مثلاً – مشكلاتٍ عند البشر أم أحاجٍ، مع أننا ربما نستطيع من حيث المبدأ اكتشاف الإجابة [عن هذا السؤال]، بل

أنْ نكتشف أنها أحاج؛ فليس هناك تناقض في الاعتقاد بأن "ملكة صياغة العلم" ربما تسمح لنا بأن نتعلم شيئًا عن حدودها. (انظر Chomsky 1968 ch. 3; 1975, ch. 4. وانظر عن مسألة الحدود الممكنة، وصلتها بالبحث الفلسفي خاصة McGinn 1991; 1993).

فيمكن الإجابة عن سؤال "ما العلوم الطبيعية"، إذن، بشكل أكثر تحديدًا، بالسؤال عن ما الذي أنجزته؛ أو بصورة أعم، بالبحث في إحدى ملكات الذهن (البشري) المعينة، بخصائصه المحدَّدة. لكن يبدو مع ذلك أننا بحاجة إلى شيء آخر؛ أما ما هو ذلك الشيء فغير واضح.

ومن الموحي أن نُنعِم النظر في أصول العلم المعاصر. وباختصار، فقد وضع التقدمُ العلمي خلال القرن السابع عشر الأسسَ لقواعد "الفلسفة الآلية"، التي أدت إلى القضاء على التخيلات العجيبة عن أشكال الأشياء التي تَطير في الهواء وتَغرس نفسها في الأدمغة، وعن الطاقات والقوى الغامضة، و"النوعيات السرية" للتعاطف، والتنابذ، إلخ، وهو ما سمح باقتراح بعض الخرافات كالتأثير عن بُعد عبْر فراغ. وقد لاحظ الديكارتيون أن بعض الظواهر الطبيعية (ومن أبرزها استخدامُ اللغة) لا تقع في نطاق الفلسفة الآلية، على ما يبدو، وهو ما جعلهم يفترضون مبدأ جديدًا لتفسيرها. فقد افترضوا، بناء على منظوراتهم الماورائية [الغيبية]، جوهرًا ثانيًا (res cogitans "ذهن")، ولأسباب أخرى كذلك. وبغض النظر عن التطبيق، لم يكن هذا الاقتراح بعيدًا عن المعقول، بل لا يختلف كثيرًا عن التفسير الذي اقترحه نيوتن حين اكتشف أوجهَ القصور في الفلسفة الآلية. وأدى افتراضُ شيء يقع وراء الفلسفة الآلية إلى نشوء مشروعين هما: تطويرُ النظرية وحلُّ مشكلة التوحيد؛ ويتمثل هذان، في الحالة الديكارتية، في "مشكلة الذهن - الجسد". وهذا كلُّه علمٌ عادي، وكان خطأً، لكن هذا الخطأ نفسه عادي كذلك.

وبمجرد أن بدا كأن الفلسفة الآلية انتصرت، قوَّضها نيوتن، حيث أعاد إدخال نوع من السببية والنوعية "السرِّية"، مما أثار امتعاض العلماء البارزين

وقتذاك، بل استخلصه هو نفسه. ولم تتأثر النظرية الديكارتية عن الذهن (بصورتها التي كانت عليها) باكتشافاته تلك، أما نظريته عن الجسد فقد بُرهن على أنها غير ممكنة. وبكلمات أخرى، فقد قضى نيوتن على مشكلة "الروح في الآلة" بالتخلص من الآلة؛ أما الروح فلم تتأثر. كما تركنا نستنتج أنه لا يمكن أن نتوقع أن يبقى الحدس البديهي - أي "الفيزياء الشعبية" التي كانت أساسًا للفلسفة الآلية - في وجه التحول نحو البحث العلمي المنهجي في طبيعة الأشياء. وقد اختفت مشكلة الذهن - الجسد، ويستحيل بعثها، إن كان ذلك ممكنًا بأية حال، إلا بتقديم فكرة جديدة للجسد (كأن يكون ماديًا، أو فيزيائيًا، إلخ) لتحلَّ مكان الفكرة التي هُجرت، وهو مشروع ربما لا يكون معقولا، كما يبدو. أما إن لم يحدث ذلك، فلن توفر لنا عبارةُ العالَم "المادي" ("الفيزيائي"، إلخ) إلا طريقةً غير منضبطة في الإحالة إلى ما نَفهمه فهمًا تقريبيًا، ونأمل في توحيده بطريق ما.

والنتيجة الطبيعية، التي استخلصها لو ميتر بعد ذلك بقليل ثم جوزيف بريستلي بعده، أنَّ الفكر والعمل البشريين خصيصتان للمادة المنظَّمة، تشبهان "قوى التجاذب والتنابذ"، والشحن الكهربائي، وأشباههما (Le Mettrie 1747؛ كذلك Cohen 1941؛ و Yolton 1983؛ و Wellman 1992). ونحن نسعى، حين نتبنى وجهة النظر تلك، إلى تحديد خصائص هذه الأشياء في العالَم، وتحليلِ الظواهر الذهنية في ضوئها، وتبيينِ كيفية نشوئها عند الفرد والنوع، وإلى ربط هذه النتائج بأي شيء آخر نعرفه عن المادة المنظَّمة (وهذا هو الوجهُ الجديد لمشكلة التوحيد). ولم يتحقق إلا تقدمٌ ضئيل، فيما يخص المشكلة الأخيرة. كما لم يتحقق تقدمٌ حقيقي في تحليل خصائص الاستخدام العادي للغة، وغيرها من الظواهر، وهي التي دعت الديكارتيين إلى افتراض جوهر ثانٍ (وإن لم تعُد حدودُ الآلية موضوعًا مهمًا). وربما نكتشف في نهاية الأمر أن هذه [الظواهر] أحاجٍ عند البشر. وقد تحقق قدر من التقدم في فهم آليات الذهن من الزاوية الأكثر تجريدًا "للنحو الكلي" و"جهاز اكتساب اللغة"،

والحالات المحصلة، وتفاعلاتها مع الأنظمة الإدراكية الأخرى؛ وفى دراسة بعض هذه الأنظمة (كالنمو التصورى، مثلا). وهذه فروع للعلوم الطبيعية، فى ضوء المسلمات العلمية الطبيعية ــ سواء أكان ذلك أمرًا جيدًا أم سيئا، خطأ كان أم صوابا.

وتحاول العلومُ الطبيعية أن تفهمَ العالم فى مظاهره الكيميائية والكهربائية والذهنية، إلخ. فهل يحوى العالم قوىً نيوتنية غامضة تؤثر على أجسادٍ يفصل بينها فضاءٌ فارغ، أو يحوى مجالاتٍ كهربائية ومغناطيسية تتصف، وإن كانت أشياء رياضية [من الرياضيات]، بأنها "أشياء فيزيائية "واقعية" نظرًا للطريقة التى تتدافع بها عبر فضاء فارغ" (Penrose 1989: 185- 186). أو يحوى فضاءً منحنيًا "يبدو أنه يَسلب البنيةَ الممتدة كلَّها أى شىء يمكن أن نسميه صلابة"، أو أنه ربما لا يحوى "فى أعمق أعماقه" إلا شذرات من المعلومات (Wheeler 1994: 294). وهل يحوى أفكار هيربرت ومبادئه العامة بوصفها جزءًا من "الغريزة الطبيعية"، أو مفاهيمَ هيوم، أو أفكارًا وتصورات، أو مبادئَ حوسبية وحالات، إلخ؟ ويسعى البحث العلمى الطبيعى للإجابة عن هذه الأسئلة، بقدر ما يستطيعه من نقد ذاتى، مبتعدًا عن المسلمات الاعتباطية حين يمكن اكتشافها، مع الوعى بأنه لا يمكن التغلب على القيود الأحيائية على الفكر البشرى، أما القيود الثقافية فربما لا يتيسر اكتشافها بسهولة.

دعا مُدٌ إلى الاتهام بأن النظرية عن الذهن التى تقدّم أفكارًا كـ "الفهم الدقيق للمعانى الفريجية" لا تتناغم مع الفرضيات التى "طوَّرتْها العلوم الطبيعية" أو لا تتماشى معها. وهذه الملحوظة صحيحة لكنها غير مهمة، إن كنا نعنى العلوم الطبيعية فى الوقت الحاضر، باستثناء "النظرية عن الذهن". أما الأسئلة الحقيقية فيجب أن تتعلق بمكانة "النظرية عن الذهن" بناء على أسس علمية طبيعية، وبمشكلة التوحيد (إن كانت "النظرية عن الذهن" معقولة شيئًا ما). أما إن عنى هذا الاتهامُ أن مشكلة التوحيد تقع وراء القدرة البشرية

فربما يكون ذلك صحيحاً، لكنّ ليس لهذا علاقة بالمكانة العلمية "للنظرية عن الذهن". فلا يلزمنا أن ننظر في بعض التخرصات عن العلم "الصحيح"، وهو الذي ربما يقع وراء ما يمكن أن يصل إليه الفكر البشري. لكن ما الأشياء الأحرى التي تتطلبها المقاربةُ الطبيعية "الغيبية"؟ والجواب: إن هذا ليس واضحاً.

وهل ينبغي أن نفهم المقاربة الطبيعية الغيبية على أنها المطلبُ الذي يوجب وحدة الطبيعة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فيمكن أن يُنظر إليها على أنها فكرة موجِّهة، لا مذهباً؛ ذلك أنَّ علماء الفيزياء يقولون لنا إن تسعين بالمائة من المادة في الكون تنتمي إلى ما يسمى الآن بالمادة السوداء — وهي سوداء لأننا لا نراها؛ وهي سوداء لأننا لا نعرف ماهيتها"، بل "إننا لا نعرف شيئاً عن المادة التي يتكوّن منها تسعون بالمائة من الكون" (Weisskopf 1989). افرض أننا وجدنا في نهاية الأمر أن المادة السوداء تختلف اختلافاً جوهريًّا عن العشرة بالمائة من الكون التي نعرف عنها شيئاً. ولا يمكن التقليل من شأن هذا الاحتمال من حيث المبدأ؛ ذلك أن العلم المعاصر يقبل ببعض الأشياء الغريبة. كما لا يمكن نفي هذا الاحتمال في حالة النظرية عن الذهن. ومع أنه ليس هناك دليل يُلزم بقبول الفرضية الديكارتية، إلا أن بعضَ وجوهها (مع تصورٍ للجسد أكثر غنى) ربما تكون صحيحة من حيث المبدأ في نهاية الأمر، ومتماشية مع الموقف العلمي الطبيعي.

المقاربة المادية ونقّادها:

ستكون المقاربة الطبيعية الغيبية موقفاً متماسكاً إن بيَّن لنا المدافعون عنها ما الذي يمكن عدّه "فيزيائيًّا" أو "ماديًّا". أما قبل ذلك فلا يمكن لنا فهم هذا المذهب، دعك من بعض الأفكار المشتقة منه كـ "المادية الإقصائية" eliminative materialism وأشباهها. أما من حيث الممارسة فيبدو أن بعض أوجه الفكرة الأخيرة لا تزيد عن كونها شعاراتٍ تشير إلى

الاتجاه الذي يمكن أن نجد فيه إجابات، لهذا ليس لها أهمية خاصة.

ويبدو أن نقّاد هذه المذاهب يواجهون المشكلة نفسها، أي: ما الذي ينتقدونه؟ ومن أبرز هؤلاء توماس ناجل، الذي يقدّم عرضًا مفصّلًا وواضحًا لوجهات النظر المهيمنة ونقده إياها، وهو النقد الذي يوجهه على وجه التحديد للمسائل التي أهتمُّ بها هنا (Nagel 1993). وأظن أن عرضه لهذه القضايا كان خاطئًا، وإنّ بطريقة لافتة النظر، ونتائجه مشكوك فيها لهذا السبب ولأسباب أخرى، ويشمل ذلك النتائجَ التي انتهى إليها عن "جهاز اكتساب اللغة" والنظرية عن الذهن، التي يختم بها حديثه.

يقول ناجل إن "مشكلة الذهن – الجسد" لم تُثَر بشكلها الحديث إلا في القرن السابع عشر، بتزامنٍ مع نشوء التصور العلمي للعالَم الفيزيائي الذي نشأنا عليه جميعًا الآن" (١٩٩٣: ٩٧) (أي التصور النيوتني). لكن هذا يعكس القصة. ذلك أنه كان لمشكلة الذهن – الجسد معنى في ضوء الفلسفة الآلية التي هدّمها نيوتن، ولم تُثَر بشكل متماسك منذئذ. وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكن للنقاش أن يسير في ضوء ما يراه ناجل إلا إن وُجد تفسير جديد لطبيعة الجسد (المادية، أو الفيزيائية، إلخ) والذهن.

ويقود هذا المنظور للقضايا وأصولها إلى تفسير خاطئ للإسهامات المعاصرة كذلك. لذلك يلخص ناجل "دعوى سيرل الجذرية" التي تقول إن "الشعور خصيصة فيزيائية للدماغ" وهي خصيصة "لا يمكن اختزالها إلى أية خصيصة فيزيائية "أخرى""، وهو موقف، إن بُيِّن بطريقة ملائمة (وهذا قد لا يكون ممكنًا كما يرى ناجل)، "ربما يكون إضافةً رئيسة للإجابات الممكنة عن مشكلة الذهن – الجسد" (١٩٩٣: ١٠٣). وتمثّل هذه الدعوى "القلب الرئيسي" لاقتراح سيرل، وبكلماته هو: فـ "الشعور خصيصة للدماغ من مستوى أعلى أو هي خصيصة ناشئة عنه"؛ وتنتمي إلى الترانب الأحيائي الطبيعي... كانتماء التمثيل الضوئي والهضم والانقسام الفتيلي إليه".

وهذه الدعوى غير جذرية بغض النظر عن إن كانت صحيحة أو لا؛ بل هي - أو كانت ردُّ الفعل الطبيعي على تقويض نيوتن للفلسفة الآلية، وتقويضه من ثمّ لمشكلة الذهن ـــ الجسد، بشكلها الديكارتي في الأقل. وكما لاحظنا، فالقول بأن الفكر والفعل (ويشمل ذلك الشعور) خصائصُ للمادة المنظَّمة، ولا يمكن اختزالها إلى خصائص أخرى إلا بقدر إمكان اختزال الخصائص الكهربائية المغناطيسية إلى خصيصة الآلية، فكرةٌ اقترحها العلماءُ في القرن الثامن عشر - لكن لم يقصد بها أن تكون إجابة ممكنة لمشكلة الذهن - الجسد، التي لم تُصغ بشكل متماسك (آنذاك، أو الآن). أما الأهمية الغيبية لهذه الدعوى فتماثل أهمية العلاقة بين الآلية الكلاسيكية والنظرية الكهربائية المغناطيسية [المعاصرة].

ويَفترض ناجل فهمًا مسبقًا للذهن والجسد، وللذهني والفيزيائي، ويورد بعضَ الإشارات عما يعنيه بذلك. ففي تعبيره عن أحد المواقف النموذجية، ينظر إلى "جوهر الذهن" على أنه الشعور، أي أن "الظواهر الذهنية كلها شعورية إما حقيقةً أو إمكانا" (١٩٩٣: ٩٧). وسواء قَصد بهذه الصياغة أن تكون اقتراحا اصطلاحيًا أم جوهريًا، فهي تتطلب تفسيرًا لمفهوم "شعوري إمكانا"؛ ويتبنى ناجل اقتراح سيرل (Searl 1992) عن هذا الأمر، لكن هذا الاقتراح يواجه صعوبات حقيقية، كما يبدو.

هب أننا أخذنا الشعور على أنه علامةُ ما يكون ذهنيًا. فماذا عن الجسد؟ وهو الذي يماهي ناجل بينه وبين ما "يمكن أن تَصفه العلومُ الفيزيائية" (باستثناء الشعور، أمّا إن كان هذا الاستثناء افتراضًا أم اكتشافا، فليس واضحا). ومن هنا يفهم النزعة المادية (التي يقول إن أكثر الفلاسفة المعاصرين يقبلون بها) على أنها الاعتقادُ "بأنه يجب أن يكون كل ما في الكون وأي شيء يحدث فيه قابلاً للوصف بالعلم الفيزيائي" وهي وجهة نظر يرى أنها متماسكة، مع أنها زائفة. ويعني تبنيها محاولة القيام بـ "نوع من الاختزال لما هو ذهني إلى ما هو فيزيائي - حيث يكون الفيزيائي،

تعريفاً، ما يمكن أن يوصف بمصطلحات غير ذهنية" (أي بمصطلحات لا تتضمن "الشعور الممكن"). أما ما نحتاجه لإكمال الصورة المادية للعالم فخطاطةً تشبه الشكل التالي: إن "الظواهر الذهنية – كالأفكار والمشاعر والأحاسيس، والرغبات، والإدراكات، إلخ ليست إلا . . ."، حيث يمكن أن يُملأ مكانُ النقاط بوصفٍ إما فيزيائي صراحة أو يستعمل مصطلحات لا يمكن أن تنطبق إلا على ما يكون فيزيائيًا محضا"، أو ربما يُعطي "شروطًا للتأكيد" بناء على "أسباب خارجية يمكن ملاحظتها". ويمضي ناجل قائلاً: "إن تاريخ فلسفة الذهن في الخمسين سنة الماضية يتمثل في المحاولات المختلفة لتنفيذ هذه المهمة التي تبدو مستحيلة، والحجج التي تُبيِّن إخفاقها". أما المشكلة التي لم تُحلّ، وربما يستحيل حلُّها، فمشكلةُ الذهن – الجسد، وهي مشكلةُ "أن نجد مكانًا في العالَم لأدمغتنا نفسها، بتجاربها الإدراكية وأفكارها ورغباتها، وطريقتها في صياغة النظرية العلمية، وكثيرٍ غير ذلك مما لا يمكن للفيزياء أن تصفه".

وهناك ما يكاد يكون إجماعا على اعتقاد أن هذه الأسئلة متماسكة ومهمة. لهذا يناقش تايلر بيرج، في مراجعة مفصّلة موحية لقرنٍ من فلسفة الذهن، ظهورَ "النزعة الطبيعية" ("المادية"، "الفيزيائية") في ستينيات القرن العشرين بوصفها "إحدى المواقف المحافظة القليلة في الفلسفة الأمريكية" (Burge 1992: 32). وهي وجهة النظر التي ترى أنه ليس هناك حالات ذهنية (أو خصائص [ذهنية]، إلخ) "تعلو وتتجاوز الوحدات الفيزيائية العادية، أي تلك الوحدات التي يمكن أنْ تعيِّنها العلومُ الفيزيائية أو الوحدات التي يمكن أن تتخذها البديهةُ فيزيائية". ويصف "النزعةَ الإقصائية"، وهي إحدى التيارات الرئيسة في الجهود نحو "جعْل الفلسفة علميةً"، بأنها "وجهة النظر التي ترى أن الكلام الذهني والوحدات الذهنية ربما تفقد مكانتها في نهاية الأمر داخل المحاولات التي نقوم بها لوصف العالم وتفسيره" (Burge 1992: 33)، وربما يكون هذا خطأً، لكنها دعوى مهمة بكل تأكيد. ومع ذلك فهذا ليس واضحًا بما يكفي.

انظر إلى فكرتي ناجل: "قابل لأن تصفه الفيزياء" و"وصفته الفيزياء". فما الذي تعنيانه؟ وهو يقدّم مثال "السيولة"، بعلاقتها "الشفافة" بسلوك الجزيئات. ولا يمكن لهذه العلاقة أن تكون شفافة تماما؛ فقد كان أبرز علماء الفيزياء قبل قرن ينظرون إلى الجزيئات على أنها خرافات مريحة، وأنها حالاتٌ للمادة، كما عُرف فيما بعد، لا "يمكن وصفها" بالفيزياء آنذاك. وربما صح لأحد فروع العلم لم يكن قد وُحّد مع الفيزياء حينذاك أن يلقى قدرا كبيرا من الضوء تأسيسا على صياغاته النظرية، إلى جانب أشياء كثيرة؛ لكن هذا الشيء نفسه صحيح الآن عن بعض جوانب مجال ما يُعدُّ ذهنيًا (بالمعنى الذي أقصده). فلماذا تكون هذه التعليلات أقلَّ "فيزيائية" مما كانت الكيمياءُ عليه قبل قرن؟ أو أقل فيزيائيةً من القوى السرّية عند نيوتن، وهكذا حتى نصل إلى المفترضات النظرية الغامضة المضادة للحس في الوقت الحاضر؟ وربما أمكن توحيدُ التعليلات العلمية الطبيعية للظواهر الذهنية في المستقبل مع الفيزياء، وهي التي ربما يجب، مرة أخرى، أن تعدّل، وعندها ستكون العلاقات "شفافة" كذلك.

أما دعوى النزعة الإقصائية في صياغة بيرج لها (وهي صياغة نمطية، مرة أخرى)، فيمكن أن نسأل لماذا تكون مهمة أصلا. دعنا نستبدل بمصطلح "ذهني" مصطلح "فيزيائي" في هذه الدعوى. ولا خلاف على أن "الكلام الفيزيائي والوحدات الفيزيائية" فقدت مكانتها منذ أمد بعيد في محاولاتنا وصف العالم وتفسيره"، إن عنينا بـ "فيزيائي" و"فيزيائية" الأفكار التي تدخل في خطابنا وتفكيرنا العاديين. فلماذا ينبغي أن نتوقع شيئا مختلفا عن "الكلام الذهني والوحدات الذهنية"؟ افترض أنني قلت:

The rock dropped from the skies, rolled down the hill, and hit the ground.

"سقط الحجر من السماء، وتدحرج على سفح الجبل، ثم وصل إلى الأرض".

ولا يمكن ترجمة هذا القول إلى النظريات التي طوّرت لوصف العالم وتفسيره، وليس هناك علاقة مهمة أضعف [بين هذا القول وتلك النظريات]؛ ذلك أن هذه المصطلحات تنتمي إلى عوالم فكرية مختلفة. لكنّ لا أحد يأخذ هذا على أنّه يرسّس لمشكلة "جسد – جسد"[4]. ولا تطمح العلومُ الطبيعية كذلك إلى تمييز هذا الوصف عن القول بأن الحجر سقط في وهدة، وهو ما يمكن أن يكون الحدث نفسه منظورًا إليه من زاوية مختلفة (حين لا يميّز الجبل عن التضاريس الطبيعية المحيطة به). ولا يتوقع المهتمون بالمنهجية الطبيعية أن يجدوا نظائر لهذه الأحكام العامة في النظريات التفسيرية التي يصوغونها بوعي؛ كما لا يجدون مثل هذه النظائر لأقوال مثل:

John took his umbrella because he thought it was going to rain.

"أخذ جون مظلته لأنه ظن أن السماء كانت ستمطر".

أو:

John is in pain.

"جون يتألم".

أو:

John speaks English.

"يتكلم جون الإنجليزية".

- مع أنهم يأملون، في الحالات كلها، في احتمال أن يؤدي البحثُ العلمي الطبيعي إلى فهم أعمق في المجالات التي فتحها للبحث خطابٌ يَعكس المنظورات البديهية.

ويَبرر بعضُ الأسئلة المماثلة بشكل أكثر توسعا. انظر إلى وجهة نظر دونالد ديفيدسون عن "شذوذية الذهني"، وهي أنه على الرغم من وجود علاقات سببية بين الأحداث الذهنية والفيزيائية، إلا أنه ليس هناك قوانين نفسية – فيزيائية تربط بينها في خطاطة تفسيرية ملائمة. وكما يصوغ ديفيدسون الأمر، ينبغي ألا نقارن بعض البديهيات عما سيفعله الناس عموما

تحت بعض الظروف المحددة "بقانون يبين ما السرعة التي سيهوي بها جسد في فراغ"، لأن "من الممكن التنبؤ في الحالة الأخيرة، لا في الحالة الأولى، هل يتحقق الظرف أم لا، وإذا لم يتحقق فإننا نعرف السبب الذي جعله لا يتحقق" (Davidson 1980: 233)، وهذا موقف من مشكلة الذهن ـ الجسد يصفه بيرج بأنه "عميق لكنه خلافي" وإن لم يوضّحه بشكل كاف. (للاطلاع على نقاش متعاطف، انظر Evnine 1991)، ولا تبدو هذه الحجة مقنعة تماما. ذلك أنه ينبغي، وللسبب نفسه، ألا نقارن بعضَ البدهيات عن تدحرُج الكُرات على سفوح الجبال أو عن عاصفةٍ تتولّد في الغرب بقانون سقوط الأشياء إلى أسفل، لكننا لسنا معنيّين بعدم وجود قوانين فيزيائية ـ فيزيائية "-physico physical laws تربط بين الخطاب العادي عن الأحداث في العالم والنظرياتِ التفسيرية للطبيعة. وهناك من يُحاج بأن "علم النفس الشعبي" يختلف عن "علم الآلية الشعبي"، مثلاً، أو "علم الكيمياء الشعبي" بسبب طبيعته الاستنتاجية [القبلية] a priori وعلاقته الحميمية بأفكار العقلانية والتعليلات والمقاصد ومنظور المتكلِّم، إلخ. وهذه مجالات مختلفة بالتأكيد، لكنْ ليس واضحًا أنها تختلف في مظهر "الشذوذية" بالمعنى المقصود في هذه المناقشة. وبقدر ما يمكن للبحث العلمي أن يزعزع قناعةَ شخصٍ ما بأن الشمس تَغرب أو أن بعض الأشياء تتصف بخاصية "التنافي" impenetrability (مع بقاء مثل هذه القناعات في أجزاء أخرى من الحياة)، يمكن أن تنشأ عنه بعضُ النتائج المشابهة على قناعات الشخص عن طبيعة الاعتقادات (عن الدور الذي تؤديه العقلانية، مثلا). وأكثر ما يعتقده الناسُ عن الاعتقادات أمورٌ استدلالية [بعْدية] a posteriori (ومن أمثلتها الجدلُ حول مفهومي "شبكية المعنى" و"الفطرية") كما لدينا بعضُ الاعتقادات الاستنتاجية عن الكُرات التي تتدحرج على سفوح الجبال وعن تولّد العواصف، ويبدو أن "علم الآلية الشعبي" (إلخ) ليس أكثر قبولاً من "علم النفس الشعبي" لأن تصاغ قوانينه بقوانين "جسرية" bridge laws[*]، وكما يحاج ديفيدسون، فأمثلة الحدث الذهنية، ليست

أمثلة من أنماط الحدث الفيزيائي (في الوصف العلم). والشيء نفسه صحيح عن أمثلة الحدث الفيزيائي والأشياء الفيزيائية، كما نفهمها البديهة؛ ولن تحوي اللغةُ البشرية مصطلحاتٍ للنوع الطبيعي، إلا نتيجة لصُدفة رائعة، إن كانت الأنواع الطبيعية أنواعًا منَ الطبيعة[1].

وإذا بدّلنا المصطلحات قليلاً دعنا نتحدث عن "الأحداث التي توصف دمغيًا" ("أحداث - ع") و"الأحداثِ التي توصف فيزيائيًا" ("أحداث - ف")، محيلين إلى تحليلات مصوغة باللغة العادية، محتفظين بمصطلحاتِ "ذهني" و"كيميائي" و"مناظيري"، إلخ، للأحداث التي يَعْرِضها البحثُ العلمي الطبيعي في المجالات الذهنية والكيميائية والمناظيرية، إلخ - وكلها "أحداث فيزيائية"، وهو مصطلح يتصف بالزيادة حين نتكلم عن الأحداث؛ والشيء نفسه فيما يخص الأشياء، وهكذا. ونتوقع من ثمّ أن نجد علاقات سببية بين "أحداث - ع" والأحداث الفيزيائية، لكن من غير قوانين تربط بينها في إطار العلم التفسيري؛ والشيء نفسه صحيح عن "أحداث - ف". وليست الاعتقادات والرغبات والإدراكات وتدحرجُ الصخور نحو الأرض وتولُّدُ العواصف، إلخ، موضوعاتٍ للقوانين العلمية، كما لا توجد قوانين جسرية تربطها بالعلوم. ومن المسلَّم به أن العلم لا يحاول الإحاطة بمضمونِ الخطاب العادي، ناهيك عن عمليات التخيُّل الأكثر إبداعا. وإذا صغنا عبارة ناجل بشكل آخر، فلا يمكن أن نجد مكانًا في عالَم الفيزياء للظواهر الفيزيائية، بالصورة التي نصفها بها في الكلام الفيزيائي ("ظواهر - ف")، لهذا لا غرابة أن يكون الشيء نفسه صحيحًا عن ("ظواهر - ع") كما تُوصف في الكلام الذهني.

وربما ينبغي التأكيد مرة أخرى أنَّه ربما يكون المدى الذي يصل إليه البحث العلمي الطبيعي محدودًا إلى حد بعيد، حتى إنه ليقصُرُ عن تناول بعض المسائل التي تمثل موضوعًا للانشغالات البشرية المهمة، مهمًا كان المدى الذي يمكن أن يصل إليه اهتمامُه الفكري، وهذا هو الوضع الآن بكل

تأكيد، وربما سيظل كذلك. وتقضي النزعةُ الاقصائية بازدراء، كما يطلق دجل ساحرًا، على "النظرية البدائية" التي كانت "مجالاً لاهتمام بعض البسطاء كفلوبير وبروست وهنري جيمس". ولا تبدو لي النزعة الإقصائية موقفًا متماسكا، إلا أنّ من المستبعد أن تسعى المقاربة العلمية إلى استلحاق هذا المجال [النظرية البدائية]، إلا بقدر ما تسعى إلى استلحاق بعض الأمور التافهة كتدحرج الصخور على سفوح الجبال وتولد العواصف؛ أما الأمر فبعكس ذلك، بل إنها تحرر الباحثَ من بعض المتطلبات غير الضرورية (انظر الهامش رقم ١).

لاحظ أن صِدقَ الكلام الفيزيائي العادي ومكانةَ الوحدات التي يفترضها ليسا موضعًا للشك هنا. فهذه قضايا مختلفة. كما لا يثار أي سؤال عن دراسة التصورات البديهية بوصفها فرعًا للبحث العلمي الطبيعي (أي: العلم الإثني). فربما يكون من المهمّ أن نعرف كيف تبدو بعضُ الأفكار عن اللغة في ثقافة [القبيلة الهندية الأمريكية] النافاهو (للاطلاع على وصف وافٍ لهذا، انظر Witherspoon 1977) أو في شوارع نيويورك، بل في الثقافة الفلسفية الأكاديمية المصطنَعة بوعي كذلك. ويصح الشيء نفسه عن بعض الأفكار الخاصة بالموضوعات الفيزيائية، والتفاعل، والفضاء، والحياة وبداياتها، إلخ. لكن لا بد من أخذ مثل هذا المقاربات بجدّ، إذ إنها ليست مقاربات عَرَضية، ويجب عدم الخلط بينها وبين البحث العلمي الطبيعي في طبيعة ما يتناوله العلمُ الشعبي بطريقته الخاصة، مستعمِلاً، ربما، ملكات أخرى مختلفة للذهن. والعلم الإثني فرعٌ للعلم يَدرس البشر، ويسعى لفهم الطرق التي يؤولون بها العالم، وتنوعات هذه الأنظمة وأصولها. وتَدرس فروعٌ أخرى للعلم طبيعة ما يكتشفه البشر ويؤولونه بطرقهم الفريدة الخاصة، سواء أكانت تلك الظواهر مغطيرية أم كهربائية أم آلية أم ذهنية. ونحن نستمر، في الوقت نفسه، في استخدام تصوراتنا، ونختار بوعي، أحيانًا، أن نصقلها ونغيّرها، في محاولتنا للتعامل مع مشكلات الحياة اليومية. وهذه مقاربات متمايزة.

ويسأل العلمُ الإثنى عن كيفية تأويل الناس لما يَجدونه في محيطهم وكيف يقوِّمونه. ويُعنى بتفسيرات الأشياء التي تحاول الوصول إلى أماكنها الطبيعية وبحركة الأجرام السماوية قياسًا إلى بعض النجوم الثابتة، وبالعناصر الجوهرية الأساسية كالأرض والماء والهواء والنار والطرق التي تتحد بها لتنتج ظواهر الطبيعة؛ وظواهر القوى المهمة التي توجِّه التطور الأحيائي والتمييز؛ وظواهر الاعتقادات والرغبات والخوف والعناصر الأخرى التي تتدخل في تعليل الأحداث الغائية؛ إلخ. وليس ادعاءً اختباريًا تافهًا أن نقول إن الناس في بعض الثقافات التقليدية يؤوِّلون الحركة في ضوء مفهوم التَّماس؛ أو يَعزون، متوافقين مع آراء ديفيدسون، بعض الاعتقادات والرغبات في ضوء معايير العقلانية والمعيارية normativity منطلقين من منظور شيكي، في جهودهم لتقويم الأفعال. وهذه ادعاءات قوية، وتتطلب أدلة. وربما تبيَّن في نهاية الأمر أن الاعتقادات والرغبات تُعزى إلى بعض المخلوقات (كالبشر، ربما) انطلاقًا من اعتبارات مختلفة كليًا، إذ ربما تكون انعكاسًا لطرقٍ غريزية للتأويل يحدِّدها الإعداد الأحيائي الفطري (أي: البديهة)، وأنه يقام بمثل هذا العزو باطراد حتى حين يُمكن النظر إلى الكائنات المعزوّ إليها على أنها تتصرف بطرق لا تتوافق مع العقلانية تمامًا، أو موجَّهةً بالغريزة في بعض السياقات التي لا تَبرز فيها مسألةُ العقلانية.

وبغض النظر عما يمكن أن يكتشفه المهتمُّ بالعلم الإثنى عن طبيعة "الموقف القصدي" intentional stance ، بمعناه عند دانيال دينيت، فهناك طريقان آخران يُشرعان أمام البحث العلمي. فالأولُ عن الناس، أي: ما الأصول التي جاءت منها طُرقُ الفهم عندهم؛ وتحديدًا، ما الدور الذي يؤديه الإعدادُ الفطري في تطويرِ علمٍ للكون cosmology، أو الحكم بأن شخصًا آخر يحاول تناولَ كتابٍ أو يقرأ كتابًا، أو يُسرع ليلحق بالحافلة. ويَنظر التوجهُ الثاني في الأشياء التي يحاول الناس فهمها بطُرق العلم الشعبي التي تقوم على الغريزة وتحدِّدها الثقافة. [مثل] ما مدى الصدق في علم الكون،

وتكون القارات، وتمايز الحشرات، وتخطيط المرء لما يفعله، إلخ. وستؤطِّر الإجابات، بقدر ما يكون نفاذ الذكاء البشرى إليها ممكنًا، فى ضوء بعض الحدود الملائمة للمشكلات المعنية، مع اهتمام ضئيل بالوسائل الفكرية للعلوم الشعبية، ومن غير أن نتوقع أنه سوف يُمكن التعبير بصورة مباشرة عما يوصل إليه من الصياغات والمبادئ فى ضوء فروع العلم الأكثر "أساسية"، حتى إن حُلتْ مشكلة التوحيد. وربما تكون النتيجة النهائية أننا نستطيع تفسير السبب الذى يَجعل تأويلات العلم الشعبى تَعمل بقدرٍ ما، سواء أكانت تهتم بالأجرام السماوية والزهور، أم بلاعب متمرِّس للشطرنج، أم بطفلٍ يستخدم قوالب لبناء قلعة (انظر Burge 1992، للاطلاع على بعض التعليقات الخاصة بعزو الحالات الذهنية، فى هذا السياق، انظر Chomsky 1969).

وإذا رجعنا إلى نقد النزعة المادية – بحسب ما يراه ناجل، مثلاً – فيبدو أنها تواجه عددًا من المشكلات. فليس هناك معنى واضح للتصوُّرين المفترَضين "فيزيائى" و"مادى"؛ وكذلك التصور "ذهنى"، إلا إن أضفينا معنى معينًا على فكرة الشعور "الممكِن" وحتى بعد ذلك، ليس من الواضح ما الأهمية التى ربما تكون لهذه المقولة تحديدًا، بتمايزها عن مقولات أخرى كثيرة. وليس من شأن العلوم أن تعبِّر عن مضمون الخطاب العادى عن أى شىء، فيزيائيًّا كان أم ذهنيًا. فليس هناك مذهبٌ متماسك للنزعة المادية أو النزعة الطبيعية الغيبية، فيما يبدو، وليس هناك قضية إقصائية، ولا مشكلةٌ للذهن – الجسد.

وتتزايد المشكلات حين ننظر فى الكيفية التى تُتناول بها بعضُ المسائل الاختبارية المحدَّدة. وينظر ناجل فى إحدى هذه المشكلات وهى: الاقتراحُ بأن هناك "جهازًا لاكتساب اللغة" LAD، يسمح للطفل بأن يتعلم نحو لغةٍ ما بناء على عيِّنات من الكلام الذى يتعرَّض له" (Nagel 1993: 109). وينظر إلى هذا على أنه جزء محترَم من العلم، صحيحًا كان أم خطأً. إلا أنه يجادل بأنه ليس صحيحًا أن يوصف "جهاز اكتساب اللغة" بأنه "آلية نفسية"، كما هو

رأيي: بل ينبغي أن يُنظر إليه على أنه "آلية فيزيائية وكفى... ذلك أنه لا يمكنه أن يؤدي إلى نشوء فكر شعوري ذاتي يتكوَّن مضمونه من تلك القواعد نفسها" (ص ١٠٩). وإذا وضعنا جانبًا هذا التصوُّر لـ"جوهر الذهن" وصحة وصف ناجل لـ"جهاز اكتساب اللغة" (وهو وصف ربما لن أصوغه بهذه الطريقة تماما)، ينبغي أن نلاحظ أن تأكيدَ ناجل يبدو تأكيدًا اختباريًّا عن "قدرة" نظامٍ فيزيائي ما. وهنا نواجه، مرة أخرى، الأمر الأهمّ المتمثل في "الشعور الممكن"، الذي يُقدَّم الآن بوصفه فرضيةً اختبارية. وسنعود إلى هذا.

وماذا سيكون ردُّ فعل منْ يتبنّى صراحةً "المادية الإقصائية" على نظريةٍ لـ "جهاز اكتساب اللغة" (أو للنحو الكلي)، ولْنقل كُوين، الذي يصفه بيرج بأنه مؤسِّس هذا المذهب؟ فيقدِّم كوين "دعوى المقاربة الطبيعية" التي تقول إن "العالَم هو ما يقول العلمُ الطبيعي إنه هو، بقدر ما يكون العلمُ الطبيعي صحيحا" (Quine 1992: 9)؛ لكن هذا غير مفيد حتى يبيِّن لنا ما "العلم الطبيعي". وكنت قد اقترحتُ عددًا من الإجابات الممكنة، لكنْ يبدو أنَّ كوين يفكِّر بأشياء أخرى. فالعلمُ الطبيعي عنده هو "نظرياتُ الكواركات وما يماثلها". لكن ما الشيء "المُماثِل تقريبًا" ليكون جزءًا من العلم؟ ومن الواضح أن هذا يسمح بإدخال العصبونات، ومعها بعض العمليات النفسية المعينة: لهذا يؤكِّد كوين أنَّ اللغة "موصولة إلى دخْلنا العصبي بالآليات العصبية للترابط أو التقييد". لكن الأدلة الاختبارية كثيرة جدًّا على أنه لا شأن للترابط والتقييد باكتساب اللغة أو استخدامها، إلا أن ذلك لا يبدو مهمًّا عنده، والسبب وراء موقفه هذا غير واضح. ومهما كانت الإجابة، فهناك أمثلة مما يحبِّذه كوين (كالكواركات والدخول العصبية والتقييد) وأخرى مما لا يحبذه (كـأدوات "جهاز اكتساب اللغة"، أي الآلية العاملة، على حد ما نعرفه عنها). لكنه لم يقدِّم أسبابًا لقراراته هذه، أو شيئًا يتجاوز أمثلةً قليلة توحي بمدى [هذه القرارات].

وتَكْشف "دعوى المقاربة الطبيعية" التي اقترحها عن الاعتباطية نفسها

في مجالات أخرى. لهذا يكرِّر كوين وجهة نظره التي يقدّمها في أغلب الأحيان ومؤداها أن "تشييء الأجساد [إدراك الأشياء المجردة بصورة مادية] يأتي على مراحل في أثناء اكتسابِ اللغة"، حيث تكون "المرحلة الأخيرة" من [هذا التشييء] إدراك ماهية [الشيء] من غير اعتبار للزمن. وإذا كانت هذه فرضية اختبارية، فنودُّ أن نعرف كيف يمكن تقديمها بمثل هذه الثقة. والمؤكد أنها ليست فرضية واضحة، بل ليست معقولة. ويجب ألا نكتفي بالأدلة النادرة؛ ذلك أن دراسات الأطفال في السنوات الماضية توفر لنا أسبابًا وجيهة جدًا للاعتقاد بأن مثل هذا "التشييء" يحدث في الأشهر المبكرة من حياة الطفل، قبل وقت طويل من أي تحقّق للغة. (للاطلاع على مراجعة عامة، انظر، Spelke 1990؛ وللاطلاع على مراجعة للأبحاث الأحدث، انظر Baillargeon 1993؛ وانظر كذلك الهامش رقم ٧ على هذا الفصل).

وبما أن نظريات "جهاز اكتساب اللغة" التي يشير إليها ناجل لا تقرُّ مذهبيت الترابط والتقييد، وتفترض بعض الآليات التي لا يمكن صياغتها على صورة كواركات أو عصبونات (الآن، في الأقل، وربما إلى الأبد)، فربما لا تنتمي إلى العلم، بمعناه عند كوين. ويشبه هذا حال الكيمياء قبل قرن، أو الآليات السماوية في زمن نيوتن، ولأسباب مماثلة. وربما لا يتوافق التقصي الاختباري "للتشييء" مع المعايير التي يفترضها كوين كذلك، وللسبب نفسه[٧]. ويبدو أننا نواجه مثالاً متطرفًا من الثنائية المنهجية، يتجاوز خصيصةَ غموض مفهومَي "المادية" و"الإقصائية".

النفاذ إلى الشعور

دعنا نوجِّه النظر الآن إلى تحديد الذهني في ضوء النفاذ إلى الشعور، الذي يؤدي إلى التمييز بين الذهن والجسد، كما يرى كثيرون. فيخلص ناجل، متبنيًا هذا الوصف، إلى أن "جهاز اكتساب اللغة" (والحالة المحصّلة كذلك، أي "اللغة د"، وهو ما سنطلق عليه مصطلح "اللغة" منذ الآن) آليّةٌ فيزيائية

وحسب، لا آلية نفسية، "ذلك أنه لا يستطيع أن يؤدى إلى فكرٍ شعوري ذاتي يتألف مضمونه من تلك القواعد نفسها" (Nagel 1993: 109). افرض أن أحد خيارات التنوّع بين اللغات يتصل باتجاه ترتيب [مكوّنات الجملة]: شمال يمين، حيث يكون الاتجاه التركيبي في الإنجليزية: "الرأسُ أولاً"، كما في:

See – the book.

In – the room.

إلخ، أما في اليابانية فيكون: "الرأسُ آخرا" (وهذا تناظر في التركيبات كلها في اللغتين). لكن "جوني" [وهو متكلم للإنجليزية] ليس واعيًا أنه كان يُثبّت "وسيطَ الرأس" في ضوء الترتيب: "شمال ـ يمين" اعتمادًا على دليل استقاه من عبارة:

See the book

إلخ، ولا يستطيع أن يقول لنا ذلك، مع أن هذا ما يَحدث احتمالاً على وجه الدقة، ومثل ذلك أنّ ماري لا تملك وعيًا شعوريًا بأنها تستعمل المبدأ (C) في نظرية الربط العاملي حين تؤول المثال (١) بشكل مختلف عن المثال (٢)، مطّرحةً خيارَ اعتماد الضمير he إحاليًا على Bill في المثال (١) مع سماحها بذلك الاعتماد في المثال (٢). لذا لا تؤولُ المثالَ (١) على أنه (١') لكنها ربما تؤول المثالَ (٢) على أنه (٢') (حيث يشير الضمير he إلى Bill في الحالتين كلتيهما):

١ـ He thinks Bill is a nice guy.

"يظن (هو) أن بيل شخص لطيف".

٢ـ The woman he married thinks Bill is a nice guy

"المرأة التي تزوجها تظن أن بيل شخص لطيف".

Bill thinks he is a nice guy. (١)

"يظن بيل أنه شخص لطيف".

The woman Bill married thinks he is a nice guy. (٢)

"المرأة التي تزوجها بيل تظن أنه شخص لطيف".

ويقارب عدمُ الوعي هذا، زيادة على ذلك، فكرةَ "الشعور الممكن"، وهي فكرة لم توضَّح بعد. وربما تعني أنه لا يمكن لمخلوق بملكة لغوية تماثل ملكة ماري اللغوية، بهذه "الآليات العرفانية"، أن يمتلك الشعورَ الذي لا تمتلكه ماري، وهذه حقيقة اختبارية مهمة. ويترتب على هذا أنْ نظرياتِ "جهاز اكتساب اللغة" ونظرياتِ اللغة لا تخترق الحدَّ بين الجسد والذهن؛ إذ هي ليست عن الذهن، بل عن الآليات العصبية.

خذ مثالاً من مجال آخر: فلا تعي ماري شعوريًا بأنها تستعمل "مبدأ صلابة" يؤوِّل الصُّور البصرية التي تُقدَّم لها على أنها شيء صلْب يتحرك حين ترى ما تعدُّه مكعبًا يتقلَّب في الفضاء، ولا يستطيع جوني ذو الثلاث سنوات أن يُخبرنا عن الاعتقادات الخاصة بثبات الشيء ("التشيؤ") والمسار الذي يجعله يتوقَّع ظهور شيء ما بشكل معين، وفترة معينة، ومكانٍ محدد بعد مرور هذا الشيء من وراء حاجز، وربما لا يكون واعيًا بذلك (Spelke 1990; Baillargeon 1993). ويترتب على هذا أننا لا نستطيع أن نصف هذه الحالات والخصائص التي نعزوها لماري وجوني كأنها آليات عصبية للإبصار – إن كان الشعور الممكن غائبًا أيضًا في هذه الحالات، في الأقل.

وقد قدّم دانيل دوميت فكرةً مماثلة، وإنْ كانت بمصطلحات مختلفة. فهو يعدُّ نظريات "جهاز اكتساب اللغة" واللغة المحصَّلة "توصيفات نفسية"، وإن لم يوفِّر أي منها "تفسيرًا فلسفيًا" لأنها لا تتحدث عن "الشكل الذي يؤدي

به [جسدُ المعرفةِ]؛ أما الوعي الشعوري فربما يعبُر بنا ذلك الحد (Dummett 1991: 97). ويحتمل أن ينطبق الأمرُ نفسه على فكرة ثبات الشيء وما يماثلها. ولا يقع الفارق هنا بين الذهن والجسد، بل بين العلم والفلسفة. ذلك أن النظريات في العلوم (بغض النظر عن دقة هذه الدعوى)، تبيّن لنا كلّ ما يتصل بالشكل الذي يؤدي به جسد المعرفة؛ أما في حالة النظرية عن المعنى (واللغة والفكر عموما، على وجه الاحتمال، وربما الإبصار والتشيؤ، إلخ)، فيُشترط نوع إضافي من التفسير، أي "تفسير فلسفي"، وهو الذي يذهب وراء العلم.

فلدينا، في الحالتين كلتيهما، فارقٌ جوهري - وربما يكون فارقًا غيبيًا - مؤسَّسٌ على النفاذ إلى الشعور.

ويتابع تفسيرُ ناجل تفسير سيرل في كتاب [سيرل] الذي كان [ناجل] يراجعه (انظر Burge 1992). ويمكن أن نُرجع أصولَ الشكل المعاصر لهذه الحجة إلى تمييز كوين المؤثِّر بين "الموافقة" fitting و"التوجيه" guiding، فيَعترض كوين على مذهب تقليدي (وهو الذي أُعيد تأويلُه في اللسانيات المعاصرة) يقول بأن المتكلمين "يوجِّهون" بـ"الفكرة للبنية" ربما لا تكون شعورية حين يصوغون "التعبيرات الحرة" الجديدة ويؤوِّلونها (Jespersen 1924، 19). وهو مذهب ينظر إليه كوين على أنه "مذهب غامض"، أو ربما "حماقة" خالصة (Quine 1972: 447). وربما لا يمكننا الحديث عن "التوجيه" إلا حين تنطبق القواعد بصورة شعورية لكي "تتسبَّب" في حدوث السلوك؛ أما في غير هذه الحال، فربما لا يمكننا أن نقول إلا أن السلوك "يتوافق" مع نظامٍ ما للقواعد أو "يَخضع" له، كما يَخضع كوكبٌ ما لقوانين سقوط الأجساد، كما يجب ألا نعزو "واقعيةً نفسية" لتصورٍ معيَّن عند كائن عضوي "يَخضع" للقواعد.

فيتبنى كوين، مرة أخرى، شكلاً متطرفًا من الثنائية. إذ يُسمح لنا - بل يلزمنا - في حالة الأجساد الساقطة، أن نعزو "واقعيةً فيزيائية" لتصورٍ معيَّن

لطبيعتها وللمبادئ المفترضة. إلا أنَّ الواضح أننا لا نستطيع أن نعلل الحالة التي حصلتْها الملكةُ اللغوية والطرق التي تدخل بها في السلوك؛ اعتمادًا على الافتراض بأن للدماغ كتلة، وأنه يخضع لقوانين سقوط الأجساد. فنحن بحاجة إلى مزيد من النسبية. أما المقاربة العلمية الطبيعيــة فستتناول هــذا الأمــر بالطريقة نفسها التي تُدرس بها الكواكبُ والنمل؛ أي أنها تسعى فــي هــذه الحالة للوصول إلى نظرية للحالة الأولى والحالة المحصلّة، والعلاقة بينهما، وإلى علاقة الحالة المحصلّة بالأداء والأحكام، عازيةً "الواقعيــةَ" لأي شــيء نفترضه في أفضل نظرية يمكن أن نصوغها. ومستوى فهمنا أقلُّ من ذلــك بكثير فيما يخص العضويات الأكثر تعقيدا، لكن لا صلة لهذا بما نحــن فيــه هنا.

فهناك فارق مذهبي للتمييز بين الحالتين: فما يُشترط في حالة (الأجساد الساقطة) ممنوع في الحالة الأخرى (حالة البشر في "ما فوق الرقبة"). أما ما يجعل الأمرين مختلفين، مرة أخرى، فهو الشعور، إضــافة إلــى "تــسبيب السلوك"، وهي فكرة لها مشكلاتها غير التافهة. ولا يكاد يكون هناك ســبب للاعتقاد بأن السلوك العادي "يتسبّب فيه"، بأي معنى معروف لذلك المصطلح في الأقل، وليس هناك سبب يجعل عالِمًا يتبنى المنهجية الطبيعيــة يفتــرض بصورة مذهبية غيرَ ذلك.

ويبدو كأن تعليل كوين ينطبق بالطريقة نفسها على مثــال الإبــصار. فجوني وماري ليسا "موجَّهيْن" بمبدأ الصلابة، ولا بمبدأ ثبات الشيء، إلــخ. فسلوكهما "يتوافق" وحسب، مع هذه المبادئ، كما يخــضع المــريخ لقــانون سقوط الأجساد. وستكون أيةُ نظرية عن حالات الدماغ تتضمن مثــل هــذه المبادئ لتعليل سلوك ماري وجوني قاصرةً منهجيًا، مهما كان تلاؤمها مــع معايير البحث العلمي الطبيعي؛ وستكون غامضة، فــي أفــضل الأحــوال، وحمقاء، في أسوئها. (وكما تقدّم، يصعب أن نعرف بشكل محدّد وجهة نظر كوين عن هذا الأمر. انظر الهامش رقم ٧).

وتظهر هذه الأفكار بصيغ أخرى كثيرة. وليس من السهل تقويمها. لهذا، لم يقدّم سبب وجيه لهذه القيود، ولا ينبئ شيء بأنها ليست أكثر من اشتراطات اصطلاحية فارغة. ولكثر أوجهها تطورًا الوجه الذي يتبدى ناجل من سيرل. فدعنا ننظر فيه باختصار.

ولا يبدو أن الثنائية التي لم تُعِرْ في تمييز كوين أثارت كثيرًا من الاهتمام، لكن كثيرًا من الباحثين يرون أن المقتضيات التي تترتب على صياغتها المحدَّدة مناقضةٌ للحدس. انظر إلى ظاهرة "الإبصار الأعمى" blindsight، مثلا: فتستطيع "ألس"، التي أُصيبت بعطب في القشرة المخية، أن تميِّز تقريبًا تمييزًا وافقًا بين ما يقدَّم لها من أوضاع بصرية (كرسم لبيت يحترق وآخر لبيت لا يحترق)، لكنها تُصِرُّ على أن هذه الأوضاع متماثلة، وهو ما يعني أنها ليست واعية بما يدخل في سلوكها المُميِّز. ولا يمكن - بحسب رأي كوين - أن نتحدث عن "توجيه" هنا؛ إذ يمكن أن نتحدث عن "موافقة" فقط (كما يبدو، انظر Quine 1992: 9، الهامش رقم ٧). ولا يمكن أن نعزو إلى "ألس"، في وجوه أخرى [لفكرة كوين]، "تمثيلات ذهنية"، وإن أمكننا ذلك في حالة جون، الذي يعي الفرقَ [بين الحالتين] ويستطيع أن يخبرنا عنهما، كما كانت ألس تفعل قبل الإصابة بالجرح. فلدينا في حالة ألس "آليات فيزيائية" فقط، أما في حالة جون فلدينا "آليات نفسية"؛ أو بتعبير آخر، لدينا في حالة ألس "فرضية نفسية" فقط، لا "تفسيرًا فلسفيًا"، كما في حالة جون. وليس شيء من هذه المقتضيات جذابا.

ويأمل سيرل أن يتجنب هذه المقتضيات بتقديمه فكرة النفاذ إلى الشعور "من حيث المبدأ" - وهو ما يسميه ناجل، في مراجعته، "إمكان الشعور"[٨]. ويتطلب "المبدأ الرابط"[٩] الذي يقترحه سيرل "النفاذ إلى الشعور" من حيث المبدأ لعزو الحالات والعمليات الذهنية. ويرى سيرل، في حالة "الإبصار الأعمى"، أن "ألس" تمتلك النفاذَ من حيث المبدأ إلى التمثيل، أو القاعدة، أو غير ذلك. فليس "الإبصار الأعمى" إلا حالةً من "الاعتراض"، blockage لا

حالةً من "عدم النعلاز من حيث المبدأ"، وهو ما يمكّننا مـن أن نـتكلم عـن عمليات ذهنية في حالة ألس، كما في حالة جون. لكن لن يكون لهذه النتيجة معنى إلا بعد تفسير عبارة "من حيث المبدأ".

افرض أن جين تماثل ألس (من حيث الاعتبارات ذات الصلة، وهـذا احتراز لن أكرّره)، إلا في تاريخ حياتها: كأن لا تكون حالتُهـا العـصبونية نتيجةً لجرح أُصيبت به بعد الولادة بل لجرح تعرضت له في بداية الحمـل، وهو ما أدى إلى هذه الحالة. ومن المحتمل أنها تمتلك أيضًا "النعلاز من حيث المبدأ"؛ وما يزال المبدأ الرابط ينطبق (أما إن كان الأمر بخلاف ذلك فلـيس للنقاش كلِّه من هدف؛ ذلك أن وقت الإصابة بالجرح لا يكاد يكون مهمًّـا). افرض أن هذا الجرح الذي حدث في بداية الحمل أثّر على المورِّثات بطريقة تجعلها تؤدي إلى الإصابة بـ "الإبصار الأعمى"، وربما ينطبق المبدأ الرابط في هذه الحالة كذلك، وإلا فلن تكون النتائج أقلَّ مناقضةً للحدس. افرض الآن أن سوزان تماثل جين إلا أن هذا التغير الوراثي [الإبصار الأعمـى] حـدث نتيجة لطفرة، لذلك فهي تماثل جين في التكوين الوراثي، وإنْ لم تُصب بـــ "الإبصار الأعمى" نتيجةً لجرح، كما حدث لألس وجين. ومرة أخرى، يجب أن ينطبق المبدأ الرابط، أما إن لم ينطبق فلن يكون لهذا النقاش من هـدف. ويعني هذا أن سوزان تعاني من "الاعتراص" فقط. افرض أن هذه الخصيصة الوراثية عند سوزان انتقلت [إلى ذريتها] بالوراثة، وهو ما يؤدي في نهايـة الأمر إلى ظهور نوع [بشري] فرعي، فلدينا الآن "نوع – جون" [النوع الذي يتكوّن أفراده من أمثال جون] و"نوع – سوزان"، وهما يتشابهان تشابهًا تامًّا من حيث آلياتهم الإدراكية. ولا يعي الذين ينتمون إلـى "نـوع – سـوزان" التمثيلاتِ الذهنية ولا القواعد التي توجِّههم ولا يستطيعون الإخبار عنها. أما فيما عدا ذلك فلا يمكن التمييز بين النوعين الفرعيين، بل إن هناك شيئًا مـن التماهي عبْر النوع في الآليات البصرية، كما هي حال ألـس وجـين بعـد الإصابة بالجرح. وبما أن المبدأ الرابط ينطبق على سوزان، فهـو ينطبـق

احتمالاً على "نوع – سوزان"؛ أما إن لم يكن الأمر كذلك فلا يعدو ما سبق أبديناه، مرة أخرى، أن يكون افتراضات اصطلاحية لا قيمة لها.

دعنا نأخذ الآن حالة اللغة. افرض أننا اكتشفنا أن تاريخنا التطوري يشبه تاريخ "نوع – سوزان". أي أن أجدادنا كانوا في الواقع من "نوع جون"، واعين وعيًا تامًّا بالكيفية التي يثبّتون بها وسيط الرأس، ويُحدّدون الاعتماد الإحالي، إلخ، ويستطيعون وصف ذلك كله وصفًا بيّنًا لعلماء من المريخ كانوا يلاحظونهم. لكنّ طفرةً حدثتْ (أو حدث جرح نشأ عنه تغيُّر وراثي، كما في حالة جين) ثم انتشرت، مما أدى في نهاية الأمر إلى وجودنا، أي لنكون من "نوع – سوزان"، أي محرومين من هذه القدرة. افرض أيضًا أننا اكتشفنا أننا لم نتمكن حتى من اختبار الرواة اللغويين الملائمين بعد. وأن النوعين الفرعيين يختلط بعضهم ببعض، ويتصرف أفرادهما بشكل متماثل تماما؛ وينتج عن هذا أنه لن يكون بإمكان أحد منا، ولا بإمكان أي عالِم، اكتشاف أي فارق بين أعضاء المجموعتين، إن لم تُبحث مسألة الوعي. وينطبق المبدأ الرابط على "نوع – جون" المبكر، وعلى بقاياه بيننا؛ ومن هنا فهو ينطبق علينا كذلك، إلا إن اخترنا اتخاذ بعض القرارات المصطلحيّة التي تبيّن، كما في السابق، أنه لا فائدة لهذا الجهد كله.

لكن هذه النتيجة خاطئة تماما؛ ذلك أن الغرض الوحيد من هذا النقاش أن يبرهن على أن البحث العلمي الطبيعي في اللغة والذهن لا يؤدي إلى "واقعية نفسية"، أو "آليات نفسية"، أو "تفسيرات فلسفية"، أو "تمثيلات ذهنية"، أو "توجيه" بالقواعد. وبصورة أكثر جوهرية، يجب أن يُحدِّد المبدأُ الرابط أننا لا نستطيع النفاذ إلى الآليات ولا العمليات التي نقوم بها "من حيث المبدأ". ونحن لا نعاني من مجرد "الاعتراض"؛ بل نعاني من أن آليات أدمغتنا التي "لا نستطيع أن تؤدي إلى فكر شعوري ذاتي يتكون مضمونه من هذه القواعد أنفسها" (Nagel 1993: 109)، ذلك أن هذا بأجمعه يقع خارج الشعور "الممكن".

ولإنقاذ القصة، يجب علينا، فيما يبدو، أن نصرّ على أنه لا يمكن أن يوجد "نوغ ـ جون" في حال اللغة (مع أنه يمكن أن يوجد، وهو كذلك، كما في حالة الإبصار الأعمى، أي البشر): أي أن من المستحيل أن يوجد نوع عضوي يشبهنا تمامًا إلا أنه يشعر شعورًا تامًّا بمضمون القواعد التي يتّبعها حين يتعلّم اللغة (ويستخدمها). ويشبه ذلك أن يكون فرضيةً اختبارية لا مصادرة اصطلاحية، في الأقل. لكنّ ما الأساس الذي يجعلنا نؤكّده؟ أو، إن لم يكن هذا الزعم اختباريًّا، بل تصوريًّا، ما الأسس التي يقوم عليها؟ وبغض النظر عن إن كنا نقبله أو لا نقبله ـ وسواء أكان فرضية اختبارية أم تصورية ـ فما أهميته المحتملة؟ وكيف يختلف عن ادعاءٍ ما عن "جوهر الكيميائي" (أو الكهربائي أو المناظيري، إلخ)؟

وتَبرز أسئلةٌ مشابهة عن إدراك الشيء الذي ناقشناه آنفا، ويمكن أن نفصّل تلك الصعوبات، وهو ما يؤدي إلى مزيد من أنواع التناقض. ولا يبرز أي من هذه الأسئلة في البحث العلمي الطبيعي الذي لا مكان فيه لأفكار مثل "الشعور من حيث المبدأ" أو "الشعور الممكن" أو "المبدأ الرابط"، ولا فكرة "للتفسير الفلسفي" وراء التفسير، ولا أصناف مفضّلة من الأدلة (كـ "الوعي"، أو "الدليل النفسي" مقابل "الدليل اللغوي")، ولا لثنائية "الذهن ـ الجسد"، ولا لـ"الثنائية المنهجية" (أو غيرها من الثنائيات).

ولا تعدو الجهود التي تسعى للإبقاء على مثل هذه الثنائيات أن تكون بقايا للمحاولات التي كانت تسعى لإنقاذ الفكرة التي مفادها أنّ المعرفة نوعٌ من القدرة، على الرغم من حقيقة أن القدرة يمكن أن تُصقل أو تَضعف ـ بل ربما تختفي تماما ـ في حين تبقى المعرفة ثابتة، كما بيّنا ذلك بمثال فقد القدرة على الكلام (أو السباحة، إلخ)، مثلاً، بعد الإصابة بجرح والشفاء منه من غير أن يكون هناك تدخّل ذو صلة بعد برء الجرح. والنتيجة الطبيعية أنّ المعرفة (التي يمكن تأطيرها في عبارات مثل: "كيف. . ."، و"أن. . ."، إلخ) تتضمن عنصرًا إدراكيًّا مهمًّا، ويجب ألا يُخلط بين القدرة على استخدام

المعرفة والمعرفة نفسها. ولتجنُّب هذه النتيجة، يصاغ تصورٌ تقني يتصف بخصائص المعرفة ــ يسمى "قدرة" ــ لكنه مختلف عن التصور العادي، وهي محاولة غريبة بشكل خاص حين يُلجأ إليها بزعم الدفاع عن وجهة نظر فتجينشتاين، (انظر الهامش رقم ٤ للاطلاع على بعض المراجع ذات الصلة وبعض النقاش).

أنواع أخرى من التنائية:

يأخذ أغلبُ النقاش عن "اتِّباع القاعدة" قواعدَ الرياضيات أو قواعد المرور نموذجًا، أو تلك القواعد التي نجدها في كتب النحو التقليدي، أو أنواع أخرى مما يتصف بالمعيارية. وإحدى الملامح الرئيسة في اتِّباع القاعدة، إذن، أنه يجب أن يكون الوقوع في الخطأ ممكنًا بمعنى الخروج على المعيار، وبغض النظر عن هدف هذا النقاش، فهو غير دقيق هنا. وقواعد اللغة ــ كمبادئ النحو الكُلِّي، أو تلك المبادئ التي توجِّه أحكامَ ماري عن المثالين (١) و(٢) أعلاه (انظر ص ٢٣٩)، مثلاً ــ ليست معيارية بهذا المعنى؛ إذ يمكن أن تكون أحكامُ ماري ومظاهرُ سلوكها الأخرى "خاطئة"، لعدد كبير من الأسباب؛ نحو: عدم الانتباه أو صعوبة التحليل (كما في الجمل التي تسمى بـ"جمل ممشى الحديقة"، أو التعبيرات التي تُرهِق قدرات الإدراك). كما تستطيع ماري أن تقرِّر مخالفةَ قواعدها، ربما لأسباب وجيهة، كإحداث أثرٍ أدبي، مثلاً. ويمكن للأحكام والسلوك كذلك ألا تتوافق مع المعيار بطرق عدّة: كالمعايير التي تفرضها البنى السُّلطَوِيةُ المختلفة، والممارسات المشتركة عند جماعات لا حد لتنوعها ويمكن أن يرتبط الأفراد بها، إما اختيارًا أو بضغط خارجي، إلخ. وتبرز أسئلةٌ عدة تتصل بالحقائق والسياسات المتبعة، إلخ، لكنّ لا يبدو شيء منها مبدئيًّا، باستثناء الأسئلة التي يمكن أن تختزل إلى حجج متشكِّكة لا أهمية خاصة لها بهذا الخصوص (لمناقشة أوسع، انظر Chomsky 1986).

فهل ينبغي أن نتحدث عن "اتّباع القواعد" في حالة أحكام ماري اللغوية وسلوكها؟ وهذا سؤال غير مهمّ كثيرا. وذلك لأسباب ذكرناهـا آنفـا؛ إذ لا يتوقع أحدٌ أن يبقى الخطابُ العادي أمام التحوّل إلى نظرية تفسيرية. ومـع ذلك وهذا للتوثيق - فربما يكون الكلامُ عن ماري كأنها تتبع القواعد فـي هذه الحالة أقرب إلى الاستخدام اللغوي العام منه إلى المواضـعة الفلسفية النموذجية التي توجب وجود رابط بالشعور. بل هو أكثر قربًا إلى الاستخدام العادي إلا بمعيار واحد. ذلك أنّا نستخدم مصطلح "اتّباع القاعدة" عادةً عنـد "الخروج" عن معايير الجماعة، لا عند احترامنا لها، كما هو الاستخدام التقني في الخطاب الفلسفي. فإذا كان جوني يقول:

I brang my lunch home.

"أحضرت غدائي إلى منزلي"

[بصياغة ماضي الفعل bring "يحضر" على صيغة brang ، التـي لا تتبـع قاعدة تصريف هذا الفعل]

فربما يَصِف الاستخدامُ المألوف هذا الاستخدام بأنه يتبع القاعدة التـي تنطبق على فعل sing "يغنّي" [التي ماضيها sang] ـ وهو استخدام خـاطئ؛ لأن أصـحاب السلطة أو بعض المعايير الأخرى تتطلـب أن تكـون صـيغة ماضي هذا الفعل brought. ومثل ذلك إن كان يَستعمل الكلمة puppy "جرْو" في الإشارة إلى صغار القطط، متبعًـا القاعـدةَ التـي مؤداهـا أن صـغار الحيوانات المنزلية الأليفة تسمى puppies "جِراء". وربما يـستطيع ملاحـظٌ مدقّقٌ إصدارَ أحكام مماثلة عن قواعد النطق التي يتبعها [جوني]. ولو حدث أن مات البالغون جميعًا وبقي جوني وأترابُه فسيَستمرون في اتباع قواعدهم الفردية الخاصة، إلا أن هذه القواعد ستكون الآن قواعدَ للغة بشرية عاديـة إلى حدّ بعيد تختلف عن الإنجليزية النموذجية في هذه المظـاهر (ومظـاهر أخرى). وربما لا يكون مألوفًا أن نقول في هذه الحالة إن جوني يتبع قاعدة؛ إذ قلما يُستخدم هذا المصطلح حين تُحترم المعايير والنمـاذج. لهـذا يمكـن

للسانيين وحدهم أن يقولوا إن ماري تتبع المبدأ C في نظرية الربط العاملي في المثالين (١) و(٢)، أو أنها تتبع القواعد المعقدة المتشابكة الخاصة بالإحالة إلى الأشياء حين تتكلم عن بيتها.

ولا نقصد، حين نعزو اتِّباع القاعدة بالطريقة المألوفة – لجونز كما في الحالة التي ذكرناها أعلاه، مثلاً – أن نوحي بأن متّبعي القواعد واعون (أو يمكن أن يكونوا واعين) باتِّباعهم القواعد أو أنهم يختارون القيام بذلك. أما أولئك الذين يتكلمون عن "حقيقة أن المعنى اللغوي يتضمن اتباعَ القاعدة عن قصد" فإنما يستخدمون مصطلحَ "اتباع القاعدة" بمعنىً تقني مستخدم في الخطاب الفلسفي، لا بالطريقة المتواضع عليها (انظر Baldwin 1993: 187؛ مستشهداً بـ P. Pettit). والشيء نفسه صحيح، كما أظن، عن مصطلحات أخرى في الخطاب الفلسفي، ويشمل ذلك مصطلحات "المعرفة" و"المضمون" و"الإحالة"، من بين مصطلحات أخرى. (للاطلاع على مزيد من النقاش، انظر المراجع التي أحلنا إليها فيما سبق، والفصل الثاني في هذا الكتاب).

ويمكن، في إطار النظرية العلمية الطبيعية "للغة (– د)" – وهي داخلية وفردية – أن نستخلص بعضَ النتائج عما ينبغي للمرء أن يقوم به، لكن في ضوء شروط فرضية غير مهمة فقط (مثل: إن كنت تريد كلمةً تسجع مع كلمة tower "برْج" أو تحيل إلى أزهار من نوع "دافوديل"، استخدم كلمة flower، لا book "كتاب"). وهذه المعيارية، وهي إحدى المقتضيات المألوفة للمعرفة، متوفرة بكثرة في سياق البحث العلمي الطبيعي، لكنها ليست من النوع الذي يبرز حين نسأل إن كان ينبغي لجونز تغيير استخدامه لكلمة arthritis "التهاب المفاصل" ليتفق مع استخدام الطبيب، وهو سؤال من نوع مختلف جداً، وليس له إجابة محدَّدة إلا من حيث تحديد مكانٍ معين أو آخر في الفضاء المعقد جدًّا للاهتمامات والمشاغل البشرية.

والأمر الآخر ذو الصلة هو فكرة اللغة بوصفها "ملْكًا للجماعة" من نوع معين، كما في قولنا إن هانز وماريا يتكلمان الألمانية حتى إن كانا لا

يستطيعان التفاهم، وإلى هانز لا يتكلم الهولندية مع أنه يفهم جيدًا اللغة الهولندية التي تُتكلَّم قريبًا من الحدود الهولندية الألمانية، أو حين نقول إن بيير وولده جين، اللذين لا يتكلمان إلا الفرنسية انتقلا للعيش في نيويورك، يتعلمان اللغة الإنجليزية، التي سينجح جين في تعلُّمها لكنَّ بيير سيتعلمها جزئيًا. أو أن جوني، بـ "أخطائه" في brang و puppy ، وبطريقة نطقه لاسمه، لا يتكلم لغةً على الإطلاق (وهي فجوة غريبة في الاستخدام العادي)، مع أنه سيتكلم الإنجليزية يومًا ما وهو يمتلك "معرفة جزئية" بها الآن، وأن "لغته ــ د" الحالية ربما تكون لغةً عادية إن بقيت على الصورة التي وُصفت بها. ولا يمثِّل عددٌ كبير من هذه الاستخدامات مشكلةً في الحياة العادية، لكنْ ليس لها إلا أهمية ضئيلة في إطار الجهد الذي يسعى لفهم ماهية اللغة وكيف تُستخدم. وليس هذا من أمور الأمثلة؛ ذلك أنه ليس هناك أمثلات معقولة، إلا بمقدار ما نستطيعه من تشبيه "المناطق" حين نحاول إيضاح ما يعنيه الحكْمُ بأنْ جون يسكن قريبًا من ماري لكن بعيدًا من بيل. ويمكن لهذه الاستخدامات أحيانًا أن تُشفَّر فيما يسمى بـ"اللغات الوطنية"، وهي تُفرض بالقوة أحيانًا. وتجعل محاولاتُ ربطِ فكرة "اللغة المشتركة" بالثقافات الأمورَ أكثر سوءًا. إذ يمكن في العادة أن ينتمي شخصٌ إلى عدد من الجماعات والثقافات، مع بعض الارتباطات الضعيفة غالبًا بين أشكال الترابط. فيمكن أن يُشارك جون في ثقافة عامة ما ــ بقيَم مشتركة واعتقادات وأفهام، إلخ ــ مع متكلمٍ أحادي اللغة للغة لا يَعرف [جون] منها كلمة واحدة، وربما يكون هذا الاشتراك بقدرٍ يفوق ما يتشارك فيه مع توءمه المماثِل، الذي نشأ معه ولا يكاد يميِّز بين لغتيهما. وليس لشيء من هذا صلة بالتواصل الناجح. ولسنا بحاجة لافتراض طرائقَ نطق مشتركة، أو معانٍ مشتركة لكي نفسِّر هذا، أكثر مما نفترضه من أشكالٍ مشتركة من أجل تفسير الناس المتشابهين.

ومرة أخرى، يمكن أن نصف أوضاعًا جديدة لا حصر لها مما يجِدُّ، ودراستها مشروعةٌ ومفيدة. وحين تكون هذه الدراسة جادة تفترض ما نتعلمه

عن طريق البحث العلمي الطبيعي في الملكة اللغوية. ومع ذلك، لا يمكن أن تقود محاولات تأسيس نظريات خاصة بطريقة النطق أو المعنى (بطرق نطقٍ مشتركة ومعانٍ مشتركة) انطلاقًا مما يدّعى أنه ملك للجماعة إلا إلى اللَّبس. وتبيِّن مثل هذه المحاولات، مرة أخرى، نوع الثنائية الذى لا يمكن حمله على الجد وراء ما يُعدُّ ذهنيًا.

ويتضح شكلٌ آخر من الثنائية يبرز في ثنايا النقاش عن اكتساب اللغة من حوار غريب عن "الفِطْرية" أو "الفرضية الفطرية". وهو حوار من طرف واحد؛ إذ لا أحد يدافع عن هذه الفرضية، وهو ما يشمل أولئك الذين عُزِيَتْ إليهم (ومنهم أنا خاصة). ذلك أنه ليس هناك فرضية كهذه. فهناك بعضُ المقترحات المحدَّدة عن الحالة الأولى للملكة اللغوية (أي: "جهاز اكتساب اللغة" و"النحو الكلي")، ولم يُسائل أحدٌ من المنتقدين هذه الاقتراحات. إلا أنهم ينظرون إلى هذا المشروع على أنه مخطئ بطريقة ما، وربما يقوم ذلك على مسلَّمة ثنائية ما. ولا تثار أسئلةٌ مماثلة حين تقدَّم بعضُ الاقتراحات عن المظاهر الأُخرى للنمو، ولم يُقدَّم سببٌ يسوِّغ القبولَ بملاءمة [هذه الاقتراحات] في مثل هذه المظاهر. وقد قُدِّمت دعاوى بديلة من طبيعة عامة جدًا، ومنها مثلا: أن "آليات التعلُّم المعمَّم" كافية، وليس هناك حاجة لافتراض خصائصَ محدَّدة للملكة اللغوية. ولا يمكن أن تناقش مثل هذه الفرضيات إلا بعد أن يبيِّن لنا ما هذه الآليات. أما الاقتراحات المحدَّدة التي قُدِّمت إلى الآن فلا تكاد تستحق الالتفات، إذا نظرنا إليها من خلال الاعتبارات العلمية الطبيعية، لهذا يجب أن يُبحث عن مسوغات لها من خلال بعض المتطلبات الأخرى، وهي متطلبات ذات طبيعة ثنائية.

والنزعةُ السلوكية عند كوين نوع من هذا الشكل للثنائية[١٠]، فهو يُجادل بأن "المقاربة السلوكية لازمة" (Quine 1990: 37) لدراسة اللغة؛ لأننا في اكتساب اللغة، "نعتمد اعتمادًا حاسمًا على السلوك الظاهري في السياقات الملاحظة" (ص ٣٨). وانطلاقًا من حجة مماثلة، فالمقاربة العدائية

nutritionist لازمة في علم النمو الجيني، ذلك أن الكائن العضوي يعتمد بصورة حاسمة، في انتقاله من الحالة الجنينية إلى حالة النضج، على التغذية التي تأتي من الخارج؛ فكما يجب أن يكون اللسانيون سلوكيين، يجب أن يكون علماءُ الأحياء غذائيين، يقصرون أنفسهم على ملاحظة الدخول العدائية والريع في الحجة الأخيرة واضح؛ ويُهدِّد الزيف نفسه الحجة الأولى كذلك. ولا يسمح بمناقشة هذا الأمر إلا المسلماتُ الثنائية المتطرفة وحدها. وربما تكون الدراسةُ الفعلية للغة خاطئة تصوُّريًا، لكنْ لا يكفي، في البرهنة على هذا، أن نطالب اللساني بأن يَهجُر البحثَ العلمي الطبيعي – كما يفعل كوين وأتباعه – ليتبنى بعض المصادرات العشوائية بغضِّ النظر عن سوابقها التاريخية، غير المهمة كما هو واضح.

ويتصل بهذا اتصالاً قويًا نموذجُ الترجمة المتطرفة عند كوين. فنحن نحاول في الدراسة العلمية الطبيعية للتفاعل بين الكائنات العضوية (كالخلايا والحشرات والطيور والدلافين، وغيرها)، أن نكتشف الحالات الداخلية التي تجعل هذا التفاعل ممكنا، وهي الحالات التي تنتج عنها التأويلاتُ التي تعطى للإشارات. لكنْ هذا الطريق مسدود، في دراسة اللغة البشرية. إذ يجب أن تقتصر دراسةُ التفاعل [في دراسة اللغة البشرية] على ما يكون داخل الحدود المقرَّرة: أي أنْ يُسمح للعالِم الباحث بأن يسجِّل الضوضاء بطريقة محدَّدة، ويختار بعض الملامح من السياق، ويَختبر ما يتفق مع البحث وما يَختلف معه: مثل: "هل هذا "س"؟، ثم يقوم ببعض الاستقراء الأولي، وكفى. وتقدَّم إشارات متعددة لما يُسمح به من سمات، مثل نوع "س"، إلخ. ويَزعم كوين زيادة على ذلك أن هذا أيضا هو السياقُ المعرفي للطفل الذي يكتسب اللغة والشخص الذي ينخرط في اتصال متبادل. لكن الحالات الثلاث مختلفة اختلافًا جذريًا من حيث طبيعتها: ذلك أن الطفل يأتي مزوَّدًا بالحالة الأولى للملكة اللغوية ("جهاز اكتساب اللغة"، و"النحو الكلي")؛ ويمتلك الشخصُ الذي ينخرط في تبادل اتصالي خصائص الحالة المحصَّلة؛ أما اللساني فمرود

بملكة صياغة العلم وبنتائج الأبحاث السابقة عن اللغة. وليس مهمًا أن نبيّن هذه الفروق، ذلك أن هناك مشكلة أكثر عمقا: وهي الثنائية المتطرفة التي تتسم بها هذه المقاربة بأكملها. ولا يمكن أن يُقبل مثل هذا، أو ما هو قريبٌ منه، في دراسة الكائنات العضوية الأخرى، أو المظاهر البشرية التي لا تقع داخل الصَّنف الوصفي التقليدي لمفهوم "ذهني".

وقد استُنتج من هذا النموذج، الذي يُتبنى ويُناقَش بشكل واسع، نتائجُ بعيدةُ المدى عن اللغة والفكر. ومع هذا يبدو أنه ممارسةٌ فكرية لا هدف لها إن قُصِد به أن يُلقي ضوءًا على طبيعة التواصل أو الاكتساب أو دراسة اللغة والفكر. ذلك أنه لم يقدّم أي تسويغ مرْضٍ له، في الأقل، على حد علمي، ولم يقدّم تفسيرٌ للسبب الذي يُلزِم بتبني هذه المقاربة في هذه الحالة الفريدة (ناهيك عن أن يُنظر فيها). وإذا كان الهدفُ منها الإسهام في صقل الفهم لتصورات الاعتقاد والقصد والمعنى، وما يشبهها، فمعايير تقويمها أكثر غموضا، لكن يصعب أن نرى سببًا يوجب إضفاء مكانةٍ خاصة على الشروط المحدَّدة المفترَضة في هذا البحث التصوري.

وتقوم على هذا النموذج بعضُ التوجهات الثنائية الأخرى. فيحاجُّ ديفيدسون، مكيِّفًا هذا النموذج لاهتماماته الخاصة، أنّ هدف الدراسة الوصفية للمعنى أن نصوغ نظريةً تكون "نموذجًا للقدرة اللغوية عند مُحلِّل ما"، لكنّ "لا يُضيف شيئًا لهذه الدعوى أن نقول إنه إذا وصفت النظريةُ القدرةَ اللغوية لمؤوِّل ما وصفًا صحيحًا، فيجب أن نتماثل بعضُ الآليات عند المحلِّل مع هذه النظرية" (Davidson 1986b: 438). ويبين ديفيدسون، مثل كوين، ما يُنظر إليه على أنه دليل ذو صلة، وهو: "أنّ ما يمكن ملاحظته ليس إلا استخدام جُمل في سياق"، وكفى. ويمكن أن تُقدِّم النظرياتُ "فكرةَ الإحالة والأفكار الدلالية الأخرى ذات الصلة بها"، لكن "لا يمكن السؤال عن صحة هذه التصورات النظرية فيما يتجاوز السؤال عن قدرتها على تقديم تفسيرٍ مُرضٍ لاستخدام الجمل" (Davidson 1990: 300). وقد طوّر دوميت وآخرون

مواقف مماثلة (انظر، Davidson 1986b; 1990a؛ وانظر عن الوجه الذي يقترحه دوميت لهذا الموقف: Chomsky 1986).

ومرة أخرى، لن تُحمل أفكارٌ مثل هذه على محمل الجد في دراسة أنظمة أخرى. ولا يمكن أن يقتصر الدليل على استخدام المتكلم للجمل، إلا إن تمسكنا بنموذج الترجمة المتطرفة أو قيدٍ عشوائي آخر (أو جماعة مختارة م). أما حين نقارب هذا الموضوع بالمقاربة المألوفة في العلوم فسنبحث عن أنواع كثيرة من الأدلة، ومنها الدليل الذي سنأخذه من اللغة اليابانية (وهو يُستعمل بشكل مطرد) في دراستنا للغة الإنجليزية؛ وهذا قرار معقول جداً يقوم على الافتراض الاختباري القوى جداً الذي مفاده أن اللغاتِ أشكالٌ متنوعة للحالة الأولى نفسها. ويمكن، بالمثل، أن نجد دليلاً من دراسات اكتساب اللغة والإدراك والحُبسة ولغة الإشارة والنشاط الكهربائي للدماغ، وغير ذلك كثير. فمن المفيد جداً، زيادة على ذلك، أن نفترض بعضَ الآليات عند المؤوِّل مما "يتماثل مع النظرية". ذلك أن هذا التوجه تحديداً هو ما يُخضع النظريةَ لعدد كبير من الأدلة وراء افتراضات الترجمة المتطرفة. ولا يؤدى الاشتراط الذي يقترحه ديفيدسون إلا إلى منع البحث العلمي الطبيعي في طبيعة المؤوِّل. أما الجهود التي تسعى إلى البرهنة على التفسير المقترح وصقله فقد أُعلن أنها غير مقبولة، أو لا أهمية لها لسبب ما. ويصح الشيء نفسه في أنواع أخرى كثيرة (لهذا الاقتراح).

ويلاحظ ستيفن ستك، في ترسيمه التاريخي لأصول "نظرية ـ النظرية"[1] أنه بـ "أفول الثنائية الديكارتية، بدأ الفلاسفة يبحثون عن طريق لوضع الذهني "داخل" الفيزيائي، مُماثِلين الأحداثَ الذهنية ببعض مقولات الأحداث في العالم الفيزيائي" (Stick 1983: 13). ويلاحِظ أنه كان يمكن لمثل هذا التوجه أن يسلك مسارين اثنين: أولُهما محاولةُ "تعريفِ المفردات الذهنية بمصطلحات "أعصابية"" (ص ١٤)، وثانيهما تحليلُ التصوراتِ الذهنية بمصطلحات السلوك، مما يؤدى إلى ظهور السلوكية الفلسفية. ويحاجُّ بأن

المسار الثاني هو الذي غلب. والنوع الذي راجعته هنا نوع مؤثر جدًا [من السلوكية الطبيعية]، ويتسم بملامح لا يمكن إصلاحها، على حد ما أرى. أما المسار الأول فكان موضوعًا للنشاط البحثي كذلك، لكنه متلبِّس أيضًا بثنائية لا يمكن تسويغها.

وقبل أن ألتفت إلى تلك القضية، أقدِّم بعض التعليقات على هذه الطريقة في تأطير القضايا. فأولاً، لقد أُخطئ في فهم الأسباب التي أدت إلى انهيار الثنائية الديكارتية: ذلك أن ما نُحض هو مشكلة الذهن ـ الجسد وحسب، كما سبقت الإشارة، وهو ما أدى إلى غموض مشكلة الذهن ـ الجسد، واختفاء فكرة "الفيزيائي"، إلخ. ولم يبق لدينا في هذا المجال إلا المقاربة العلمية الطبيعية وحسب، أي: أن نصوغ نظرية تفسيرية في ضوء أية مصطلحات ملائمة، وأن نواجه مشكلة التوحيد. ثانيًا، أنه لا يعدو أن يكون أملاً، الآن، أن تكون "المصطلحاتُ الأعصابية" ذاتَ صلة بمشكلة التوحيد. وأخيرًا، ليس هناك سبب يُلزمنا بمحاولة تعريف "المفرداتِ الذهنية" للخطاب اليومي في إطار بحث طبيعي ما، مثلما أنه لم يجرؤ أحد على مثل ذلك فيما يخص "المصطلحات الفيزيائية"، في العصر الحاضر في الأقل. ويصل سـتك إلى نتيجة مماثلة، لكن ليس هناك سبب واضح، فيما يبدو، يجعلها تتطلب حتى الاحتجاج لها، إذا غضضنا النظر عن التحيز الثنائي.

ويُنتج البحثُ العلمي الطبيعي في الذهن نظرياتٍ عن الدماغ، أي عن حالاته وخصائصه: ومنها نظرية النحو الكلي، مثلاً. ولا يعرف أحدٌ الكيفية التي يمكن بها أن نَبدأ بربْط هذه النظريات بخصائص الذرات أو العصبونات أو البنى الأخرى التي لا نعرفها [الآن] للدماغ. ويخلُص عالمُ الأحياء جيرالد إديلمان إلى أن التنافر بين النظريات عن الذهن وبين ما تعلمناه عن علم وظائف الأعصاب "يَخلق أزمةً لأولئك الذين يعتقدون أن النظام العصبي دقيق 'ومثبَّت بصورة مادية'، شبيهة بالحاسوب" (Gerald Edelman 1992: 27f)، وللقائلين بالنظريات الترابطية والقائلين بنظريات الشبكة العصبونية كذلك

وتطلق التواريخ الفردية المختلفة للنظام العصبي و"التنوع البنيوي الفردي الهائل" للأدمغة "رصاصة الرحمة" (بل رصاصات عدة!) على المحاولات التي تصوغ نظريات حوسبية أو نظريات شبكية عصبونية للذهن (Edelman 1992، في الملحوظات الإلحاقية في نهاية كتابه). ويأخذ إيدلمان، فيما يبدو، هذه النتيجة على أنها صحيحة بغض النظر عن مدى نجاح مثل هذه الدراسات، الآن، أو إلى الأبد، في ضوء معايير العلم (كالتفسير وعمق الفهم، إلخ).

وكان يمكن الاحتجاج قبل سنين عدة، وبمنطق مماثل، بأن هناك مشكلة خطيرة في دراسة المادة والكائنات العضوية في ضوء الألوان والتكافؤ وحالة الصلابة، وعدد وافر من الخصائص الأخرى، والشيء نفسه قبل ذلك في دراسة الكهرباء والمغناطيس وحركة الكواكب والأجرام السماوية، إلخ. والواقع أن العلم بأجمعه تقريبا كان يعاني ما يشبه الأزمة بسبب الفجوة الواسعة بين ما تُعلِّم عن هذه الموضوعات ومبادئ الفلسفة الآلية (بل أكثر علوم الفيزيائية إلى وقت قريب). والأزمة التي يراها إيدلمان حقيقية، لكنه أساء تعيين الموقع الذي تحتله.

أما "التنوع الهائل" في بنية الأدمغة والتجربة فلا يُبين لنا إلا شيئًا قليلا. فقد كان يبدو، قبل سنوات قليلة، أن اللغات تختلف الواحدة منها عن الأخرى بصورة تشبه في تطرُّفها الاختلاف بين البنى العصبونية كما يراها كثير من المتخصصين اليوم، وكان يُنظر إليها على أنها ليست إلا انعكاسات للتجربة التي تتنوع بصورة غير نهائية. وسوف يبدو أي نظام معقد خليطًا ملتبسًا قبل أن يُفهم، وتُكتشف مبادئ انتظامه ووظيفته. ويحاج إيدلمان بأن إدخال الاعتبارات الخاصة بالمعنى سيُعين بشكلٍ ما على التغلب على المشكلات المزعومة في المقاربات "الصُّورية". وهو مخطئ في فهم هذه الطرق خطأ كبيرا — كما تدل تعليقاته القليلة — لكن الأهم هو وجهة نظره الخاطئة عن علم الدلالة. فتحلق بعضُ الخصائص الدلالية البسيطة المشكلاتِ كلها التي

يراها إيدلمان في النظريات التركيبية والتعبيرات. فهي محكومة بالقاعدة ومحددة تحديدًا صارمًا ومثبتة بشكل مستقل عن التجربة والمظاهر المعروفة للبنية العصبونية؛ ومن هنا فهي تخلق "الأزمة" التي تنشأ عنها الفجوةُ بين ما يبدو أنه صفةٌ خوارزمية رقمية للغة والتنوع الملاحظ والتشتت المستمر للتجربة الفردية والبنية العصبونية. ونحن نواجه هنا مشكلةً معهودة من مشكلات التوحيد في العلوم، وهي التي ربما توجب، كما حدث في الماضي كثيرا، أن تعاد صياغة العلوم "الأكثر أساسية" بصورة جذرية لكي تتوافق مع النظرية التفسيرية الناجحة في المستويات الأخرى.

وقد اقتُرِح عدد من العلاجات للتعامل مع هذه "الأزمة"، ومنها الاقتراحُ بأن "'الذهنيّ' هو 'العضوي العصبي' في مستوى أعلى"، وقد يكون هذا صحيحًا، في نهاية المطاف، أما الآن فلا يبدو أن يكون فرضيةً عن 'العضوي العصبيّ'، لا وصفًا 'للذهنيّ'؛ وهو ما يعني أن الحذاء في القدم الخطأ، على حد فهمِنا. ومنها وجهة "النزعة المادية الإقصائية" الذي يرى أنه يجب علينا أن نركِّز اهتمامنا على علم وظائف الأعضاء العصبي، وهو اقتراح ليس له من المعنى إلا ما كان لاقتراحٍ قُدِّم منذ زمن بوجوب التخلي عن الكيمياء لصالح دراسة الجسيمات الصلبة من خلال حركتها، أو وجوب أنْ يتّبع المتخصصون في علم الأجنة المسارَ نفسه، وهناك أبحاث غزيرة تسأل عما سيحْدث إن أمكن لنماذج نظرية الشبكة العصبونية (الترابطية) تفسيرَ الظواهر التي سبق أنْ فسّرت في ضوء أنظمة تمثيلية حوسبية. وربما يبدو هذا النقاش كأنه علمي طبيعي من حيث الكيف، لكن ذلك ليس واضحًا تمامًا؛ فقلةٌ هم علماء الأحياء الذين يمكن أن يلفت أنظارهم اقتراحُ أنّ الأنظمة التي تفتقر إلى البنية ولا تتصف بخصائص معروفة يمكن أن تعطي في المستقبل تفسيرا لتطور بعض الكائنات العضوية من غير اللجوء إلى التركيبات المعقدة في ضوء تركيز العناصر الكيميائية والبرنامج الداخلي للخلية وإنتاج البروتين، إلخ.

وتنتمي النظريات الناجحة في بعض المجالات عادةً – ومنها اللغة على وجه خاص – إلى النوع الحوسبي التمثيلي، وهي حقيقةٌ تحدث قدرًا كبيرًا من عدم الارتياح. وللتغلب على عدم الارتياح هذا يُلجأ في كثير من الأحيان إلى الاستعانة بالنمذجة الحاسوبية؛ لتبيين أن لدينا حالات كثيرة واعية من هذا النوع، ثم يؤدي هذا إلى القول بأن علم النفس يدرس المشكلات البرمجية. وهذا توجُّه مشكوك فيه. ذلك أن الأشياء المصنوعة تثير أسئلة لا تبرز في حالة الأشياء الطبيعية. فيعتمد كونُ شيء ما مفتاحًا أو طاولة أو حاسوبًا على مقصد الصانع منه، والاستعمالِ المعهود، وطريقةِ تأويله، إلخ. وتبرز الاعتباراتُ نفسُها حين نسأل عن إن كانت آلةٌ ما تُخفق في أداء وظيفتها، أو في اتباع القاعدة، إلخ. فليس هناك نوع طبيعي أو حالة معيارية. فلا تبرز هذه الأسئلة في دراسة الجزيئات العضوية، ودراسةِ أجنحة الدجاج، أو دراسةِ الملكة اللغوية، أو الأشياءِ الطبيعية الأخرى، ويعكس الاعتقادُ بأن هناك مشكلة تتطلب حلاً، وراء الحالات المعهودة، ثنائيةً غير مسوَّغة، كما أن العلاج المقترح أسوأ من المرض.

ولا تمسُّ هذه الملحوظات إلا ظاهر المعاصر الثنائية في أغلب التوجهات الفكرية المؤثِّرة عن اللغة والفكر وأكثرها تعقيدا، فالواجب إما أن تسوَّغ هذه التوجهات أو تُترك، كما يبدو لي أيضًا أن نقد المقاربات الطبيعية يعاني من خلل. وهناك، فيما أظن، سببٌ وجيه لأن نتفحص عن قرب المذهبيات التي كانت تُفترض بشكل غير منضبط، وإذا لم تصمد أمام هذا التحليل، فيجب أن نسأل عن السبب الذي يجعلها تبدو قوية.

هوامش الفصل الرابع

(١) للاطلاع على مناقشة لهذا الموضوع، انظر (Bilgrami 1993). وانظر (Chomsky (1980: 250) عن الافتراض (المضمّن غالبا) لمقاربة داخلية فردية في مجالات بحثية أوسع (كاللسانيات الاجتماعية، واكتساب اللغة، ومفهوم هيلاري بتنام "تقاسم العمل الاجتماعي"، إلخ).

(٢) النزعة الأسسية anti-foundatioalism هي وجهة النظر التي تقول إن المعرفة غير ممكنة إلا إن اتُخذت بعضُ الوحدات أساسًا محددًا للوحدات الأخرى. ويوجَّه اهتمام خاص إلى الثقة المدّعاة بالأسس المقترَحة وإلى العلاقة بين هذه الأسس وسائر المعرفة. (المترجم)

(٣) انظر مفهوم "العلم العادي" عند توماس كون في كتابه The structure of scientific Revolutions، ١٩٦٢، وقد ترجمه إلى العربية شوقي جلال بعنوان: "بنية الثورات العلمية". الكويت: عالم المعرفة (العدد ١٦٨)، جمادى الآخر ١٤١٣هـ/ ديسمبر ١٩٩٢م. (المترجم)

(٤) وهي التي تتعلق بالطرق التي تبحث في الكيفية التي ترتبط بها التمثيلات بالعالم أو بالأفراد الذين يمتلكون هذه التمثيلات والكيفية التي ترتبط بها لتكوّن أنظمة للاعتقادات والأحاسيس والتوجهات. (المترجم)

(٥) يرى بعض فلاسفة العلم أنه يبدو أن من الطبيعي التسليم بأنه سيكون للنظرية الجديدة دائمًا نوع من علاقة التماهي مع النظرية السابقة لها. ويسمي إرنست ناجل هذه العلاقة بـ"قوانين الجسرية" Bridghe laws. (المترجم)

(٦) ولا تتماشى تصورات "العلوم الخاصة" (كعلوم الأرض، وعلم الأحياء، وغير ذلك) مع شروط ديفيدسون؛ انظر (Fodor 1987).

(٧) ليس من الواضح إن كان كواين سيخلص إلى هذه النتيجة أم لا، وذلك لتمييزه بين الدليل "النفسي" والدليل "اللغوي". فهو يقبل، لتحديد حدود

العبارة، الدليل الأول دليلاً حقيقيًا لكنه لا يقبل الدليل الثاني؛ ويتضمن الدليل الأول بعض التجارب على الإزاحة الإدراكية للطقطقات؛ أما الدليل الثاني فيتضمن الاعتماد الإحالي، كما في المثالين (١) و(٢) فيما يلي. وهذا تمييزٌ غامض، خاصةً أن "الدليل اللغوي"، بناء على أسباب علمية طبيعية، أكثرُ وجاهة، هذا إن لم نتكلم عن حقيقة أنَّ المادة الأولية لا تأتي مصنفة بمثل هذه الطرق. وربما يسمح هذا التمييز، بغض النظر عما يعنيه، بمراجعة فكرة "التشيؤ" عنده، إلا أنه لا يسمح بمراجعة للغة فيما يبدو. انظر الفصل الثالث في هذا الكتاب عن هذا الأمر والمراجع ذات الصلة هناك.

(٨) للاطلاع على مناقشة أوسع، انظر التعليقات على عرض سيرل لوجهات النظر هذه في Chomsky 1990؛ كذلك وجهات نظر نيد بلوك وآخرين. ولم يُجب [سيرل] عن هذه الاعتراضات في إجابته هذه أو في كتابه الذي نشره بعد ذلك Searle 1992.

(٩) يعني "مبدأ الربط" connection principle أن هناك نوعًا من العلاقة الداخلية بين حالة ذات مضمون قصدي وكونها شعورية (إمكانًا، في الأقل). (المترجم)

(١٠) للاطلاع على نقاش أحدث انظر Quine 1990؛ وللاطلاع على نقاش أكثر توسعًا لوجه مبكر منها (ومماثل تقريبًا) انظر Chomsky 1987، والفصل الثالث هنا.

(١١) يرى كثير من الفلاسفة وعلماء "علم المعرفة" أن الفهم اليومي أو الفهم "الشعبي" للحالات الذهنية يكوِّن نظريةً عن الذهن. وتسمى هذه النظرية عمومًا بـ"علم النفس الشعبي" أو "علم النفس البديهي". (المترجم)



الفصل الخامس
اللغة موضوعًا طبيعيًّا

أريد أن أناقش هنا مقاربةً للذهن تأخذ اللغةَ والظواهر المماثلة لها على أنها عناصرُ للعالم الطبيعي، وينبغي أن نُدرس بمناهج البحث الاختباري المعهودة، وسأستخدم في هذه المناقشة المصطلحين "ذهن" و"ذهني" مجردَيْن من أي مُميِّز غيبي، فأنا أفهم المصطلحَ "ذهني" بالطريقة التي يُفهم بها مصطلح "كيميائي"، أو "بصرياتي"، أو "كهربائي". فنسمي بعضَ الظواهر والأحداث والعمليات والحالات المعيَّنة في الحديث العام "كيميائية" (إلخ)، من غير أن يوحي هذا بأي مميز غيبي. فنَستخدم هذه المصطلحات لانتقاء بعض مظاهر العالَم المعيَّنة محورًا للبحث. فنحن لا نسعى [بهذا] لتحديد "المعيار الصحيح للكيميائي"، أو "علامة الكهربائي"، أو "حدود البصرياتي". وسأستخدم مصطلح "ذهني" بالطريقة نفسها، وبما يشبه معناه في الاستخدام العادي، من غير أن يكون لهذا مقتضيات أعمق. ولا أعني بـ "ذهن" إلا المظاهرَ الذهنية للعالَم، من غير اهتمام خاص بتعيين الحدود تعيينًا صارمًا أو بمحاولة العثور على معيارٍ معين يختلف عما في الحالات الأخرى.

وسأستخدم مصطلحي "لساني" و"لغة" بالطريقة نفسها تقريبًا. فنحن نوجِّه اهتمامنا نحو بعض مظاهر العالم التي تَدخل تحت هذا العنوان العريض غير التقني، ثم نحاول فهمَها بشكل أفضل، وربما أمكن لنا أن نطوِّر – ونحن نطوِّر بالفعل – في أثناء قيامنا بذلك تصورًا يتماثل تقريبًا مع المفهوم غير التقني "اللغة". ثم نَفترض أن مثل هذه الموضوعات تنتمي إلى أشياء موجودة في العالم، إلى جانب الجزيئات المعقَّدة والمجالات الكهربائية ونظام الإبصار البشري، وغير ذلك.

ونسعى المقاربة العلمية الطبيعية لمظاهر العالَم اللسانيةِ والذهنية إلى صياغة نظريات تفسيرية معقولة، آخذةً ما نُقلاً إلى افتراضه في هذا المسعى

على أنه "حقيقي"، مع الأمل في التوحيد مع العلوم، الطبيعية "الصِّرف"، في نهاية الأمر: ونؤكد أنه التوحيد لا الاختزال بالضرورة. فالاختزال الكاسح نادرٌ في تاريخ العلوم. بل الشائع أنّ العلم الأكثر "أساسية" هو الذي كان يلزمه الخضوع لمراجعة جذرية ليحصُل التوحيد. وحالة الكيمياء والفيزياء مثال أخير لهذا: فقد وحّد تحليل بولنج Pauling للروابط الكيميائي هذين العلمين، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد أن جعلت الثورةُ الكَمِّية في الفيزياء هذه الخطوات ممكنة. ويمكن عدُّ توحيد أكثر علمِ الأحياء مع الكيمياء بعد ذلك بسنوات قليلة اختزالاً حقيقيًا، لكن ذلك ليس الغالب [في العلوم]، وليس له أية أهمية معرفية خاصة أو أية أهمية أخرى؛ إذ لم يكن "توسُّعُ" الفيزياء لتشمل ما كان يُعرف عن التكافؤ والجدول الدوري والأوزان الكيميائية، . . . إلخ أقلَّ صلاحًا ليكون شكلاً من أشكال التوحيد، وتَعزو نظرياتُ اللغة والذهن، في الحالة التي بين أيدينا، التي يبدو أنها مؤسَّسة أفضل من غيرها على أسس علمية طبيعية، إلى الذهن/الدماغ خصائص حوسبية من نوع مفهوم جدًا، وإن كنا لا نعرف ما يكفي لنفسِّر الكيفية التي يمكن بها أن يكون لبِنْية مركَّبة من خلايا خصائصُ كهذه. ويثير هذا مشكلةً من مشكلات التوحيد، لكنها من نوع مألوف.

ونحن لا نعرف الكيفيةَ التي ربما يسير بها التوحيدُ في نهاية الأمر في هذه الحالة، أو إن كنّا اكتشفنا المقولات الملائمة التي ينبغي توحيدها، أو حتى إن كانت هذه المسألةُ تقع في مدى إدراكنا. وليس هناك ما يبيح لنا أن نفترض ببساطة وجوب أن تُختزل الخصائصُ الذهنية إلى "خصائص للشبكة العصبية"، كما تقول إحدى المزاعم النمطية (انظر Patricia Churchland 1994). وكثيرًا ما نُرهن على أن ادعاءات مماثلة في مجالات أخرى زائفة، وليس لها أهمية علمية خاصة في هذه الحالة. وإذا فُهِمت دعوى الشبكات العصبية على أنها خطة بحثية وحسب، فذلك حسن؛ وسوف ننتظر ما سينتج عنها. أما إن قُصِد بها أكثر من هذا فستحدُث أسئلةٌ أكثر خطرًا.

أم فيما يخص المدى الذي يصل إليه الإدراك، فإذا كان البشر جزءًا من العالم الطبيعي، لا كائنات فوق طبيعية، فللذكاء البشري، إذن، مدى وحدود يحددها التصميم الأوّلي [للبشر]. فيمكن، لهذا، أن نتوقع أن بعض المسائل لن تقع في نطاق قدراتهم الإدراكية، مثلما أن الفئران لا تستطيع الجري عبر شبكات ذات خصائص عددية، لافتقارها إلى التصورات الملائمة. ويمكن أن نسمي مثل هذه المسائل "أحاجي عند البشر"، مثلما تثير بعضُ المسائل "أحاجي عند الفئران". ومن هذه الأحاجي أسئلةٌ يمكن أن نثيرها، وأسئلةٌ أخرى لا نعرف كيف نصوغها بشكل ملائم أبدا. ولا تعني هذه الحقائقُ البديهية وصْمَ البشر بـ"ضعف الذكاء". ذلك أنّا لا نحكم على الجنين البشري بـ"الضعف" لأن تعليماتِه الوراثية غنيةٌ إلى حدٍّ يكفي لمساعدته كي ينمو بشرا، وهو ما يمنع مساراتٍ أخرى للتطور. وسنسعد جميعا إنْ تحولتْ هذه المسائل من أحاجٍ لا نملك إلا أن نتأمّلها مبهورين، إلى مشكلات صعبة بدأنا للتوّ في فكِّ أسرارها"(Patricia Churchland 1994)[9]. وليس بيانُ التحولِ في أمور كانت مجالاً للاهتمام التقليدي أمرًا تافها، ويمكن أن نسأل إن كانت الآفاق ما تزال بعيدة كما كانت دائمًا، وربما لأسباب مغروسة بعمق في الإعداد الأحيائي البشري.

ويحاجُّ دانيل دينيت بأن فكرة "المحدودية المعرفية"، مع أنها "ملائمة مذهبيًا" (إلا أنها ليست قارة حطابيًا"، ذلك أن "تشومسكي وجيري فودر يمتدحان قدرة الدماغ البشري على تحليل اللانهائية الرسمية للجمل الصحيحة نحويًّ في لغة طبيعية ما، وربما فهمها من ثمّ"، ويشمل ذلك "تلك الجمل التي تعبّر أفضل تعبير عن الحلول لقضايا الإرادة الحرة أو الشعور"، التي زعم [دينيت] خطأً أنني حكمتُ بأنها "خارج حدود البحث" (Dennet 1991 10). وهذه حجةٌ رائعة حتى إن أمكن صياغة تلك الحلول باللغة البشرية ــ وهو ما سنطر البرهنة عليه، لا ادعاءه. ذلك، أولاً، أن التعبيرات اللغوية الطبيعية لا يمكن تحليلها غالبا، كما هو معروف، (لا لطولها فحسب، أو لتعقيدها بمعنى

ما مستقلٌ عن طبيعة الملكة اللغوية). ثانيًا، إنه ربما لا يمكن فهم هذه التعبيرات أبدًا حتى إن حُلِّلتْ وأُوِّلتْ؛ ومن السهل جدًّا إيراد أمثلة على ذلك.

ويُلقي تاريخُ العلوم المتقدّمة أضواء كاشفة على السعي نحو التوحيد حَدَ كبداية "الفلسفة الآلية" التي بلغت أوجَها في القرن السابع عشر: وهي الفكرةُ التي مفادها أنّ العالَمَ آلةٌ من نوع يستطيع صانعٌ ماهر أن يصنعه. وتعود جذورُ هذا التصور إلى الفهم البديهي، الذي يستنتج منه المسلمة الجذرية التي تقول إنه لا يمكن للأشياء أن تتفاعل إلا عبْر التَّماس المباشر. وقد حاجَّ رينيه ديكارت، كما هو معروف، بأن بعضَ مظاهرِ العالم المحيط - ومنها، أساسًا، الاستخدامُ العادي للغة - تقع وراء حدود الآلية. وقد افترض لتعليل هذه المظاهر مبدأً جديدًا؛ أي جوهرًا ثانيًا أساسُه التفكير، في الإطار النظري عنده. وبَرَزَت "مشكلةُ التوحيد" بصفتها سؤالاً عن التفاعل بين الجسد والذهن. وكانت هذه الثنائية العيبية بحثًا علميًّا طبيعيًا من حيث الجوهر، وتستعمل الأدلةَ الاختبارية في مقاربة الدعاوى الواقعية عن العالم - وكانت [هذه الثنائية] خاطئة، لكن هذا هو ما يحدُث دائما.

وقد انهارت النظريةُ الديكارتية بعد ذلك بقليل، حين بيّن إسحاق نيوتن أن حركة الأرض والكواكب السيارة تقع وراء حدود الفلسفة الآلية - أي وراء ما كان يُفهم بأنه جسد، أو مادة. أما ما بقي [بعد ذلك] فكان صورةً للعالم تتصف بأنها "مضادة للمادية"، وتعتمد اعتمادًا كبيرًا على القوى الروحية"، كما تقول مارجريت جاكوب (M. Jacob 1988. 97).

وقد شَجب أبرزُ العلماء آنذاك بقوة لجوءَ نيوتن إلى فكرة الجاذبية، ويشير ديكسترهويز إلى أن "رواد الفلسفة الآلية الحقيقية نظروا إلى نظرية الجاذبية كأنها (بعبارات بويل Boyle وهويجينز Huygens) انتكاسةٌ إلى تصورات القرون الوسطى التي كان يُظن أنها انقرضت، وتشبه أن تكون نوعًا من الخيانة لمشروعية العلم الطبيعي" (E J Dijksterhuis 1986: 479). كما رأوا أنَّ فكرة نيوتن "القوة الغامضة" كانت ردّةً إلى عصور الظلام التي

"استنفد العلماءُ أنفسهم منها"، وإلى "علم الفيزياء المدرسي الذي كان يتـصف بالنوعيات والقوى"، وإلى "المبادئ التفسيرية الروحية"، وما أشبه ذلـك مـن المبادئ، التي كانت تجيز التفاعل من غير "تماس مباشر". وكان ذلك يشبه أن "نيوتن قال إن الشمس تولِّد في الكواكب نوعيةً تجعلها قادرة علـى وصـف الدوران"، وقد أدان لايبنز وهويجنز، في الرسائل المتبادلة بينهما، نيـوتن لتخليه عن "المبادئ الآلية" الراسخة وردّته إلى بعض الأفكار الغامضة كـ "التعاطف والتنافر"، و"النوعيات الأخرى غير المادية التي لا يمكن تفسيرها".

ويبدو كأن نيوتن كان يتفق مع هؤلاء. وكان سياق تعليقه المشهور: "إنـي لا أوطِّر الفرضيات" تعبيرًا عن انزعاجه من عجْزه عن "تحديد سبب هذه القوة" للجاذبية، التي تبعُد كثيرًا عن "المسبِّبات الآلية"، وقد وجد أنه لا مفر مـن أن يوطِّن نفسه على النتيجة التي مفادها "أن الجاذبية موجودة فعلا"؛ فقوانينهـا تُفسِّر "حركات الأجرام السماوية كلها، وحركات بحارنا" ـ وإنْ عـدَّ مبـدأَ [الجاذبية] الذي كان قد افترَضه "سخيفا". واستمر نيوتن حتى أيامه الأخيرة، يسعى إلى البحث عن "الروح العميقة التي تتخلل الأجساد المادية كلها وتكمُن فيها"، وهي التي ربما تفسِّر التفاعل، والتجاذب والتنافر الكهربـائيين، وأثـرَ الضوء، والإحساسَ والطريقة التي "تتحرك بها أجساد الحيوانات تحت توجيه الإرادة"، وقد استمرت بعض الجهود المماثلة قرونًا بعد ذلك.

وتوحي هذه الانشغالات، في فجر العلم الحديث، بطعْم النقاش المعاصر لـ "مشكلة الذهن ـ الجسد". كما تُثير أسئلةً عن ماهية اتصالها ذات الـصلة هنا. فيلاحظ توماس ناجل أنَّ "المحاولات المتعددة لإنجاز هذه المهمة التـي تبدو مستحيلة [أي اختزال الذهن إلى المادة] والحججَ التي يُقصد بها تبيـين إخفاق هذه المحاولات، تشكِّل تاريخَ فلسفة الذهن في الخمسين سنة الماضية". وتتمثل المهمة المستحيلة في "إكمال الصورة المادية للعالَم" بترجمة تحليلات "الظواهر الذهنية" في ضوء "وصفٍ إما أن يكون فيزيائيًّا بصورة صريحة أو يستخدم مصطلحات لا يمكن أن تنطبق إلا على ما يكون "فيزيائيًّا خالصا"، أو

ما يمكن أن يوفِّر "شروطًا للتقرير" انطلاقًا من "أسس يمكن ملاحظتها خارجيًا" (Nagel 1993: 99). ويناقش تايلر بيرج، في مراجعة شاملة لقرن من فلسفة الذهن، نشأة "المقاربة الطبيعية" ("المادية"، "الفيزيائية")، في الستينيات بوصفها "إحدى النزعات المحافظة القليلة في الفلسفة الأمريكية" (Burge 1992: 32، وانظر الفصل الرابع في هذا الكتاب). وهي الفكرة التي مفادها أنه ليس هناك حالات ذهنية وراء الوحدات الفيزيائية العادية، التي يمكن تعيينها في العلوم الفيزيائية أو الوحدات التي يمكن أن تعدها البديهية "فيزيائية" (Burge 1992: 31؛ وانظر الفصل الرابع في هذا الكتاب).

وتفترض مثلُ هذه المناقشات، خلافًا لنيوتن ومعاصريه، أن نيوتن ظلَّ في إطار "الصورة المادية للعالم"؛ وربما لا يكون ذلك صحيحًا إلا إن فهمنا "الصورة المادية للعالم" بأنها أي شيء يمكن أن يصوغه العلم، مهما كانت درجةُ مفارقته "للمسببات الآلية". وتفترض هذه المناقشات، بتعبير آخر، فهمًا مسبقًا لما يكون فيزيائيًا أو ماديًا، ولماهية الوحدات الفيزيائية. وكان لهذه المصطلحات شيء من المعنى في إطار الفلسفة الآلية، لكنْ ما الذي تعنيه في عالم مؤسَّس على فكرة "القوى الغامضة" عند نيوتن، أو على بعض الأفكار الأكثر غموضًا لمجالات الطاقة، والفضاء المنحني، والأوتار اللانهائية ذات البعد الواحد في فضاء ذي عشرة أبعاد، أو أي شيء يمكن أن يبتدعه العلمُ غدًا؟ وفي غياب أي تصوُّر لـ"المادة" أو "الجسد" أو "ما يكون فيزيائيًا"، لن يكون لدينا طريقةٌ متماسكة لصياغة القضايا الخاصة بـ "مشكلة الذهن ــ الجسد". وكانت هذه مشكلات حقيقية في العلم إبان ازدهار الفلسفة الآلية. لكنْ العلم يفترض، منذ أُفول الفلسفة الآلية، أي شيء يجد له مكانًا في نظرية تفسيرية معقولة، بغض النظر عن درجة مخالفته للبديهة. ولا يمكن أن تثار مثل هذا الإشكالات عن مجال المظاهر الذهنية للعالم خاصة، دون سواها من مظاهر العالم، إلا انطلاقًا من بعض المسلمات الثنائية غير المسوَّغة

ثم رَسخت النزعةُ المضادة للمادية بصورتها عند نيوتن وأتباعه

سريعا؛ لذلك كانت انتماءات ديديرو Diderot للنزعة المادية، في منتصف القرن الثامن عشر، السبب، فيما يبدو، لرفض الجمعية الملكية القاطع قبوله عضوا فيها. كما كتب هيوم أنه "يبدو كأن نيوتن كشف عن بعض غوامض الطبيعة"، لكنه "بيّن في الوقت نفسه عدم نضج الفلسفة الآلية؛ وبهذا أعاد أسرار [الطبيعة] الجوهرية إلى الغموض الذي كانت تقبع فيه منذ الأزل وستظل فيه إلى الأبد" (Hume 1841 vol. 6: 341؛ نقلاً عن Gay 1977: 130).

ويتعرض القولُ بإمكان بقاء هذه الأسرار غامضة للإنكار أحيانا. فقد كان إسحاق بيكمان، الذي تصفه جاكوب بأنه "أولُ فيلسوف آلي للثورة العلمية" (M. Jacob 1988: 52)، واثقًا بأن "الرب خلق الطبيعة كلها بالشكل الذي هي عليه لكي يستطيع فهمًا. . . النفاذ المفصّل لأسرار كل ما في الأرض" (M. Jacob 1988: 52-53). وتُقتَرح بعضُ الدعاوى الشبيهة في الوقت المعاصر، وبقدر مماثل من الثقة، ويقترحها على الأخص مَن يَصفون أنفسهم بأنهم علماء طبيعة راسخون، وهم الذين يُعيدون صياغة معادلة بيكمان عادةً مستبدلين "الانتقاء الطبيعي" بـ"الرب" ــ وبقدرٍ أقل من التسويغ، ذلك أن لعبارة "الروح في الآلة" تعريفا أفضل في هذه الحالة، ومن هنا فمن السهل أن نرى سبب إخفاق هذه الحجج.

ومع أن النزعة المضادة للمادية عند نيوتن صارت بديهيةً علمية، إلا أن الإشكالات التي أثارها لم تُهجَر حقًا، وكان أحد أوجه التعبير عن هذه النزعة الاعتقادُ بأن الطبيعة لا يمكن فهمها، ويرى نوع آخر منها أنه يجب أن تؤوَّل الافتراضاتُ النظرية تأويلاً إجرائيًا فقط. وكان لافوازييه يعتقد أن "عدد العناصر وطبيعتها مشكلةٌ لا يمكن حلها، فهي تقبل عددًا غير نهائي من الحلول التي ربما لا يتوافق أي منها مع الطبيعة"؛ و"يبدو أنه من المحتمل جدًا أننا لا نعرفُ أي شيء. . . عن الذرات غير القابلة للانقسام التي تتكون منها المادة" (Lavoisier؛ نقلاً عن Brock 1992: 129)، ولن يكون بإمكاننا

ذلك، كما يعتقد. ووصف لودفيج بولتزمان نظريته الجزيئية للغازات بأنها لا تزيد عن كونها تشبيهًا مُريحا، ورأى يوليس بوينكاريه أنه ليس لدينا سبب للاختيار بين النظريات الآلية الأثيرية والنظريات الكهربائية المغناطيسية للضوء وأننا نقبل بالنظرية الجزيئية للغازات بسبب معرفتنا بلعبة البليارد (Brock 1992: 165)، ويلاحظ وليم بروك أنه كان يُنظر إلى الذرات التي يتحدث عنها الكيميائي على أنها "وحدات نظرية غيبية"؛ وإذا أُوِّلت إجرائيًا، فإنها تقدِّم "أساسًا تصوريًّا لإعطاء أوزانٍ أولية تقريبية ولتحديد المعادلات الجزيئية" (ص ١٧١)، كما تميِّز هذه الوسائل الأداتية عن "النزعة الذّرية الفيزيائية الخلافية جدًّا، وهي التي تقدِّم بعضَ المزاعم عن الطبيعة الآلية الحقيقية للعناصر الجوهرية كلها"، ولم يتحقق التوحيد إلا نتيجة لبعض التغييرات الجوهرية في "النزعة الذرية الفيزيائية"، أي: نموذج بور، والنظرية الكمية، واكتشافات بولنج (انظر Chomsky 1986: 251-252، نقلاً عن Heilbron). وقد تطلَّب التوحيدُ في نهاية الأمر على ما كان يبدو أنه فجوة لا يمكن ردمها قبل بلانك: "لقد كانت المادة التي يتعامل معها الكيميائي متمايزة وغير متواصلة، أما الطاقة عند عالم الفيزياء فكانت متواصلة، وكانت تتمثل في عالمٍ رياضي غانم من الطاقة والموجات الكهربائية المغناطيسية. . ." (Brock 1992: 489).

وكان يُنظر، في منتصف القرن التاسع عشر، إلى المعادلات التي تحلِّل الجزيئاتِ المعقدة على أنها "مجرد رموز تصنيفية تُلخِّص المسار الملاحظ لردِّ فعلٍ ما"؛ وكان الرأي السائدُ أنه "لا يمكن إيجاد حلٍّ للطبيعة الخالصة للتجميعاتِ الجزيئية"، وأن التنظيمات الفعلية للذرات داخلَ الجزيء، إن كانت تعني شيئًا أَلبتَّة، "يجب ألا تُقرأ" في المعادلات (Brock 1992: 254). وقد عبَّر كيكولي Kekulé، الذي مهَّدت بنيويته الكيميائية الطريق لعملية التوحيد في نهاية الأمر، عن شكِّه في "إمكان اكتشاف المكوِّنات الصرْفة للجزيئات العضوية أبدًا" (ص ٢٥٢)؛ وأنه ليس للنماذج التي اقترحها للتكافؤ

وتحليله له إلا تأويل أداتي وحسب. ورفض كيكولي، حتى سبعينيات القرن التاسع عشر، فكرة كون "المعادلات المنهجية. . . تمثل حقًا التنظيمات الحقيقية لذرات جزيء ما". ولم يكن يُسمح للمدارس الفرنسية حتى سنة ١٨٨٦م – بتدريس النظرية الذرية، لأنها كانت "مجرد فرضية"، بحسب قرار وزير التعليم، الكيميائي المشهور بيرتيلو (ص ٣٦٤).

ويلاحظ بروك أن أبرز العلماء كانوا يَسخرون، بعد ذلك بأربعين سنة، من اقتراح جي. ن. لويس الذي مفاده أن "النويّات الذرية يمكن أن تتداخل، حيث "يمكن لألكترون واحد أن ينتمي إلى نواتي ذرتين مختلفتين" وعدّوا هذا اقتراحًا تصوريًّا ساذجا ــ مع أنه الاقتراح الذي صار في فترة لاحقة "مبدأ رئيسًا في النظرية الآلية الكمّية الجديدة" (Brock 1992: 476)، وكان أحد الاعتراضات أن هذا "يماثل القول بأن زوجين يمتلك كل منهما ثمانية دولارات، لكونهما يمتلكان دولارين في حساب مشترك، ويمتلك كلّ واحد منهما ستةَ دولارات في حساب ثان خاص به" (Brock 1992: 477، نقلاً عن Kasimir Fajans)؛ وكان ذلك كأن الألكترونات "تقتعد صناديقَ بضائع عند كل ركن، وهي في حال تأهّب لتُصافح . . . الألكترونات الأخرى في ذرات أخرى"، كما علّق ساخرًا أحدُ أعضاء هيئة التدريس البارزين في معهد فارادي (Brock1992: 477، نقلاً عن R. A. Mullikan). وقد سفّه ثيودور ريتشاردز، وهو أول كيميائي أمريكي يفوز بجائزة نوبل، الحديث عن الطبيعة الحقيقية للروابط الكيميائية ووصفه بأنه "ثرثرة" غيبية. إذ لا يعدو هذا أن يكون "طريقة فجّة لتمثيل بعض الحقائق المعروفة عن التفاعلات الكيميائية. إنه هي طريقةٌ للتمثيل وحسب" (Brock 1992: 466، نقلاً عن ثيودور ريتشاردز). إلا أن رفضَ لويس وآخرين لهذا التشكّك مهّد الطريق إلى التوحيد في نهاية الأمر.

وليس صعبًا العثورُ على نظائر معاصرة في نقاش مشكلة الجسد — الذهن، بغض النظر عما يُفترض أنها تعنيه. وهناك، كما أظن، أشياءُ كثيرة

يمكن أن نتعلَّمها من تاريخ العلوم منذ أن تخلَّت عن الأسس الديهية، وهو التخلي الذي يُصحب دائمًا بقدر من عدم الارتياح لانتهاجها هذا النهج. ويجب أن يكون بإمكاننا الآن القبول بأننا لا نستطيع أن نفعل أكثرَ من السعي نحو "أفضل النظريات" من غير أن يكون لدينا معيار مستقل للتقويم إلا الإسهامُ في الفهم، والأملُ بأن يكون باستطاعتنا إنجاز التوحيد لكن من غير مذهبية مسبقة عن الكيفية التي يمكن بها أن يوصل إلى هذه النظريات أو إن كان من الممكن إنجازها. وكما صاغ مايكل فريدمان هذا الموقف؛ فلا يمكن فهم "فلاسفة التقاليد [العلمية] الحديثة"، منذ ديكارت، بشكل أفضل كأنهم كانوا يحاولون الوقوف خارج العلم الجديد ليبيِّنوا، من زاوية غامضة خارج العلم نفسه، أن معرفتنا العلمية "تعكس" بشكلٍ ما واقعية خارجية مستقلة. فهُم يبدأون، بدلاً من ذلك، من "حقيقة" المعرفة العلمية الحديثة بوصفها نقطة محدَّدة، فليست مشكلتُهم أن يسوِّغوا هذه المعرفة من زاوية "أعلى" معينة بقدر ما تتمثل في قدرتهم على التعبير عن التصورات "الفلسفية" الجديدة التي يفرضها العلمُ الجديد علينا" (Freidman 1993, 48). وكما يعبِّر كانط عن ذلك، فليست الرياضيات وعلم الطبيعة بحاجة إلى البحث الفلسفي لذاتيهما، "بل من أجل علم آخر، هو: المقاربة الغيبية" (Kant 1783, section 40).

فالعلوم الطبيعية، من وجهة النظر هذه، "فلسفةٌ أولى" ــ سواء أكان الموضوع حركة الكواكب، أو نمو كائن عضوي، أو اللغة والذهن، وهذه الفكرة مألوفة في الفيزياء الآن؛ ويندر أن تجد فيلسوفًا [الآن] يعترض على مبادئها الغريبة وعلى مناقضتها للحس ومعارضتها للتفكير السليم فيراها من ثَمّ غير ممكنة. ومع هذا يُنظر إلى وجهة النظر هذه عمومًا على أنها لا تنطبق على علم الإدراك، واللسانيات على الأخص، فهناك حد فاصلٌ ما في مكان متوسط [بين تلك العلوم وعلم الإدراك واللسانيات]، فيُمنَع العلمُ نفسه، داخل هذا الحدود، ومن هنا يسعى الناقدُ المحلِّل ليَتعلَّم شيئًا عن معايير المعقولية والتسويغ من خلال دراسته للنجاح الذي يحققه العلم، أما وراء هذا

الحد. فكل شيء قابل للتغيّر؛ فيطبّق الناقدُ بعض المعايير المستقلة ليُصدر حكمه على النظريات المقترحة والوحدات التي تفترضها، وليس هذا، فيما يبدو، إلا نوعاً من "الثنائية المنهجية"، وهي أكثر غرابة من الثنائية الغيبية التقليدية التي كانت فرضية علمية، ومقاربة علمية طبيعية روحًا. وإذا ما تخلينا عن هذا الموقف الثنائي فإننا نشتغل بالبحث إلى حيث يقودنا.

كما ينبغي أن يكون بإمكاننا الآن أن نتبنى موقفًا نحو مشكلة الذهن — الجسد صاغه جوزيف بريستلي، مثلاً، بعد أنْ فوّض نيوتن النزعة المادية و"الفلسفة الآلية"، إذ استنتج "أنه ليس الأمرُ أنّ كلَّ شيء يُختزل إلى المادة، بل الأمر أنّ نوع المادة الذي قامت عليه وجهةُ النظر التي تقول بالجوهرين غير موجود"، وأنه "بالتصوُر المعدّل للمادة، ليس هناك مكانٌ للطرق الأكثر تقليدية لإثارة السؤال عن طبيعة التفكير وعلاقاته بالدماغ، فيجب أن نفكّر في نظام أحيوني معقّد منظّم بخصائص ربما يُصنّفها المذهبُ التقليدي ذهنية "و" فيزيائية" (كما يصوغ جون يولتن قولَ بريستلي John Yolton 1983. 114).

وتمتلك المادة، بتعبير بريستلي نفسه، "قوتي الجذب والنبذ" اللتين تعملان على "مسافة حقيقية وبُعْد يمكن تمييزه عموما عما نسميه الجسد نفسه"، وهما خصيصتان "أساسيتان خالصتان للطبيعة الحقّة" للمادة (Yolton 1983: 111). وبهذا يتغلّب على الاعتقاد الساذج بأن للأجساد (إن نحينا الذرات جانبا) صلابةً وتماسكا ذاتيين، ونتخلص من الحجج التي تقوم على "النظرية الساذجة" و"الفهم الساذج"، كما في السعي إلى البحث في "ياء النسبة" المحال إليها في عبارة "جسدي". ومع الاكتشافات النيوتنية "ينبغي أن يرتفع مقام [المادة] لدينا، ليقترب من طبيعة الكائنات الروحية غير المادية"، بعد أن تتخلص من خزي الصلابة أو جمودها أو كسلها" (ص ١١٣). ولم تعد "الملاءمة بين المادة والإحساس والفكر" بأقل من الملاءمة بينها وبين الجذب والنبذ كما أن قوى الإحساس أو الإدراك والتفكير" خصائصُ لـ "نسق منظّم محدّد للمادة"؛ والخصائصُ التي "تسمى ذهنية" "نتائجُ (سواء أكانت

ضرورية أم لا) لبنية عضوية مخصوصة كبنية الدماغ". ولا يقلُّ الاعتقاد "بأن قوى الإحساس والفكر نتيجةٌ لازمة لتنظيمٍ ما، في معقوليته، عن الاعتقاد بأن الصوت نتيجة لازمة لحركة الهواء"، فالتفكير عند البشر "خصيصة للنظام العصبي، أو للدماغ، على الأدق". وقد وصل لو ميتري إلى نتائج مشابهة قبل ذلك بجيل، وإنْ على أسس مختلفة.

ويمكن القولُ، بقدر أكبر من الحذر، إن "الناس" هم الذين يفكِّرون في الظروف الملائمة، لا أدمغتهم، التي لا تفكِّر، وإنْ كانت أدمغتهم توفِّر آليات للتفكير، فيمكن أن أقوم بعملية قسمةٍ رياضية طويلة باستخدام إجراء تعلمته في المدرسة، لكن دماغي لا يقوم بعملية قسمة طويلة حتى إن كان ينفِّذ هذا الإجراء، وبالمثل، فأنا لا أنفِّذ عمليةَ قسمةٍ طويلة إن كنت أنفِّذ بطريقة آلية تعليماتٍ تؤول بأنها هي الخوارزم نفسه الذي أستعمله، مستجيبًا لبعض الدخول في شفرةٍ ما في ما يشبه "الغرفة الحسابية" عند سيرل، ولا يترتب على هذا شيء عن تنفيذ دماغي خوارزمًا، في هذه الحالة أو في حالة الترجمة والفهم، فيفهم "الناس" في بعض الأوضاع لغةً ما؛ لكن دماغي لا يقوم بفهم الإنجليزية أكثر من كون قدمي تقومان بالمشي، وهي قفزةٌ عظيمة بعيدًا عن أنواع العزو القصدي البديهي للناس، باتجاه مثل هذا العزو لأجزاء محدَّدة في الناس أو الأشياء الأخرى. ويقفز الباحثون هذه القفزة بسهولة بالغة، وهو ما أدى إلى نقاش واسع يبدو أنه غير مفيد عن أسئلة مزعومة تتصل بما إن كان من الممكن للآلات أن تفكِّر، ومنها مثلاً: "كيف يمكن أن ندافع "اختباريًّا" عن الزعم بأن شيئًا (غريبًا) يلعب الشطرنج" (Haugeland 1979)، أو نحدِّد إن كان يمكن لأداة أو خوارزم ترجمة اللغة الصينية، أو تناولَ شيء، أو تنفيذ عمليةِ قتل، أو اعتقاد أن السماء ستمطر. وتعود جذور كثير من هذه النقاشات إلى بحث [العالم البريطاني المعاصر] آلين تيرنج الكلاسيكي الذي اقترح فيه اختبارَ تيرنج لذكاء الآلة، لكن هذه النقاشات تخفق في التنبُّه إلى ملاحظته التي مفادها أن "السؤال الأساس، وهو "هل يمكن

للآلات أن تفكر؟ ليس له – كما أعتقد – أي نصيب من المعنى يجعله يستحق النقاش" (Turing 1950: 442): فهو ليس سؤالاً عن حقيقة، بل أمراً متروكاً لتقرير إن كان من الممكن أن نتبنى استعمالاً مجازيًّا معيّنًا، كما في قولنا (بالإنجليزية) إن الطائرات تطير أما المنتيات فلا ـ أما في المركبات العصابية، فتختلف الاختيارات. وبالمثل، فالغواصات تبحر لكنها لا تسبح، ولا يمكن أن يكون هناك نقاش ذو معنى عن مثل هذه المواضيع، أو عن ذكاء الآلة، بتنوعاتها الكثيرة المألوفة.

وربما كان مفيدًا أن نقارن النقاش المعاصر بالنقاش في القرنين السابع عشر والثامن عشر عن بعض الموضوعات المشابهة؛ فقد كان كثير من الناس - حينذاك - مأخوذين كذلك بقدرات الأدوات المصنوعة، وكانوا يتناقشون عن إن كان البشر ليسوا إلا أدوات تتسم بتعقيد أكبر وتركيب مختلف. لكن ذلك النقاش كان بحثًا علميًّا طبيعيًّا من حيث طبيعته، ويتصل بخصائص لم تُدخل في إطار الفلسفة الآلية، كما يبدو. فقد بيّن ديكارت وأتباعه، خاصة جيرود دي كورديموي، مركّزين اهتمامهم على استخدام اللغة، الخطوط العامة للاستقصاءات الاختبارية عن "العقول الأخرى" مبيّنين أنه إن استطاع شيء ما المرورَ بأكثر التجارب صعوبةً مما أستطيع صوغه لاختبار إنْ كان [هذا الشيء] يعبّر عن أفكار جديدة أو يؤولّها مثلي، فسيكون "من غير المعقول" أن أشك في أن له ذهنًا كذهني، ولا يبدو هذا أن يكون طريقة علمية مألوفة تماثل اختبار عبّاد الشمس لقياس الحموضة. وقد نشطوا في العمل في مشروع التشابه مع الآلة، لكنهم فهموه على أنه طريق للكشف عن طبيعة العالم. ولم يكن جاك دي فوكانسون، وكان أشهر الأتوماتيين، يقصد خداع مشاهديه ليحملهم على الاعتقاد بأن البطة الآلية التي صنعها كانت تهضم الطعام، بل كان يسعى لأن يتعلّم شيئًا عن الأشياء الحية بصياغة نماذج لها، كما هو المعهود في العلوم، ويتضاد النقاش المعاصر مع التقاليد [العلمية القديمة] بصورة ليست في صالحه إلى حد كبير، كما يبدو

Jonathan Marshall 1989؛ وانظر Chomsky 1993a؛ وللمزيد من التعليقات ومناقشة أوسع، انظر Chomsky 1966).

وتصحُّ اعتباراتٌ مماثلة عن المصطلحات القصْدية التي تُستخدم عادة في وصف ما يحدث في العالم. فنحن نقول إن المذنَّب يتوجه نحو الأرض، ويرتفع الصاروخ نحو القمر، وتتجه الزهرة نحو الضوء، وتطير النحلة نحو الزهرة، ويتناول الشمبانزي ثمرة جوز الهند، ويمشي جون إلى مكتبه. وربما تستطيع نظريةٌ علمية طبيعية في المستقبل قولَ شيء عن الاستخدام [اللغوي] المألوف والحالات التي تسعى إلى تناولها، معًا، وهذان موضوعان مختلفان كثيرا. ولن تكون أي من المقاربتين محدودةً بـ "اللغة الساذجة والفهوم الساذجة"، مثلما أننا لا نتوقع أنّ تتناول نظريةٌ عن الإبصار رؤى كلينتون عن الأسواق العالمية، أو تتناول نظريةٌ عن اللغة حقيقةَ أنّ الصينية لغةٌ لمدينة بكين وهونج كونج، أما اللغة الرومانثية فليست لغةَ ليوحارست وريو دي جانيرو ــ نتيجة لبعض العوامل كاستقرار الإمبراطوريات وما أشبه ذلك.

وربما يكون مضلِّلاً القولُ بأننا نتخلى عن "نظريات" أنَّ المذنَّب يتوجه نحو الأرض، وأن الشمس تغرب وأن السماء تُظلم، وأن الموجة تضرب الشاطئ ثم تتراجع، وأن الريح تموت والموجات تختفي، وأن ناسًا يتكلمون الصينية لا الرومانثية، إلخ، وأننا سنستبدل بها نظريات أفضل. ويسير البحث عن الفهم النظري، بدلاً من ذلك، متَّبعًا طرقه الخاصة، ويقود إلى صورة للعالم تختلف اختلافًا كليًا، وهي صورة لا تؤكد صحة طرقنا العادية في الكلام والتفكير أو تقضي عليها. ويمكن أن نُعزّز هذه الطرق، ونعدّلها ونُصحِّحها من نواح عدة، مع أن العلم قلما يكون هاديًا في المجالات المهمة للبشر، والبحث العلمي الطبيعي مشروع بشري مخصوص يسعى للوصول إلى نوع خاص من الفهم، يمكن أن يحصّله البشرُ في مجالات محدودة إنْ أمكن تبسيط المشكلات بشكل كافٍ، ونحن نعيش حيواتنا، في خلال ذلك، ونواجه بأفضل

طريقة تستطيعها مشكلات يختلف بعضها عن بعض اختلافًا جوهريًا، وتتصف بأنها غنية جدًا في طابعها حتى إنها لتحدُّ من أملنا في القدرة على اكتشاف مبادئ تفسيرية لها على أي عمق، إن كانت مثل هذه المبادئ موجودة ابتداء (للاطلاع على نتائج مماثلة تقريبًا انطلاقًا من أسس مختلفة، انظر Baker 1988 وتعليقات Charles Chastain).

ولا تبدو قناعة بريستلي الأساسية وغيره من العلماء البارزين في القرن الثامن عشر موضعًا لخلاف؛ فالتفكير واللغة خصيصتان لمادة منظَّمة — وهي في هذه الحالة، غالبًا، الدماغ، لا الكُلْية أو القَدَم. وليس من الواضح السببُ الذي يوجب بعث هذه النتيجة بعد قرون كأنها اقتراح جريء جديد — فهي "الادعاء الجريء بأن الظواهر الذهنية طبيعيةٌ بصورة خالصة وتسببها النشاطاتُ العصبية الفسيولوجية للدماغ" (Patricia Churchland 1994)، أو فرضيةُ "أنّ قدرات الذهن البشري قدراتٌ للدماغ البشري حقيقةً" (Paul Churchland 1994)؛ أو أن "الشعور خصيصةٌ عليا للدماغ أو خصيصة ناشئة عنه"، "وتنتمي إلى النظام الأحيائي الطبيعي . . . كانتماء التركيب الضوئي أو الهضم أو الانقسام الفتيلي له"، كما في صياغة جون سيرل الأخيرة (John Searle 1992: 90)، وهي التي وصفها ناجل (Nagel 1993) بأنها "القلب المعيبي" لـ"فرضية جذرية" ربما "تمثّل إضافةً كبرى للإجابات المحتملة عن مشكلة الذهن — الجسد" إن ثبتت بشكل ملائم (وهو ما يراه غير محتمل)، ويَخرج علينا كلَّ عامٍ أو عامَين كتابٌ يؤلِّفه عالِمٌ بارز يتضمن "نتيجةً محيِّرة" أو "فرضيةً باهرة" تقول إن التفكير عند البشر "خصيصة للنظام العصبي، أو للدماغ بشكل أصح"، وأنه "النتيجةُ الضرورية لتنظيم معيَّن" للمادة، كما صاغ ذلك بريستلي منذ أمد بعيد، بطرق تبدو قريبة من البديهة — وهي غير مفيدة بشكل يماثل عدم فائدة البداهة عادة، ذلك أن علوم الدماغ، على الرغم من أوجه التقدم المهمة، ما تزال بعيدةً جدًا عن ردم الهوة إلى المشكلات التي يثيرها التفكيرُ واللغة، بل حتى إلى ما نفهمه فهمًا تقريبيًا عن هذه الموضوعات.

ونواجه هنا مشكلات مألوفة من مشكلات التوحيد. فـ "اختلاف الروابط العصبية ليس متمايزًا أو ثنائي القيمة بل مستمر، ومفصل تفصيلاً دقيقًا جدًا، وواسع"، كما يقول جيرالد إيدلمان (Edelman 1992: 28)، مستنتجًا من ذلك أنه يجب أن تكون النظريات الحوسبية أو الترابطية للذهن خاطئة بسبب طبيعتها التمايزية، لكن هذا ليس أكثر معقولية من النتيجة التي كانت تقضي، قبل قرن، بأنه يجب أن تكون الكيمياء خاطئة لأنه لا يمكن توحيدها مع ما نعرف الآن أنه كان علم فيزياء فقيرًا جدًا؛ خاصة "أن المادة التي يتعامل معها الكيميائي متمايزة وغير مستمرة، أما الطاقة عند عالم الفيزياء مستمرة" (Edelman 1992: 27)[٢]. وهذا الفارق حقيقي إلى حد بعيد، لكنه ليس "أزمة" لعلم الإدراك، كما يرى إيدلمان، بل مشكلة من مشكلات التوحيد، التي لا يمكن أن نقول عنها شيئًا مؤكدًا.

وليس هناك مشكلة من حيث المبدأ في أن نصوغ أنظمة تحوّل الدُّخول المستمرة إلى خروج متمايزة محدّدة جدًا، ومن هذه طابَعُ التفاعل العصبي الذي يتصف إما "بالوجود أو العدم"، والشاهد الآخر ما بيّنته دراسة حديثة تستخدم "نموذج حاسوب ديناميكي حراري لتبيّن أنه يمكن أن ينشأ اطرادٌ عظيم في موضع سمة دقيقة جدًا، كالتغيُّر من ست طبقات إلى أربع، من عدم استمرار ضئيل في دخول [جمع "دخْل"] التَّجنيب الجيني في أثناء النمو"، وهو "خلخلة ضئيلة" "تؤثِّر تأثيرًا بيِّنًا على التنظيم العام لـ . . . بنية كبيرة"، وهذا واحد من أمثلة كثيرة، كما يلحظ المؤلف (Stryker 1994: 1244). وبغض النظر عن الوضع الاختياري لبعض الاقتراحات المعينة، فلم يبيِّن أحدٌ إلى الآن أن مشكلات التوحيد في النظريات المتمايزة (الحوسبية أو الترابطية) والنظريات الخلَوية مختلفةٌ نوعًا عن النظريات الأخرى التي ظهرت في مسار العلم.

ويتمثل الوضع الحالي في أن لدينا الآن نظريات جيدة ومتطوِّرة عن بعض مظاهر اللغة والذهن، لكن ليس لدينا إلا أمشاج من الأفكار عن العلاقة

بين أي منها والدماغ. لنأخذ مثالاً محددًا. فنحن نفهم الآن فهمًا جيدًا إلى درجة بعيدة، في إطار النظريات الحوسبية عن الملكة اللغوية للدماغ، الفروق بين أنواع من "الشذوذ" ـــ أي الخروج عن مبدأ عام أو آخر من مبادئ الملكة اللغوية. فقد اكتشفت الأبحاث في مجال النشاط الكهربائي للدماغ التي أُنجزت مؤخرًا بعض أنواع الترابط بين عدد من فصائل الشذوذ هذه، ووجدت نوعًا مختلفًا من الاستجابة العضلية الكهربائية للمخالفات التركيبية في مقابل المخالفات الدلالية (Neville et al. 1991; Hagoort et al. 1993; Hagoort and Brown 1994). ومع ذلك، فتظل هذه النتائج شيئًا لافتًا للنظر وحسب؛ لأنه لا توجد نظرية ملائمة عن النشاط الكهربائي للدماغ ـــ أي ليس هناك سببٌ معروف يلزم بوجود هذه النتائج، بدلاً من نتائج أخرى. أما النظريات الحوسبية، بالمقابل، فمؤسَّسةٌ بشكل أكثر صلابة من وجهة نظر المقاربة العلمية الطبيعية؛ لذلك يقع تحليلُ الشذوذ، على الأخص، في إطارِ مصفوفةٍ تفسيرية ذات مدى أوسع.

وتسعى أية مقاربة طبيعية للغة والذهن إلى تحسين كلِّ مقاربة، مع الأمل في الوصول إلى توحيدٍ أكثرَ دلالة. ومن الشائع الافتراضُ بأن هناك أمرًا مشكلاً على درجة عميقة في النظرية المؤسَّسة تأسيسًا أقوى على أسس علمية طبيعية، وهي "النظريةُ الذهنية". وفي الانشغال الزائد بمشكلتي "النزعة الإلصاقية" أو "النزعة الفيزيائية" اللتين لم تصاغا إلى الآن صياغة متماسكة. ولا يُهيمن هذا التوجه الثنائي على النقاش والحوار فحسب، بل يكاد يُعد مسلمةً، وهي ظاهرة غريبة في تاريخ الفكر تستحق استقصاء أكثر دقة.

ويمكن لنا، حين نضع مثل هذه التوجهات جانبًا، أن نسأل كيف يسير البحث العلمي الطبيعي. ونحن نبدأ بما نأخذه موضوعًا طبيعيًا، كجونز مثلاً، ونهتم في البداية ببعض المظاهر الخاصة بجونز، أي مظاهره اللغوية. ونجد أن عناصر معينة في دماغ جونز مخصصةٌ للغة ـــ ولنسمِّها "الملكةَ اللغوية"، وربما يكون لبعض أجزاء الجسد الأخرى تصميم محدَّد ذو علاقة محددة

باللغة كذلك، ويمكن أن تدخل عناصرُ الملكة اللغوية في بعض مظاهر الحياة الأخرى، وهو ما يمكن أن نتوقعه في أي عضو أحيائي. وبترك هذه الأمور جانبًا في البداية، موجِّهين اهتمامنا إلى الملكة اللغوية في الدماغ، وهذا أمر أساسي بوضوح. وهناك أدلة قوية على أن للملكة اللغوية مكوِّنين مختلفين، في الأقل، هما: "نظامٌ إدراكي" يختزن المعلومات بصورةٍ ما، و"أنظمةٌ للأداء" تستخدم هذه المعلومات للنطق والإدراك، والكلام عن العالم، وصياغة الأسئلة، وإطلاق النكات، إلخ. وللملكة اللغوية نظامٌ لإدراك الدَّخل ونظام لإنتاج الخرْج، وهناك ما هو أكثر من هذا؛ فليس هناك أحد يتكلم اليابانية فقط، ولا يفهم إلا السواحلية، وتتعامل أنظمةُ الأداء هذه مع رصيد مشترك من المعلومات يربط بعضَها ببعض ويزودها بتعليماتٍ من نوع معين. ويمكن أن تتعطَّل أنظمةُ الأداء وحدها، وربما بشكل حاد، في حين يبقى النظام الإدراكي كما هو، وقد اكتُشفت بعضُ حالات انفكاك الترابط الأخرى [بين مثل هذه الأنظمة]، وهو ما يكشف عن نوع البنية القالبية المتوقَّعة في أي نظام أحيائي معقد.

لاحظ أننا لا نفهم "القالبية" هنا بمعناها في أبحاث جيري فودر اللافتة للنظر، تلك التي تقتصر على أنظمة الدخْل والخرج؛ وتنفذ هذه الأنظمة إلى النظام الإدراكي للملكة اللغوية، لكنها متمايزة عنه. وربما يكون صحيحًا أنّ "الآليات الذهنية تتألف من ملكات مستقلة مكتفية بذاتها كإدراك الوجوه وإدراك اللغة" (Mehler and Dupoux 1994)، لكنْ لا يبدو أن لهذه "الأعضاء الذهنية" مكانًا في إطار القالبية، كما تُفهم بدقة - كما يبدو - بالمثل، أن أفكار ديفيد مار المؤثرة عن مستويات التحليل لا تنطبق هنا أبدا، خلافًا للنقاش الواسع عنها، ذلك أنه هو كذلك كان يهتم بأنظمة الدخل - الخرج وحدها، أي بتحويل المثيرات الشبكية، في هذه الحالة، إلى نوع من الصورة الداخلية.

وللملكة اللغوية عند جونز "حالة أولى" تثبِّتها الإعدادُ الأحيائي، كما

يفترض عمومًا أن الحالة الأولى تحدِّد أنظمة الأداء بصورة كاملة ــ مما يعني أن أي تغيُّر لحالة معينة موجَّهة داخليًا أو أنه نتيجة لعوامل خارجية كالجروح، لا نتيجة للتعرض للغة معينة أو أخرى، وهذا هو الافتراض الأبسط، ولا يقول أحد بأنه زائف، مع أنه ربما يكون كذلك، وحين ننتباه نعزو «الاختلافات اللغوية في الإدراك (كعدم قدرتنا على إدراك فوارق النفَث كما يدركه متكلمُ اللغة الهندية، مثلا) إلى اختلافات المظاهر الصوتية للنظام الإدراكي، من غير أن نثق كثيرًا بهذا الافتراض، مع أن هناك أدلة عليه؛ فيستطيع متكلمو اللغة الإنجليزية، في الظروف الاختبارية، اكتشاف التقابل [بين الأصوات المنفوثة وغير المنفوثة] في اللغة الهندية، وهو الذي لا "يسمعونه" حين يكون في سياق لغوي. وربما كانت أنظمة الأداء مخصَّصة للغة حقًا، فيبدو أنه حتى الأطفال الصغار جدًا يمتلكون نظامًا قارًا شبيهًا بالنظام الصوتي عند الكبار، وهو الذي ربما يكون صقلاً خاصًا لخصيصة أشمل لدى القِرَدة، ويقترح ميلر ودوبو فرضية مؤقتة تقول إن "الأطفال حديثي الولادة حساسون للتقابلات "كلها" التي يمكن أن توجد في اللغات الطبيعية "كلها"، وبالطريقة نفسها التي توجد بها عند الكبار" (Mehler and Dupoux 1994: 167)، وهم "يتعلمون عن طريق النسيان" (ص ١٦٨) نتيجة للتعرُّض المبكر، فلا يصل الطفل إلى نهاية السنة الأولى من عمره إلا وقد انتقى نظامُه الإدراكي رصيدًا معيَّنًا من بين الاحتمالات المتاحة.

ويكتفي – بناء على هذه الفرضيات المبسَّطة عن النمو – بملاحظة النظام الإدراكي للملكة اللغوية، وحالتها الأولى، وحالاتها التالية. ومن الواضح أن هناك تغيرات للحالة تَعكس التجربة؛ فليست الإنجليزيةُ اللغةَ السواحلية، أو أنها ليست هي بدقة. وربما يجد عالمٌ مريخي منهجي أن هذا التنوع سطحي إلى حد بعيد، وهو ما يَجعله يستنتج أن هناك لغة بشرية واحدة وحسب، بتنوعات هامشية. لكن النظام الإدراكي للملكة اللغوية عند جونز "يتغير" استجابةً للتجربة اللغوية، وهو ما يؤدي إلى تغيُّر الحالة حتى تصل

إلى وضع مستقر تقريبا، وربما يكون ذلك في وقت مبكر بين السادسة والثامنة من العمر، وربما يعني ذلك، إن كان صحيحًا، أن التغيرات التالية (غير المعجمية)، التي اكتُشفت، حتى سن البلوغ، موجَّهةٌ داخليا.

دعنا نُسمِّ مؤقتًا حالةً معينة للنظام الإدراكي للملكة اللغوية عند جونز بـ "لغة" ــ أو، بالمصطلح التقني: "لغة ــ د"، حيث تعني "د" "داخلي"، و"فردي"؛ لأن هذه المقاربة للغة داخليَّة تحديدًا، وفردية بصورة حاسمة، وتشبه بهذا المعيار دراسات نظام الإبصار[3]. فإذا كان النظام الإدراكي للملكة اللغوية عند جونز في حالة "ل"، فسنقول إن جونز يمتلك اللغةَ "لغة ــ د". وتُشبه "اللغة ــ د" قولَنا: "طريقة في الكلام"، وهي إحدى الأفكار التقليدية عن اللغة.

وعلى الرغم من بعض التشابه بين المصطلحات هنا والتعبيرات المعيارية المألوفة إلا أنها مختلفة، وهو ما نتوقعه حتى في الأطوار المبكرة من البحث العلمي الطبيعي. وتَصِف اللغاتُ المختلفة في العالَم مثل هذه الأمور بطرق مختلفة. فنقول، في الإنجليزية، إن جونز "يعرف" لغته؛ ويقول آخرون إنه يتكلمها، أو يتكلم بها، إلخ. كما تتنوع المصطلحات التي تُطلق على شيء كاللغة، إلا أنني لا أعرف دراسةً جادة تناولت هذه الأمور عبر الثقافات، وهذه الموضوعات مهمة للبحث في علم دلالة اللغة الطبيعية، والفروع الأخرى للبحث العلمي الطبيعي التي تسعى لتبيين كيف تُنتج الأنظمةُ الإدراكية، ومنها اللغة، ما يسمى أحيانًا بـ "العلم الشعبي". فنحن نتكلم عن أن الأزهار تتوجه نحو الشمس، وأن السماء تظلِم، والتفاح يسقط نحو الأرض، والناس يعتقدون بعض الاعتقادات ويتكلمون اللغات، إلخ؛ وربما يمكن لطرقنا في التفكير والفهم ــ ولأفكارنا الحدسية عن الكيفية التي يتكوَّن بها العالَم ــ أن تتصل بصورة مباشرة بمثل هذه الأنواع من التعبيرات، أو لا يمكن. فتتبع عناصرُ العلم الشعبي من إعدادنا الأحيائي المسبق، متخذةً أشكالا معينة تحت ظروف ثقافية متنوعة. وهناك أدلة على أن الأطفال الصغار

يعرون بعض الاعتقادات والخطط للآخرين قبل أن يكتسبوا الكلمات التي تصف هذه الأشياء بوقت طويل، وربما صحّ الشيء نفسه عند البالغين عموما، مع أن أغلب اللغات، كما تروي بعضُ الدراسات، ليس فيها كلمات تشبه الكلمة belief "اعتقاد" في الإنجليزية، وهذه دراسات جادة، ويجب ألا تُتناول بخفةٍ؛ وتوفِّر حدْوسنا عنها بعض الأدلة، لكن ليس أكثر من ذلك. يضاف إلى ذلك أنه لن يكون هناك صلة بين ما يمكن أن نتعلمه عن العلم الشعبي وبين النشاط البحثي العلمي الاختياري عن الموضوعات التي يتناولها العلم الشعبي بطريقته الخاصة، بغض النظر عن مقدار ما نتعلمه، وهذه نتيجة تُعدُّ بديهية في دراسة ما يسمى بـ "العالَم الفيزيائي" لكنْ ينظر إليها على أنها خلافية أو زائفة في دراسة المظاهر الذهنية للعالم (بناء على أسباب مشكوك فيها، كما أظن).

ولم أتحدث إلى الآن إلا عن جونز ودماغه وملكة دماغه اللغوية وبعض مكوّناتها، وهذه كلها موضوعات طبيعية. وحين نلتفت إلى سميث نكتشف أن الحالة الأولى لملكته اللغوية تتماثل فعلاً [مع ملكة جونز]؛ وإذا مرّ بتجربة جونز فسيمتلك لغة جونز، ويبدو هذا صحيحًا عبْر النوع، وهو ما يعني أن الحالة الأولى خصيصةٌ مقصورة على النوع، إلى حد بعيد جدًا. وإذا كان الأمر كذلك فـ"الملكة اللغوية البشرية" و"اللغات (ـــ د)" التي هي تحققات لها تَصلح لأنْ تكون موضوعات طبيعية.

وإذا كان جونز يمتلك اللغة "ل" فهو يعرف أشياء كثيرة، مثل: أنّ كلمة house تسجع مع mouse وأن عبارة brown house تتألف من كلمتين بينهما علاقة صورية صوتية من التجانس الصوتي [في الحركة الوسطى فيهما]، وأنها تُستخدم في الإحالة إلى بنية صُمِّمت لأغراض محددة وتستخدم لهذه الأغراض التي لها سطح خارجي بني، ونودُّ أن نكتشف كيف يعرف جونز مثل هذه الأشياء، وهذه هي الطريقةُ التي يبدو أنّ معرفة جونز تعمل بها.

وتتألف "اللغة ـــ د" من إجراء حوسبي ومعجم، أما المعجم فمجموعة

من الوحدات، كلٌ منها مجموعٌ معقد من الخصائص (تسمى "سمات")، كخصيصتي "صوت شفتاني وقفي" أو "شيء مصنوع". ويختار الإجراء الحوسبي وحداتٍ من المعجم ويصوغ منها تعبيرا، وهو مجموع من هذه السمات أكثر تعقيدا، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن النظام الحوسبي غيرُ متنوّع، إلى حد بعيد، ويوجد بعض التنوع في الأجزاء التي تتصل اتصالاً وثيقا بالإدراك والنطق؛ وليس هذا غريبا؛ لأن هذا هو المكان الذي تتوفر فيه المادة الأولية للطفل في أثناء اكتسابه اللغة — وهي عملية يمكن وصفها بصورة أفضل بـ"النمو" بدلاً من "التعلُّم"، في رأيي. وإذا نحينا هذا جانبا، يبدو أن التنوع اللغوي مكانه المعجم. وأحد مظاهره "الاعتباطيةُ السوسورية"، أي الربط الاعتباطي بين التصورات والأصوات: أي أن البرنامج الوراثي لا يحدّد إن كانت "شجرة" tree، أي التصوُّر، ترتبط بالأصوات المكوِّنة لكلمة "شجرة" [في العربية] أو tree (في الإنجليزية) أو baum (في الألمانية). ويمكن أن يُكتسب الربطُ بين التصور والصوت بناء على أقل قدر من الدليل، فالتنوع هنا غير مفاجئ، لذلك. إلا أن الأصوات الممكن وجودها مقيَّدةٌ تقييدًا دقيقا، وربما تكون التصورات مثبَّتةً إلى حد بعيد، ويصعب أن نتخيل الأمر بشكل مختلف، نظرًا لسرعة الاكتساب المعجمي، الذي يصل إلى كلمة واحدة في الساعة بين السنة الثانية والثامنة من عمر الطفل، مع اكتساب الوحدات المعجمية عادة بناء على تعرُّضٍ واحد لها، في ظروف غامضة جدًا، لكنها تُفهم في سياق تعقيدٍ دقيق هائل يذهب بعيدًا جدًّا وراء ما يمكن أن يسجَّل في أي معجم مفصَّل مستقصٍ، وهو الذي لا يعطي، شأنه شأن أكثر الأنحاء التقليدية المفصَّلة، إلا إشارات تكفي إلى حدٍّ ما أولئك الذين يَعرفون الإجابات مسبقا، وهي معرفة فطرية إلى حد بعيد.

وربما يكون التنوع، وراء هذه العوامل، مقصورًا على المظاهر الصورية للغة — كإعراب الأسماء، وتصريف الأفعال، إلخ، بل ربما يكون التنوعُ محدودًا حتى هنا. فيبدو أن الإنجليزية تختلف، ظاهريًا، اختلافًا حادًا

عن الألمانية أو اللاتينية أو اليونانية أو السنسكريتية من حيث غنى التصريف، كما أن الصيتية أكثر اختلافًا. إلا أن هناك أدلة على أن في اللغات الأنظمة التصريفية نفسها أساسًا، ولا تختلف إلا في الطرق التي يتعامل بها الإجراء الحوسبي مع العناصر الصورية فيها الذي يوفر تعليمات لأعضاء النطق والإدراك. ويبدو أن الحوسبة الذهنية متماثلة فيما عدا ذلك، مما ينشأ عنه الآثارُ غير المباشرة للبنية التصريفية الملاحظة، حتى إن لم تكن التصريفاتُ نفسُها تُسمع في الكلام، وربما يكون ذلك أساس التنوع اللغوي، إلى حد بعيد، ذلك أنه يمكن لتغيرات بسيطة في الطريقة التي يؤدي بها النظامُ وظيفتَه أن تؤدي، بالطبع، إلى ما يبدو كأنه تنوع هائل.

وللإجراء الحوسبي خصائصُ ربما تكون مقصورة عليه إلى حد كبير. وهو "متقشف" كذلك، فهو لا يستطيع النفاذ إلى كثير من خصائص الأنظمة الإدراكية الأخرى، إذ يبدو أنه لا "تظاهر" له، مثلًا. وهو يعيّن [خصيصة] "التجاور" adjacency ؛ لهذا يمكن أن يكون لكل مقطع بين مقطعين خصيصةٌ ما (كـ "النبر"، مثلا)، لكنّ لا يمكنه استخدامَ فكرة الـ "ثلاثة"، فليس هناك نظام صواتي يحدث فيه شيء ما في كل ثالث مقطع، مثلا؛ كما يبدو أن التركيب يَخضع لخصيصة "اعتماد البنية"، ولا يمكن أن يستغلّ الخصائص الخطّية أو الحسابية الأبسط في التنفيذ خارج الملكة اللغوية.

ومما له صلة بهذا الأمر البحثُ الاختباري الذي أنجزه نيل سميث وزملاؤه مؤخرًا (Neil Smith et al. 1993: 279-347). فقد كانوا يدرسون شخصًا ــ أسموه "كريستوفر" ــ لديه ملكة لغوية طبيعية فيما يبدو لكنه يعاني من مشكلات إدراكية شديدة، وهذا مثال لنوعٍ من قالبية البنية الذهنية مما يكتشفه الباحثون دائما، فيجيد كريستوفر ست عشرة لغة، ويستطيع الترجمة منها إلى الإنجليزية. وشملت هذه التجارب كريستوفر ومجموعةً أخرى اتُخذتْ مقياسا؛ فقد درّسوا جميعًا اللغةَ البربرية ونظامًا آخر مصطنعًا صيغ لكي يخالف مبادئ اللغة، وقد تعلّم كريستوفر البربرية بسهولة، كما هو

متوقَّع، لكنه لم يستطع أن يتعلم إلا قدرًا ضئيلاً من النظام المصطنع، بسبب افتقاره إلى قدرات إدراكية أخرى. أما أفراد المجموعة القياسية فقد حققوا قدرًا من النجاح في تعلُّم النظام المصطنع؛ إذ يبدو أنهم عاملوه على أنه مجرد لغز. لكنهم لم يستطيعوا اكتشاف بعض القواعد البسيطة جدًا، كالقاعدة التي تضع علامةً توكيدية على الكلمة الثالثة في جملة ما، ويبدو أنَّ "تقشُّف" الملكة اللغوية كان كافيًا ليمنع اكتشاف قاعدة بسيطة لا تعتمد على البنية، في سياق لغوي.

وتَدخل الأعدادُ في استخدامنا للغة بالطبع؛ فنحن نستطيع أن نكتشف المقطوعات الشعرية [المكونة من عدد من الأبيات] ونفهمهما، مثلا، كما يشتمل على الاستدلال، إلا أنه يبدو أن الإجراء الحوسبي على درجة من التقشف يجعل قدرتَه على استخدام هذه الموارد محدودة أيضا، والملكة اللغوية غنية جداً وهي في الوقت نفسه فقيرة جدا، وهو ما نتوقَّعه في نظام أحيائي؛ فهي تستطيع تحقيق مستوى عالٍ من الإنجاز في مجالات محددة، لكنها لا تستطيع بالمقابل أن تتعامل مع بعض المشكلات التي تقع خارج هذه المجالات. وكما ذكرنا سابقا، ينبغي أن نتوقع أن يكون ذلك صحيحا في الملكات الأخرى كلها، ومنها تلك التي يمكن أن نسميها بـ "ملكة صياغة العلم"، وهي المجموع الخاص من التوعيات والقدرات التي نستخدمها في أثناء اشتغالنا بالبحث العلمي الطبيعي.

ومع أن الملكة اللغوية متخصصة جدًا فإنها لا ترتبط بوسائل إحساسية محددة، خلافًا لما كان يُفترض منذ زمن غير بعيد. لهذا تُشبه لغةُ الإشارة عند الصم اللغة المنطوقة شبهًا كبيرا، وطريقةُ اكتسابها تماثل طريقة اكتساب تلك إلى حد بعيد. ولا يبدو القصور الحسي الكبير إلا أثر محدود على اكتساب اللغة؛ فيكتسب الأطفالُ المكفوفون اللغة بالكيفية التي يكتسبها بها الأطفالُ المبصرون، بل يشمل ذلك كلمات اللون والكلمات التي تتصل بالتجربة البصرية كـ "يرى" و"ينظر"، وهناك أناس يحققون معرفةً لغوية

تقرب من المستوى العادى في غياب أى تدخّل إحساسى يتجاوز ما يمكن أن يُحصّلوه بوضع أيديهم على وجه شخص آخر أو حنجرته، ويبدو كأن الآليات التحليلية لملكة اللغة تقدَح بالطرق نفسها إلى حدٍّ بعيد بغض النظر عن إن كان الدخل سمعيًا أو بصريًا، أو حتى لمسيًا[4]، ويبدو أنها تحلّ في المناطق نفسها من الدماغ، وهو ما يبدو مفاجئًا شيئًا ما.

وتُنبئ أمثلةُ فقر الدَّخل هذه بغِنى الإعداد الفطرى ـ مع أن اكتساب اللغة العادى مثير للدهشة بقدرٍ كاف، كما يوضّحه الانفلاق المعجمي كذلك، لا بسبب سرعته وتعقيد ما ينتج عنه وحسب؛ لهذا يمكن أن يحدّد الأطفالُ الصغارُ جدًا معنى كلمةٍ مصطنَعة من المعلومات التركيبية في جملة يفوق تعقيدُها أيّةَ جملة يمكن لهم أن ينتجوها (Gleitman 1990).

ومن الفرضيات المعقولة اليوم أنّ مبادئ اللغة مثبّتة وفطرية، وأن التنوع محدودٌ بالطريقة التي بيّناها. فكلُّ لغة، إذن، محدَّدةٌ (إلى حد بعيد) عن طريق اختيار بعض قيَم الوسائط المعجمية؛ فباستطاعتنا، بوساطة طيف من الاختيارات، أن نشتق اللغة المجرية، وأن نحصل على لغةِ اليوروبا باختيارات أخرى، ويُوفر منهجُ المبادئ والوسائط هذا طريقًا لحلِّ التجاذب الأساسى الذى ظَهر في بدايات النحو التوليدى. فقد اكتشف الباحثون مباشرة بعد محاولاتهم المبكرة لتوفير أوصاف حقيقية للُّغات قبل أربعين سنة أنّ تعقيد بنية اللغة يتجاوز بكثير ما كانوا يتخيّلونه، وأن الأوصاف التقليدية للشكل والمعنى لم تكن إلا مسًّا رفيقًا لظاهر اللغة. أما الأوصاف التى أنجزها البنيويون فلا قيمة لها تقريبا. ويتزايد تنوعُ اللغاتِ الظاهرى الخادع تزايدًا هائلاً، إضافة إلى ذلك، بمجرد توجيه الباحث نظرَه إلى تناول الحقائق التي تُعرى بصورة ضمنية لـ "ذكاء القارئ" الذى لم يحلَّل. وبدا أن تحقيق "كفاية الوصف" يقتضى الإتيان بتفسير معقّد جدًا، مقصور على اللغات المعينة، بل خاصٍ ببعض التركيبات المعينة في لغات معينة، كالقواعد المعقدة لجمل الصلّة في الإنجليزية، مثلاً. وكان من الواضح، مع ذلك، أنه لا يمكن لشيء

من هذا أن يكون صحيحا، ذلك أن ظروف اكتساب اللغة تُبين بوضوح أنه لا بد أن تكون هذه العملية موجَّهةً بصورة داخلية، كالحال في مظاهر النمو الأخرى، وهو ما يعني أنه لابد أن تكون اللغات جميعًا متماثلةً تقريبا، ومحددةً بالحالة الأولى بصورة كلِّيَة إلى حد بعيد، وظل هذا التجاذبُ، منذ ذلك الحين، يوجِّه التيار الرئيس في الجهود البحثية لانتهاج المقاربة العلمية الطبيعية، أي: أنْ تَجرَّد من مرجل التعقيد الوصفي المعقد بعضُ المبادئ العامة التي تَحكم الحوسبة وتَسمح بصياغة القواعد في لغةٍ ما بأشكال بسيطة جدا، مع تنوع محدود.

وأدت الجهود لحل هذا التجاذب بهذه الطريقة في نهاية الأمر إلى المقاربة المسماة بالمبادئ والوسائط التي بيناها آنفا باختصار. وهي فرضية جريئة أكثر من كونها نظرية محدَّدة، مع أن إكمال الصورة ما يزال مستمرا، وما تزال الأفكار النظرية الجديدة تقود إلى توسُّع أبعد في المواد الاختبارية ذات الصلة في لغات مختلفة جدًا من حيث الأصول النَّسَبية.

وتمثِّل هذه الأفكار مفارقةً جذريَّة لتقليد غني استمر ألفين وخمسمائة سنة. فلا تُبيِّن هذه الأفكار، إنْ كانت صحيحة، أن اللغات متماثلةٌ، بإجراء حوسبي يكاد يكون واحدًا وتنوعٍ ضئيلٍ مقصور على المعجم وحسب، بل تُبين كذلك عدمَ وجود قواعد أو تراكيب شبيهة بالقواعد والتراكيب بالمعنى التقليدي، التي نقلت إلى النحو التوليدي المبكر؛ فليس هناك قواعد لتكوين جُملِ الصلة في اللغة الإنجليزية مثلا. فليست التراكيبُ التقليدية — كالمركَّب الفعلي، وجملة الصلة، والمبني للمجهول، إلخ — إلا وسائلَ تصنيفية مصطنعة، أما خصائصُها فتَنتج من تفاعل مبادئَ أكثرَ عمومية.

وتُميِّز مقاربةُ المبادئِ والوسائط بين فكرتين تقعان معًا تحت تصور "اللغة — د"، هما: أن هناك تمييزًا تصوريًّا واضحًا بين حالة الملكة اللغوية، من جانب، وحالةٍ مشخَّصةٍ ما للحالة الأولى بعد تثبيت الوسائط، من جانب آخر. وفي غياب أيةِ معجزة سيختلف هذان الموضوعان اختباريًّا دائما،

فحالة الملكة اللغوية الفعلية عند فرد معين نتيجةٌ لتفاعل عدد كبير من العوامل، ولبعضها فقط صلةٌ بالبحث في طبيعة اللغة. فنحن نأخذ "اللغة ـ د"، إذن، بناءً على أسس داخلية أخرى تنبع من النظرية، بأنها تشخيص للحالة الأولى، إذا "أمثلنا" من الحالات الفعلية للملكة اللغوية، ومصطلحُ "الأمثلة" مصللٌ شيئًا ما، كما هي الحال في أنواع البحث العلمي الطبيعي الأخرى، فهي إجراء نتبعه حين نحاول اكتشاف الواقع، أي المبادئ الحقيقية للطبيعة، ومع هذا لا يُعدّ هذا الإجراء غير شرعي إلا في دراسة المظاهر الذهنية للعالَم خاصة، وهذا مثال للثنائية الغريبة التي يجب أن نتغلب عليها.

وقد فَتَح التقدُّمُ في هذا المسار مسائل جديدة، ومنها تحديدًا، ما المدى الذي يمكن أن يَصل إليه اختزالُ المبادئ نفسها إلى الخصائص الطبيعية الأكثر عمقًا للحوسبة. وإلى أي مدى تكون اللغة "محكَمة" perfect، بناءً على شروط المثلوية الطبيعية optimality وبعضِ العلاقات البسيطة جدًا؟ فترى إحدى النظريات أننا، إذا نحّينا جانبًا السمات الصوتية التي تنفُذ الأنظمة النطقية الإدراكية إليها، فإن خصائص تعبيرٍ معين، مما يَدخل في استخدام اللغة، تأتي بشكل مطلق من المعجم: أي أن الحوسبة تنظِّم هذه الخصائصَ بطرقٍ مقيَّدة جدًا، لكنها لا تُضيف سماتٍ أخرى؛ وهذا تبسيط كبير للمسلَّمات المبكرة، وهي التي ربما تتطلب، إن كانت صحيحة، إعادةَ تفكير واسعة في "المستويات الوجيهية" بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى للذهن، وترى نظريةٌ أخرى، اقترحها أساسًا ريتشارد كاين (١٩٩٤) أنه ليس هناك تنوعٌ وسائطي للترتيب زمنيًا. فالترتيب، بدلاً من ذلك، صورةٌ لخصائص تحدُث في أثناء الحوسبة: ويعني هذا أن الترتيب الأساس في اللغات جميعًا، انطلاقًا من هذه المسلمات، هو: "فاعل ـ فعل ـ مفعول". وتسعى بعضُ الأبحاث التي أُجرِت في مؤخرًا لبيان أنَّ بعض التعبيرات الممكنة التي ربما تؤوَّل عند المستوى الوجيهي، إن كوِّنت، تُمنع لأنَّ حوسبات أخرى بالموارد المعجمية نفسها أكثرُ اقتصادًا. (للاطلاع على نقاش هذه الموضوعات، انظر Chomsky 1993b، وChomsky 1996b، والمراجع المذكورة هناك).

ونتوقع، بناء على مثل هذه المسلمات، أن اللغات "يمكن تعلُّمها"؛ لأنــه لا يوجد إلا قدرٌ قليل ليتعلم، لكنها "لا يمكن استخدامُها" جزئيًا، لسبب واحـد، هو أنه ربما ينتج عن شروط الاقتصاد العام مستوياتٌ عليـا مـن التعقيـد الحوسبي. أما أنّ اللغات "يمكن تعلُّمها" فاكتشاف اختباري مفاجئ؛ إذ لــيس هناك سببٌ أحيائي عامٌ أو غير أحيائي يمكن أن يفسِّر أنه ينبغي أن تكــون اللغاتِ التي توفرها الملكة اللغوية مما يسهِّل النفاذ إليه بشكل كامل، وهو ما ستكونه إنْ كانت ثُبِّتت عن طريق تثبيت الوسائط البسيطة. لكن النتيجة التي مفادها أن اللغات "لا يمكن استخدامها" جزئيًا ليست مفاجئــة بحــال. فمـن المعروف منذ أمد طويل أن أنظمة الأداء "تُخفق" غالبًا، وهو ما يعني أنهـا توفِّر تحليلاً يختلف عن التحليل الذي يحدِّده النظامُ الإدراكي ("اللغــة ـــ د"). وقد دُرست أصنافٌ كثيرة من التعبيرات التي تخلق مشكلاتٍ بنيوية للتأويل، كــ "الدمج المتعدِّد"، وما يسمى بــ"جمل ممشى الحديقة"، إلخ. بل إن أبــسط التصورات ربما تثير مشكلاتٍ صعبة للتأويل، ومنها: الكلمات التي تتـضمن تعدُّدًا في المسوِّرات أو النفي، مثلاً. فيُسبِّب تعبيرٌ مثل:

I missed (not) seeing you last summer.

"فاتني أن (لا) أراك الصيف الماضي".

(الذي يعني: " توقعتُ أن أراك لكنني لم أرك")

لبسًا لا نهاية له. بل إن اللبس في بعض الأحيان يُشفَّر. كما في التعبير المثلي: near miss الذي يعني nearly a hit "كادت تكون إصابة" لا nearly a miss "كادت تكون عدم إصابة" (وهي مماثلة لــ near accident "كادت تكون حادثة").

والاعتقاد بأن التحليل "سهل وسريع"، كما تقــول إحـدى الـصياغات المألوفة ـــ وأن تصميم النظرية اللغوية يجب أن يتعامل مع هذه الحقيقــة ـــ خطأ؛ فليست هذه حقيقة. أما القضية فأن تبين أنَّ تلك الأجزاء من اللغة التي

يمكن استخدامها محددةً تحديدًا دقيقًا بنظريات الحوسبة والأداء، وليس هذا أمرًا تافهًا.

وتُقرّبنا أسئلةٌ أخرى من هذا النوع إلى مشارف البحث الجاري، وهي أسئلة على مستوى جديد من العمق، لذا فهي مهمة، في دراسة اللغة والذهن.

وتتصل أسئلةٌ أخرى بخصائص المستويات الوجيهية، مثل: كيف تستعمل أنظمةُ الأداء التعبيرات التي تولّدها "اللغةُ ــ د"؟ وتـوفّر بعضُ السمات في هذه التعبيرات تعليماتٍ للأنظمة النطقية والإدراكية فقط؛ لهذا فأحد العناصر في تعبير لغوي ما هو "صورته الصوتية" "ص ص"، ويفترض عمومًا أن هذه التعليمات مشتركةٌ بين النطق والإدراك، وليس هذا واضحًا تمامًا، وهو لافت للنظر إن كان صحيحًا. وتوفّر بعضُ الخصائص الأخرى في التعبير تعليماتٍ للأنظمة التصورية ــ القصدية فقط؛ ويسمى هذا العنصرُ في التعبير بـ"الصورة المنطقية" غالبًا، لكنه يختلف بمعنى تقني ما عن الاستعمالات الأخرى؛ ولنسمه بـ "ص م" كي نتجنب سوء الفهم، ويُفترض، مرة أخرى، أنه لا يوجد إلا مجموعة واحدة من التعليمات، وأنها معزولة عن الصورة الصوتية. وتَبلغ هذه المسلماتُ حدًا أبعد من عدم المعقولية، ومن هنا، فهي اكتشافات لافتة للنظر، إن كانت صحيحة.

ويحوّل الإجراءُ الحوسبي، بناءً على هذه المسلّمات، مجموعةً من الاختيارات المعجمية إلى موضوعين رمزيين، هما: "ص ص"، و"ص م"، وهو يقوم بذلك بطريقة "مُثلى" optimal، من زاوية معينة. ويمكن أن تسمى عناصرُ هذين الموضوعين الرمزيين سمات "صوتية" و"دلالية"، على الترتيب، لكن يجب أن نتذكر أن هذا كله ليس إلا تركيبًا محضًا وهو داخلي بشكل خالص، وهذه دراسة للتمثيلات والحوسبات الذهنية، وتُشبه إلى حد كبير البحث في الكيفية التي يُحدِّد بها خيالُ مكعبٍ يتأرجح في الفضاء عن طريق إثارة الشبكية، أو عن طريق التخيّل، ويمكن أن تأخذ السمات الدلالية لتعبير ما لتعني "معنىه" والسماتِ الصوتية لتعني "صوته"؛ فيعني التعبيرُ

السمات الدلالية بما يشبه معنى الكلمة الإنجليزية المعينة، وأن التعبير "يصوت" بمعنى مماثل، وتوفر الدلالة والصوت المعلومات ذات الصلة لأنظمة الأداء.

فتنفذ أنظمة الأداء إلى تعبير مثل:

I painted my house brown.

"صبغت بيتي بنيًا"

وهي تؤوله، على جانب التلقي، وتنطقه فيما تستعمله عادة من أجل فعل كلامي معين أو آخر، على جانب التلفظ. فكيف يحدث ذلك؟ وقد دُرست المظاهر النطقية ـ الإدراكية وما تزال بشكل مكثف، لكن هذه القضايا لم تفهم بشكل جيد إلى الآن، أما في المستوى الوجيهي التصوري ـ القصدي فالمشكلات أكثر غموضا، ويمكن الظن بأنها تقع بعيدًا عن متناول البحث العلمي الطبيعي البشري من حيث بعض الاعتبارات المهمة.

وربما تكون الفرضية المعقولة الأضعف فيما يخص المستوى الوجيهي "ص م" أنّ خصائص التعبير الدلالية تركز الانتباه على بعض المظاهر المنتقاة للعالم بالصورة التي ترى الأنظمة الإدراكية الأخرى أنها عليها، ثم توفر منظورات على درجة عالية من التعقيد والتخصص لكي تنظر إليها من خلالها، وهي التي يدخل فيها بصورة جوهرية الاهتمامات والانشغالات البشرية حتى في أبسط الحالات. ففي حالة مثل:

I painted my house brown.

تفرض السماتُ الدلالية تحليلاً في ضوء خصائص محددة للتصميم والاستخدام المقصودَين، ولسطحٍ خارجي معيَّن، بل لتعقيدات أخرى أكثر تشابكا، فإذا صبغت بيتي بنيًا، كما ذكرنا في الفصل الثاني، فسيكون سطحه الخارج بنيًا؛ لكني أستطيع، مع ذلك، أن أصبغ بيتي بنيًا "من الداخل". وللبعد خارجي ـ داخلي خيار موسوم وآخر غير موسوم؛ فإذا لم يحدَّد أي منهما

فسيكون المفهومُ من ذلك هو الخارج. وهذه خصيصة نمطية للمعجم؛ فإذا قلت إن "جونز صعد الجبل" Johns climbed the mountain، فأعني أنه كان (عمومًا) يصعد إلى الأعلى، لكن يمكن أن أقول إنه: climbed down the mountain "صعد نازلاً الجبل"، مستعملاً الخيارَ الموسوم. وإذا كنت داخل بيتي فأستطيع تنظيفه، حيث أؤثِّر في الداخل فقط، لكني لا أستطيع أن أراه، إلا إن كان من الممكن رؤيةُ أحد أسطحه الخارجية (عبر نافذة، مثلا). ومن المؤكد أني لن أكون قريبًا من بيتي إن كنت في داخله، على الرغم من كونه سطحًا، في الحالة غير الموسومة. وبالمثل فليس المكعب الهندسي إلا سطحا، لكن إنْ كنا نستعمل اللغة الطبيعية، فلا يمكن أن يكون حيِّزٌ في داخل المكعب قريبًا منه. وتصحُّ هذه الخصائص بشكل عام جدًا، كما في حالة الصناديق والكهوف والطائرات والجبال، وغيرها. فإذا نظرتُ عبر نفق في جبل ورأيت كهفاً مضاءً في داخله، فإني لا أرى الجبل؛ إلا إن كنت أنظر إلى سطحه الخارجي (من داخل الكهف، ناظرًا عبر النفق في مرآة في الخارج تعكس السطح، مثلا). ويصح الشيء نفسه في الأشياء غير الممكنة. فإذا قلت لك إني صبغت مكعبًا دائريًا بنيًا فستفهم أن سطحه بني في الحالة غير الموسومة. وإذا كنتُ في داخله فإنك تعرف أني لست قريبًا منه، وهكذا، إلى حدود التعقيد الذي لم يُقدَّر إلا تقديرًا ضئيلاً جدًا، وهو الذي يثير مشكلاتِ "فقر المنبِّه" بشكل متطرف مما يجعل من المستحيل ألا نفترض أن المعرفة اللغوية من هذه الزوايا محدَّدة فطريًا إلى حد بعيد جدًا، ومن هنا فهي تكاد تكون واحدة عبر اللغات، وهو ما يشبه ما نفترضه عن المظاهر الأخرى للنمو والتطور من غير مناقشة أو فهم.

وتقدِّم الكلماتُ منظوراتٍ متعارضة، دائمًا تقريبا. فتتصف مدينةٌ ما بأنها محسوسة ومجردة في آنٍ، وأنها حية وغير حية معا؛ فربما تترقب لوس أنجليس مصيرها بكآبة، في تخوّفها من التعرض للدمار إما بزلزال أو بقرار إداري. وليست لندن مكانا. بل هي، بدلاً من ذلك، "في" مكان، مع أنها ليست

تلك الأشياء التي تكون في ذلك المكان، وهي التي يمكن أن تغيَّر جذريًا أو تنقل من مكانها، تاركة لندن كما هي. ويمكن أن تتمرَّ لندن ويعاد بناؤها، بعد آلاف السنين ربما، لكنها ستظل هي لندن؛ ويمكن أن يعاد بناء مدينة قرطاج اليوم، مثلما يمكن أن يُستنسخ توم جونز، مع أنه شيء محسوس بشكل خالص، على هيئة حشرة، أو أن تَغيّره ساحرةٌ إلى ضفدع، ينتظر قبلة الأميرة، لكنه سيظل توم جونز على أية حال ــ وهذه تصورات متوفرة للأطفال الصغار من غير تعليم أو تجربة ذات صلة.

والطبيعة المجرَّدة لمدينة لندن جوهريةٌ لفرديتها. فإذا دُمِّرت لندن وحولت إلى كوم من التراب، فـ"إنها" ــ أي لندن ــ يمكن أن "يعاد" بناؤها في مكان آخر وستكون المدينةَ "نفسَها"، أي لندن. وإذا حولّ بيتي إلى كوم من التراب، فسيمكن بناؤه (أي: بيتي) في مكان آخر، لكنه لن يكون البيتَ نفسه، وإذا حولّ محركُ سيارتي إلى كوم من التراب، فلن يمكن إعادة بنائه، إلا إن كان خرابُه جزئيًا، حيث يمكن إعادة بنائه. ويَدخل في الضمائر اعتمادُ الإحالة، لكن ليس ضروريًا أن تُحيل إلى الشيء نفسه؛ ولاعتماد الإحالة والفكرة الأضيق للتماثل كليهما أدوار في فضاء معقد جدًا من الانشغالات والاهتمامات البشرية. ويمكن أن تكون الأحكام [في مثل هذه الأمور] أكثر دقة، ويدخل فيها عوامل لم تُبحث إلا بشكل سطحي جدًا.

وهناك أمثلة واقعية كثيرة لإيضاح مثل هذه الخصائص لكلمات اللغة الطبيعية، فليس صعبًا أن نَفهم تقريرًا في الصحافة اليومية عن المصير البائس لمدينة تشيلسي، التي "تتأهب للانتقال" (منظورًا إليها على أنها حية)، مع معارضة بعضِ سكانها لذلك لأن "نَقل مدينتهم، سينزع روحَها"، في حين يعترض فريق آخر من السكان بالقول إنه "إن لم تنتقل تشيلسي، فسوف تَقتلها السيول في نهاية الأمر". وهناك مدينة تسمى "أورشليم" و"القدس" معا (بالكيفية نفسها التي تسمى بها لندن: London و Londers [في الفرنسية] معا)، فما هذه المدينة؟ وموقِعُها موضوعٌ لخصام محتدم، بل إنها محلُ اهتمام لقرارات

مجلس الأمن الدولي. وتخطِّط الدولةُ التي تزعم أنها عاصمتُها لنقل "القدس"، في حين تترك "أورشليم" مكانها. ويفسِّر رئيسُ إدارة تطويرِها "أننا بحاجة إلى إيجاد عاصمة للفلسطينيين، ويجب أن نجد مكانًا للقدس" ــ في مكانٍ ما إلى الشمال الشرقي من "أورشليم". والمقترح معقول تماما، وهو الذي يَجعله مصدر إزعاجٍ كبير لمن يُهمهم أمرُ "القدس". ويمكن لهذا النقاش أن يثير ألغازًا من النوع المألوف في الأدبيات الفلسفية، وسيصل إلى حد أعلى من ذلك إن بعُد هذا القرار ــ أي إن كنا سنفترض أن كلمات مثل "لندن" أو "أورشليم" تحيل إلى أشياء في العالم في لغة عامةٍ ما، وكنا نحاول أن نصنِّف المعاني والأفكار من أجل شروط لا تتحقق فيها مسلَّمات الاستخدام العادي، حيث نحقق في الالتزام ببعض نصائح فتجنشتاين الجيدة.

بل إن منزلة الشيء (الذي يمكن تسميته) نفسها، وهو الذي ربما يكون أبسط تصوُّرٍ لدينا، تَعتمد بصورة جوهرية على أمور متشابكة كأفعالِ الإرادة البشرية، وهو، مرة أخرى، شيء يُفهم من غير تجربة ذات صلة، وتحدِّده الخصائصُ الذاتية للملكة اللغوية وبعضُ الملكات الأخرى. فيمكن لمجموع من الأعواد ملقاة على الأرض أن يكون شيئًا (معرَّفًا) ــ كأن يكون أوتادًا لسياج، أو سورًا، أو عملاً فنيًا. لكن الأعواد الملقاة على الأرض نفسها ليست شيئًا إن تُركت هنالك نتيجة لحريق في غابة. (انظر عن مثل هذه الأمور، وعن أهميتها لنظرية كوين والنظريات المماثلة عن التعلم، Chomsky 1975: 43ff., 203).

وليس لمتواصل "الفضاء ــ الزمن" صلةٌ خاصة بهذه القضايا، بعكس ما يُفترَض أحيانا (انظر Putnam 1993)، فعدم اتصال الأشياء ليس موضعًا لخلاف إطلاقًا؛ فليست الولايات المتحدة متواصلة من حيث المكان، مع أنها أصبحت شيئًا يمكن تسميته (فتحوّل اسمُها عبر الزمن من استعماله جمعًا ليُستعمل مفردا)، ويمكن لقولٍ أو مسرحيةٍ أن يكونا غير متَّصلين من حيث الزمن. وتُفهم الأشياء غير المتصلة اتصالاً مباشرًا، كما ذكرنا آنفا، على أنها

أشياء تقبل التسمية، في إطار مصفوفة ملائمة للاهتمام البشري. أما فهْمُ مدينةٍ ما في إطار "العلم الشعبي" بأنها شيء غيرُ متواصل (احتمالا) ذو أبعاد أربعة فمسألةٌ من مسائل الحقيقة. فيتطلب الافتراضُ بأنها كذلك، أو أنه ينبغي على النظرية الدلالية أن تقول إنها كذلك، تأويلاتٍ غير طبيعية إلى حدٍّ بعيد لتعبيرات مثل "انقل (تشيلسي)" و"(تشيلسي) السابقة"، إلخ، وهي قضايا يسهل عدمُ الانتباه إليها عند التركيز الضيق على موضوع العلاقة بين الشيء والإحالة، أما الخصائص والمنظورات التي تدخل في إفراد المدن والمنازل وما أشبه ذلك، فما تزال بانتظار أن تُكتشف وتفسَّر، باستقلال عن قضية الاتصال.

وتكشف الأشياءُ الجوهرية عن الأنواع نفسها من التصميم الذهني الخاص. خذ كلمة "ماء" بالمعنى الذي اقترحه هيلاري بتنام: أي بصفته يعني ما يَعنيه "[الرمز الكيميائي للماء] H2O مع احتمال وجود شيء من الشوائب" (Putnam 1992، مستشهدًا ببحثه الذي نشره سنة ١٩٧٥ وصار الآن بحثًا كلاسيكيًا). فنجد، حتى في مثل هذا الاستخدام، مع توسُّله المشكوك فيه بالعلم الطبيعي، أنّ كَون شيء "ماءً" يَعتمد على الاهتمامات والانشغالات البشرية الخاصة، ومرة أخرى، بطرقٍ تُفهم من غير تجربة ذات صلة؛ ويشمل مصطلحُ "الشوائب"، مرة أخرى، بعضَ المناطقِ الصعبة. افرض أن الكأس١ ملئ من الصنبور. فهو إذن كأسُ ماء، لكنْ إن غُمس فيه كيس شاي، فلن تكون حالته كذلك؛ فهو الآن كأسُ شاي، وهو شيء مختلف. افرض أن الكأس٢ ملئ من صنبور موصول بخزان ماء أُلقي فيه شاي (كأن يكون نوعًا من المطهِّرات، مثلا). وهنا سيكون ما في الكأس٢ ماء، لا شايًا، حتى إنْ لم يكن باستطاعة كيميائي تمييزه من المحتوى الحالي للكأس١. فيحوي الكأسان الشيء نفسه من وجهة نظر معينة، ويحويان شيئين مختلفين من وجهة نظر أخرى؛ لكن في الحالتين كلتيهما لا تحوي الكأس٢ إلا ماء ولا تحوي الكأس١ إلا شايًا. والشاي في الكأس٢ هو "الشوائب" بالمعنى عند بتنام، أما في

الكأس١ فليس كذلك، وليس لدينا ماء أبدا [في هذه الحالة] (إلا بمعنى كوب الحليب ماءً في أغلبه، أو كونِ شخصٍ ماه من أجل ذلك). وإذا كانت الكأس٢ تحوى H2O خالصًا وقد غُمس فيه كيسُ شاى فهو شاى، لا ماء، مع إمكان أن يكون تركيزُ جزيئات الـ H2O فيه أعلى من تركيزها فى الماء الذى يأتي من الصنبور أو يُجلب من النهر. لاحظ أن هذه الحالة سهلة بشكل خاص، ليس كنظائرها الكلاسيكية، نحو "الأرض" و"الهواء" و"النار"، من بين أشياء أخرى كثيرة.

وتتزايد التعقيدات حين نتجاوز الحالات الأكثر سهولة. فيمكن أن أصبغ الباب المؤدى إلى المطبخ بنيًا، لذلك فهو شيء مادى محسوس بشكل واضح؛ لكن يمكن أن أعبُر الباب إلى المطبخ، وهو ما يعنى التبادل بين الشكل والأرض. ويمكن أن ينهى الطفلُ محتوى القارورةِ ثم يكسرها، مما يؤدى إلى التبادل بين المحتوى والإناء مع إحالة مقصودة ثابتة. وهناك بحث لافت للنظر أنجزه جيمس بوستيجوفسكي يدرس الاطرادات فى مثل هذه الأنظمة، اعتمادًا على أفكار جيوليوس مورافيك، وهى أفكار أرسطية فى الأصل. (انظر بحثه والأبحاث الأخرى المنشورة فى Pustejovsky 1993; 1992؛ وانظر كذلك Moravcsik 1990؛ و Chomsky 1975). وحين نوجه اهتمامنا إلى كلمات ذات خصائص علائقية أكثر تعقيدا، وإلى البنى التى تظهر فيها، نجد أن التأويل موجَّهٌ بتفاصيله الدقيقة جدًّا بالنظام الإدراكى الذى نتوقع ألا يكون متنوعًا إلا بقدر ضئيل لبُعده الشاسع عن التجربة الممكنة.

وقد صاغ عالم الأعصاب رودولفو لليناس الأمر بأفضل وجه حين وصف الإدراك بأنه "حلم يُقوّيه الدخلُ الحسى"، حيث الذهن "حالةٌ حوسبية للدماغ يولِّدها التفاعلُ بين العالم الخارجى ومنظومةٍ داخلية من أُطُر الإحالة" (Llinás 1987: 351)، والأطر الداخلية التى تُشكِّل الأحلامَ أكثر تعقيدًا وأكثر إدهاشا مما يُفترض دائما، حتى فى مستوى المعجم، وتبلغ حدًّا أعلى من ذلك حين نوجِّه أنظارنا إلى تعبيرات كوّنتها الإجراءاتُ الحوسبية.

وحين نبيّن تفصيلات خصائص التعبيرات، نتعلّم قدرًا أكبر عن التعليمات في المستوى الوجيهي "ص م" (أي: "الدلالة")، وهي التي تزوّل ببعض الطرق من أجل التفكير عن العالم والكلام عنه، إلى جانب أشياء أخرى، وما تزال بعضُ الأسئلة المهمة الغامضة تقع وراء ذلك، ومنها، مثلا: ما المعايير التي تنتمي بها هذه الخصائص إلى الملكة اللغوية بوصفها متمايزةً عن ملكات الذهن الأخرى الموصولةِ بها؟ وكيف تتصل الموارد المعجمية بأنظمة الاعتقاد، مثلا؟ وتظل مثلُ هذه الأسئلة في مجال ما يعرفه الناس، لا ما يفعلونه. وستظل الإجابات عن هذه الأسئلة تتركنا قاصرين عن فهم الكيفية التي تُستَعمل بها مواردُ الأنظمة الإدراكية، ومن الصعوبة بمكان أن نرى من هذه القضايا المتشابكة كيف يمكن أن نستخلص شيئًا مهمًا يمكن أن يخضع للبحث العلمي الطبيعي، وللاطلاع على بعض التعليقات على هذا الموضوع، انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب.

لاحِظ أن خصائص كلمات مثل: "بيت" و"باب" و"لندن" و"ماء" وغيرها لا تشير إلى أنّ لدى الناس اعتقادات متعارضة أو محيّرة. ولن يكون هناك ما يدعو لاستخلاص نتيجة كهذه، إن تخلينا عن الافتراض الاختياري الذي مفاده أن الكلمات تعيّن الأشياء، إذا استثنينا بعضَ الاستخدامات المعينة، وهي التي تقيّدها بطرق متداخلة إلى حد عال جدًا.

فهل ينبغي أن نفترض أن التعبيرات تُعيّن الأشياء، بصورة ذاتية؟ وبشكل أعم، هل ينبغي أن يزاد شيء على "ضعف الافتراضات" عن العلاقات الوجيهية والطرقِ التي تَدخل بها في التفكير والعمل لتَشمل العلاقات التي توجد بين بعض التعبيرات المعينة والأشياء الخارجية؟ وهذا ما يُفترض غالبا، مع أنه يجب بذل مزيد من العناية لنميّز بين نوعين، هما: (١) الأشياء في العالم، أو (٢) الأشياء في نوع من النماذج الذهنية، وتمثيل الخطاب، وما أشبه ذلك[*]؛ فإذا كان النوعُ الثاني فالدراسة، مرة أخرى، داخلية، أي شكلاً من التركيب، أما إذا افترضتَ النوعَ الأول فستستمر في افتراض وجود

مستويين وجيهيين، أي: "ص ص" و"ص م".

هب أننا افترضنا أن هناك عنصرًا a في الصورة الصوتية يقابل شيئًا خارجيًا a* نختاره a على أنه "قيمتها الصوتية"؛ لذلك يختار العنصرُ [ba] في "اللغة ــ د" عند جونز وحدةً ما نحو [ba]*، تكون "مشتركة" بينه وبين سميث إن كان لها نظير في "اللغة ــ د" عند [سميث]. ويمكن وصف التواصل عندئذ في ضوء هذه الوحدات المشتركة (جزئيًا)، وهي التي يمكن صياغتها بسهولة: خذ a* على أنها المجموعة المفردة {a} أو {3, a}، أو إن أراد أحد شيئًا أكثر واقعية، صياغةً أخرى مؤسسةً على حركات الجزيئات. ويمكن أن ندافع، بقدر أكبر من الشجاعة، عن وجهة نظر كهذه، مع أنه لا أحد يَفعل ذلك لأن الواضح أن هذا جهد لا طائل من ورائه.

ويمكن فعلُ الشيء نفسه في المستوى الوجيهي "ص م"، هب أن النظام الحوسبي صاغ a من اختيار معجمي واحد أو أكثر، حيث تكون a تمثيلاً لـ "ص م" أو شيئًا تركيبيًا آخر مشتقًا منه (أي: تعبيرًا ما في لغة صُورية ما، أو نوعًا لنموذج ذهني، إلخ). ويمكننا عند ذاك أن نفترض شيئًا a* على أنه "قيمةً دلالية" لها، وهو شيء خارجي عن "اللغة ــ د"، وربما كان مشتركًا بين جونز وسميث. وربما تكون a*، مرة أخرى، تركيبًا اعتباطيًا نضفي عليه الخصائصَ المرغوبة، أو نُسبغ عليه مسحة من الواقعية بطرق مختلفة. ويمكننا عندئذ أن نصوغ نظريات الصِّدق، ونطوِّر تصورًا للتواصل بحسب الوحدات المشتركة ــ ومن المؤكد أن هذه غالبًا ما تكون من نوع غريب جدًا. أما ما يجب تبيينه، كما هي الحال في أي اقتراح نظري يُدخِل وحداتٍ ومبادئ جديدة، فهو إمكان تسويغ هذا بالطرق الاختبارية المعهودة (مثل: قوة التفسير، إلخ).

ويهتم تيار عريض من الفلسفة المعاصرة للغة بتحليل العلاقات المزعومة بين التعبيرات اللغوية والأشياء، ويتناول بالبحث غالبًا الحدوس عن بعض الأفكار التقنية مثل: "يعيِّن" denote، و"يحيل" refer، و"صادق عن"

true of، إلخ، التي يُدّعى وجودها بين التعبيرات اللغوية وأشياء أخرى. لكن لا يمكن أن توجد حدوس عن هذه الأفكار، مثلما أنه لا يمكن أن يوجد حدس عن مصطلحات مثل "السرعة الزاوية" angular velocity، أو "بروتين"؛ ذلك أن هذه مصطلحاتٌ تقنية تنتمي إلى الخطاب الفلسفي ولها معــان معطــاة لا نظير لها في اللغة العادية؛ وهذا هو السبب الذي جعل فريجه يلجأ إلى اقتراح معنى تقني جديد للمعنى Bedeutung "المعنى"، مثلاً، وإذا كررنــا التجربــة الذهنية باستخدام كلمات يومية، فإن الأحكام تتهاوى، فيما يبدو، أو بدلاً مــن ذلك، تصير مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باهتمام [الباحث] مما يمنعها من أن تؤدي إلى نتائج مهمة.

ومن غير أن نستمر في مناقشة هذا الأمر هنــا، لــيس واضــحاً أنّ علاقاتٍ مثل "تعيين المعنى" denotation، أو "صادق عــن" true of ، إلــخ، تدخُل في نظرية اللغة الطبيعية واستخدامها بأي معنى يشبه المعنى الذي لها في النظرية التقنية للمعنى.

ويُزعم أحياناً أن مثل هذه الأفكار التقنية ضروريةٌ لتفسير التوصل أو لدراسة الصدق والكذب. ولا يقوم الاعتقاد الأول على أساس (انظر، من بين آخرين، Chomsky 1993a، والفصل الثاني في هذا الكتاب). كما لا يبدو أن الزعم الثاني صحيح، انظر ببساطة الكلمتين اللتين بدأ بهما هذا النقاش فــي اللغة اليومية، أي: "اللغة" و"الذهن". انظر إلى الحكمين التاليين عــن اللغــة والذهن:

١- Chinese is the language of Beijing and Hong Kong, but not Melbourne

"اللغة الصينية لغةُ بكين وهونج كونج، لكنها ليست لغة مدينة ملبورن".

٢- The mind is its own place, and in itself can make a Heaven of Hell, a Hell of Heaven.

"الذهن هو المكان الذي هو فيه، ويمكن له بنفسه أن يجعل الجنة نــارا والنار جنة".

والجملة الأولى صحيحة، لكن المؤكد أنه ليس لعبارة "اللغة الصينية" أي "مرجع" في العالم الواقعي، بالمعنى التقني، ولا يلزم أحدٌ أن يعتقد أنها كذلك من أجل أن يُعيِّن قيمة الصدق، أما إنْ أُقنعنا بحجة ميلتون (في قصيدة "الفردوس المفقود" Paradise Lost)، فسنوافق على أن الجملة الثانية صحيحة، لكن من غير أن نلزم أنفسنا باعتقاد أن الفاعل [في هذا البيت]، أو الضمير، أو الضمير الانعكاسي (أو العبارات الاسمية الأخرى) تُحيل، إما إلى شيء ما في العالم أو في عالم ذهني غامضٍ ما. إذ ليس هناك، في الأقل، ما يلزم بالانسياق وراء هذه الإغراءات، وذلك لأسباب اقتُرِحت في النقد الذي وجِّه في القرن الثامن عشر لنظرية الأفكار، وهي التي أُغفِلت كثيرًا في الفلسفة الحديثة للغة العادية، ومثل هذه الخصائص نمطية في كلمات اللغة الطبيعية، وبقدر يفوق ما يُعتقد، كما يتراءى لي، لأسباب بيّناها آنفا. ولا يعني هذا أننا ننفي إمكان صدورِ مثل هذه الأحكام بقصدٍ إحالي، لكنها تنتمي إلى طبيعة أكثر تعقيدا.

ويبدو، على أية حال، أنْ ليس هناك ارتباط حاسم بين عزو الصدق أو الكذب وبعض الأفكار عن الإحالة أو "تعيين المعنى" denotation بأي معنى يشبه المعنى في الخطاب التقني.

انظر بالمقابل إلى مصطلح آخر استعملتُه، أي: "اللغة ـ د"، وهو الذي يظهر في جمل مثل الجملة التالية:

٣ـ I-language has a head parameter.

"هناك وسيطٌ للرأس في "اللغة ـ د""

وهذه الجملة كاذبة إن كانت النظرية التي اقترَحها كاين Kayne (١٩٩٤) صحيحة، وربما تكون صادقة إن لم تكن تلك النظرية صحيحة، فمن المعقول في هذه الحالة، أن نقول إن للمصطلح "اللغة ـ د" "مرجعًا" حقيقيًا في العالم، أو قُصد أن يكون له، في الأقل. وينتمي هذا الحكم إلى نوع الخطاب الذي تنتمي إليه الجمل عن H_2O، والأحماض والأملاح، وتحديد

الجينات للبروتينات، إلخ. ولا تنتمي هذه الجمل إلى اللغة الطبيعية، حقيقة؛ ذلك أنها تتضمن مصطلحات تقنية، كـ "اللغة ــ د"، التي دخلت [في اللغة] بطريقة مختلفة جداً. ومع تطور التخصصات، تأخذ [هذه المصطلحات التقنية] بالابتعاد أكثر فأكثر عن الأصول البديهية واللغوية العادية التي يبدأ منها البحث العلمي.

ومن المعقول أن نفترض أننا نحاول، في اشتغالنا بمثل هذا البحث، صياغة أنظمةٍ بقصد أن تُعيِّن بعضَ الموضوعات الرمزية المركَّبة تركيباً جيداً أشياءَ معينة في العالم، كالجزيئات، و"اللغات ــ د"، إلخ. وربما تسمى هذه الأنظمة الرمزية "لغات"، إلا أن هذا مجاز وحسب. ذلك أنها لا تتضمن خصائص اللغة الطبيعية عادة، وتكتسب وتستخدم بطرق مختلفة تماماً، وليست تشخُّصات للحالة الأولى للملكة اللغوية، ويمكن أن ننطق الموضوعات الرمزية في هذه الأنظمة بأصوات لغتنا وأن نستعير لها تركيبات لغتنا حين نستخدمها، حتى حين تتضمن مصطلحات مخترعة أو مأخوذة من لغات لا نعرفها (مثل: eigenvector، وhomo sapiens "الإنسان العاقل")، لكن ليس لشيء من هذا صلة هنا. إذ يمكن أن تفارق هذه الأنظمةُ اللغةَ الطبيعية بطرق اعتباطية، باستخدامها حسابَ التفاضل والتكامل، أو الرموز أو الرسوم البيانية الكيميائية، إلخ.

وربما تسير هذه الأنظمة الرمزية باتجاه المثال الفريجي، وبحسب هذه المقاربة، فهناك "لغة، عامة، مشتركة" بمعادلات أو إشارات تُعبِّر عن أفكار مشتركة، ولهذه "اللغة" تركيب، أي لها فصيلةٌ من الصياغات المركَّبة تركيبًا صحيحاً؛ وليس هناك "إجابة صحيحة" للسؤال عن كيف وُلِّدت هذه المجموعة، ولها دلالة كذلك، وتقوم هذه الدلالة على الفكرة التقنية لـ"المعنى" Bedeutung، أي علاقة بين الرموز والأشياء. ومن المحتمل أنْ إحدى خصائص ملكة صياغة العلم في الذهن البشري تهدف إلى صياغة أنظمة فريجية. وإذا كان الأمر كذلك، فلن يبين لنا هذا شيئاً عن اللغة الطبيعية. إذ

ليس فيها نظائر لفكرة اللغة "المشتركة" أو "العامة". وتركيبها مختلف اختلافا جذريًا. وهناك إجابة حقيقية عن السؤال: "ما الإجراء التوليدي الصحيح" و"اللغات ــ د" وطائف يُنظر إليها من خلال المفهوم intension . كما يبدو أنْ ليس هناك فكرة "للصياغات المركَّبة تركيبًا صحيحًا" بالمعنى عند كوين، مثلا، في نقاشه للتماثل الماصدقي وعدم التحديد في الترجمة، أو عند كثير من اللسانيين، وعلماء النفس، والفلاسفة، وآخرين يهتمون بالقدرة التوليدية، والقدرة على تقرير الصحة التركيبية، والاختزال إلى الأنحاء الحرة من السياق، والقوة المفرطة لبعض النظريات، ومشكلات أخرى لا يمكن حتى صياغتها عن اللغة الطبيعية – على حد ما نعلم – للاطلاع على بعض أوجه سوء الفهم لهذه القضايا والأصول التي جاءت منها (انظر Chomsky 1980; 1986).

أما فيما يخص الدلالة، وعلى حد فهمنا لاستخدام اللغة، فيبدو أن الحجة التي تدافع عن الدلالة التي تعتمد على الإحالة ضعيفة (إذا استثنينا الوجه التركيبي الداخلي)، فيحتمل ألا تتضمن اللغةُ إلا التركيب والذريعية؛ ولا تتضمن "دلالة" إلا بمعنى أنها "دراسةُ كيف تُستخدم هذه الوسيلة، التي تخضع بنيتُها الصورية واحتمالات التعبير فيها للبحث التركيبي، فعلاً عند مجموعة لغوية ما"، إن استشهدنا بالصياغة المبكرة في النحو التوليدي قبل أربعين سنة، وهي التي كانت متأثرة بفتجنشتاين وأوستن وآخرين (Chomsky 1955/1975; 1957: 102-103). فتتألف اللغةُ، من وجهة النظر هذه، من حوسبات داخلية وأنظمة للأداء تنفُذ إليها إلى جانب عدد كبير من المعلومات والاعتقادات، وتنفذ تعليماتِها بطرق محدَّدة لكي تساعدنا في الكلام والتواصل، من بين أشياء أخرى. ولن يكون هناك استثناء خاص لما يسميه سكوت سومس "الحقيقة الدلالية المركزية عن اللغة، . . . التي تعني أنها تُستخدم لتمثيل العالم"؛ إذ لا أحد يفترض أن اللغة تُستخدم لتمثيل العالم، بالمعنى المقصود (Soames (1989) ، نقلاً عن B. Smith (1992) ، بصفتها القضية المركزية عند الفلاسفة أو في اللغة).

ولم أمسَّ فيما مضى إلا الظاهر، أملاً في الإيحاء بصورة عامة للكيفية التي يمكننا بها دراسة اللغة بصفتها موضوعًا طبيعيًا، وبالاتجاه الذي قاد إليه مثل هذا البحث، وبأنواع المشكلات التي ما تزال على الأفق. وربما أختتم هذا النقاش بكلمة واحدة وحسب عن حدودها، حتى إن وُسِّعت إلى مدى أبعد؛ فقد أوضحتُ أن هناك ما يوحي بوجود بعض الحدود المحتملة لها، وأن القضايا العامة للقصدية، ويشمل ذلك القضايا الخاصة باستخدام اللغة، ربما لا يمكن افتراض دخولها في حدود البحث العلمي الطبيعي، كما أظن. ويمكن أن يوضَّح هذا الأمر بشكل أكثر جلاء بالعودة إلى الثنائية الديكارتية، وهي الفرضية العلمية التي سعت، على وجه الخصوص، لتفسير حقيقة أن استخدام اللغة يقع وراء حدود أية آلة ممكنة، وقد زُعزع الإطار الديكارتي باكتشاف أن سلوك المادة غير العضوية نفسه يقع وراء هذه الحدود. ويمكن، مع ذلك، ترسيس هذه الحجج، لكنها الآن بتجريد من أية مقتضيات غيبية، ذلك أنّ تصور المادة قد اختفى. وإذا أعيدت صياغتها على هذا الشكل، فستظل تثير لغزًا خالصًا، كما يبدو. ذلك أنها لم تتأثر، مثلاً، بالتحول من الآلات المصنوعة التي أثارت خيال الديكارتيين إلى الحواسب في الوقت الحاضر، ولا تلقى العلومُ التي تَدرس الدماغ إلا قليلاً من الضوء عليها.

وربما لا تكون هذه المشكلات حقيقية، كما يعتقد بعض الباحثين، وربما تكون حقيقيةً لكننا لم نكتشف بعدُ طريقةً لتناولها، وربما يقع "ذلك الطريق"، بغض النظر عما يكون، وراء قدراتنا الإدراكية، أي وراء متناول ملكة صياغة العلم. ويجب ألا يكون ذلك مفاجئًا لنا، إن كان صحيحًا، إن كنا على استعداد، في الأقل، لقبول الاعتقاد بأن البشر جزء من العالم الطبيعي، يتصفون بمدى غني وحدود تماثل هذا المدى في غناه، ويواجهون مشكلات ربما يأملون في حلها وأحاجي تقع خارج متناولهم، أي تلك "الأسرار القصوى للطبيعة" التي "ستظل إلى الأبد" مغلفة بـ "الغموض" كما اقترح هيوم، مرددًا بعض افتراضات ديكارت.

(١) وكانت هذه التعليقات الساخرة موجهةً ضد كتاب كولن ماجن: "مشكلة The problem of consciousness (1991): Colin McGinn الشعور". ويشير ماجن إلى زيف هذه الحجة. انظر أيضا (McGinn 1993; Chomsky 1975).

(٢) للاطلاع على بعض التعليقات عن خطئه في تأويل النظريات الحوسبية التي يَلمح إليها، وطبيعةِ الدلالة، التي يتوقع أن يَجد فيها حلاً "للأزمة"، انظر (Chomsky 1993a).

(٣) لاحظ أن هذا التأويل لمثل هذه الدراسات يختلف عن تأويلات أخرى نجدها في الأدبيات الفلسفية. فقد اقترح مصطلح "اللغة ــ د" للتغلب على سوء الفهم الذي ينجم عن الغموض التركيبي لمصطلح "نحو"، الذي يُستخدم في الإحالة إلى "لغةٍ ــ د" وإلى النظرية التي يصوغها اللساني عن تلك اللغة معا. لهذا لا تُشبه معرفة جونز بـ"اللغة ــ د" عنده (أي "النحو"، في أحد معانيه) المعرفةَ (الجزئيةَ) عند لساني ما.

(٤) وفي بعض حالات نمو اللغة التي درستْ دراسةً دقيقة كان هناك تعرُض من النوع المعهود للغة حتى سن ١٩ إلى ٢٠ شهرا، وهو يسبق بفترة طويلة بدء التمرين (وكان ذلك أربع سنوات تقريبا، في أكثر الحالات نجاحا). وعلى الرغم من غياب الأدلة المؤيِّدة فإن من المعقول الظن بأنّ التعرض المبكر ربما يكون حاسما، خاصة في ضوء الاكتشافات الأخيرة عن الاكتساب اللغوي المبكر جدًا (انظر C. Chomsky 1986, Mehler and Dupouz 1994).

(٥) ولن أناقش، هنا أو فيما يأتي، الفرضية الأخرى التي تقول إن هذه العلاقات تصمح عن الأشياء في لغة عامة. وهذه الفكرة معروفة في البحث العلمي، وهي تثير ما يبدو كأنه مشكلات لا حل لها، وهي مشكلات لم تناقش بعدُ (للاطلاع على مناقشة هذه الأمور، انظر Chomsky 1993a، والفصل الثاني في هذا الكتاب).



الفصل السادس
اللغة من منظور المقاربة الداخلية

أودُّ [هنا] التوسّعَ في تفصيل بعض الملحوظات الخاصة بدراسة اللغة والذهن التي قدمتُها في الفصول السابقة، وفي الفصل الخامس خاصة، وأريد بدايةً أن أميّز بين المقاربة "الداخلية" و"المقاربة العلمية الطبيعية"، ولا تعني الأخيرةُ إلا محاولة أن ندرس البشرَ بالطريقة نفسها التي ندرس بها أي شيء آخر في العالم الطبيعي. أما المقاربة العلمية الطبيعية الداخلية فتسعى إلى فهم الحالات الداخلية لكائن عضوي ما، وليست الدراسة العلمية الطبيعية محدودة بهذه الحدود بالطبع؛ ولا يلغي البحثُ الداخلي الذي يدرس كوكبًا أو نملة دراسةَ النظام الشمسي أو جماعةِ للنمل أو بمنعها. ويمكن أن تتخذ الدراساتُ غيرُ الداخلية للبشر أشكالاً كثيرةً: فيمكن [أن ندرسهم] كأطوار في دورة التحوّل من الأوكسجين إلى ثاني أكسيد الكربون، أو أطوارٍ لانتقال المورثات، أو فلاحين أو طباخين، أو أعضاء في جمعيات وجماعات، بما لهذه من بنى للقوة، وأنظمة مذهبية، وممارسات ثقافية، إلخ. وتؤخذ الدراسات الداخلية غالبًا أمرًا مسلّمًا في أنواع أخرى من الدراسات الأبعد مدى، لكن ينبغي أن يكون واضحًا أن مشروعية هذا النوع من البحث أو ذاك ليست من القضايا التي تثار.

ولمزيد من الإيضاح فأنا أقصر اهتمامي هنا على السعي نحو الفهم النظري، وهو ذلك النوع المحدّد من البحث الذي يسعى إلى تفسير بعض مظاهر العالَم انطلاقًا من بعض البنى والمبادئ التفسيرية المتوارية خلف ظواهر الأشياء غالبا، ويمكن لمن يعتقد أن البحث العلمي الطبيعي هو المنهج الوحيد الصحيح أن يعتقد من غير أن يكون متناقضًا أنه يمكن أن نتعلّم من دراستنا للتاريخ أو قراءة الروايات عن الاهتمامات البشرية الخاصة عن الكيفية التي بها يفكّر الناس ويشعرون ويتصرفون أكثر مما نتعلمه عنها عن

طريق البحث العلمي الطبيعي كله. وقد يبرهن البحث العلمي، خارج بعض المجالات الضيقة، أنه سطحي أو لا أمل منه، وربما سيظل كذلك دائماً، وربما لأسباب تنبع من طبيعتنا الإدراكية.

وسأسمي مظهري العالم اللذين أهتم بهما هنا بمظهريه الذهني واللغوي، مستخدماً هذين المصطلحين بشكل غير ضار ـ بالطريقة التي نستخدم بها مصطلحات "كيميائي" أو "كهربائي" أو "بصرياتي" optical ـ من أجل انتقاء بعض الظواهر والأحداث والعمليات المعقدة وغيرها التي يبدو أنها تتصف بقدر معين من الوحدة والتماسك، وأقصد بـ"ذهن" المظاهر الذهنية للعالم. وليس هناك حاجة في أيةِ حالة من هذه الحالات أن يكون لها سوابق واضحة، وليس هناك ما يلزم باعتقاد أنَّ هذه المقولات ستبقى حين يحقق البحثُ العلمي الطبيعي قدراً من التقدم.

وأعني بـ"المقاربة العلمية الطبيعية" "المقاربةَ العلمية الطبيعية المنهجية" في مقابل "المقاربة الثنائية المنهجية": وهي المذهب الذي يرى أنه ينبغي، في سعينا نحو الفهم النظري، أن تُدرس اللغةُ والذهن من حيث المبدأ، بكيفية مختلفة عن الطرق التي ندرس بها الموضوعات الطبيعية. وربما لا يعتنق هذا المذهب إلا قلة، ومع هذا فهو يهيمن على تيار عريض من الممارسات البحثية، كما أعتقد. (للاطلاع على بعض النقاش الذي جرى مؤخراً عن هذا الأمر، انظر Chomsky 1986، والفصلين الثاني والثالث في هذا الكتاب).

ويدرس أحدُ فروع البحث العلمي الطبيعي الفهم البديهي. ونحن نهتم هنا بالكيفية التي يؤوِّل بها الناسُ ثباتَ الموضوع، وطبيعةَ الحركة ومسبباتها، والفكر والفعل، إلخ (أي: "العلم الشعبي"، بأحد معاني هذا المصطلح)، وربما يكون الطريقُ الصحيح لوصف هذه [القضايا] أن ندرسها في ضوء الاعتقادات عن مكوِّنات العالم (ولنسمِّها بـ "الوحدات") وتنظيمها وتفاعلها وأصولها. دعنا نفترض أن الأمر كذلك. وليس من الواضح إن كان لموارد

العلم الشعبي للتصورية صلةً بالتصورات التي تدخل في الموارد التصورية للبحث التأملي الواعي الذي نجده في كل ثقافة نعرفها (أي: "العلم المبكّر")، أو بالنشاط المعيش الذي نسميه "العلم الطبيعي"، وإذا كان الأمر كذلك، كيف تكون تلك الصلة، وسنسمي دراسة هذه الأمور كلها بـ "العلم الإثني"، من أجل التبسيط.

وليس واضحًا كذلك كيف تتصل الموارد التصورية التي تدخل في هذه الأنظمة الإدراكية بالموارد الدلالية (ومنها المعجمية) للملكة اللغوية. فهل يعزو الناسُ بعض الاعتقادات beliefs إن كانوا يتكلمون لغةً ليس فيها مثل هذا المصطلح، وهي الحال في أكثر اللغات، كما يبدو؟ وهل يمكن لمن لا يعرف كلمات savoir faire, Schadenfreude, machismo أن يدركها، أو يدرك ما يعبَّر عنه بتعبيرات لا حصر لها مما يمثّل تحدّيًا للمترجمين؟ وإذا قلتُ إن أحد الأشياء التي تُهمّني هو "الرجل المتوسط ونقاط ضعفه"، أو "أولويات جو المدمن"، أو "المسار الداخلي الذي ضمّنته شركةُ ريثون آخر اتفاقية للصواريخ"، فهل يترتب على هذا أنني أعتقد أن العالم الواقعي، أو نموذجًا ذهنيًا له عندي، يتكوّن من وحدات كـ "الرجل المتوسط" و"نقاط الضعف"، و"جو المدمن"، و"الأولويات" و"المسارات الداخلية"؟ وحين تقول الأخبار إن مذنّبًا يتوجّه نحو المشتري أو أن صيادي اللوبستر يصيدون السمك في مياه ولاية إنجلترا الجديدة [الأمريكية] بشكل جائر فهل يعني ذلك أن الكتّاب والقراء يظنون أن للمذنبات رغبات أو أن اللوبستر سمك؟ وهذه أسئلة عن حقائق تتعلق بمعمار الذهن، وهي مصوغة، لا شك، بشكل غير ملائم؛ لأننا لا نفهم إلا القليل عن هذه الأمور.

وإذا صحّ الحدسُ دليلاً فهناك، فيما يبدو، فجوة واسعة بين الموارد الدلالية للغة حين تؤوّل تأويلاً حرفيًا والأفكار التي يعبَّر عنها باستخدام هذه الموارد. فأنا سعيد بأن أتحدث عن أن الشمس تغرب وراء الأفق، والمذنبات تتوجه نحو المشتري، وعن ضرب الأمواج للشاطئ، ثم تراجُعها، واختفائها

حين تموت الريح. لكني لست واعيًا بأنّ لدي اعتقادات تتماثل حرفيًّا مع هذه المصطلحات التي تدل على الحياة والقصدية وأنا أستخدمها بحريّة، أو تلك التي تتعارض مع أي شيء أفهمه عن النسبية وحركات الجزيئات. ولا يبدو لي، كذلك، أن العالم، أو كوني الذهني، مسكونان بأي شيء أصفه بأنه أشياء بعينها. ويجد بعضُ علماء النفس وعلماء الألسنة الذين يدرسون علاقة اللغة بالفكر (كفرضية سابير وورف، مثلا) هذه المشكلات صعبة ومحيِّرة؛ وتقدمُ [عنها] بعضُ الإجابات الجاهزة في كثير من الأدبيات الفلسفية المعاصرة، لكنها إجابات تقوم على أسس أقل إقناعا، كما يبدو لي.

بل لقد قُدِّمت إجاباتٌ تختلف بعضُها عن بعض اختلافًا جذريًا. خذ اللغة مثالا. فقد كتب دونالد ديفيدسون: "إننا جميعًا نتحدث بقدر كبير من الحرية عن اللغة، أو اللغات، حتى إننا نميل إلى أن ننسى أنه ليس هناك شيء كهذا في العالم؛ فليس هناك إلا الناسُ وما يصدر عنهم من أحداث كتابية وصوتية مختلفة. ومع أن هذه النقطة واضحة جدًا إلا أن من السهل أن ننساها" (Davidson 1990b). كما يرى أغلب فلاسفة اللغة – وبالقدر نفسه من الوضوح – أن "هناك" أشياء في العالم كاللغات، بل هناك "لغات عامة، مشتركة" – كالصينية والألمانية، وغيرهما – ونحن نفهمها، كما يرى بعض الفلاسفة، "فهمًا جزئيًا، بل فهمًا جزئيًا خاطئا" (Dummet 1986: 468). ويرى هيلاري بتنام، من بين آخرين كُثُر، أن هذا الزعم حقيقةٌ تماثل في وضوحها وضوحَ نفي ديفيدسون لها، إضافة إلى بعض الحقائق الواضحة بالقدر نفسه عن الأشياء في العالم مما تشير إليه العبارات الاسميةَ بشكل حر إلى حد بعيد، كما يبدو، لهذا يحوي العالمُ أي شيء يمكن أن نُحيل إليه على أنه شيء يعنينا أو يُزعجنا، ويَشمل ذلك المراجع التي لا نعرفها ويُزعم أن الكلمات تشير إليها (Davidson 1990b; Putnam 1992, 1998a)[1].

وهناك موقف ثالث يرى أنه قلَّما تكون النتائجُ عن مثل هذه الأمور واضحة، فيجب أن تُكتشف الإجاباتُ عن كل حالة على حدة، كما تتطلب

الأسئلةُ صياغةً أكثر عناية في المقام الأول. ويسعى العالِمُ الإثني إلى اكتشاف ما ينظر إليه الناسُ على أنه مكوّنات للعالم، مهمَا كانت الطريقة التي ربما يتكلمون بها عنه. ويسعى نوعٌ مختلف من البحث نحو أفضل نظرية عن اللغه واستخدامها، والحالات والعمليات والبنى التي تدخل فيها.

وتبرز هذه الأسئلة في أكثر الحالات بساطة، كالأشياء التي يمكن تسميتها، والأشياء الطبيعية، والمواد المصنوعة، والأفعال، إلخ. وأنا آخذ الشيء الذي أمامي على أنه مكتب، لكن يمكن أن أُقنَع بأنه سرير صلْب لقزَم أخطأتُ في استخدامه مكتبا؛ وذلك أمرٌ مردُّه إلى مقصد المصمِّم والاستخدام المألوف. فأنا آخذه، من زاوية، على أنه الشيء نفسُه مهما كانت الإجابة؛ ومن زاوية أخرى، آخذه على أنه شيء مختلف. والعوامل التي تدخل في مثل هذه الاختيارات متنوعة ومعقدة. فأنا آخذ محتوى كأسٍ موضوع أمامي على المكتب على أنه شاي، لكن إن أُخبِرتُ بأنه جاء من صنبور بعد أن مرَّ عبر مصفاة شاي موضوعةً عند مصدر الماء، فإني أستنتج أنه ماء حقيقة، لا شايا (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب). ومرة أخرى، فهو الشيء نفسه عندي في أي الحالين، من زاوية، لكنه شيء مختلف، من زاوية أخرى. وليست بعضُ الأعواد التي أمرُّ بها في الطريق شيئًا إطلاقا، إلا إن قيل لي إنه وُضِعت عن قصد لتكون نوعًا لشيء ما، بغض النظر عن إن كان الناس هم الذين وضعوها أم وضعتْها حيوانات البيفرز: فتعتمد ماهيةُ الشيء ونوعُه على التكوينات المحدَّدة للاهتمامات البشرية، والمقاصد والأهداف والأفعال؛ وهي، في أحد أشكالها، ملحوظة قديمة قدم أرسطو. وربما كانت الحال أنني في مثل هذه الحالات لا أغيِّر من معتقداتي عن مكوِّنات العالم تبعًا للتغيُّر الذي يعرض لتعيينات الأشياء - ويعني هذا، في نوع "العلم الشعبي" عندي، أن الوحدات التي تحمل حاسوبي، ويمتلئ بها الكأس، وأمرُّ بها في الطريق، تظل كما هي باستقلال عن التفسيرات، وهي التي تضعها في علاقات غير متوقَّعة مع التصميمات، والمقاصد، والاستخدامات، والأهداف.

وربما نتمكن، مع التقدم في دراسة الملكة اللغوية والأنظمة الإدراكية الأخرى، من فهم المعايير التي ربما أطّرتْ صورةَ العالم عندي في ضوء الأشياء التي عيّنتْها وأفردتْها خصائصُ المعجم لدي، أو ربما تدخل في [هذه الصورة] وحدات وعلاقات يمكن وصفها بموارد الملكة اللغوية. وتبدو بعضُ الخصائص الدلالية كأنها تتصل فعلاً اتصالاً محدّدًا باللغة، وتتطور بوصفها جزءًا منها، وتندمج اندماجًا وثيقًا بمظاهرها الأخرى، بل تمثّل بطرق طبيعية في بناها الصرفية والتركيبية. وربما تعيّن كلماتُ اللغة بعضَ المواضع في أنظمة الاعتقاد، وهي التي تزيد من غنى المنظوراتِ المعقّدة التي تستخدمها في النظر إلى العالم. وربما لا تقدّم بعضُ الكلمات، خاصة تلك التي تفتقر إلى بنى علائقية داخلية، أكثرَ من ذلك، ومنها على الأخص "الكلمات التي تسمي الأنواع الطبيعية"، وإن كانت هذه العبارة مضلّلة، إذ ليس لهذه الكلمات علاقة بالأنواع الموجودة في الطبيعة. ويلاحظ أكيل [عقيل؟] بيلجرامي، في رفضه للأفكار المشكوك فيها عن الاعتماد الإحالي، أنّ تحليلَ الموارد المعجمية في ضوء "منظور المنفذ اللغوي عن الأشياء" a linguistic agent's perspective on things، يقود بطريقة طبيعية إلى الربط بين دراسة المعنى و"أمورٍ مثل الاعتقادات بوصفها تتوسط بين الأشياء في العالم الذي نقف معه في علاقات سببية" وبين فكرةِ "السمانية الجذرية أو السياقية" للمضمون الذي طوّره في رفضه لـ"مجمل التفكير الحالي الذي يُصنّف المضمون إلى واسع وضيق". وتبدو هذه التوجهات مثمرة وتستحق أن تُبحث (انظر Bilgrami 1993: 62؛ وانظر عن كلمات الأنواع الطبيعية Bromberger 1992a).

وليست دراسةُ الموارد الدلالية للملكة اللغوية علمًا إثنيًا، كما ينبغي أن يميّز المشروعان كلاهما – بالطبع – عن البحث العلمي الطبيعي من حيث مدى الموضوعات التي تتناولها اللغةُ الطبيعية ويتناولها العلمُ الشعبي بطرقهما الخاصة. وهذه الملاحظة بديهية في حالة سقوط التفاح، وتوجُّه النباتات نحو الضوء، وتصويبِ الصواريخ نحو السماء؛ فلا يتوقع أحدٌ هنا أن

تدخل اللغةُ العادية أو العلم الشعبي في المحاولات التي تتغيا الوصول إلى فهم نظري للعالم، وراء النقاط الحسية التي ينطلقان منها. وفي مقابل ذلك، يُعدّ مشكلةً خطيرة أن تحدّد إنْ كان "الكلام الذهني والوحدات الذهنية ستفقد، في نهاية الأمر، مكانتها في محاولاتنا وصف العالم وتفسيره" (Burge 1992: 33). والاعتقادُ بأن الكلام الذهني والوحدات الذهنية ستفقد مكانتهما "نزعةً إقصائية" أو "نزعةً مادية إقصائية"، يَصفها بيرج بأنها تيار عريض ضمن الجهود التي تسعى "لجعل الفلسفة علمية"؛ وربما تكون هذه الدعوى خاطئة، لكنها مهمة.

أما لماذا هي مهمة فغير واضح. فإذا استبدلنا "فيزيائي" بـ "ذهني" في هذه الدعوى ستفقد أهميتها؛ ذلك أن "النقاش الفيزيائي والوحدات الفيزيائية فقدت، منذ زمن بعيد، مكانتها في محاولاتنا وصفَ العالم وتفسيره"، إن عَنينا بـ "النقاش الفيزيائي" و"فيزيائي" مفاهيم الخطاب العام أو العلم الشعبي، وعنينا بـ "محاولات وصف العالم وتفسيره" البحثَ العلمي الطبيعي. فلماذا يجب أن نتوقع شيئًا مختلفًا عن "النقاش الذهني والوحدات الذهنية"؟ ولماذا يجب، مثلاً، افتراضُ أنّ علم النفس "يسعى لصقل بعض الأحكام البديهية العامة عن النشاطات الذهنية للناس، وتعميقها وتعميمها وتنميطها" (Burge 1986a: 8)[٢]، مع خلوّ الكيمياء وعلوم الأرض والأحياء من أي اهتمام مماثل. فلا يتوقع أحدٌ أن يكون للكلام العادي عن الأشياء التي تحدث في "العالم الفيزيائي" صلةٌ خاصة بالنظريات العلمية الطبيعية؛ ذلك أن هذه المصطلحات تنتمي إلى عوالم فكرية مختلفة. ولم يُنظر إلى هذه الحقائق على أنها تثير مشكلةَ الجسد ــ الجسد، ولم يقترح أحدٌ دعوى لـ "النزعة الشذوذية لما يكون فيزيائيًّا" من أجل التعامل مع هذه الحقائق. لذلك يجب أن يكون الشيء نفسه صادقًا عن أحكام مثل:

John speaks Chinese.

"يتكلم جون الصينية".

أو: John took his umbrella because he expected rain.

"أخذ جون مظلّته لأنه توقع المطر".

- مع أننا ربما نأمل، في الحالات كلها، أن يكون باستطاعة العلم أن يقود إلى شيء من الفهم والتبصُّر في المجالات التي فتحت أبوابها محظورات البحث البديهية.

ولا يبدو أن هناك أساسًا لأية مشكلة للذهن — الجسد هنا ولا سببًا للشك في دعوى ديفيدسون التي مفادها أنه لا توجد قوانين نفسية فيزيائية تربط الأحداث الذهنية بالأحداث الفيزيائية في منظومة تفسيرية ملائمة؛ ولأسباب مماثلة، ليس هناك قوانين "فيزيائية — فيزيائية" لربط الكلام العادي عن الأشياء بالعلوم الطبيعية، حتى إن وقعت الأحداثُ المعينة الموصوفةُ في مدى ما يمكن أن تَصِفه [العلوم الطبيعية]. ولا يبدو التمييز بين المظاهر الذهنية للعالم ومظاهره الأخرى مسوَّغًا، بهذه المعايير، إلا من زاوية واحدة هي: أنَّ فهمنا النظري للغة والذهن والناس عمومًا على درجة كبيرة من الضحالة، إلا في بعض المجالات المحدودة، وهو ما يجعلنا مقصورين على استخدام مواردنا الحدسية في التفكير عن هذه الأمور والكلام عنها.

وليس ذلك أنَّ الخطاب العادي يُخفق في الكلام عن العالم، أو أن الأشياء المحدَّدة التي يَصفها غير موجودة، أو أن تحليلاته ليست دقيقة جدًا. أما السبب، بدلاً من ذلك، فهو أنه ليس من حاجة لأن يكون للمقولات المستخدمة والمبادئ المفروضة نظائرُ تقريبية في البحث العلمي الطبيعي. ويصح هذا حتى في أجزاء الخطاب العادي التي لها طابع شبيه بالطابع العلمي الطبيعي. فلا تهتم الكيمياء بالكيفية التي يقرِّر بها الناس إن كان شيء ماءً أو شايًا. وليس هدفًا ضروريًّا للكيمياء الحيوية أن تقرِّر النقطة التي تبدأ عندها "حقيقةُ الحياة" في مسار الانتقال من الغازات البسيطة إلى البكتيريا. إن

فرصنا مثل هذا التصنيف، ولن يكون تماثل ذلك مع الأفكار البديهية أكثر من تماثله في حالة أفكار كـ"السماء" و"الطاقة" و"صلب". أما إن كان الاستخدام العادي [للغة] يَصِفُ الفيروسات بأنها "حية" أم لا فليس من الأمور التي تلفت نظر علماء الأحياء، الذين سيصنفونها بالطريقة التي يرغبونها في ضوء المورِّثات والظروف التي تتحكم في قيامها بوظائفها. ولا يمكن أن نحتكم إلى الاستخدام العادي في تقرير إن كان فرانسوا جاكوب مصيبًا في قوله إن "الحياة لا تبدأ، عند علماء الأحياء، إلا بما يكون قادرًا على تأسيس برنامج وراثي" (Jacob 1974: 304)، مع أنَّ "من الاعتباطي في علم الكيمياء، بالمقابل، رسمَ حدٍّ حيث لا يوجد إلا استمرار وحسب". وبالمثل، لا يدخل التصورُ "بشر"، بما يتصف به من خصائص غريبة للاستمرار النفسي، في العلوم الطبيعية. وتحاول النظريةُ التطورية والفروعُ الأخرى لعلم الأحياء أن تفهم "جون سميث" ومكانه في الطبيعة؛ وإن لم يكن ذلك تحت وصف "بشر" أو "شخص" كما نفهمهما في اللغة والفكر العاديين. وهذه الأفكار مهمة لعلم دلالة اللغة الطبيعية والعلم الإثني، لكنها ليست كذلك لفروع علم الأحياء البشري التي تسعى لفهم طبيعة جون سميث وأفراد النوع الذي ينتمي إليه أو لما يَفرُقهم عن القرود والنباتات (من أجل وجهة نظر معاكسة عن هذه الأمثلة، انظر Putnam 1992).

وتَسير العلومُ الخاصة بطُرقها الخاصة بها كذلك. وإذا استعرنا المثالَ الذي ناقشه جيري فودر عن نهر متعرِّج يُعرف شاطئيه، فلا تنشغل علومُ الأرض بالظروف التي يأخذ الناسُ في ضوئها النهرَ على أنه النهرُ نفسُه إن عُكِس اتجاهُه أو وُجِّه وجهة أخرى، أو حين يأخذون شيئًا يبرز من البحر على أنه جزيرة أو جبل ذو قاعدة مائية. وينبغي أن نتوقع الشيء نفسه عن أفكار مثل "لغة" و"اعتقاد" والكلمات التي تنتمي إلى المجالات الدلالية نفسها في اللغات المختلفة والثقافات المتنوعة.

ويُنظر إلى العلوم الطبيعية المعيَّنة عمومًا على أنها غالبًا أدوات

مصطنعة وأشياء متواضعٌ عليها رغبة في السهولة، ولا يتوقّع أحدٌ أن تمتثل الطبيعة على مقاييس قوالبها، وتعليق فرانسوا جاكوب [عن هذا] نمطي. وملاحظته ليست خلافية عن "العلوم الصحيحة"، لكنها قوبلت باعتراضات قوية في حال اللغة. فقد كان هناك نقاش محتدم عن الموضوع الذي تشتغل به اللسانيات "حقيقةً"، وعن أصناف المادة الأولية التي يُسمح لها أن تُعنى بها. ورُسم فارقٌ بين "الدليل اللغوي" الذي يُعدُّ ملائمًا "للسانيات"، والدليل "النفسي" وأنواع أخرى من الأدلة غير الملائمة لها. وهذه النقاشات التي يمكن أن نجدها في الحقول البحثية ذات الصلة كلها غريبةٌ عن البحث العلمي الطبيعي. فلا تأتي أيّةُ ملحوظة اختبارية مطمَّةً بشعار مكتوب على كمّها يقول ("إنني أصلح لـ"س")، حيث تكون "س" إما الكيمياء أو اللسانيات أو أي علم آخر. ولا يسأل أحدٌ إن كانت دراسة جزيء معقّد ما تنتمي إلى الكيمياء أو إلى علم الأحياء، كما يجب ألا يسأل أحدٌ إن كانت دراسة التعبيرات اللغوية وخصائصها تنتمي إلى اللسانيات أو علم النفس أو علوم الدماغ.

وليس بإمكاننا أن نعرف مسبقًا أنواعَ الأدلة التي يمكن أن تكون مهمة لهذه المسائل. لهذا تقترح بعضُ الأبحاث الحالية أنه ربما تقدّم دراساتُ النشاط الكهربائي للدماغ دليلاً مهمًا لها، وهي استحالة تصورية كما يرى قسمٌ كبير جدًا من الأبحاث المتخصصة، كما تقترح [هذه الأبحاث] بعض المتطلبات الخلافية الغريبة، نحو: احتمال أنه ربما توفّر دراساتُ الإزاحة الإدراكية للطقطقات دليلاً عن حدود المكوّنات التركيبية، في حين لا تُعد الملحوظاتُ عن الضمائر العائدة في اليابانية التي تقدّم دليلاً أقوى، اعتمادًا على أسس علمية طبيعية، دليلاً على الدعاوى الواقعية بسبب شكلٍ خطير من أشكال عدم التحديد (انظر مثلاً، Quine 1987). أو أنه ينبغي أن نكتفي — بل ربما أن نهتمّ — بـ "وجهة نظر الجدّات" [الكلام العام غير المتخصص] عن المجال الذي تهتم به اللسانيات، مع أنه ربما لا يكون هذا الموقف مقبولاً في حال الكيمياء (Devitt and Sterelny 1989). أو أنه لا يمكن من حيث المبدأ

استخدامُ دراسات عمليات التحليل والاكتساب والأمراض والجروح والتنوع الوراثي وغيرها دليلاً على وجود عناصر التمثيل اللغوي ومكانتها (Soames 1989)، على الضد مما يراه اللسانيون الممارسون منذ زمن بعيد؛ كإدوارد سابير ورومان ياكوبسون في الأبحاث الكلاسيكية، أو في الدراسات التي أُجريت مؤخرًا عن آثار التداعي priming[٢] في تحليل الكلام ومقتضياته بشأن العناصر التي لا تُنطق. وتعكس هذه التوجهات كلُّها شكلاً من الثنائية، أي الإصرار على أنه يجب ألا نعامل مجالَ "الذهني"، أو المجال اللغوي في الأقل، بالصورة التي نعامل بها المظاهر الأخرى للعالم.

وتَبْدي الثنائيةُ المنهجيةُ أحيانًا صراحة، أو هكذا يبدو. انظر إلى دعوى مايكل دوميت عن أن التفسيرات العلمية تَقصُر عن التفسيرات الفلسفية لأسباب تصورُية. لنأخذ المثال الذي أورده، ونفترض أن مقاربةً علميّة طبيعية للغة نجحتْ إلى حد يفوق ما نحلم به. افرض أن هذه المقاربة وفّرتْ لنا تفسيرًا دقيقًا لما يَحدث حين تباشر موجاتٌ صوتية الأذن ثم تحلل، ثم دُمجت هذه المقاربة بشكل تام في نظرية علمية عن الحدث، وحلّت مشكلةَ التوحيد، وأدى ذلك إلى إلحاقها بالنظريات عن الخلية والعمليات الحوسبية. فسيكون لدينا، حينئذ، نظريةٌ ناجحة عما يَعرفه جونز حين اكتسب لغةً ما، أي: ما يَعرفه عن السجع، والاقتضاء، والاستخدامات اللغوية الملائمة للسياقات، إلخ. لكن بغض النظر عن مدى النجاح الذي حققتْه هذه الاكتشافات فربما، كما يقول دوميت، "لا تضيف شيئًا إلى الفلسفة"، التي تتطلب جوابًا عن سؤال مختلف، وهو سؤال لا يتعلق بالكيفية التي تُخزن بها المعرفة وتستخدم، بل بـ"كيف أُتيتْ". لذلك فسيكون التفسيرُ العلمي الطبيعي "فرضيةً عصبية"، لا "تفسيرًا فلسفيًا"، ذلك أنه لا يبيّن لنا "الشكل الذي أدى به [جسمُه المعرفة]" (Dummett 1991, 1993: xi). أما في العلوم فيقول لنا هذا التفسير كلَّ شيء يمكن أن يُسأل عنه فيما يخص الشكل الذي أُتيت به المعرفة، أما الفلسفة فتتطلب نوعًا من التفسير لا يعرفه البحث العلمي الطبيعي.

ويبدو كأن الفلسفة، حين تُفهم بالطريقة السابقة، تستبعد جزءًا كبيرًا من جوهر الفلسفة التقليدية. ومن ذلك فلسفة هيوم، مثلاً، الذي كان يهتم بـ "علم الطبيعة البشرية"، وسعى إلى اكتشاف "المنابع الخفية والمبادئ التي تحفز الذهن البشري في أثناء تنفيذه للعمليات التي يقوم بها" (١٧٤٨/١٩٧٥: ١٤، القسم ٩)، ومنها تلك "الأجزاء من معرفتنا" التي أتت "من اليد الأصلية للطبيعة" (١٧٤٨/١٩٧٥: ١٠٨، القسم ٨٥)، وهو مشروع كان يقاربه بمشروع نيوتن. ولو حقق هيوم هذه الأهداف لكان قد أسس "فرضيات نفسية"، في ضوء مصطلحات دوميت، لكنه لن يكون قد أضاف شيئًا إلى الفلسفة. ذلك أن "التفسير الفلسفي" يتطلب شيئًا أبعد من اكتشاف "المنابع الخفية ومبادئ" الذهن وكيفية أدائها لوظائفها.

ويَدخل في التفسير الفلسفي بصورة حاسمة، إن كنتُ فهمتُ ما يقوله دوميت، النفاذُ إلى الشعور. تخيّل إذن مخلوقًا مريخيًا يُشبهنا تمامًا إلا أنه ربما يكون واعيًا بالكيفية التي "يُحفز بها ذهنه في أثناء قيامه بالعمليات التي يُنفذها". وحين نسأل المخلوق المريخي عن إن كان يتّبع قواعد الصواتة في صياغته للسجع، أو الشرط B في نظرية الربط العاملي لتحديد الربط الإحالي، فسيتأمل ثم يقول (حقًا): "نعم، هذا ما أقوم به فعلاً" – وهو ما يماثل، افتراضنا، ما نقوم به أنا وأنت تماما. وسيكون لديه، في حالة المخلوق المريخي، "تفسير فلسفي"؛ وسنفهم الشكل الذي أديت به المعرفة، ويمكن أن نعزو له معرفةً بطريقة مسوّغة. لكن هذا لن يعني أننا نجحنا في الوصول إلى "تفسير فلسفي" وإلى عزو المعرفة للبشر الذين يَعملون بالطريقة التي يَعمل بها المخلوق المريخي تماما، وإن بغير وعي. وربما يُسمح لنا، كما يصوغ كوين وجون سيرل وآخرون الأمر، أن نقول إن المخلوق المريخي يتبع قواعدَ وهي توجّهه، أما البشر فلا يمكن وصفهم بمثل هذه المصطلحات. ولتفادي المقتضيات المضادة للحدس وجهًا لوجه يُصرّ سيرل أيضًا على مفهوم "النفاذ من حيث المبدأ" الذي ظل غامضًا تماما (انظر الفصل الرابع في هذا الكتاب)

فهل هذه الاقتراحات جوهرية أم أنهـا لا تعـدو أن تكـون قـضية مصطلحات؟ أرى أنها من النوع الأخير؛ ذلك أني لا أرى القضية الجوهرية التي تبرر هنا. وربما يضاف أن هذه الاقتراحات تفارق بـشكل جـوهري الاستخدام العادي، بغض النظر عما لذلك من قيمة؛ فنحن نقول في الاستخدام غير النفسي إن حفيدتي تتبع قواعد صياغة الفعل الماضي القياسـي وبعـض الأفعال غير القياسية حين تقول:

I rided my bike and brang it home.

"ركبتُ دراجتي وأحضرتُها إلى المنزل"

[بصياغة الفعل ride في الماضي بصورة قياسيّة، بدلاً مـن تـصريفه المألوف فعلاً شاذا، وصياغة الفعل bring في الماضي بشكل يختلـف عـن صيغة ماضيه المعهودة brought].

مع أنه لا يمكن للشعور النفاذ إلى هذه القواعد عند الأطفال أو البالغين، مثلما أنه لا ينفُذ إلى تلك القواعد التي يرى كوين وسيرل وآخرون أنه لا يُنفذ إليها. ويكاد التصور "الفتجينشتايني" لاتِّباع القاعدة في ضوء معايير الجماعة اللغوية عند سول كريبك يكون متممًا للاستخدام العادي، الذي يعزو في العادة سلوكًا موجّهًا بالقاعدة في حالات الشذوذ اعتمادًا على معايير كهذه، كما فـي المثال الذي أوردتُه آنفا. لكنَّ اللساني وحده، بالمقابل، هو الذي ربما يقول إن حفيدتي تتّبع قواعدَ نظرية الربط العاملي، متماشية مع الجماعة اللغوية التي تنتمي إليها (بل مع الجماعة اللغوية البشرية، على أكثر الاحتمال).

ونحن نقنع، في دراستنا للمظاهر الأخرى للعـالم، بحجـج "أفـضل النظريات"، كما أنه ليس هناك صنف مميَّز من الأدلة يوفر معايير للصياغات النظرية. إلا أن النظرية العلمية الطبيعية لا تكفي في دراسة اللغـة والـذهن [كما يقول هؤلاء]، فيجب أن نبحث عن "تفسيرات فلسفية" ترسم حدود البحث

في ضوء معيار مفروض ما، وتوجب تأسيس الافتراضات النظرية على أصناف من الأدلة يختارها الفيلسوف، وتعتمد على أفكار كـ "النقاد من حيث المبدأ" الذي لا مكان له في البحث العلمي الطبيعي، ومهما عناه هذا كله فلدينا هنا مطلب يتجاوز المقاربة العلمية الطبيعية، وهو شكل من الثنائية ما يزال بحاجة إلى تفسير وتسويغ.

وتُسوّغ المتطلباتُ الفلسفية أحيانًا بمشكلات الخطأ وبمعرفة المتكلّم الواثقة. فيستنتج باري سميث، في دفاعه عن موقف لا يختلف كثيرًا عن الموقف الذي بيّنته هنا، أن هذا الموقف ما يزال قاصرًا عن "أن يكون تفسيرًا فلسفيًا مقنعًا" لهذه الأسباب؛ فهو يُخفق في أن "يبيّن لنا ما الذي يُعد استخدامًا . . . صحيحًا للكلمات، أي استخدامها في ضوء بعض الأنماط المعيارية المعينة للاستخدام اللغوي"، ويخفق في تفسير معرفتنا الواثقة بتركيب لغتنا ومعناها. لهذا فـ "البحث الفلسفي. . . ضروري لإكمال المشروع بشكله العام"، وهو عمل يتجاوز "علم النفس العلمي" (ويشمل ذلك اللسانيات الداخلية) (B. Smith 1992: 134-135).

وليس هنالك مسوغ لهذه النتائج، في رأيي. دعنا نفحص أحد الأمثلة النمطية. افرض أن بيتر، وهو متكلم عادي للغة الإنجليزية، يقول:

John expects to like him.

"يتوقع جون أن يحبه"

فأنا أستنتج من هذا أنه يقصد أن يحيل إلى شخصين مختلفين: أحدهما جون، والآخر شخص ثان يشار إليه بالضمير him "ضمير الغائب المفعول". أما إذا دمج بيتر التعبير نفسه في سياق مثل:

Guess who---

"تخيّل مَنْ ـــــــــــ"

مما ينتج عنه قولُه:

Guess who John expects to like him.

"تخيل مَن يَعتقد جون أنه يحبُّه".

فلا أعرف إن كان يقصد أنْ يحيل إلى جون وحـــده أم لا. ولا تعتمـــد him إحاليًا على John في الجملة:

John expects to like him.

"يتوقع جون أن يحبَّه".

أما في:

Guess who John expects to like him.

فالاحتمالات مفتوحة. وهناك تفسير جيد لمثل هذه الحقائق في ضـــوء نظرية لسانية داخلية، ولنسمها بـــ T "ن" [نظرية].

افرض أن "ن" صادقة عن المخلوق المريخي وعنّـــا نحـــن. فـــيمكن للمخلوق المريخي أن يُخبرنا أنه يخلُص إلى هذه النتائج انطلاقًا من "ن"، التي يمكن أن يُدركها بل يتكلم عنها كذلك؛ أما أنا فلا أستطيع ذلـــك، مـــع أنني أتصرف مثله تمامًا. ولما كان المخلوق المريخي ينفُذ شعوريًا إلى القواعـــد التي يتبعها، فهناك من يميل إلى الظن بأن لدينا الآن تعليلاً لكون المخلـــوق المريخي "واثقًا من غير مشقة" بالحقائق التي وصفناها هنا بطريقة غير تقنية؛ أما التعليل العلمي الطبيعي الداخلي فـــ "يجعل [ثقةَ المتكلم هنا] أمرًا محيِّرًا" أو "أحجية محضًا" في حالة بيتر، ويتشكك كريسبين رايت في أنـــه إن كـــان بيتر لا يتمتع بالنفاذ الشعوري الذي يتمتع به المخلوق المريخي فكيف يمكـــن له "أن يفهم. . . تعبيرات معينة"، كالتعبيرات التي أوردناها، مثلاً، التي يكون بشأنها "واثقًا من غير مـــشقة"؟ (Wright 1989: 236). ويقتـــرح رايـــت أنَّ مشروعه ملحق ضروري [لما يراه تشومسكي].

هب أنّا وضعنا الأمر بشكل مختلف. أي أن نوع التعليل الذي يمكن أن يقدَّم اليوم، ومنه "ن"، لن يجعل [ثقة المتكلم] أحجية"، وإنّ "ترك"، فعلاً، أحجية، عن المخلوق المريخي وبيتر كليهما. ذلك أن لدينا الآن تعليلاً، لكليهما، يتماشى مع شروط العلم (إن تركنا أسئلة الدقة والوضوح جانبًا)، لكننا نفتقر إلى أي قدر من الفهم العميق لطبيعة الشعور، وهو أمر لا صلة له بقضية اتباع القاعدة وثقة المتكلم، وإن كان مهمًّا بنفسه.

فيتبع بيتر قواعد "ن" لأن هذه هي الطريقة التي كوّن بها، وهو ما يشبه تمامًا كونه يرى الشمس تغرب والأمواج تتسارع لتضرب الصخور، وتستغرق هذه الحقيقة ثقة المتكلم لديه استغراقًا كاملاً. أما ما نسميه بـ "الخطأ" فهناك أنواع كثيرة محتملة منه؛ إذ ربما يخالف بيتر معيارًا خارجيًّا ما ــ فيستعمل disinterested ليعني uninterested ، أو يستعمل لهجته المحلية في محاضرة رسمية. ويمكن أن يخالف القواعد مختارًا، كأن يستخدم كلمة "كرسي" ليعني "طاولة" في نوع كلامي معين ــ مع معرفته بأن هذه الكلمة في لغته تعني "كرسي". وهو يتدخل في عمله ذلك ملكات ذهنية تتجاور الملكةَ اللغوية. وربما يسيء تأويلَ تعبيرٍ ما، فيعطي نظامُه الأدائي تأويلاً مختلفًا عن التأويل الذي تفرضه لغته الداخلية؛ وهناك أصناف مشهورة من هذه الحالات، وقد دُرست بشكل مثمر. ويبدو، حين نستعرض احتمالات أخرى، أن ليس هناك حدود مماثلة في علم النفس الداخلي.

ويستعمل باحثون آخرون مصطلحات مختلفة لما يبدو كأنه الأمر نفسه؛ لهذا يحاجُّ توماس ناجل، مثلاً، أن ما تَصفه نظريةٌ علمية طبيعية كاملة عن اللغة واستخدامها واكتسابها ليس "آليةً نفسية" بل "آليةً فيزيائية" وحسب ــ ذلك أنه لا يمكن أن ينشأ عن هذه الآلية فكرٌ ذاتي واعٍ يتكوّن مضمونُه من تلك القواعد نفسها" (Nagel 1993: 109). ويكمن الفارقُ الحاسم، مرة أخرى، في النفاذ إلى الشعور من حيث المبدأ. وتبدو هذه الحجة شبيهة بحجة دوميت، وإن استخدمت مصطلحًا مختلفًا؛ حيث يَحل مصطلحُ "نفسي" بدلاً من

"فلسفي". وتزيد مشكلةُ فهم "النفاذ من حيث المبدأ" و"مضمون الفكر"، هنا، من غموض فكرة "الآلية الفيزيائية"، التي كان لها شيء من المعنى في الفيزياء قبل نيوتن، لكن لم يعد لها معنى منذ ذلك الحين.

وإذا لم تُقدّم لنا فكرة جديدة لـ "الجسد" أو "المادي" أو "الفيزيائي"، فلن يكون لدينا أي تصور للمقاربة الطبيعية يختلف عن المقاربة الطبيعية المنهجية. ويُحيل الاستخدامُ الأكثر مواضعةً إلى مذهب مختلف، أي إلى "المقاربة الطبيعية الغيبية" التي يصفها بيرج بأنها "إحدى النزعات المحافظة القليلة في الفلسفة الأمريكية" في السنوات القليلة الماضية (Burge 1992: 32)؛ وتتمثل في أنواع أخرى: كالمقاربة المادية، والمقاربة الفيزيائية، والمقاربة الإقصائية، و"تطبيع الفلسفة [إدخالها ضمن البحث العلمي الطبيعي]"، إلخ. لكنه لا يمكن فهم هذه المذاهب إلا حين يُحدَّد مجال الفيزيائي بصورة ما.

ويصوغ دانيل دينيت هذا المذهب، وهو أحد أبرز المدافعين عنه، كما يلي: يرى "إدخال الفلسفة ضمن العلوم الطبيعية"، الذي يصفه بأنه "أحد أسعد التوجهات في الفلسفة منذ الستينيات"، أنه "يجب أن تكون التحليلات الفلسفية لعقولنا ومعارفنا ولغتنا في نهاية الأمر متماشية مع العلوم الطبيعية أو متلائمة معها". ويورد بالدوين، في نقاشه للمقاربة الطبيعية المعاصرة، هذه المقولة لتبيين دعوى "المقاربة الطبيعية الغيبية" (T. R. Baldwin 1993، مستشهدًا بالمقدمة التي كتبها دينيت لكتاب روث ميليكان Ruth Millikan عن هذا الموضوع). وتثير هذه الصياغة، كالصياغات الأخرى، بعض المشكلات. فما "التحليلات الفلسفية" بشكلها المختلف عن التحليلات الأخرى، بهذا المعنى للفلسفة "المُدخلة في العلوم الطبيعية"، خاصة؟ ثم ما العلوم الطبيعية؟ ومن المؤكد أنها ليست ما نفهمه اليوم [على أنه علوم طبيعية]، التي ربما لا تكون "متماشية ومتلائمة" مع الفيزياء في المستقبل. أهي صورة مثالية بموجبة بيرسية [نسبة إلى بيرس]؟ ربما، ولا يبدو هذا الاقتراح واعدًا. وما الذي يمكن أن يُحصّله الذهن البشري في الحد الأقصى؟ وهذا

موضوع محتمل للبحث في الأقل، لكنه يتركنا في وضع أكثر سوءًا في السياق الحالي. أما إن فُهمت "المقاربة الغيبية" على أنها أمل في التوحيد المستقبلي لدراسة الذهني مع الأجزاء الأخرى للعلم، فلا يمكن لأحد أن يعترض، لكنها دعوى لا تلفت النظر إلا قليلا، بدلاً من كونها "أحد التوجُّهات المعيدة في الفلسفة".

انظر إلى شكل هذا المذهب بالصيغة التي عبَّر عنها كوين (الذى يصفه بيرج بأنه يُنبوع المحافظة المعاصرة). فدعوى إدخال الفلسفة ضمن العلوم الطبيعية" في آخر صياغاته لها، هي "العالَم كما يقول العلمُ الطبيعي إنه كذلك، على حدِّ ما يكون العلمُ الطبيعي صحيحًا". لكن: ما "العلم الطبيعي"؟ وكانت إجابة كوين الكاملة أنه "نظريات الكواركات وما يشبهها" [والكواركات أصغر مكوِّنات المادة]. لكنْ ما الشبه الكافي؟ وهناك إشارات إلى بعض الإجابات الممكنة لكنها تبدو اعتباطية تماما، في ضوء المعايير العلمية الطبيعية المألوفة في الأقل (Quine 1992؛ للاطلاع على نقاش أوسع، انظر الفصل الرابع في هذا الكتاب).

هب أننا عرَّفنا مشكلةَ الذهن ـ الجسد (أو ربما جوهرها) بأنها مشكلةُ تفسير الكيفية التي يتصل بها الشعور بالبنى الأعصابية. فإذا كانت كذلك، فيبدو أنها مماثلةٌ تقريبًا للمشكلات الأخرى التي برزت طوال تاريخ العلم، وهي التي تبقى من غير حل أحيانًا، ومنها: مشكلة تفسير حركة الأشياء الأرضية وحركة الكواكب في ضوء "الفلسفة الآلية" وآليات التَّماس فيها، وهي المشكلة التي بيَّن نيوتن أنه لا يمكن حلها، وأمكن التغلبُ عليها باقتراح ما كان يُفهم على أنه قوى "غير مادية"؛ ومنها مشكلة اختزال الكهرباء والمغاطيس إلى الآليات، التي لا حل لها، ولم يُتغلب عليها إلا بافتراض أكثر غرابة يتمثل في أن المجالات [الكهربائية والمغناطيسية] أشياءُ فيريائية واقعية؛ ومشكلة اختزال الكيمياء إلى عالم الجسيمات الصلْدة في حالة حركة، والطاقة، والموجات الكهرومغناطيسية، التي لم يُتغلب عليها إلا باقتراح

فرضيات أكثر غرابة عن طبيعة العالم الفيزيائى. وقد أمكن تحقيق التوحيد، فى كل حالة من هذه الحالات، وحُلّت المشكلة لا بالاختزال، بل بأشكال مختلفة جداً من التكييف. بل يكاد اختزال علم الأحياء إلى الكيمياء الحيوية يكون شكلاً من الوهم، لأنه لم يحدث إلا بعد سنين من توحيد الكيمياء وعلم الفيزياء الجديد المختلف اختلافًا جذريًا [عن علم الفيزياء القديم].

وتختلف هذه الأمثلة حقًا عن مشكلة العلاقة بين الشعور والذهن من وجه واحد مهم: فقد كان بالإمكان صياغةُ نظريات معقولة بعيدة جداً عن السطحية عن تلك الظواهر العصيّة على الاختزال، أما فى حالة الشعور فيبدو أن التقدم الذى حققناه لا يتجاوز وصفَ الظواهر والتمثيل لها (وربما لا يتفق أتباع فرويد ويونج وآخرون مع هذا الرأى). وأوضح ما يكون هذا الأمر فى حال اللغة. ويتضمن الاستخدامُ العادى للغة "مظهرًا إبداعيًا" وفر، فى نظر أتباع ديكارت، أفضل دليل على وجود العقول الأخرى. ولا يمكن ربط الخصائص الحوسبية للملكة اللغوية ولا المظاهرِ الإبداعية اللافتة للنظر فى استخدامها بأى شيء معروف عن الخلايا، لكن الموضوعين يختلفان فى أنّ هناك نظريات تفسيرية معقولة للخصائص الحوسبية، أما المظاهر الإبداعية لاستخدام اللغة فليس لدينا إلا وصفُها والتمثيل لها، وإذا كان الأمر كذلك فلا تتمثل القضيةُ الجوهرية فى عدم القابلية للاختزال الحقيقى أو الوهمى، وهى ظاهرة مألوفة فى تاريخ العلم، بل تتمثل فى أنّه ليس بمقدورنا إلا الوقوف حائرين أمام بعض مظاهر الذهن كالشعور والتعبير عن الفكر الذى يتسم بالتماسك والملاءمة لكنه ليس مدفوعًا بسبب، وهذه سمة معهودة من سمات المشكلات الجوهرية فى الفلسفة، كما يحاجُّ كولن ماجن (Colin McGinn 1993).

يضاف إلى هذا، أنه إلى جانب أن الاختزال بمعناه الحرفى لا يكاد يعرف فى مسار العلم نحو التوحيد، فليس مؤكدًا إن كان له معنى أصلاً بوصفه مشروعًا بحثيًا. فقد كتب سيلفان شويبر أن الأبحاث الأخيرة فى

فيزيـــاء المـــادة المكثَّفـــة، التـــي خلقـــت ظـــواهر كـــالقوة التوصـــيلية الفائقة superconductivity تتصف بأنها "بدع حقيقية في الكون" (Schweber 1993, 35) بعثت أيضًا الشكوك المبكِّرة عن إمكان اختزالها إلى "مـــا يكـــاد يكون ادعاءً بُرهن عليه بشكل دقيق"، وهو ما يؤدي إلى تـــصور "القـــوانين الناشئة" بمعنى جديد (ص ٣٦). وبغض النظر عن إن كانت هـــذه النتيجـــة صحيحة أم لا، فالواضح أنه ليس لدى المذاهب الفلسفية ما تقوله عنه فـــي الأقل؛ وهي تقول أقل من ذلك عما يخص مجالَي الذهن والدماغ، اللذين يقل فهمنا لهما عن ذلك بكثير.

وتتبع المقاربةُ العلمية الطبيعية ببساطة مسار ما بعد نيوتن، مُدركةً أنه ليس بإمكاننا أكثر من السعي نحو أفضل تحليل نظـــري لظـــواهر التجربـــة والتجريب، بغض النظر عن الاتجاه الذي يقود إليه هذا السعي.

ونتوقع، كالحال في فروع العلم الأخرى، أن نترك تـــصورات الفهـــم البديهي وراءنا، ولنأخذ مثالاً فعليًا، وهو حالةُ امرأة تدعى "لـــورا" درسَـــها جيني يامادا. فتبدو قدراتها اللغوية كلُّها ســـليمة، لكـــنْ قُـــدرتَها الإدراكيـــة والذريعية محدودة. وهي تعرف عددًا كبيرًا من المفردات التـــي تَـــستخدمها بطرق ملائمة، وإنْ لم تفهمها إلا بقدر قليل، كما يبدو. ويقترح يامـــادا أنهـــا تشبه الأطفال الصغار الذين يَستخدمون الكلمات التي تدل على اللَّـــون فـــي المواضع الصحيحة "لتغليف الخطاب" [تزيينه]، لكنْ مـــن غيـــر أن يفهمـــوا خصـــائصها الإحالية. فتعرف لورا متى ينبغي عليها وصف نفسها والآخرين بالسعادة أو الحزن، إلا أنه يبدو أنها لا تستطيع الشعور بالحزن أو الـــسعادة؛ فهي تُشبه القائلين بالمذهب السلوكي. والسؤال هنا هو: هل "تَعرف" [لـــورا] اللغة الإنجليزية أو "تَفهمها" أو "تتكلمها"؟ وهذا سؤال لا معنى لـــه؛ ذلـــك أن المسلَّمات المعهودة عن الناس لا تنطبق على حالتها؛ ولا تتوافق حالتُها مـــع الافتراضات المألوفة عن الاستخدام العادي للغة، وربما أمكـــن للنظريـــات العلمية الطبيعية عن اللغة والذهن أن تُمدَّنا ببعض التصورات التي تنطبـــق

على لورا، لكنها تصورات تختلف عن الاستخدام العادي للغة. وهي، بالمناسبة، جزء من نظرية داخلية عن اللغة والذهن، كما أنها النوع الوحيد الذي يمتلكه. ولا يمكن أن نسأل، مثلاً، عن "المضمون الواسع" لكلام لورا إلا إن وسّعنا هذا المفهوم التقني ليشمل هذه الحالة (Yamada 1990).

لنأخذ مثالاً مختلفاً شيئًا ما، هو حفيدتي ذات الأربعة أعوام. فهل تتكلم الإنجليزية [في هذه السن]؟ ونحن نقول في كلامنا العادي إنّ لديها معرفة جزئية باللغة، وسوف تحذقها إن استمرت الأمور في مسارها المعهود، مع أن ما تتكلمه الآن ليس لغة إطلاقًا. لكن لو هلك البالغون جميعًا، وقدِّر أن ينجو الأطفالُ الذين في سنّها من هذا المصير، فسيكون ما سيتكلمونه لغات إنسانية مألوفة تماما، وهي لغات لا توجد الآن. وهذا المظهر العاني للفكرة البديهية للغة واحد من سمات كثيرة غريبة تجعل هذا المفهوم غير ملائم لمحاولة فهم اللغة واستخدامها، مثلما أنّ علم الأحياء لا يهتم بالثبات النفسي للأشخاص، وأن علوم الأرض لا تَنشغل بما يُسميه الناسُ النهرَ نفسه أو جبلاً أو جزيرة. وهذه المسلمات تحصيل حاصل عن "الفيزيائي" و"الذهني" كذلك، إن تركنا المسلَّمات الثنائية جانبا.

ويصح الشيء نفسُه عن عزو الاعتقاد. فمن المشاريع المعقولة للعلم الطبيعي أن يحدِّد إنْ كان الناس (والأطفال الصغار خاصة) يؤوِّلون ما يَحدث في العالَم في ضوء أفكارٍ كالاعتقاد والرغبة، والسقوط من السماء نحو الأرض، والتوجه نحو الضوء، إلخ؛ وما الشروطُ التي يَستعملون في ضوئها هذا الخطاب القصدي والموضوعي في اللغات المختلفة (وربما يكون هذا أمرا مختلفا، كما لاحظنا من قبل). ويمكن أن نسأل، بشكل مستقل إلى حد بعيد، إن كان ينبغي أن تَدخل أفكارٌ كهذه في نظرية عن الناس والشهب والأزهار. والإجابةُ المقتَرحة في الوقت الراهن "لا، بكل تأكيد" في حالة الأزهار والشهب، ومجهولة في حالة الناس، فنحن لا نعرف إلا قدرا قليلا، لكن دعنا ننظر في نوع ثالث من المشكلات، وهي التي لا تدخل في أي من

الإطاريين: وهي مشكلة تحديد متى "ينبغي" أن نعزو اعتقادًا أو نعزو الارتباع والتوجُّه و"القصد نحو" ـ أي متى نكون "محقّين" في القيام بذلك العزو؟ وإذا استشهدنا بإحدى الصيغ التي اقتُرحت مؤخرًا، ما "الشروط الضرورية فلسفيًا للمُعتقد الحقيقي"؟ ويحتج بعض الفلاسفة دائمًا بالنفاذ إلى الشعور عند هذه النقطة، ويرون غالبًا أن عدم التحديد الكويني [نسبة إلى كوين] ينشأ هنا بشأن الاعتقاد، وإن كان لا يصح في الحالات الأخرى، التي لا يُوجب بشأنها أي "شرط فلسفي" على الإطلاق (Clark and Karmiloff-Smith 1993). فلا يسعى أحدٌ لبيان الشروط الضرورية فلسفيًا عن مذنب يتوجه نحو الأرض حقيقة ـ ثم يَحقق في إصابتها، إن كنا محظوظين، وهو عزو قصدي آخر.

ويدعونا هؤلاء، كذلك، إلى البحث عن المعايير التي تُحدّد أين نرسم الحدّ الفاصل بين مذنبات تتوجه نحو الأرض وجونز الذي يَسير نحو مكتبه؛ وفي أي جانب يجب علينا أن نصنف دُوَيبَّات "البرنقيل" التي تلتصق بالقواقع والحشرات التي تطير نحو الضوء، ولا تنتمي هذه الأسئلة إلى العِلم الإثني أو إلى دراسةِ المعجم، ولا تنتمي إلى البحث العلمي الطبيعي في فروع العلوم الأخرى، ومرة أخرى، يبدو أن هذا المسعى يتغيّا "تفسيرات فلسفية"، بغض النظر عن ماهيتها.

وتبرز أسئلةٌ مماثلة بشأن النقاش عن تحقُّقات "الذكاء" و"استخدام اللغة". ويمكن أن نَبحث، في حالات نظام الإبصار ونظام الحركة والأنظمة الأخرى، عن بعض الارتباطات الشَّبَهية homologues أو التطورية. لكن الخصائص الذهنية لا تُتناول بمثل هذه الطرق. فهناك شيء مختلف في النقاش عن إن كانت الآلات تفكِّر، أو تُترجم اللغة الصينية، أو تلعب الشطرنج. فنحن نسأل إن كان رجل مريخي متخيَّل أو حاسوب مبرمج يستطيعان فهْم الصينية، لكننا لا نسأل إن كان من الممكن لمخلوق فضائي أو آلة تصوير أن يَريا، كالبشر. وهناك أبحاث كثيرة جدًّا عن إمكانية القول بطريقة ملائمة عن شخص ينفِّذ خوارزميًا ذا دخول وخروج مشفَّرة إنه

يترجم اللغة الإنجليزية إلى اللغة الصينية، لكن ليس هناك أبحاث عن الأسئلة المماثلة التي يمكن إثارتها عن تقليد الحوسبات والخوارزميات التي تحوّل حثّ الشبكية إلى صورة بصرية أو إلى تناول شيء ما. وهناك من يرى أن من المهمات الأساسية لـ"نظرية المعنى" أن تصوغ بعض الأفكار التي ربما تنطبق على أي مخلوق بغضّ النظر عن الطريقة التي كوِّن بها، سواء أكان حقيقيًا أم متخيلاً؛ لكن هذه ليست هدفًا للنظرية عن الإبصار أو الحركة إطلاقًا. ومن الغريب أنه لا يُنظر إلى هذا على أنه هدف النظرية عن الصواتة كذلك، مع أن لهذه الأسئلة الأهمية نفسها تقريبًا هنا — وهي، كما أظن، صفر. وبالمثل، فلا يسأل أحدٌ عن ما الذي يمكن عدّه نظامًا للدورة الدموية، أو ما يمكن أن يُعد جزيئًا، في عالمٍ ما مأهولٍ بأشياء مختلفة أو قوانين مختلفة للطبيعة.

وليست هذه المناقشات ثانوية من حيث الجوهر فحسب، بل ليس لها هدف واضح كذلك ولا أهمية، ويبدو أنها تشبه النقاش عن إن كانت المركبة الفضائية تطير أو إنْ كانت الغواصات تبحر، لكنها لا تسبح؛ وهذه من أسئلة التقرير، لا الحقيقة، في هذه الحالات، مع أنها تُعدُّ جوهرية في حالة الذهن، اعتمادًا على مسلمات ما تزال بحاجة إلى تفسير — يضاف إلى ذلك، بالمناسبة، أنها تتجاهل أحد تحذيرات ألين تيرنج الصريحة في بحثه الكلاسيكي الذي ألهم كثيرًا من النقاش الجاد في السنين الماضية.

وتبرز قضايا المقاربة الداخلية — الخارجية حين نوجه أنظارنا إلى اللغة؛ لكنها تبرز – مرة أخرى – بخصوص نظرية المعنى وحدها لا الصواتة، حيث يمكن أن تثار بطرق مماثلة. لهذا يُطلب منا أن ننظر إن كانت المعاني "في الرأس"، أم أنها محددة بطرق خارجية. والإجابة المعهودة الآن أنها محددة بطرق خارجية بنوعين من العوامل: سمات العالم الواقعي، ومعايير الجماعات.

فما فكرة المعنى التي تُبحث هنا؟ ويقترح الترسيمُ المنهجي للممارسة

الواقعية للترجمة هدفًا للبحث أحيانًا، لكنْ لم يُقوِّم أحدٌ الاقتراحات التي تقدَّم بطريقة جادة في ضوء هذه المصطلحات، كما أن أهمية المشروع ليست واضحة. ومن الأهداف المعلنة الأخرى أن تحدِّد معنى كلمةٍ ما (لكن ليس صوت كلمة ما، كما يبدو) في "لغة مشتركة عامة"، وهي فكرة ما تزال بحاجة إلى أن تصاغ في ضوء معايير متماسكة[4]. ومن الواضح أن الهدف لا يتمثل في أنْ نكتشف السمات الدلالية لكلمة meaning "معنى" في الإنجليزية أو التعبيرات المماثلة في لغات أخرى، إن وُجدت. فهل ينتمي هذا البحث إلى العلم الإثني، وهو البحث في مصادرنا التصورية؟ لكن لا يبدو أن الأبحاث التي يقام بها مصممةٌ تصميمًا ملائمًا لهذا الغرض. ولا صلة لهذه الأسئلة بالبحث العلمي الطبيعي في طبيعة اللغة واستخدامها، وهو الذي سيتطور بطرقه الخاصة به. فما الاحتمالات الأخرى الممكنة؟ والإجابة عن هذا السؤال غير واضحة.

والواقع أن بعض المحاولات الغريبة تبدأ عند هذه النقطة. انظر إلى تجربة "توءم الأرض" الذهنية التي صمَّمها هيلاري بتنام، وهي التي وفَّرت كثيرًا من المسوغات للافتراضات الخارجية. فيُطلب منا، في إحدى صور هذه التجربة، أن نتفحص حدوسنا عن "ما صدقِ" أو "مرجعِ" كلمة "ماء" في توءم الأرض، حيث يَستعمل أناسٌ يماثلوننا هذه الكلمة في الإحالة إلى "س ص ع"، الذي ليس H_2O. لكننا لا يمكن أن نملك حدوسًا عن هذا السؤال، ذلك أن كلمات "ماصدق" extension، و"الإحالة" reference، و"صادق عن" true of، و"يعني" denote، وعبارات أخرى تتصل بها، مصطلحاتٌ تقنية، وتَعني بدقة ما يقول لنا مخترعوها إنها تَعنيه؛ وستكون فائدة هذا الفحص مماثلةً في عدم فائدتها لفحصِ حدوسنا عن مصطلح "العضلات الشاذَّة" [في التشريح] أو [مصطلح] "اللايقين"، بالمعنى التقني [في الفيزياء].

افرض أننا صممنا تجربةً ذهنية مستخدمين اللغة العادية، وافرض، مثلاً، أن توءم أوسكار هبط إلى الأرض وكان ظمآنًا، ثم طلب "ذاك"، مشيرًا

إما إلى كوب يحوي مشروبًا غازيًا أو إلى كأس يحوي ما يأتي من الصنبور ـــ وهو مزيج غريب من الـــ H_2O والكلور، وأكره أن أفكر بشيء آخـــر، وهو يختلف بشكل لافت من مكان إلى مكان (لكنه يسمى "ماء"). فهل أخطـــأ في الحالتين كلتيهما؟ أم في إحداهما؟ وإذا أخطأ في إحداهما، ففي أي منهما؟ افرض أنه يحيل إلى شيء أتى من الصنبور كان قد مرّ عبر مصفاة مـــن الشذى عند مصدر الماء (لذلك فهو يعني أنه "ماء" عند أوسكار)، وإلى شيء مماثل من حيث الجوهر الكيميائي غمس فيه كيس شاي (لذلك فهو ليس "ماء" عند أوسكار، بل "شايا"). ففي أي من الحالتين كان توءم أوسكار مخطئًا (إن كان مخطئًا في أي منهما)؟ لنعد إلى "مضمون الاعتقاد". فإذا استمر تـــوءم أوسكار في طلب ما يأتي من الصنبور ليروي عطشه، مسميًا إياه "ماء"، فهل غيّر من اعتقاداته عن الماء ـــ بصورة غير معقولة، ذلك أنه لا يملك دلـــيلاً على حدوث تغير مثل هذا؟ أم هو يتصرف بصورة معقولة، محافظًا علـــى اعتقاداته الأصلية عن الماء، التي تسمح بأن يكون الشيء الذي يوجد علـــى الأرض ماء (في توءم الإنجليزية) في المقام الأول؟ فإذا كان الأمرُ الأخيـــر هو الحال فاعتقاداته عن الماء مشتركةٌ على الأرض وعلى تـــوءم الأرض، مثلما يحتمل أن تختلف اعتقاداته، على أي من الكوكبين، عن المادة نفـسها، حيث يأخذها على أنها إما "ماء" أو "شاي" تبعًا لاختلاف الظروف، حتى مـــع معرفته الدقيقة التامة بأنّ لموضوعات الاعتقادات المختلفة المكوناتِ نفـسها تمامًا. وأنا لدي حدوسي الخاصة بي، وهي التي ربما تكون لها صلة بدراسة المعجم والعلم الإثني، لكنها تُقوّض النتائجَ المقصودة للتجربة الذهنية.

وهناك مشكلات أخرى كثيرة جدًا، فقد أثيرت مشكلة توءم الأرض عن طريق تخليصها من مسلّمات الخطاب التي يقوم عليها الاستخدامُ اللغـــوي العادي، وهي تشبه السؤالَ عن إن كانت لورا تفهم الإنجليزية. يضاف إلـــى ذلك، أنه إن كانت هذه الحجة تنطبق على "الماء" فلمـــاذا لا تنطبـــق علـــى "الأرض"، و"الهواء"، و"النار"، إذن، وهي التي كان لها منزلة شبيهة في أحد

التقاليد [الفلسفية] القديمة؟ ثم ما "الشيء نفسُه" في هذه الحالات؟ أو انظر مثلاً إلى "السماء". فأنا أستعمل هذا المصطلح بخصيصته الإشاريّة، لأحيل إلى ما أراه في ليلة صافية: وهو شيء مختلف في بوسطن عنه في تسمانيا [مدينة في استراليا]. وربما صح لي، حين أتخلص من المسلمات المعهودة كما هي الحال على توءم الأرض، أن أقرّر (في بعض الظروف) استخدام كلمة "ماء" بالطريقة نفسها. وأبعادُ الاختيار متنوعة جدًا حتى إنه لا يعود معاجِبًا إلا تستطيع "أكثرُ الآذان التي لم تلوثْها النظريةُ الفلسفية من قبل" إصدار أحكام واضحة في الحالات النموذجية، كما لاحظ ستيفن ستك. وربما لا يمثِّل هذا اعتراضًا حاسمًا في سياقٍ نظري غني، لكنه إشارةُ تنبيهٍ يجب عدمُ تجاهلها حين لا يكون لدينا إلا القليل وراء الأمثلة المزعومة (انظر Stich 1983، للاطلاع على بعض التعليقات، انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب).

ولا يبدو لي أن إجابة بتنام عن هذه المشكلات مقنعة؛ فهو يوافق على أن الكلمات لا تُحيل، ويلزم عن هذا أنْ تصاغ الحدوس عن "مرجع الكلمات" بطريقة مختلفة. وهو يتبنى موقف بيرس الذي يرى أن "الإحالة [بمعنى "صادق عن"] علاقة ثلاثيةٌ (فيحيل الشخصُ "س" إلى الشيء "ص" عن طريق الإشارة "ش")"، حيث الأشياءُ "ص" "واقعيةٌ في العالم" (Putnam 1992: 382). يضاف إلى ذلك "حقيقةُ أن هناك علاقة بين كلماتنا والأشياء في العالم وهي أساسيةٌ لوجودنا؛ فالفكر الذي لا علاقة له بالأشياء في العالم فكرٌ فارغ" (Putnam 1992 383)[4]. لهذا تُحيل كلمةٌ ما (أي أنها: "صادقةٌ عن") إلى شيء واقعي في العالَم حين يَستعمل الناسُ هذه الكلمةَ ليُحيلوا، ولمّا كان المتكلمون يَستعملون كلمة "الصينية" في الإحالة إلى اللغة التي تُتكلم في بكين وهونج كونج، فهي "شيء واقعي في العالم"، وينبغي أن ينطبق الأمر نفسه على "الذهن"، و"الرجل المتوسط"، و"جو المدمن"، و"التجارة الحرة"، و"السماء"، وغيرها، وعلى الصفات والأفعال والتعبيرات العلائقية الأخرى كذلك، كما يبدو.

وإذا وضعنا جانبًا هذه النتائج التي تتجاوز النتائج التي قال بها وورف، فإن عددًا من المشكلات يبرز. وأولها أن قبولنا بهذه الصياغة يؤدي إلى سقوط الحجج الخارجية، ويشمل ذلك تجربة توءم الأرض، وحالة تقسيم العمل اللغوي"[1]، وغيرهما. ذلك أنه حين يطلب توءم أوسكار، في زيارته للأرض، كأسًا من الماء، مُحيلاً إلى ما في الكأس على أنه "ماء"، فإنما يخلص، تبعًا لمراجعة بتنام، إلى أن كلمة "ماء" في توءم الإنجليزية صادقة عن H_2O، وهو ما يعني عودة المعاني إلى الرأس. وتمحق الحججُ الأخرى لأسباب مماثلة.

وثانيها، أن هذه المراجعة غير مفيدة، ذلك أن فرضية بيرس تتضمن مفهومًا تقنيًا جديدًا لـ"الإحالة"، وهو ما يُعيدنا مرة أخرى إلى حيث كنّا، مع حدوس لا يمكن أن نمتلكها. فليست "الإحالة"، في الاستخدام العادي، علاقةً ثلاثيةً من النوع الذي اقترحه بيرس. فهي، بدلاً عن ذلك: أن الشخص "س" يحيل إلى "ص" عن طريق التعبير "ت" تحت الظروف "ظ"، ويعني هذا أن العلاقة رباعية، في الأقل، ثم إنه ليس ضروريًا أن تكون "ص" شيئًا واقعيًا في العالم أو ينظر إليه "س" كذلك. وعلى وجه أعمّ، يَستعمل الشخصُ "س" التعبير "ت" بخصائصه الدلالية الذاتية ليتكلم عن العالم من زوايا ذاتية متشابكة، مركزًا انتباهه على بعض مظاهره المحددة، تحت الظروف "ظ"، مع "محلية المحتوى" التي توجبها (بالمعنى عند بيلجرامي)، بل ربما لا تكون لمكوّنات "ت" أيةُ علاقة دلالية ذاتية بما يحيل إليه جونز، كما في حالة قوله إن الحفلة الموسيقية في قاعة جوردان رائعة، محيلاً إلى مدينة بوسطن والمقطوعة الوترية التي يُحبها.

ويكتب بتنام أنه يظن أن تشومسكي يَعرف جيدًا أن هناك علاقةً بين المتكلمين والكلمات والأشياء في العالم". وهذا صحيح أحيانًا فهناك علاقة، حين مجرّد من ظروف الاستخدام، بالمعنى تقريبًا الذي توجد فيه علاقةٌ بين الناس والأيدي والحجارة، وهو ما يجعلني أستطيع استخدام يدي لالتقاط

حجر . لكن ذلك يقصر بنا كثيراً عن القول بأي شيء يُشبه النتائج التي يـودُ بتنام أن يصل إليها.

وليس باستطاعتنا أن نستنتج "علاقةً مهمة بين كلماتنا والأشـياء فـي العالم" بناء على تصورات "الإحالة" وأمثالها في اللغة الطبيعيـة والبديهـة. وحين نبدأ بملء الصورة لكي نقترب من الاستخدام الفعلي والفكر، لا يعـود من الممكن الاحتفاظُ بالنتائج التي يراها القائلون بالمقاربة الخارجية عدا أنه سيكون لبعضها، في مجمعة الاستخدامات، الخصائصُ المرغوبة؛ إذ يمكـن بالفعل، في بعض الظروف المحددة، أن نفهم "ماء" بمعنى "السائل نفسه"، حيث كلمتا "سائل"، و"نفسه" نوعان من الأفكار التي يسعى العلم لاكتـشافها، وتتماشيان مع الفرضيات الخارجية الأخرى. ولا شك أن التفكير عن العـالم "أساسي لوجودنا"، لكنْ لا يبدو هذا طريقاً جيدًا لفهم هذا الأمر بشكل أفضل.

ويبدو البحثُ الفلسفي مؤطَّرًا تأطيرًا غريبًا بمعايير أخرى كذلك؛ لهذا فكلمة "ماء" مجموعٌ من الخصائص الصوتية والدلالية والصورية تنفُذ إليهـا أنظمةُ الأداء المختلفةُ للنطق والإدراك والحديث عن العالم، إلخ، فإذا أنكرنـا كون معناها في الرأس، فلماذا لا ننكر كذلك كون مظاهرها الـصوتية فـي الرأس كذلك؟ ولماذا لا يقتَرِح أحدٌ أن "المضمون الصوتي" لكلمة "ماء" تحدِّده بعضُ أنواع حركات الجزيئات أو مواضعات "النطق الملائم"؟ ويُنظَـر إلـى هذه الأسئلة على أنها سخيفة أو غير مهمة. فلماذا لا يكون الأمر كذلك عـن المعنى، إذن؟

وتوحي الأبحاثُ ببعض الإجابات عن هذه المسألة. ومنهـا أن نتـائجَ بتنام عن "الماء" و H_2O مدفوعةٌ جزئيًّا بمشكلة المعقوليـة فـي الخطـاب العلمي. وكما يُشير بتنام، فنحن لا نود القول إن بور Bohr كان يقول كلامًا سخيفاً حين استخدم مصطلح "إلكترون" في الفترة الـسابقة علـى اكتـشاف النظرية الكميَّة، وإلا كانت أحكامه كلها زائفة. ويحتج بتنام، لكي يتجنب هذه النتائج السخيفة، بأن بور كان يحيل إلى ذرات وإلكترونات "واقعيـة" وهـي

التي ربما يمكن لبعض الخبراء أن يُحدثونا عنها (وربما لا)، في نهاية الأمر. فإذا كان المعنى يحدِّد الإحالة فالمعاني ليست في الــرأس، إذن، وهــو مــا يُفترض أن تُبينه التجاربُ عن توءم الأرض.

وليست هذه الحجة مقنعة، وذلك لأسباب تتجاوز الأسباب التي أوردناها آنفا. فقد أشار جاي أطلس إلى أن المهندسين المتخصصين في الذرة يميِّزون بين "الماء الخفيف" و"الماء الثقيل"، حيث الأولُ فقط H2O. فإذا أخذنا أولئــك على أنهم خبراء، فهل كنا مخطئين بشأن الكلمة "ماء" حين كنا نعني المــاء الخفيف حقًّا؟ (ولنقاش أوسع، انظر Atlas 1989). وكان الكيميــائيون قبــل أفوجادرو Avogadro يستخدمون مصطلحي "الذرّة" و"الجزيء" الواحدَ مكان الآخر. فهل يجب علينا، لكي نجعل ما كانوا يقولونه معقولاً، أن نفترض أنهم كانوا يحيلون إلى ما يسمى الآن بـ "الذرات" و"الجزيئات" (أو مــا تكونــه "حقيقةً"، وهو الذي ربما لا يعرفه أحد الآن)؟ وبعد أنْ توفَّر نموذجُ بور للذرة اقتُرح أن تُفهم الأحماضُ والقواعد على أنها مستقبِلات أو واهبات محتملــة للألكترونات، وهو ما نتج عنه ضمٌّ لحماض البورون وأحماض كلوريــدات الألمنيوم إلى حامض الكبريت، وفُتح "منطقة جديدة بأكملهــا فــي الكيميــاء الفيريائية غير العضوية"، كما يقول أحدُ كتب تاريخ العلم المشهورة (انظــر Brock 1992: 482). فهل كان العلماء السابقون يحيلون "فعلاً" إلى البــورون على أنه حامض؟ وهل يجب علينا أن نفترض ذلك لكــي نجعــل وجهــات نظرهم معقولة؟ لنأخذ مثالاً أبسط وأكثر قربًا منا، وهو: هل يجب علينــا أن نفترض أن الصُّواتيين البنيويين، قبل أربعين سنة، كانوا يحيلــون إلــى مــا يسميه الصواتيون التوليديون وحداتٍ صواتية، مع أنهم يُنكرون ذلك بــشكل حاسم ــ وهم محقُّون في ذلك؟ ومن المؤكد أن الصواتة البنيوية معقولة؛ وإذا أُعطِيَ افتراض وجود وحدات من النوع الذي كانت تفترضه، فيمكن أن يعاد تأويل جزء كبير من تلك النظرية في الوقت الحاضر، مع نقــل كثيــر مــن نتائجها [إلى الصواتة التوليدية].

أما المطلوب في هذه الحالات كلها فدرجةٌ معينة من البنية المشتركة، وليس في أيٍ من هذه الحالات طريق مبدئي لتحديد القدْر المشترك، أو القدر الواجب توفره من "التشابه في الاعتقاد" [بينها]، وربما يكون مفيدًا أن نلحظ التشابهات وأن نعيد صياغة الأفكار في بعض الأحيان، وهذا غير ممكن في أحيان أخرى. ويصح الشيء نفسه عن آراء بور المبكرة والتالية. ولا يُشترط أكثرُ من هذا من أجل الحفاظ على كرامة المشروع العلمي، أو الفكرة المحترمة للتقدم نحو الفهم النظري.

ويعترض بتنام بأن التشابه البنيوي وحده "مختلف جدًا عن قولنا إن أيًّا من النظريتين "تصف"، وإنْ كان وصفًا قاصرًا، سلوكَ الظواهر السرابية فوق الذهنية التي نحيل إليها بأنها "ألكترونات"" ــ أو "ماء حفيف"، أو "ذرات" أو "جزيئات"، أو "أحماض وقواعد"، أو "صوتيات"، إلخ. وهذا صحيح، لكنه غير مهم هنا؛ إذ يجب علينا، في الحالات كلها، ومنها النظريات الحالية، أن نصف أي شيء يميّز النظريات عن العالَم عن قصص الخيال العلمي. فنحن نأخذ هذه النظريات على أنها تصف الظواهر فوق الذهنية، وإن كان وصفًا قاصرا، سواء أكانت تتصل بأبولو والشمس، أم بالنكات الأربع عند جالين والذرات عند ديموكريتس، أم بالأنابيب ذات الأرواح الحيوانية عند ديكارت، . . . وهكذا حتى نصل إلى المحاولات التي يقام بها في الوقت الحاضر. فليس هناك سبب مقنع، في أي من هذه الحالات، لأن نتبنّى نظريةً "للإحالة الحقيقية" من النوع الذي يؤسّس على الحجج الخارجية من هذا النوع.

وإذا تركنا هذه الاعتبارات جانبًا فليس للنقاش عن "الإحالة" في العلوم صلةٌ خاصة باللغة البشرية والفهم البديهي، إلا إن أضفنا الفرضية الأخرى التي تقول إن كلمات مثل "ألكترون" و"قاعدة" و eigenvector و"صوتية"، إلخ، تنتمي إلى اللغة الإنجليزية واللغات الطبيعية الأخرى، وربما يكون ذلك بصحبة التعبيرات التي تظهر فيها، والصيغ والرسوم البيانية وغيرها.

ويفترض بتنام أن المعجم متجانس بهذا المعنى. لهذا يحاجُّ، في دفاعه عن شكية المعنى، أن نظرية المعنى يجب أن تتعامل مع "أصعب الحالات"؛ ويعطي مثالاً لذلك [المصطلح الفيزيائي] momentum "زَخم"، الذي كان يُعرف في القديم بطريقة يُنظر إليها الآن على أنها تعبّر عن الزيف. وبغض النظر عن الطريقة التي نؤوّله بها فلا صلة له بالبحث في اللغة، إلا إن افترضنا أن momentum بمعناه عند عالم الفيزياء يدخل المعجم عن طريق آليات الملكة اللغوية نفسها التي تَسمح لطفلٍ أن يلتقط كلمات مثل "بيت" و"يقوم"، وأن له خصائص المداخل المعجمية التي تحدّدها الملكةُ اللغوية. ويبدو هذا أمرًا مشكوكًا فيه، في الأقل.

وبتنام محقٌّ في قوله إنه "لوافق على أن هناك علاقة كـ "الإحالة"" بالمعنى التقني، أو أن ذلك محتمل في الأقل، لكنه لم يفهم ما عينه: وهو أنَّ من المعقول الافتراض بأن البحث العلمي الطبيعي يَهدف إلى صياغة أنظمة رمزية يُقصد ببعض التعبيرات اللغوية المحدَّدة فيها أن تسمي بعض الأشياء في الكون(٣). ومع هذا فليس هناك سبب للاعتقاد بأن مثل هذه المساعي يمكن أن تعلّمنا شيئًا مهمًّا عن اللغة العادية والفهم البديهي. ويبدو لي أمرًا مفاجئًا أن ينساق بتنام لاتخاذ هذا الموقف، مع نقده البليغ لـ "النزعة العِلْماوية" scientism .

وإذا نحّينا المعنى جانبًا، فهل يُحدَّد محتوى الفكر بعوامل خارجية؟ وليس بإمكاننا أن نسأل بصورة معقولة مثل هذه الأسئلة عن "المضمون"، سواء أكان ضيقًا أم واسعًا؛ ذلك أنهما – مرة أخرى – فكرتان تقنيتان. لكن بإمكاننا أن نسأل عن إن كان من الممكن أن نعزو أفكارًا للناس بناء على أسس لا تتوافق مع حالاتهم الداخلية. أما أننا نقوم بذلك فواضحٌ من غير حاجة لأمثلة غريبة. فإذا أخبرني جونز أنه في حدادٍ على أولئك الذين قضوا نحبهم في الخنادق في فيردون Verdun قبل خمسين سنة فربما أستطيع القول إنه يتحدث فعلاً عن الحرب العالمية الأولى (أو يفكر بها)، لا الثانية؛ أو إنه،

من وجه اخر، مخطئ بشأن الحرب العالمية الثانية، التي يتحدث عنها (أو يفكر بها). وأنا أعزو إليه، في الحالة الأولى، حالةً ليست داخلية؛ ويقوم هذا العزو على اعتقاداتي أنا، لا اعتقاداته هو. وليس هناك سؤال حقيقي عن إن كان علم النفس يتعامل مع حالة جونز كما حُدِّدت في هذه الحالة أم لا. فهو سؤال، مرة أخرى، يتعلق بالقرار؛ فهو يتعلق، في هذه الحالة، بمصطلح "علم النفس" النقني المصطنع. وبالمثل، فإذا صوَّر تولستوي انا كارنينا تشبيهاً بامرأة حقيقية، فربما كان يفكِّر بها، أو يتكلم عنها، أو يعتقد شيئاً بشأنها، إلخ، وكذلك بعض قرائه العارفين؛ أما في حالة سميث، الذي لا يَعرف شيئاً عن هذا، فيمكن أن أقرر أنا [ما يفكر به] بطريقة أو أخرى، تبعاً لاختلاف الظروف. وبغض النظر عن النتيجة فإننا لا تعلّمنا شيئاً عن الموضوع "الحقيقي" الذي يهتم به علم النفس، مع أنه يمكن أن تكون هذه الأمور موضوعاتٍ معقولة للبحث الداخلي عن الكيفية التي يتحدث الناس بها عن الكون، وهو البحث الذي يسعى لكشف الحالات الداخلية التي تقود الناس إلى وصف الأخرين بطرق مختلفة، حين يؤولون الظروف بأشكال مختلفة.

وفي هذا السياق أيضاً، تبدو التجاربُ الذهنية التي تصمَّم لتأييد النتائج المضادة للمقاربة الداخلية مؤسَّسةً على افتراضات مشكوك فيها غالبا. خذ مثلاً مثالَ "الجرادة ــ الصرصار" الذي صاغتْه لين ردر بيكر، وسأبسّطه قليلاً (Baker 1988). افرض أن جونز يتكلم اللغة الإنجليزية العادية، وسميث كذلك، إلا أن الصراصير تسمى "جراداً" في المجموعة اللغوية التي ينتمي إليها سميث. ثم افرض أن "ج" تعلَّم لغته من جونز وتعلم "س" لغته من سميث، وتعلَّما كلمة "جراد" من الصُّور نفسها، وهي صور ملتبسة بين الجراد والصراصير، بالإضافة إلى "معلومات تتعلق صدقةً بالجراد والصراصير معا". ولاختلاف مقاصد المعلِّمَيْن اللذين علَّما ["ج"، و"س"] فقد استنتج بيكر أنه "يبدو من الواضح" أن "ج" "اكتسب اعتقاد أن الجراد خطر وأن "س" اكتسب اعتقاد أن الصراصير خطرة" (Baker 1987: 121)، مع أن "ج" و"س" في الحالة الداخلية نفسها.

وبناء على هذه المسلّمات سيعمّم "ج" و"س" بالطريقة نفسها، وهو ما ينتج عنه أنه إذا قدّمت لهما جرادة لا لبس فيها فسيسميها كلاهما "جرادة"، مع أن "س" سيكون مخطئًا لأن اعتقاداته التي يعبّر عنها تتصل بـ"الصراصير"، لا بالجراد. افترض أن "س" هاجر إلى جزيرة يتكلم سكانُها لغة لا صلة لها بلغته، ثم تعلّمت ذريته لغته تحديدا، ثم اختفت سجلاتُ لغته والكلماتُ النظيرة فيها كلها، بصورة نهائية؛ والأمرُ نفسُه مع "ج". وينتج عن هذا أنه لا يمكن التمييز الآن بين ذرية "ج" وذرية "س" من حيث لغتهم واستخدامها، كما لا يمكن بعث التاريخ وهو ما يعني أنه لن يكون باستطاعتهم أن يتعلموا لغتهم بطريقة أخرى. ومع هذا، يجب أن يكون من الواضح أن لديهم اعتقادات مختلفة، وأن ذرية "س" يرتكبون أخطاء كثيرة في استعمالهم كلمة "جرادة"، إذ إنهم يتكلمون دائمًا عن الصراصير ويفكرون بها. ومن المحتمل أن نكون نحن، حقيقةً، من نوع منحدر من ذرية "س" حيث اكتَسب أجدادنا في غَبشة ما قبل التاريخ الكلمة التي أصبحت "جرادة" تحت الشروط التي تنطبق على "س"، حيث كان معلمُ أولئك الأجداد يقصد أن يحيل إلى نوع مختلف "ص"، لذلك فالاعتقادات التي نعبِّر عنها حين نستعمل "جرادة" هي في الحقيقة عن "ص"، وهي اعتقادات خاطئة غالبا.

ولا يبدو شيء من هذا واضحًا لي، حتى الخطوة الأولى منه. لكن ليس من الواضح كذلك السببُ الذي يجعل الأمرَ مهمًا. افرض أننا قبلنا حدوس بيكر. فما الذي يمكن أن يقوله هذا لنا عن اللغة والاعتقاد والفكر؟ إن أقصى ما يمكن أن يقوله لنا إننا ربما نعزو أحيانًا بعضَ الاعتقادات (وغيرها) إلى "ص" في ضوء اعتقادات أناس آخرين وحدوسهم؛ لكن ذلك واضح من الحالات العادية البسيطة. ومرة أخرى، فالبحث في الطرق التي نعزو بها الاعتقادات تبعًا لاختلاف الظروف موضوع مشروع لعلم الدلالة اللغوي والعلم الإثني، لكنّ دراسة الكيفية التي يحصّل بها الناسُ الحالاتِ الإدراكية والتفاعل وغير ذلك ستسير بحسب مسارها المختلف.

ومن الحجج النموذجية المقارنة الخارجية أنه إنْ لم يحدد العالمُ الخارجي مضمونَ الفكر عند شخصٍ ما، "فستكون الكيفيةُ التي يمكن أن تتوفر بها أفكارُ ذلك الشخص علانيةً لشخص آخر لغزًا محضًا" (Bilgrami 1992: 4). ولا يحتاج علم النفس لهذه الفرضية؛ ذلك أننا لا نحتاج من أجل تفسير الطريقة التي يفهم بها سميث ما يقوله جونز أن نلجأ إلى بعض الوحدات في العالم الخارجي التي تماثل التمثيلاتِ الصوتية في ذهني سميث وجونز (مثل: بعض الأنواع من حركات الجزيئات التي ترتبط بالوحدة التركيبية: "الصوت الشفتاني الوقفي")؛ ثم إنه لا حاجة للأشياء الخارجية فيما يخص المعاني والأفكار. ومن المؤكد أن هناك بعض الاحتمالات الأخرى، وربما تكون صحيحة. لهذا ربما يفترض سميث أن جونز يماثله تماما، مع بعض الاختلافات، ثم يسعى إلى اكتشاف هذه الاختلافات، وربما تكون هذه المهمة سهلة، أو صعبة، أو مستحيلة. ويَعزو سميث إلى جونز، بقدر ما ينجح في ذلك، التعبير الذي يصوغه دماغه هو، ويشمل ذلك صوتَ التعبير ومعناه، أما التواصل فأمر تقريبي[8]. ثم يسعى، باستخدام أنواع أخرى من المعلومات، إلى التأكد من أفكارِ جونز، وربما بطريقة مشابهة.

ومن المؤكد أنّ هذا علمُ نفسٍ، كما يُفترض ألا تبرز هذه القضايا إلا في علم النفس الشعبي، عند بيلجرامي على الأقل. لكن هذه النتائج لا تبدو مؤسَّسةً بشكل أفضل هنا. فليس هناك سبب للاعتقاد بأن ماري تؤوِّل التفاعل بين سميث وجونز عن طريق افتراضها وحداتٍ تتوفر بشكل علني" تعمل على تثبيت الأفكار أو المعاني أو الأصوات. وليس واضحًا، إضافة إلى ذلك، احتمالُ أنّه سيكون لبعض الغموض عن التواصل صلةٌ بعلم النفس الشعبي، وهو الذي ليس بحاجة إلى أن يواجه مهمةَ حلِّ مثل هذه المشكلات، وهو لا يقوم بذلك في الغالب.

وتمثِّل الأمثلةُ من نوع توءم الأرض أحد التوجُّهات في النظريات الخارجية المتواضع عليها عن اللغة والفكر. ويدخل في النوع الآخر منها

الاحتكامُ إلى السُّلطة والخبراء ومعايير المجموعة اللغوية، إلخ. ويُحتج في هذه النظريات بأن المعاني ليست "في الرأس" لأنها تثبَّت بمثل هذه الطرق. ويمكن أن نسأل، مرة أخرى، أين يُصنَّف تصورُ المعنى الذي نناقشه. ومن الجلي أنه ليس جزءًا من بحث علمي طبيعي ما عن اللغة واستخدامها، أو من البحث في المدخل المعجمي لكلمتي "معنى" و"لغة" في الإنجليزية. فهل هو علم إثني تأملي، أي دراسة لـ "تفسير نصي بديهي للسلوك الإنساني"، كما يصف بيلجرامي (١٩٩٢: ٣) هذا المشروع مع رفضه لهذا النوع من الحجة (وهو رفض صحيح، كما أعتقد)؟ وربما يكون هذا هو المقصود، لكن النتائج تبدو متنوعة جدًا، إن كان الأمر كذلك، تبعًا لاختلاف الشروط، على الرغم من أنه لم يتحقق قدر كبير من الوضوح.

ومهما كان موضوع البحث فهو يعتمد بصورة جوهرية على فكرة "اللغة العامة المشتركة" التي ظلت غامضة. فإذا كانت هذه الفكرة بصورتها في الخطاب العادي فهي غير مفيدة لأي شكل من أشكال التفسير التنظيري. فمن المسلمات منذ زمن بعيد في الدراسة الاختبارية للغة أنه ليس هناك شيء يمكن أن تعيّنه كلمات كـ "الصينية"، أو "الألمانية"، أو ما هو أكثر تحديدًا منها كذلك. ذلك أنَّ تحدُّثَ اللغة نفسها يُشبه "السكنَ قريبًا من" أو "التشابه"؛ وهو ما يعني أنه ليس هناك مقولات يجب تثبيتها. وعدمُ توفير اللغة العادية وسيلةً للإحالة إلى اللغة التي تتكلمها حقيقتي مقبولٌ في الحياة العادية، أما البحث الاختباري فيتطلب تصورًا مختلفًا. فملكتُها اللغوية، في البحث الاختباري، في حالةٍ ما وهي الحالة التي تُحدِّد "لغتَها" (أو ربما تكون "هي" لغتها). وتؤسِّس الجماعاتُ والثقافات وأنماط الاحتكام في حياة البشر بطرق مختلفة كثيرة جدًا، مع عدم وجود علاقة خاصة لشيء من ذلك بما نسميه "لغات" في الخطاب غير المتخصص. وليس هناك إجابة مفيدة عن السؤال عن إن كان يجب على "بيرت" أن يحيل إلى الألم في فخذه على أنه التهاب مفاصل، أو إن كان يجب عليه استخدام كلمة disinterested "غير مبالٍ" لتعني

unbiased "غير متحيّز"، كما يقول القاموس، أو uninterested "غير مهتمّ"، كما يعتقد متكلمو [الإنجليزية الأمريكية] جميعهم تقريبًا؛ أو إن كان يجب عليه أن ينطق الكلمات بالطريقة التي تُنطق بها في بوسطن أو لندن[٩].

وليس هناك طريقةٌ أبدًا لإضفاء معنى على هذا التوجه في النظرية الخارجية للمعنى واللغة، كما يبدو لي، أو على أي بحث يُعالج نظرية المعنى وفلسفة اللغة اعتمادًا على مثل هذه الأفكار، وهو حكم قصدت به أن يُلخص شيئًا ربما يكون واسعًا.

وباختصار، فمع أنه لا تترتب على المقاربة الطبيعية مقاربةٌ داخلية، فإنها لا تترك بديلاً واقعيًا [لها]، كما يبدو. وتُتبنى تلك المقاربة دائمًا، في البحث الاختباري الفعلي، حتى حين يُنكر ذلك، وهو أمر سبق أن عالجتُه في مكان آخر؛ وكما هو معروف، فيلزم، كي نحدد ما يفعله العلماء، أن ننظر إلى ممارساتهم، لا إلى ما يقولونه عنها.

وكما لحظتُ من قبل، لا تبرز قضيةُ مشروعية الأبحاث التي تذهب وراء حدود المقاربة الداخلية. ويجب أن يكون هذا تحصيل حاصل. لهذا، فمن الأمور المفاجئة لي دائمًا أن أقرأ أني وآخرين نُنكر هذا الأمر، ومن الأمثلة على ذلك أن أحد كتب المقدمات في اللسانيات الاجتماعية يَبتدئ بالزعم العجيب التالي: "من الأمور المسلّمة في اللسانيات الحديثة عمومًا أنه لا صلةَ بين الأنحاء والحياة الاجتماعية للمتكلمين" (Romaine 1994: vii)، وهذه فكرة تافهة، ولم يتبنّها أحد، وهي التي أرجعها المؤلفُ إلى إصراري على "أن قضايا القوة. . . ليست من القضايا التي يجب على اللسانيين تناولها" (ص ١) ــ وهو ما يعني أنه ينبغي علي ألا أشتغل بالنشاطات التي تستهلك جزءًا كبيرًا من وقتي وطاقتي، مثلاً. وينتهي الكتاب بنتيجة تقول: "تَحكي الاختلافاتُ اللغوية أنواعَ عدم المساواة في القوة والمكانة وتُعمّمها" (ص ٢٢٥) ــ فهناك، مثلاً، لهجات ذاتُ مكانة أعلى ــ وهو اكتشافٌ يُنظر إليه على أنه ينقض ما أنادي به من أن ما نفهمه في الوقت الحاضر عن

طبيعة اللغة لا يُسهم بشيء في توضيح دراسة مثل هذه الأمور.

وهناك مزاعم مماثلة كثيرة فيما يُنشر، وغالبًا ما تقدَّم مصحوبةً بكثير من الانفعال والسخط. ويبدو أنها تستند إلى اعتقاد كنتُ عبَّرت عنه بالفعل، وهو أنه ينبغي على الناس أن يقولوا الحقيقة. وينبغي عليهم، على الأخص، ألا يزعموا أنهم يمتلكون معرفةً دقيقة خاصة عن بعض نواحي الاهتمامات البشرية إلا إن كان ما يزعمونه صحيحا؛ وأنه يجب عليهم ألا يكتموا تلك المعرفة الخاصة، وهو أمر قلما يكون صعبا. أما الادعاءات المتظاهرة في مثل هذه الأمور فلا تعدو أن تكون وسيلة للتخويف والتهميش، وهي تعزِّز "عدم المساواة في القوة والمكانة". يضاف إلى ذلك أنَّ توضيح حدود الفهم بصورة جلية مسئوليةٌ جادة في ثقافة كثيرًا ما يعطى فيها الخبراء الأدعياء مكانةً لا يستحقونها. فإذا استطاع البحث في جوانب الاهتمامات البشرية الأساسية أن يستفيد من الاكتشافات الحقيقية عن اللغة والإبصار أو غير ذلك، فذاك أمر جيد وحسن، لكنه أمر يجب أن يبيَّن، لا أن يُزعم. والسمانتيات الاجتماعية بحثٌ مشروع تمامًا، لكنها بحث خارجي بالتعريف. وهي تستفيد من نتائج البحث الداخلي عن بني البشر، لكنها ليست بديلاً عنه كما يبدو، على حد ما أعلم. أما مدى كشف نتائجها لقضايا القوة والمكانة فسؤال آخر.

ولإيراد مثال آخر، فقد أوِّل بتنام تعليقاتي (وهي بدائه، في الواقع) عن "اللغة العامة المشتركة" كأنها تعني أنه "إن لم نستطع تعريفَ الثقافات في ضوء فكرة "الجوهرانية" essentialistically، فيجب أن "ننفض أيدينا منها ونعود إلى العمل الجاد الذي يتمثل في النمذجة الحاسوبية" (Putnam 1992: 385) ـــ ويبدو أنه يعني البحثَ العلمي الطبيعي في الملكة اللغوية التي ربما تُسهم النمذجةُ الحاسوبية فيها بشيء، وهو أمر لم أُولِه يومًا اهتمامًا خاصـا. لكنْ لا يمكن التغلب على المشكلات التي يواجهها الاعتمادُ غير النقدي على هذه الفكرة باللجوء إلى "الثقافة" أو "المصطنعات الثقافية"؛ كما أن معرفة الحقائق البسيطة عن اللغة الصينية واللغة الإنجليزية، وغيرهما ـــ وعن عدم

صلة الثقافة بالأمور التى نناقشها هنا ــ لا توحى أبدًا بالنتيجة التى يستنتجها. ذلك أن الثقافات تخترق بطرق عدّة أى شيء يمكن أن يُطلق عليه "لغات"، كما تترك "الدراساتُ الثقافية" هذه المشكلاتِ من غير حلّ.

ودعوى بتنام أن "اللغات والمعاني حقائقُ ثقافية" (ص ٣٨٥) صحيحة بمعنى واحد، وهذا ما يجعلني (كالآخرين جميعا) أصف كيف يُفهم هذان المصطلحان في الثقافات التى نتشارك فيها تقريبًا فى ضوء بنى القوة والسلطة، وأنماط المرجعية، والآثار الأدبية، والأعلام والتواريخ (الأسطورية غالبا)، إلخ. فتُستعمل مصطلحات كـ "لغة" بطرق مختلفة فى جماعات لغوية أخرى؛ كما لا توجد لبعض المصطلحات التي نستعملها مثل "اعتقاد" belief و"معنى" meaning، إلخ، نظائر غالبًا [في بعض الجماعات اللغوية الأخرى]. لكن هذه "الحقائق الثقافية" لا تُسهم في فهم كيفية اكتساب اللغة، وفهمها، واستخدامها، وكيف تتكوّن وتتغير عبر الزمن، وكيف تتصل بالملكات الأخرى للذهن والفعل البشرى عموما. ولا تَستفيد الدراسة الاختبارية للغة نفسها، ولا ما يسميه بتنام بـ "الدراساتِ الثقافية (كالتاريخ والأناسة وعلم الاجتماع وبعض فروع الفلسفة)" حين تُتناول بصورة جادة، من مفهوم "اللغة المشتركة العامة" في الاستخدام العادى، بغض النظر عن بعض التعليقات غير المتخصصة؛ وربما تكلَّم المتخصصُ فى الأناسة، فى سياقات متنوعة، عن الثقافة الصينية، أو الثقافة الصينية ــ اليابانية، أو الفضاء الثقافى لمنطقة شرق آسيا، أو عن ثقافة العلماء الذين يتكلمون لغات مختلفة تماما، أو ثقافة سكان الأحياء الفقيرة فى نيويورك والقاهرة وريو، وغير ذلك بطرق عديدة معقدة ليس لها علاقة مهمة باللغات المتكلمة، أو ما يسمى "لغات" فى الاستخدام العادى أو فى ثقافتنا العالمة والثقافات الأخرى.

وهذه اللغات "مصطنعاتٌ ثقافية" غالبًا، بمعنى أكثر تحديدا: فهى "لغات نموذجية" مصطنعة جزئيًا وربما لا يَتحدثها إلا عدد قليل من المتكلمين، ويمكن أن تُخالف مبادئ اللغة كذلك. وتحدِّد مصطلحاتٌ كـ "المعايير"

و"الاستخدام الصحيح" في ثقافات عديدة، في ضوء مثل هذه الظواهر، وهي أمور ليس لها كثير من الأهمية في "الدراسات الثقافية"، وإن لم يكن لذلك من سبب إلا أنها واضحة جدًا. وهو ما يجعلها لا تهتم بدراسة جهود المجمع اللغوي الفرنسي إلا قليلاً، مثلا.

ونحن نقول، في الدراسات الثقافية، كما في الاستخدام العادي، وبشكل مفهوم جدًا، إن جون يتكلم اللغةَ نفسَها التي يتكلمها بيل، وهو يشبهه، ويسكن قريبًا منه. لكنّ هذا لا يَخدعنا فنعتقدَ أن العالم مقسّم إلى مناطق موضوعية أو أماكن، أو أن هناك شكلاً يشترك فيه جون وبيل؛ أو لغة عامة يشتركان فيها. ولا تتمثل المشكلةُ في النسيج المفتوح أو غياب "الحدود الصارمة"، كما يعتقد بنتام، بأكثر مما يكون في حالة "منطقـة" أو "قـارة". والواقـع أن "اللغـات النموذجية" تُحدَّد تحديدًا صارمًا جدًا (كما يفعل المجمع اللغـوى الفرنـسي، مثلا). كما تُحدَّد حدود "اللغة"، في الاستخدامات الأخـرى كـذلك، تحديـدًا صارمًا إلى حد بعيد، بقدر ما تكون عليه هذه الأشياء، بوسائل كالألوان على الخرائط وما أشبه ذلك، لكنّ الاستخدام العادي لا يقدّم أي مفهوم لـ "اللغـة العامة المشتركة" يمكن أن يقارب التوافق مع متطلبات البحث الاختبـاري أو التأمل الفلسفي الجاد عن اللغة واستخدامها، ولم يُقترح أي مفهوم أكثر كفاءة. كما لا توجد فجوة تفسيرية يمكن أن تُملأ باقتراح مثل هذه الفكرة، على حد ما نعلم.

والنقطة الرئيسة في مقال [تشومسكي] الذي كان بنتام يعلّق عليـه أن "عددًا كبيرًا من الأسئلة، ومنها الأسئلة التي ربما يُنظر إليها على أنها مهمـة جدًّا للبشر، لا تقع ضمن البحث العلمي الطبيعي؛ لذلك نقاربها بطرق أخرى" (انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب). وليس هناك مـا يَلْـزِم [فـي مقـال تشومسكي المشار إليه]، أو في أي مكان آخر [مـن أبحـاث تشومـسكي]، بوجوب قصر اهتمامنا على "العمل الجاد في النمذجة الحاسوبية"، لكنه يجب علينا أن نقصُر أنفسنا على "العمل الجاد" فقط مهما كان المجال.

والسؤال الآن: هل هناك مشكلة في المقاربات الداخلية (أو المرئية) للمجالات الأخرى التي يهتم بها علم النفس؟ وهذا ما يدّعيه كثير من الباحثين، لكنه ادعاء يقوم على أسباب مشكوك فيها، كما أظن. لنأخذ دراسة السمع، مثلاً. فلنأخذ الأسئلة المزمنة السؤالَ عن الكيفية التي تحدّد بها القشرة السمعية المكان الذي ينطلق منه صوتٌ ما. فلا يبدو أن هناك "خارطة سمعية"، شبيهة بخارطة الإبصار وخارطة الإحساس الجسدي somatosensory. وتوحي دراسةٌ أُنجزتْ مؤخرا أن القشرة السمعية تدرك مكان الصوت لا بالتنظيم المكاني للعصبونات، بل بنمط متزامن من إطلاق [الإشارات] بشكل يشبه "شفرةَ مورس" (Bannaga 1994). ويصاغ النقاش عن هذا الأمر بالمزيج المعهود من الخطاب التقني والعادي. ومن هنا ربما يضِلُّ من يقرأ هذا النقاشَ فيظن أن نظرية الإدراك الصوتي نظريةٌ خارجية، لأنها تشير بشكل جوهري إلى "حل مشكلات" يثيرها عالَمُ الأصوات الخارجي. لكن هذا لا يعدو أن يكون سرابا. ذلك أن النظام السمعي "لا يَحل مشكلات" بأي معنى تقني لهذا المصطلح، كما يمكن للباحثين، إن عرَفوا كيف يقومون بذلك، أن يختاروا حثَّ المستقبلات receptors بشكل مباشر بدلاً من استخدام مكبرات الصوت – بصورة لا تبعد كثيرًا عما فعلوه في نموذج الحاسوب الذي وفّر الدليل الرئيسَ، حقيقة، لنظريتهم الخاصة بتحديد موضع الصوت، وهي التي ستَعمل بشكل جيد عن دماغٍ في إناء [أي عن دماغ في مختبرٍ منزوعٍ من صاحبه]، كما تعمل عن بومةٍ تدير رأسها نحو فأر في أجمة.

وتَنطبق الاعتباراتُ نفسُها على دراسة الإدراك الإبصاري في ضوء الطرق التي رادها ديفيد مار (David Marr 1982)، وهي التي تناقَش بكثافة في هذا المجال. فيهتم هذا البحثُ بشكل يكاد يكون خالصًا بالعمليات التي تنفذها الشبكية أو، بشكل تقريبي، بتحويل حيالات الشبكية إلى القشرة الإبصارية. وتتصل المستويات الثلاثة المشهورة للتحليل التي اقترحها مار ــ أي المستوى الحوسبي والمستوى الخوارزمي والمستوى التنفيذي ــ بالطرق

التي تُفهم بها هذه التحويلات. ومرة أخرى، تنطبق النظريةُ على دماغ في إناء بالكيفية نفسها التي تنطبق بها على شخص يرى شيئًا في حالة حركة. وقد دُرست الحالةُ الأخيرة بالفعل، في أبحاث شيمون أولمان، الباحث المشارك لمار (Shimon Ullman 1979). وتستخدم دراساته لتحديد البنية من خلال الحركة الأمثلة التي تقدَّم باستعمال التاكيستوسكوب tachistoscop التي تجعل المجرَّب عليه يرى مكعبًا يتأرجح، مع أنه لا يوجد شيء كهذا في بيئة التجربة؛ ويُستعمل الفعل "يرى" هنا بمعناه المألوف، لا بكونه فعلاً إنجازيًا. ولو كان بمقدور أولمان حثُّ الشبكية مباشرة لكان قد فعل، أو لكان قد حثَّ العصب البصري، ويقول أولمان إن هذه الدراسة "تهتم بطبيعة التمثيلات الداخلية التي يستعملها النظامُ الإبصاري وبالعمليات التي تُشتق بها". وهذا تفسيرٌ داخلي خالص. فليس هناك سؤال ذو معنى عن "مضمون" التمثيلات الداخلية عند شخص يرى مكعبًا تحت ظروف التجارب، أو عن إن كانت الشبكية تُحثُّ بمكعب متأرجح، أو بصورة متحركة لمكعب يتأرجح؛ أو عن مضمون "تمثيلِ ضفدع لـ" ذبابة أو لنقطة تتحرك في الدراسات النموذجية لإبصار الضفادع، فليس هناك فكرة شبيهة بـ "مضمون" أو "تمثيل لـ" في النظرية، لذلك لا يُتوقع أن توجد إجابات عن طبيعتهما. والشيء نفسه صحيح حين يقول مار إنه يدرس الإبصار بوصفه "عمليةَ تحويلٍ من تمثيل إلى تمثيل آخر، وأنه لا شك في وجود التمثيل الأول في حالة الإبصار البشري — فهو يتألف من حزمة من قيم كثافة الضياء كما تُنتِجها المستقبلاتُ التصويرية في الشبكية" (Marr 1982: 31) — حيث ينبغي ألا يُفهم "التمثيل" بصورة علائقية، على أنه "تمثيلٌ لـ".

وتتحدث الأبحاثُ التقنية عن "إخفاق" الخوارزميات في بعض الظروف، وعن إعطائها "الإجابة الصحيحة" في ظروف أخرى — حيث يمكن أن تكون "الإجابةُ الصحيحة"، مثلاً، المدرك القوي ثلاثي الأبعاد الذي تعطيه صورةٌ مجسَّمة لنقطة اعتباطية. وربما تتحدث كذلك عن "خطأ الإدراك" في حالة الشخص أو الضفدع في أثناء إجراء التجارب، مع أنها

ربما لا نتحدث بهذه الكيفية حين يُمثِّل مُدرِك مصوِّرٌ في إشارة مرور بكشاف بدلاً من الشمس. كما نتحدث عن الدماغ بصفته "يحل مشكلات" وبصفته "متكيِّفًا مع الأوضاع العادية" حيث "يمثل" النظامُ الإبصاري فيها السمات الموضوعية للعالم الخارجي. وتتوافق هذه الاستخدامات [اللغوية] غير المتخصصة مع النقطة التي بدأ بها تايلور بيرج، وهي: "أن الافتراض القائل بأن تجربتنا الإدراكية تمثِّل الأشياء أو أنها عنها أو عن الخصائص، أو العلاقات التي تتصف بأنها "موضوعية"" (Burge 1986c: 125) افتراضٌ عن تحيز بطبقة زرقاء تصاعدية يقول إن تمثيلاً صوتياً بصورة مباشرة نحو الأرض، موحيًا بأن المذنب يتصرف في ضوء فيزياء قصدية حية.

وتتحدث الدراسةُ الداخلية للغة كذلك عن "تمثيلات" من مختلف الأنواع، ومنها التمثيلات الصوتية والدلالية عند "المستويات الوجيهية" مع الأنظمة الأخرى. لكننا لا نحتاج هنا كذلك إلى الانشغال بالتفكير عن ما الذي يُمثَّل، ساعين إلى أن نكتشف تركيبات موضوعية من الأصوات أو الأشياء؛ فالتمثيلات وحدات ذهنية مفترَضة، وينبغي أن تُفهم بالطريقة التي تُفهم بها صورة ذهنية لمكعب يتأرجح، سواء أكان نتيجة لتمثيلات تاكيستوسكوبية أو كان تمثيلاً لمكعب متأرجح حقيقي، أو نتيجةً لحثِّ الشبكية بطرق معينة أخرى؛ أو ربما تمثيلات متخيَّلة كذلك. وتَدخل التمثيلات الداخلية للغة، حين تنفذ أنظمةُ الأداء إليها، في التأويل والفكر والعمل. لكن ليس هنالك سبب يوجب السعي لاكتشاف أية علاقة أخرى لها بالعالم، كما يوحي بذلك أحدُ التقاليد الفلسفية المشهورة، وبعضُ القياسات غير الملائمة على الاستخدام اللغوي غير المتخصص. ولا يُثير خطأُ الإدراك صعوباتٍ لهذه المقاربة؛ فهو يتعلق بالكيفية التي يحدِّد الناسُ بها بعض التأويلات للتفاعلات التي يلاحظون — أي إلى ردود فعلِ ضفدع أو شخص في أثناء تجربة، أو مدركٍ تصويري "مخدوع"، إلخ، وهذا موضوع مشروع للبحث الداخلي في نفسية الشخص

الذى يقرّر ماذا يمكن أن يسمى "خطأ الإدراك".

ولا يبدو أن لهذه النقاشات صلة كبيرة بعلم النفس والعلم الإثني. افرض أن جونز عضو في جماعة عادية ما، وأن "ج" لا يمكن تمييزه عنه إلا بأنّ تجربته كلها مشتقة من تصميم تخيلي ما للحقيقة؛ أو افرض أن "ج" توءم لجونز في عالَم توءم الأرض. وهما متماثلان من حيث التجربة التي مرا بها وسيتصرفان بطريقة واحدة (إن كان التنبؤ بالسلوك ممكنًا ابتداء)؛ ويتماثلان في الحالة الداخلية. ثم افرض أن "ج" حلّ مكانَ جونز في الجماعة تلك، وهو أمر لا يعرفه إلا العالِمُ الملاحِظ. ولأن أعضاء الجماعة ليسوا واعين بأي تغيير فسيتصرفون جميعًا بالطريقة التي كانوا يتصرفون بها في السابق، فسيعاملون "ج" على أنه جونز؛ وسيستمر "ج" على الحال التي كان عليها. وسيصوغ العالِمُ الذى يسعى إلى اقتراح أفضلِ نظرية لكل هذا تفسيرًا فرديًا ضيقًا لجونز، و"ج"، وأفرادِ الجماعة الآخرين. ولا يستبعد هذا التفسير شيئًا، ومن ذلك الطريقةُ التي يعزو بها أفرادُ الجماعة الحالاتِ الذهنية (أي: الاعتقادات والمعاني والمضامين الإدراكية، إلخ)، إن كانوا يفعلون ذلك.

هب أن أحد أفراد هذه الجماعة فيلسوفٌ يملك حدوسًا تماثل حدوس القائلين بالمقاربة الخارجية في النقاش الذي أوردناه آنفا. وستعزو النظريةُ للفيلسوف (في هذه الحالة) الحالةَ الداخلية التي تماثل هذه الحدوس. وستتنبأ الآن بصورة صحيحة أن الفيلسوف سيعزو إلى "ج"، حين يأخذ "ج" على أنه جونز، الحالاتِ الذهنية التي عزاها إلى جونز من قبل؛ وإذا كان واعيًا بالتبادل بين "ج" وجونز حين حدث، فسيعزو حالاتٍ ذهنية مختلفة لـ"ج". ولأني لا أشارك هذا الفيلسوف حدوسه فلا أعرف الكيفيةَ التي ربما يعزو بها الحالات الذهنية حين يعيش "ج" في هذه الجماعة، أي في عالَم من الأشياء "الموضوعية" (فهل صار "ج" يشارك جونز في اعتقاداته؟). ومهما كانت الإجابة فستصف النظريةُ حالاتِ الفيلسوف الداخلية بناء على ذلك، وإذا كنتُ من أفراد هذه الجماعة كذلك فستعزو النظريةُ إلى حالةً داخلية مختلفة، لا

تتضمن إجابات نهائية عن عزو الاعتقادات والمعاني إلى "ج" (ولا تحوي شيئًا مهمًا عن المضامين، سواء كانت إدراكية أم لا؛ لأنني أجد الابتكارات التقنية على أنها تعني ما يقول مبتكروها إنها تعنيه)، وتعطي أحكام مختلفة تبعًا لتنوع الظروف.

ويتعامل هذا التحليل مع جونز، و"ج"، وأفراد الجماعة الآخرين، وأناس آخرين يمتلكون حدوسًا متنوعة عن عزو الحالات الذهنية؛ وهو غير كامل لأن هذه الحدوس غير معروفة الآن، أما فيما عدا ذلك، فلا يبدو أن شيئًا مفقودًا منه، ويمكن توسيعه ليشمل الاستخدامات [اللغوية] في اللغات والثقافات الأخرى، تبعًا لاختلافها. ويمكن تحويله ببساطة إلى نظرية غير عرفية، وهي نظرية أكثر صعوبة ولا تسهم بفهم جديد. ولن تكون تلك الخطوة ملائمة للبحث العلمي الطبيعي، وليس من الواضح الهدف الآخر الذي يمكن أن يكون لها.

وينبغي أن يُفهم الكلام عن كون الأعضاء أو العضويات "تحلُّ مشكلات"، أو كونها متكيِّفةً للوظائف التي تقوم بها، بالكيفية نفسها: أي أنه استعارة يُقصد بها الاختصار؛ فليس هناك سؤال عن إن كانت أجنحة الفراشة صممت لـ "حل مشكلة" الطيران أم لا؛ فقد تطورت على أنها منظِّمات للحرارة، وما تزال تخدم هذا الغرض. ولو حدث أن اكتشفنا أنها وصلت إلى حالتها الحاضرة قبل أن تُستخدم للطيران، فستظل لها الآن وظيفةُ الطيران وستُستخدم لذلك الغرض كذلك، وقد تكيَّف نظامُ الإبصار عند البشر بصورة ضعيفة للرؤية في الظلام، لكنه لا يمثِّل إخفاقًا، بسبب ذلك. والسلسلة الفقرية عند الفقريات الضخمة مصممة بشكلٍ هندسي سيئ؛ ويعرف أكثر الناس هذا من تجاربهم الخاصة؛ لكن هذا لا يمثّل نجاحًا أو إخفاقًا. ولا تصلح اللغات البشرية للاستخدام جزئيًا، لكن هذا لا يجعلها سيئةً جدًا؛ ذلك أن الناس يستعملون الأجزاء القابلة للاستخدام منها. وقد اكتُشف حديثًا جدًّا أنه في حين أن الحشرات تبدو متكيفة بشكل أخّاذ مع أنواع محددة من النباتات المزهرة،

وقد أنحرت تنوّعها الحاضر وبنيتها بشكل يكاد يكون كليًا قبل ملايين السنين من وجود النباتات المزهرة. ويلاحظ ريتشارد ليونتين أنــه حــين ظهــرت الحشرات "كان هناك عدد ضخم متنوّعٌ من الحلول تنتظر ظهورَ المــشكلات لتحلّها" وكان ذلك في سياق تأكيده أن هذه المقولات الحدسية لا معنى لها في علم الأحياء (Richard Lewontin 1990). فمن القراءة الخاطئة للنقاش غيــر المتخصص، إذن، أنْ يُستنتج أن نظريةَ مار عن الإبصار تعــزو "حــالاتٍ قصدية تمثّل خصائصَ موضوعية فيزيائية" لأنه "ليس هناك طريــق آخــر للنظر إلى النظام الإبصاري كأنه يحل المشكلة التي ترى النظرية أنه يحلها" (Burge 1986a: 28-29). أما النظرية نفسها فلا تعيّن مكانًا للتصورات التــي تدخل في التقديم غير المتخصص informal presentation، الذي يُقصد به أن يكون دافعًا عامًا. أما قول "إن الفكرة التي ترى أننا نصفُ ظواهريةَ الإدراك لدينا من غير أن نحدّد الخصائص الموضوعية التي توجهها بعيدةٌ جدًا عــن النظريات الاختبارية الفعلية للإدراك وعن البديهة كذلك" (ص ٣٨) فصحيح عن البديهة في بعض الظروف، لكنه مضلّل فيما يخص النظريات الاختبارية عن الإدراك، التي تهتم بالكيفية التي تَعمل بها الأشياءُ ولا تهــتم بالتقــارير الإدراكية والتصنيفات الحدسية إلا بوصفها دليلاً لــه صــلة بهــذا الأمــر وحسب[١٠]. (انظر أيضا Labandeira and Sepkoski 1993; Burge 1986a).

ويأخذ عالمُ الأحياء في الحسبان بشكل طبيعي، في دراسته لأي نظــام عضوي، التفاعلاتِ البيئية والقانون الفيزيائي الذي ربما أثّر في الطفــرات، ونجاحِ التكاثر، ومسارِ التطور. أما فيما يخص الدافعية والتوجيــه الحدســي فربما يتكلم عالمُ الأحياء عن الأنظمة بوصفها "تطورت لحل بعض المشكلات المعينة التي فرضتْها البيئةُ عليها"، حيث "تُحدِث الأنواعُ [الأحيائية] المختلفة مشكلاتٍ مختلفة وتحلُها بأشكال مختلفة" (Burge 1986a: 28). لكن هذا حديث عام غيرُ متخصص، ولو اكتُشف أن مسار العملية التطورية لم يكــن علــى الصورة التي يُظن أنه عليها، كما في حال الحشرات والأزهار، فلا يترتــب

على هذا تعديلٌ للنظرية الفعلية للتحليل الإحصائي والأنظمة الأخرى، مما يصحب ذلك من أنواع مختلفة من العزو والتفريد، وبعض الأوصاف الممثلة للمضمون القصدي، والأخطاء، والوظائف، والأهداف، والمشكلات التي حلّت، إلخ. افرض، بالمثل، أنه اكتُشف أن أسلافنا صُمموا في معمل خارج الأرض ثم أُرسلوا إليها بمركبة فضائية قبل ثلاثين ألف سنة، وهو ما يعني أنه لم يكن لمبدأ الانتقاء الطبيعي دور في تكوين الكُلْية، أو النظام الإبصاري، أو القدرة الحسابية، أو أي شيء آخر. ولن ينتج عن هذا تعديلٌ للأقسام التقنية الخاصة بالكُلْية في كتب المقدمات العامة لعلم وظائف الأعضاء، ولن تعدِّل كذلك النظريةَ الفعلية للوظائف التي تحوسبها الشبكيةُ أو المظاهرُ الأخرى للنظام الإبصاري عند البشر أو الأنظمة الأخرى.

ولا يكتسب نقدُ المقاربة الداخلية (الفردية) مزيدًا من القوة من الملاحظة التي مفادها أنّ العمليات الداخلية، في البيئات العادية، ترتبط بصورة دقيقة بالخصائص الحدّيّة (كحدود الأشياء، إلخ). ذلك أن هذه العمليات ترتبط في بيئات أخرى بخصائص مختلفة، وربما تكون هذه خصائصَ حديّة أو حتّا مباشرًا الشبكية (أو حتّا داخليًا أكثر عمقًا لها). ويمكننا أن نقول، إن أحببنا، إنه "إذا لم تُرصَ القيودُ التي تمكّن في المادة عضويةً معينة من حوسبة وظيفةٍ إدراكية ما، فستخفق [العضوية] في تمثيل بيئتها" (Egan ، د. ت)؛ لكن ذلك "الإخفاق" هو الوسيلة التي نستخدمها لوصف بعض العمليات البشرية التي نفرضها لأسباب لا علاقة لها بالبحث العلمي الطبيعي، وهو ما يشبه حالةَ إخفاق مذنّب في الاصطدام بكوكب المشتري، كما كنا نأمل. وليس مهمًا أن تسمح لنا اعتباراتُ "التمثيل" في البيئات العادية بالربط بين النظام الذي نعمل بتحليله ووظيفة الإبصار الإدراكية التي وُصفتْ بطريقة غير متخصصة. فليس من أهداف العلم أن يتوافق مع المقولات الحدسية، أو أن تقرّر إن كان ما يزال "بصرًا" في بيئات غير عادية، أو إنْ كانت بعضُ أجزاء الدماغ التي تُستخدم عادةً لأغراض

أخرى تقوم بتحليل بعض الصور الإبصارية، كما تفعل ذلك أحيانا. وتبدأ دراسة الإدراك بصورة طبيعية ببعض "المهام الإدراكية" التي تقدّم بصورة غير متخصصة، لكنها لا تُعنى إلا قليلاً بما إن كان شيء شبيه بهذه المهام يُكتشف في أثناء عملها.

ويستفيد نقاشُ العمليات التطورية غيرُ المتخصص من عبارات مثل "حل المشكلات"، لكن يجب ألا يؤخذ هذا، مرة أخرى، بشكل جاد جدًا. ذلك أن القانون الطبيعي يوفّر قنواتٍ ضيقة يمكن فيها أن تتنوع العضويات المعقدة، ولا شك أن مبدأ الانتقاء الطبيعي عامل من العوامل التي تحدّد توزيع الصفات والخصائص داخل هذه القيود، لكنه "أحد" العوامل، لا العاملَ [الوحيد]، إن اتبعنا، في الأقل، القيود المعقولة التي اقترحها داروين. فيبدي داروين بشكل حاسم، لخوفه من الخطأ في تأويل أفكاره، أنه عزا "التعديلات التي تَحدث للأنواع إلى مبدأ الانتقاء الطبيعي وحده"، حيث يؤكد في آخر طبعات كتابه "أصل الأنواع": "أني وضعت في الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وفي الطبعات اللاحقة، وفي أكثر المواضع وضوحًا ــ أي قريبًا من نهاية المقدمة ــ الكلمات التالية: "إني على يقين أن الانتقاء الطبيعي كان وما يزال الوسيلةَ الرئيسة للتعديل، لكنه لم يكن الوسيلة الوحيدة". لكنّ أحدًا لم يأبه بهذا. فما أعظم قوة استمرار الخطأ في تمثيل [الأفكار]". (كما أورد ذلك Gould 1982: 45). وأشار داروين بشكل لا لبس فيه إلى مدى واسعٍ من الاحتمالات، ومنها تعديلات لم تكن نتيجة للتكيُّف ووظائفُ لم تُنتَق ولم تحدّدها البنية.

ولا يمكننا أن نقدّر بشكل معقول الوزنَ الذي سيعطى للانتقاء الطبيعي بوصفه آلية للتطور في الوقت الذي يتزايد فيه ما نتعلمه عن الأنظمة المعقدة، والطريقة التي يعمل بها القانون الفيزيائي، والعواملِ التي تعمل في التنظيم الذاتي في الأنظمة الحية والأنظمة الطبيعية الأخرى، إلخ (انظر Waldrop 1990; Bradley 1994)[11]. ولا تؤثّر مثل هذه الاعتبارات على المكانة التي

تتمتع بها المقاربات الداخلية، سواء كنّا نفكّر في النمل أو الكلّيـــة أو اللغـــة والذهن.

ويدخل في أي مظهر من مظاهر دراسة اللغة والذهن تقريبًا افتراضاتٌ غيرُ مسوّغة لا تنتمي إلى البحث العلمي الطبيعي، كما يبدو. (للاطلاع على نقاش مفصّل، انظر الفصل الرابع). وإذا كان هـذا النقـاش علـى جـادة الصواب، فربما نرغب في أن نسأل عن السبب الذي يجعل مثل تلك الأفكار تبدو مقنعة جدًا. وربما تكمن الإجابة عن ذلك في أن الصورة البديهية التـي لدينا عن العالم ثنائية بشكل عميق، لا يمكن نقضُه، وتُشبه تمامًا عدمَ قـدرتنا على ألا نرى غروب الشمس، أو مشاركةَ نيوتن في اعتقاده بــــ "الفلـسفة الآلية" التي زعزعها هو نفسُه، أو النظر إلى الموجة التي "تهرب من المكان الذي خُلقت فيه"، بعبارة ليوناردو، باستقلال عما يمكن أن نعرفه في زاويـــة أخرى من زوايا عقولنا. وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت الثنائية الغيبية قـد زُعزعت، فلم يبق إلا نوع من الثنائية المنهجية، وهي بقيةٌ غير مشروعة من البديهة، يجب ألا يُسمح لها بتنغيص الجهود التي تَنحيا فهْمَ النوع الذي ننتمي إليه من المخلوقات.

(١) وليس واضحًا تمامًا إن كان بتشام وديفيدسون يختلفان؛ ذلك أن بتشام لا يبيّن ما يقصده بـ "لغة" أما ديفيدسون فيفصّل فكرة مصوغة على نموذج اللغة الصورية وهي تختلف بالتأكيد عن فكرة بتشام؛ ويبدو كأن النتيجة التي انتهى إليها ديفيدسون تنفي أي شيء مقصود. وربما تنفي اللسانيات الداخلية أيضًا إلا إنْ فهمنا مصطلح "الناس" على أنه يشمل ملكاتهم، وحالاتهم، إلخ.

(٢) يصف بيرج هنا ما يأخذه على أنه "علم النفس كما هو"، لكن السياق يوحي أنه يعني أكثر من ذلك. انظر عن هذه الفرضية ما يأتي في هذا الفصل.

(٣) التداعي priming . يُفترض أن التصورات التي تكون على علاقة بعضها ببعض تترابط في شبكة عقلية ما. لذلك، فإذا أثير تصورٌ ما فإن التصورات المربوطة به تثار كذلك (المترجم).

(٤) وتكمن هذه البواعث وراء بحث بتشام المهم (١٩٧٥)، كما يكرر ذلك في بحثه الآخر (١٩٩٢).

(٥) وقد حذفتُ من قوله هذا هامشًا. ويبدو الحكمُ المتعلق بفراغ الفكر قويًا جدًا، لكنْ دعنا نتجاهل هذه المسألة.

(٦) وهذا مصطلح مشكوك فيه؛ إذ يبدو أن بتشام قد تخلى عن المتطلَّب الضمني الذي معاده أن "الخبراء" الذين نحتكم إلى آرائهم يتحدثون اللغة التي نتكلمها؛ لذلك يختفي المظهر الاجتماعي، وهو ما يعيدنا إلى اعتبارات "الجوهر نفسه".

(٧) ومما ليس له صلة هنا، أن هذا ربما يوجب لزوم إحلال الفكرة التقنية لـ "الإحالة" في دراسة تركيب التمثيلات الذهنية، بصورة لا تبعد كثيرًا عن إدخال العلاقات التي تقوم بين السمات الصوتية في الصواتة.

(٨) ولا يترتب على هذا أنّ "التشابه في المعنى عندنا إنما يعني، إن عنى شيئا، أننا نتواصل بنجاح" (كما يقول كوين، نقلاً عن دريبان Dreban 1992: 305). وبالمثل، فلا يعني التشابه في الصوت أننا نتواصل بنجاح. ذلك أن هناك، في الحالتين كلتيهما، الكثير مما يمكن أن يقال عن ماهية "التشابه" في ضوء الخصائص المشتركة للغة والذهن، حين نتخلى عن قيود كوين السلوكية المضادة للمقاربة الداخلية.

(٩) وينبغي أن نميّز هذه الملحوظات، المألوفة في دراسة اللغة، عن النتيجة التي انتهى إليها ديفيدسون وهي أنه "ليس هناك شيء يمكن أن يؤخذ على أنه لغة" بالمعنى الذي يفترضه "الفلاسفة واللسانيون" عموما، و"ليس هناك شيء لنتعلمه، أو نجيده، أو نولَد به" (Davidson 1986b: 446). ومع هذا فلدى ديفيدسون فكرة مختلفة جدًا "للغة"؛ ومع أنه محقٌ، بالتأكيد، في ظنه أنه "ليس هناك شيء مثل هذا"، إلا أن حجته التي يعزز بها تلك النتيجة أو يعزز بها أفكاره عن الدراسة الاختبارية للغة ليست قوية. فهو محق في ملاحظته أن التأملات كلها تُستعمل، في أثناء التواصل الفعلي، في "النظرية العابرة"، وهي خصيصة نفسية محددة. لكن لا يترتب على هذا أنه لا فائدة لـ "تصورِ لغة ما" لـ "آلة تأويلية محمولة مصممة لاعتصار المعنى الموجود في قولٍ اعتباطي"، إلخ (Davidson 1986b: 445). وربما كان هذا شبيهًا بالاحتجاج على عدم وجود تيار نفاث، نتيجة للعناصر الفوضوية في أنماط الطقس. للاطلاع على بعض التعليقات، انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب.

(١٠) والنقاش الذي تتضمنه الأبحاث عن "ما عناه مار" غريب شيئًا ما؛ ذلك أن المهم هو ما يَسِمُه العالِم، لا ما يمكن أن يكون في ذهنه. للاطلاع على ما يبدو لي أنه تفسير كافٍ للنظرية الفعلية لمار، انظر Egan (د. ت).

(١١) والاقتراحات التي أوردها برادلي (Bradley 1994) ما زالت مهدِّدة، لكن المشكلة ظلت في تفسير عدم التناظر البيّن بين "الوفرة الجزيئية" للأحماض الأمينية و "د.ن.أ" عبر موضع الأعضاء وصفاتها.

الفصل السابع
البحث الداخلي

تدلهمُّ السماءُ في الوقت الذي أكتب فيه الآن، ويُحـذِّر المـذياعُ مـن اقتراب عاصفة نحو [مدينة] بوسطن، ويُتوقع أن تصحبها أمطـار غزيـرة ورياح قوية ستؤدي إلى فيضان الأنهار والمناطق الساحلية، وإلى أضـرار بالأشجار والبيوت، وانقطاع الكهرباء. ويتحقق الخبرُ السابق، ولْنـسمِّه "خ" (ولْنتظاهر بأنه قيل)، في وسط خارجي ويفهمه المتحدِّثُ والـسامع بطـرق متعددة. ونحن نقول، بشكل عام، إن لهذا القول صوتًا ومعنى. ويتـصل "خ" كذلك بالحالات الداخلية للمتحدث والسامعين، وهي التي تدخل فـي الطـرق التي يؤولونه بها. ويعتمد التواصلُ على التشابه بين هذه الحالات. وهذه هي الطرق التي تتعامل بها اللغةُ مع العالم.

وقد دُرست هذه الموضوعات لآلاف السنين من زوايا نظـر كثيـرة، وهي محطُّ الاهتمام في الحياة العادية كذلك، وتتعلق بها ممارسـات ثقافيـة ولغوية متنوعة، وتسمى هذه الممارسات أحيانًا بـ"البديهية" أو "العلم الشعبي". ومن الجلي أن دراسة هذه الموضوعات نفسها ليست دراسةً لهذه الممارسات. فلا تتقيّد علومُ الأرض بالأفكار والتوجهات التي يعبِّر عنها في "خ"، والشيء نفسه صحيح في "علم الطبيعة البشرية" عند هيوم، الذي يسعى إلى اكتـشاف "المنابع والمبادئ السّرية التي تحفز الذهنَ البشري في تنفيذه للعمليات التـي يقوم بها" (Hume 1748/1975: 14, Section 9).

ومع أن القضايا واضحة بما يكفي فيما يخص علـوم الأرض، فإنَّهـا أكثر التواءً حين نوجِّه النظر إلى علم الطبيعة البشرية الذي يعدُّ مـن بـين اهتماماته البحث في البديهة (التي يمكن أن نسميها بـ "العلم الإثني"). إلا أن علم الطبيعة البشرية يسير في مساره الخاص به. وربما يبدأ البحثُ بالأفكار

العادية لـ "اللغة"، و"الصوت" و"المعنى"، و"الريح"، و"النهر"، إلخ، لكن من غير أن نتوقع أن تكون قائدًا موثوقًا به وراء المستوى السطحي.

وأنا أؤوِّل "علمَ الطبيعة البشرية" عند هيوم بأنه علمٌ فردي وداخلي وهو بعيد جدًا عن الإحاطة بدراسة كيف يؤدي البشرُ وظائفهم في المجالين الاجتماعي والمادي. وتفترض الأبحاثُ الأكثرُ توسُّعًا، وإنْ ضمنيًا في الأقل، بعض الأفكار عن الحالات الداخلية التي تَدخُل في الفكر والفعل، وعادةً ما تستعين بقدْرٍ ما يمكنها من الدراسة الداخلية لأنظمة الذهن/الدماغ، وينطلق التبادل في اتجاهات أخرى كذلك، كما هي الحال في دراسة العضويات الأخرى. وربما نجد أقرب المشابهات، في حالة اللغة البشرية، عند الحشرات (انظر Griffin 1994; Austad 1994). فستهتم دراسةٌ بعض الخصائص كـ "الإحالة المُزاحة" في تواصل النحل بالنظر في الطبيعة (الداخلية) للنحل، وتنظيماتها الاجتماعية، وبيئتها المادية، وهي أبحاث يعزّز بعضها بعضا.

وينبغي أن تُحلَّ التعارضات الظاهرية عن طريق الوضوح بشأن المشروع المُشتَغل به. خذْ، نقاشَ المضمونِ الواسع والمضمون الضيق، مثلاً، أو نقاش تحديدِ التمثيلات الذهنية، أو تفريد الفكر والاعتقاد. فنحن نسأل، إن كان البحث يقع في إطار العلم الإثني، عن كيف يفكِّر الناس وكيف يتحدثون عن مثل هذه الأمور — مع إدراكنا أنه لا يمكن إثارة هذا السؤال مباشرةً عن "المضمون" و"التمثيل الذهني"، اللذين يُستَخدمان هنا بمعنيين تقنيين؛ وعن كون كلمتي thought "فكر" و belief "اعتقاد" كلمتين إنجليزيتين لا نظائر قريبة لهما حتى في اللغات الشبيهة بالإنجليزية، بغض النظر عن أهميةِ هذا (لبعض التعليقات، انظر Rhum 1993)؛ وأنه يجب ألا تُفهم التعليلاتُ البديهية لما يفعله الناسُ على أنها شكل من التعليل النظري. ونجد أنفسنا هنا في مجالٍ لمّا يكتشف تقريبا. أما في علمِ الطبيعة البشرية فتبرز أسئلةٌ مختلفة. فنحن نتقصى الإطارَ النظري الذي تصاغ في داخله أفكارٌ مثل "مضمون"، و"فكر" ثم نختبر كفايتَه الوصفية وقوّته التفسيرية. وليس مفاجئًا ألا تكون الأفكار

البديهية معيدةً جدًا لنا [هنا]، وأنْ تبقى نتائجها ضئيلة.

لذلك يبقى الحَذرُ من إعطاء وزن كبير للكيفية التي "يتوسل بها علمُ المعرفة بمعنى التمثيلات الذهنية" للتعبير عن تعميمات تتعلق بالعمليات المعرفية والفعل، و"الاستعانة بها في تفسير هذه التعميمات". وربما لا يكون التحولُ من "علم الدلالة اللسانية" إلى "علم الدلالة النفسية" انطلاقًا من أنّ "الأنواع الطبيعية النفسية" ربما تكون أكثرَ ملاءمة كي تحقق أهداف التفسير النفسي" (Lormand 1996: 52, 53) مهمًا إلا بقدر المدى الذي يصل إليه التفسيرُ النفسي. وهو يصل إلى مدى بعيد جدًا في بعض المجالات (كما في حال الإدراك الإبصاري، مثلا)، لكنه قلما يَذهب بعيدًا في دراسة السلوك.

ويُطلق مصطلحُ "علم المعرفة" cognitive science أحيانًا على الدراسة الاختبارية للقدرات المعرفية (كالإبصار، واللغة، والتعليل، إلخ؛ وهي مكوِّنات لعلم الطبيعة البشرية ربما لا تكوِّن تخصصًا موحَّدًا)؛ ويُطلق في أحيان أخرى على التأمل في طبيعة الذهن. وربما يكون معقولاً، بالمعنى الثاني، أن نقول إنّ "الابتكار المنهجي الرئيس لديكارت، أي منهج الحجة الغيبية، صار منهجًا غالبًا، بل ربما المنهجَ الأغلب، في علم المعرفة" (Brook 1994 12)؛ لكنْ ليس بالمعنى الأول. وفي الحالتين كلتيهما فـ "القانون الأول لعدم وجود علم للمعرفة" عند جيري فودر (Jerry Fodor 1987: 107) ذو صلة، لكنْ لأسباب مختلفة.

كما تأتي التعميمات النفسية بأشكال متعدِّدة. انظر، مثلاً، إلى الاكتشافات عن "ما الذي يَعرفه الرُّضَّع": فهُم يَعرفون ما يكفي ليميِّزوا اللغة الأم من لغة أخرى بعد أيام من ولادتهم؛ ويَتعرَّفون الأشياءَ المادية في ضوء مآلها المشترك وخصائصَ أخرى معقدة بعد شهور قليلة؛ وكثيرٍ غير ذلك (انظر Mehler and Dupoux 1994; Spelke 1990). ويُحاول علمُ الطبيعة البشرية تعليل هذه الإنجازات في ضوء الحالات الداخلية، مميِّزًا بين العوامل الداخلية والعوامل البيئية، صائغًا نظريةً تفسيرية في أي مستوى ملائم. وما

لدينا هنا برامجُ بحث جوهرية تعنى بكائن عضوي أحيائي محدَّد، ولْنسم هذه الفصيلة من التعميمات بـ "التعميم النفسي ١".

انظر الآن إلى "التعميم النفسي ٢": فإذا رغب بيتر في "س"، وكان يفكر بأن الحصول على "س" يُوجب عمل "ص"، وهو قادر ببساطة على أن يقوم بـ "ص"، فسيقوم كالعادة بـ "ص". ويختلف "التعميم النفسي ٢" عن "التعميم النفسي ١" بطرق عدَّة. فهو يزعم بأنه يفسِّرَ السلوك؛ أما تعميمات "التعميم النفسي ١" فلا. ومن السهل اكتشافُ المضمون الاختباري لـ "التعميم النفسي ١"، بخلاف "التعميم النفسي ٢" الذي يصحُّ عن أي كائن عضوي نختار وصفَه بمثل هذه الطرق. ويقوِّم "التعميمُ النفسي ٢"، بخلاف "التعميم النفسي ١"، بالتأمل، لا بالبحث الاختباري، ولا يؤسِّس لبرامجَ بحثية ــ إلا، ربما، البحثَ في الاستخدام العادي للمصطلحات العقلانية وتصوراتها. ويدخل "التعميمُ النفسي ١" تحت علم الطبيعة البشرية، أما "التعميم النفسي ٢" فدخوله فيه أقل وضوحا. كما أن فكرةَ أنَّ "علم المعرفة" يحاول أن يعبِّر عن "التعميم النفسي ٢" ويفسِّره فكرةٌ غامضةٌ بالمثل، وهو ما ينطبق على الجهود التي تحاول تأسيس هذه "القوانين القصدية" على الآليات الحوسبية أو آليات أخرى وتقصِّي تحققاتِها بها.

وتدخل دراسةُ "التعميم النفسي ١" ضمن فروع العلم الأخرى. وكما أوصى الكيميائي البريطاني جوزيف بلاك في القرن الثامن عشر: "دعنا ننظر إلى الانتماء الكيميائي على أنه مبدأ أوَّلي، وهو الذي لا يمكننا تعليله إلا بقدر ما يستطيع نيوتن تعليل الجاذبية، ثم دعنا نؤجِّل تفسير قوانين الانتماء إلى أن نؤسِّس رصيدًا من المبادئ يماثل ما أسَّسه عن قوانين الجاذبية" (كما أورد ذلك Schofield 1970: 226). وقد أُجِّل توحيدُ الكيمياء مع علم الفيزياء الأساسي إلى القرن العشرين، في حين مضت الكيمياء في جهودها لتؤسِّس رصيدًا غنيًا من المبادئ، "ولم تبْنِ نجاحاتُها على أي أساسٍ اختزالي لكنها أُجرت بدلا من ذلك، بمعزل عن علم الفيزياء الوليد" (Thackray 1970: 279)

وربما يكون مسارٌ مماثل معقولاً فيما يخص "التعميم النفسي ١"[1]. أما "التعميم النفسي ٢" فلا يوحي إلا بعدد محدود من الطرق للسير نحو تكوين رصيد من المبادئ، ومن ثمّ إلى التوحيد في نهاية الأمر.

الواقعية الذهنية والواقعية الفيزيائية:

ولمّا حقّقت الكيمياء "رصيدًا [كافيًا] من المبادئ" صار من الممكن أن يوصف ما صاغته بـ "فيزيائي" physical (وإن لم يفعل ذلك بعضُ العلماء البارزين)؛ بل صار ذلك أكثر ملاءمة بعد أن تغيَّرت الفيزياء بما يكفي لتسمح بالتوحيد، متباعدةً بصورة أكثر جذريةً عن الأفكار البديهية عما يكون "فيزيائيًا" لكي "تحرِّر نفسها" من "الصور الحسية" وتتخلى تمامًا عن إمكان تمثيلها ماديًا visualizability، بعبارة هايزنبرج (كما أوردها Holton 1996). وتنطبق هذه الدروس على المظاهر الذهنية للعالَم، ويشمل ذلك التمثيلات الذهنية والعمليات التي ربما يفترضها علمُ الطبيعة البشرية.

وأثارت الثنائيةُ الديكارتية بعض القضايا الجوهرية؛ فقد اقتُرح تصورٌ آلي "للفيزيائي" وقُدِّمت بعضُ الحجج على أن هذا التصور غير كامل. وقد حُلَّت تلك القضايا مع انهيار النزعة الآلية ــ وإن لم تندثر المشكلات التي كانت سببًا في إثارتها ــ ثم "عوّدنا أنفسنا على الفكرة التجريدية عن القوى، أو بدلاً من ذلك على فكرة تتقلب في غموضٍ مُلغِزٍ بين التجريد والفهم الحسي"، كما يلخِّص فريدريك لانج، في دراسته العلمية الكلاسيكية، "نقطة التحول" هذه في تاريخ النزعة المادية، التي سلبتْ هذا المذهب قدرًا كبيرًا من الأهمية (Friedrich Lange 1925 308). وكان هيوم، قبلَ ذلك بقرْن، أكثر تشاؤمًا حين أبان أنّ إسحق نيوتن بتبيينه "عدمَ كمال الفلسفة الآلية أعاد الأسرار القصوى للطبيعة إلى ذلك الغموض الذي ظلت تقبع فيه منذ الأزل وسوف تبقى فيه إلى الأبد" (Hume 1841 vol. 6: 341). وقادت الجهودُ التي سعت إلى مكابدة البحث في عنصر الغموض الذي يسمى "ذهنيًا" بعض

الباحثين إلى استنتاج أنّ "التنظيم الذي صيغ به النظامُ العصبي نفسُه هو الذي يشغل، بصورة حرة في حال الصحّة، خصائصَ الذهن كلهـا (La Mettrie، كما أورده Wellman 1992 147). لكن المشكلات التي أرّقت الديكارتيين لم تناقش قط، ولم يُطوَّر أي "رصيد مهمّ من المبادئ". (للاطلاع على نقاش لهذه القضايا، انظر Chomsky (1966); (1968) والأبحاث التي نشرت بعد ذلك، ومنها Chomsky (1995a)؛ وانظر عن جهود نيوتن فيما يخص المسألة الأساسية Dobbs and Jacob 1995).

وبغضّ النظر عن الإطار الديني لاقتراح جون لوك القاضي بأن الله ربما اختار أن "يضيف إلى المادة قدرةً على التفكير" مثلما "ألحق الآثار بالحركة، وهي التي لا يمكن بحال أن نتصور الحركة قادرةً على إنتاجها"، لم يُقترح، منذ نيوتن، بديلٌ معقول لهذا الاقتراح (John Locke 1975 book IV, Chapter 3, Section 6, P. 541)، وكما فصّل جوزيف بريستلي ذلك فيما بعد، مستخلِصًا "النتيجةَ الواضحة للنقاش عن المادة المفكِّرة" (Yolton 1983: Chapter 1, VI, especially p. 113)، فإننا نأخذ تلك الخصائص "التي سُمّيت ذهنية"- على أنها ناتجة عن "بنية عضوية كبنية الدماغ" أضيفت إلى خصائص أخرى، وربما لا يمكن لأيٍّ منها أن يكون مفهومًا بالمعنى الذي سعى إليه العلم المبكر. ذلك في حين أخذت النزعةُ المادية الأوروبية مسارًا مختلفًا يحتل المركزَ فيه "الزعم، الذي أُسس على قراءة معينة لفيزياء نيوتن، بأن الحركة كامنة في المادة، وأن الطبيعة كلها حية، وأن الروح والجسد شيء واحد، وكلَّ شيء مادي، وأن ذلك كله جميعًا ينتمي إلى هذا العالم" (M. Jacob 1991: 200; Chomsky 1995a).

وبالتخلي عن فكرة "الفيزيائي"، التي لم يُقترح بديل آخر عنها قط، لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من السؤال عن إن كانت المظاهر الذهنية للعالم، أو مظاهره الأخرى، يُمكن دمجها في إطار التفسير الفيزيائي، كما يُتصور في الوقت الحاضر، لأننا:

والقول إلى حد بعيد أنه سيوجد تفسير" فيزيائي لهذه الظواهر، إن كان من الممكن تفسيرُها بحال، وذلك لسبب اصطلاحي غير مهمّ، وهو أنّ تصوُّر "التفسير الفيزيائي" سيُوسَّع، يقيناً، ليشمل أي شيء مما يُكتشف في هذا المجال، بالطريقة نفسها تماماً التي استطاع بها ضمّ. . . عدد كبير من الوحدات والعمليات التي ربما كانت مضادّة للبديهة في الأجيال المبكرة (Chomsky 1968: 98).

ونحاول دراسةُ اللغة تنميةَ رصيد من المبادئ متطلّعةً إلى التوحيد في نهاية الأمر. ويمكن لنظرياتها ومبادئها أن "تسمى ذهنية" بشكل ملائم، وأن يفترض أنها "ناتجة عن بنية عصبية" ـ أما كيفية ذلك، فتنتظر الاكتشاف. وليس هناك ما يمكن أن يقال أكثر من هذا عن هذه المظاهر للطريقة التي تتعامل بها اللغة مع العالم[٢].

الملكة اللغوية:

هناك ما يُسوّغ الاعتقاد بأن لدى البشر "عضواً" مخصوصاً مقصوراً على استخدام اللغة وتأويلها، لنسمّه بـ"الملكة اللغوية". ويمكن أن نأخذ "الملكة اللغوية" على أنها مشتركة بين أفراد النوع، وتتخذ حالاتٍ تتنوع بطرق محدودة تبعاً لتنوع التجربة. وتُسهم هذه الحالات، بتقاطعها مع أنظمة أخرى (معرفية، وإحساسية حركية)، في تحديد صوت التعبيرات اللغوية ومعناها. وربما لا تستطيع دراسةُ هذه الموضوعات تفسير الأفكار البديهية عن الصوت والمعنى، والتماثل في المعنى، والتكرار، إلخ؛ وليس من الواضح كذلك إن كان يمكن عدُّ [هذه الأفكار البديهية] نظرياتٍ عن الصوت والمعنى، كالحال فيما يخص الحركة، والأنهار، والحياة، إلخ.

ولإيضاح هذه المسائل بصورة محسوسة، انظر إلى التعبيرات التالية في (١).

١ــ أ: John was (too) clever to catch.

"كان جون ذكيا (جدا) مما يجعل القبض عليه مستحيلا".

١ــ ب: John was (too) clever to be caught

"كان جون ذكيا (جدا) أن يقبض عليه".

١ــ ج : John was (too) easy to catch

"كان جون سهلا (جدا) على القبض"

١ــ د: John was (too) easy to be caught

"كان جون سهلا (جدا) أن يقبض عليه"

فيعرف بيتر، حين تحصل ملكته اللغوية الحالة الملائمة، أنه باستخدام too تكون (١أ) و(١ب) صادقتين إن كان جون ذكيًا جدًا مما يجعل القبض عليه مستحيلا، وأنه بحذف too ستكون (١أ) "شاذة"، إذ تتطلب تأويلاً غير نموذجي (مع تأويل (١ب) بشكل مختلف). ويعرف كذلك أن (١ج) صادقة إن كان من السهل (جدًا) القبض على جون (الذي لم يكن "سهلا")، وأنه بوجود too أو عدم وجودها تحقق القياسات الواضحة في حالة (١د)، وهي شاذة كذلك. وتسعى دراسة الملكة اللغوية لجمع هذه الملحوظات تحت التعميمات الأوسع لمقولة "التعميم النصي[١]" ولن تكتشف المبادئ والبنى التي تقوم عليها. ومع أن عناصر الحالات الداخلية هذه لا تفسر سلوك بيتر فإنه ينبغي أن تسهم في تفسير الطرق التي يفكر بها ويتصرف، بقدر ما يكون هناك تفسير ممكن. وهناك نظرية ناجحة إلى حدٍ معقول تتناول هذه الحالات نطلاقًا من الافتراض بأن الملكة اللغوية نظام حوسبي ذو مبادئ غير متغيرة إلى حدٍ بعيد. وبتبنينا لهذه النظرية مرحليًا نعزو إلى جون حالات ذهنية، وتمثيلات، وعمليات تتوافق معها (ولا يملك نفاذًا شعوريًا إليها)[٢].

افرض أنّ ملكةَ بيتر اللغوية في الحالة "ل". ويمكننا عندها أن نقول إنه يمتلك (يتكلم، يفهم، . . .) اللغة "ل". ويُستخدم مصطلحُ "لغة" هنا بمعنى تقني، ولنسمِّ "ل" "لغةَ ــ د" ــ حيث تُوحي "د" بأنها: داخلية، وفردية، ومفهومية كذلك، بمعنى أنّ "ل" إجراءٌ محدّدٌ يولّد تعبيراتٍ كثيرة غير نهائية في "ل". ويدخل أحدُ مظاهر "اللغة ــ د" عند بيتر، ولنسمّه "تأويل بيتر للبيان الإذاعي"، في تحديد الكيفية التي ربما أوّل بها بيتر البيانَ الإذاعي في الخبر "خ" الذي أوردناه آنفا. ويُشابه "تأويلُ بيتر للبيان الإذاعي" التعبيراتِ التي ولّدها ذهنُ المذيع وعقولُ المستمعين الآخرين، إن كانوا يَفهمون البيان كما يَفهمه بيتر تقريبا. ويمكن أن نسمي فرعَ علم الطبيعة البشرية الذي يُعنى بالملكة اللغوية، والحالاتِ التي تتمثل بها، والتعبيراتِ التي تولّدها "اللغاتُ ــ د" بـ "اللسانيات ــ د".

وتمثّل فكرةُ "اللغة ــ د"، كما يبدو، أقربَ نقطة تصلها "اللسانيات ــ د" من الأفكار البديهية المختلفة للغة. ومع أن [الأفكار البديهية] لا تمثّل مشكلةً في الحياة العادية فإنها معقدة وغامضة. فتَعدُّ إحدى الدراسات الوصفية للاستخدام الإنجليزي العادي، وهي من أجود الدراسات الوصفية التي أعرفها لهذا الموضوع، اللغةَ "موضوعًا (قصديًا) للاعتقاد (المشترك)، ويمكن دراستها بشكل استكشافي ملائم في إطار علم الاجتماع اللغوي" (Pateman 1987: 73)؛ مع أنه ربما لا تكون هذه الفكرةُ أكثرَ نفعًا للسانيات الاجتماعية، إذا تجاوزنا الظاهر من نفع العبارات في الخبر "خ" لعلوم الأرض، مثل مصطلح "المنطقة الساحلية"، مثلاً، الذي يشبه من حيث المكانة مصطلح "لغة"، باستثناء كونِ المصطلح الأخير أقلّ تماثلاً مع ما يُطلق عليه، ويتصف بالتحوّل، والارتباط القيَمي المتعدد الأبعاد. وتُستخدم المصطلحات العادية غالب بوصفها اختزالات، كما رأينا في مناقشة الخصائص العامسة للغة الصينية مقابل الإيطالية (اللتين لا يتوفر لأي منهما نصيب كبير من الاعتقاد المشترك). كما أننا نقول إن بيتر يتكلم أو لا يتكلم اللغة نفسها التي

أتكلمها أنا، أو يسكن في المكان نفسه [الذي أسكن فيه] أو لا يسكن. لكن العالم لا يتألف من مناطق أو لغات كهذه بأي معنى مهم لعلوم الأرض أو "اللسانيات ـــ د".

بل لا يعدو الحديث عن أن بيتر يمتلك "اللغة ـــ د" ل" أن يكون تبسيطا شديدا؛ ذلك أن حالة الملكة اللغوية عند أي فرد خليطٌ من الأنظمة التي ربما لا تؤدي إلى فهم نظري أكثر مما تؤدي إليه الظواهرُ المعقدة الأخرى في العالم الطبيعي. فنحن نقول عن بيتر إنه متعدد اللغات حين يَحدُث أن تكون الاختلافات بين اللغات التي يعرفها مهمةً لنا لسبب أو لآخر، ومن جهة أخرى، فكلُّ متكلمٍ متعددُ اللغات بشكل متعدد.

ويسمى امتلاكُ لغةٍ معينة، في اللغة الإنجليزية، "معرفة لغة"، وهو ما أدى إلى بعض المحاولاتِ لفرض تصورات متعددة من تصورات طبيعة المعرفة، ولتحديد ما الوحدة التي يكون بيتر على علاقة معرفية معها حين يمتلك "ل". ولأسباب ناقشتُها في غير هذا المكان، أظن أن هذه المسائل كانت ضحية لسوء في التصور، مع أن بعض المسائل الأخرى تَستحق الاستقصاء. لهذا فحين يمتلك بيتر "ل" فهو يَعرف أشياء كثيرة، ومنها، مثلاً: أنّ كلمة chase "يطرد" تسجع مع lase "الخيط الذي تربط به الحذاء"، وتقتضي follow "يتبع". وتفصيل هذه المسائل كلها مشروع مهم يستحق الاستقصاء؛ وهناك مسائل أخرى تتعلق بطبيعة معرفة "س" عموما، والمضمون المعرفي لمعرفة الكيفية، وعلاقاتِ المعرفة بالقدرة، إلخ. (للاطلاع على مناقشة هذه القضايا انظر Chomsky 1975; 1986).

وتُبنى تعبيراتُ "ل" من وحدات معجمية يتألف كلٌّ منها من مجموع من الخصائص؛ وتمثّل الكلماتُ البسيطة في الحبر "خ" أقرب مثال لذلك. ونحن نتكلم بصورة عامة عن صوت كلمةٍ معينة ومعناها، أي الطريقة التي تُنطق بها، والمعنى الذي تؤديه. وتُحيل أقربُ صياغة بديلة في إطار "اللسانيات ـــ د" إلى خصائص في وحدةٍ معجمية معينة تتصل بالصوت والمعنى، أي:

سماتها الصوائية والدلالية (ولنسمها بـ "الصوت ـ د" و "المعنى ـ د" لهما، على الترتيب). وتتألف الوحدة المعجمية من هذه السمات، إضافة إلى بعض السمات الصورية (التي ربما لا تكون متمايزة عنها) وتدخل في العمليات الحوسبية التي تكوّن بنى أكبر. وربما تكون لها بنية داخلية أكثر تعقيدا. وليس هناك طبقة تحتية منفصلة، أي الكلمة، يمكن أن تورث الخصائص فيها، كما ينتج عن أي تعبير في أيّة سمة وحدة معجمية مختلفة. وإذا وضعنا جنبًا كثيرًا من القضايا المهمة، دعنا نفترض أن اللغة تشتمل على معجم يمثل مجموعةً من الوحدات المعجمية، وأن المعجم يُنفذ إليه عن طريق الإجراءات الحوسبية التي تكوّن التعبيرات[4].

وقد أثار معنى الكلمات قدرًا كبيرًا من الانتباه والخلاف، بل إن هناك من يُنكر الآن أي وجود لـ"المعنى ـ د" (أي: "التمثيل الدلالي"، "المضمون الضيق") عموما. ولا تثار أسئلة مماثلة عن "الصوت ـ د" إلا قليلا. ويبدو لي أن التخصصات الاختبارية تدرس الأمرين بطريقة واحدة تقريبا: فهي تفترض على الأخص أنهما يشتملان على سمات كلية غير متغيرة تصاغ منها الوحدات المعجمية (ومن هنا فهي ليست "شبكية" holistic بصورة جذرية). وسأسلّم مؤقتًا بأن افتراض وجود "الصوت ـ د" و"المعنى ـ د" مشروع، وسأعود فيما بعد إلى مناقشة أسباب إنكار هذا الافتراض.

وتُحصّل الملكةُ اللغوية حالةَ "ل" تحت تأثير قدرٍ ضئيل من التوجيه والتدريب أو القرار، إن كان هناك أثر لمثل هذه ابتداء، وتمرُّ بحالات ذات خصائص معينة وتثبت جزئيًا عند مراحل عمرية محدّدة. وتسير عمليات الذهن، إذا استعرنا عبارةَ هيوم، "في ضوء طُرق انتقال طبيعي، يسبق التأملَ، ولا يمكن [للتأمل] أن يمنعه" (Hume 1740/1948: 147, Book I, Part III, Section 13). وتبدو الملكةُ اللغوية، بهذه المعايير كذلك، شبيهةً بالأعضاء الجسدية الأخرى. ويستمر المعجمُ في التغيُّر بطرق معينة، ويتعرض لدرجة من الاختيار الشعوري (كما يحدث للأجزاء الأخرى من

اللغة، بصورة هامشية). لهذا يحوي مُعجمي الكلمة dour "قاسٍ" التي تسجع مع الكلمة الأخيرة في الخبر "خ"، أي: power. وربما تحوي لغةُ بيتر كلمة مختلفة بالمعنى نفسه لكنها تسجع مع كلمة poor "فقير". ويمكنني أن أتخلى عن الكلمة التي أستخدمها، لأستخدم الكلمة التي يستعملها بيتر، أو ربما أعطيها معنى مختلفاً شيئاً ما مع الإبقاء على "صوتها ... د" ثابتاً؛ وربما يكون ذلك بقرار واعٍ، أو من غير وعي. وتقع مثل هذه الأحداث في نطاق ما يسميه تايلور بيرج بـ "الشبكة الواسعة الوعرة للاعتمادات المتبادلة، التي تقوم على أنماط الاستئناس برأي الخبراء التي تُعيدنا مرة أخرى إلى أناس يسعون إلى التوافق مع الآخرين" (Tyler Burge 1986b: 702, 703)، كما أنها التي تؤسّس، مع العلاقات المختلفة للقوة والتنظيمات الاجتماعية والعوامل الشخصية وعوامل أخرى، "معياراً للتفاهم اللغوي المتواضَع عليه"، كما يُفهم بصورة عامة. أما إن "كانت [هذه العوامل] توفر معنى لغويًّا كذلك"، كما يقترح بيرج، فيبدو لي أمراً من أمور الاصطلاح، لا الحقيقة. كما لا يبدو لي واضحاً كيف يمكن أن يتعلم شخصٌ شيئاً عن مثل هذا التعقيد المتنوع من غير أن يحصر دراستَه بالأجزاء التي يمكن أن تخضع للدراسة الدقيقة. ولا تذهب "اللسانيات - د"، بأية حال، أبعد من القول بأني، في الحالة التي بين أيديد، أضفتُ وحدةً جديدة إلى معجمي، مع التخلي، ربما، عن استخدام وحدة أقدم منها؛ وهي لا تسعى، بصورة أعم، إلا إلى تحديد بعض العوامل المعيَّنة، وهي عوامل جوهرية فيما يبدو، مما يَدخل ضمن التعقيد الباهر للشئون البشرية.

وكثيرا ما يُعتقد أنّ "أحكام الناس [اللغوية] الفورية، أو حدوسهم، كما يسميها الفلاسفة"، تكوِّن الموضوع الذي تهتم به اللسانيات ونظريةُ الإحالة، اللتان تسعيان إلى تحديد "الحدوس النحوية" و"الحدوس الإحالية" بطريقة منهجية[*]. ويمكن للمرء أن يعرِّف المشاريع [العلمية] بالصورة التي يريدها، لكن من الصعب أن نرى أهميةً لتحديد بعض المقولات المعيَّنة لأحكام [المتكلمين]، أو لأنواع المادة الأولية الأخرى المختارة.

حد دراسة الإحالة، فى مظهريها، أى: دراسة كيف يستخدم الناسُ اللغة للحديث عن الأشياء ودراسة أفكارهم عن مثل هذه الأمور. وربما أمكن لأحكام [المتكلمين] أن توفِّر أدلةً لهذين النوعين من الدراسة، وربما يصح الاعتمادُ عليها أو ربما تكون مفيدة، وربما لا تكون. وربما أمكن لبحث جاد في دراسة هذين الموضوعين أن يتقصى التشابهات عبر الثقافات، واعتبارات فقر المنبّه، والتجارب النصية اللسانية، والتصوير الآلي للدماغ، أو أي شيء آخر يمكن أن يُقترح. لكن هذين المسارين البحثيين كليهما ليسا دراسة لأحكام [المتكلمين]، وإن أمكن النظر إليهما على أنهما دراستان للحدوس بمعنى مختلف: أي دراسة لحقيقة ماهيتها، وهو موضوع تَصلح الأحكامُ الحدسية فيه أن تكون مصدرًا للمعلومات، في أحسن الأحوال. (وينظر منك إلى هذا الأمر من زاوية مختلفة شيئًا ما Stich 1996).

ولا تعدو الأحكامُ الحدسية أن تكون مادةً أوليّة؛ ويمكن أنْ تصير دليلاً في إطار نظرية تفسيرية ما. فقد استُخدمت الأحكامُ التي أوردناها عند الكلام عن الأمثلة في (١) أدلةً لتأييد النتيجة التي مفادها أنّ تابع الصفة "مكوِّن مركّبي" يتضمن ثلاث مقولات خالية، هي: الفاعل الصفر، والمتغيِّر الخالي O، وأثرُ O، وهي أفكار تُفسَّر في إطار النظرية، وتُسوَّغ بصورة مستقلة إن كان للتفسير الذي أُعطي للمثال (١) من قوة. ولا يملك المتكلمون أحكامًا حدسية، عن هذه الأمور، أكثر مما يملكونه من أحكام حدسية عن "المضلعات الشاذّة" tensors أو عن فكرة "اللايقين" undecidability .

ويجب النظر بقدر من الحذر إلى الأحكام الحدسية التي يُحثُّ المتكلمون على إعطائها مع حذْف التوقعات العادية منها. افرض أننا سألنا بيتر: هل يتحدث رجلٌ مريخي اللغة التي يتحدثها هو إنْ كان [هذا الرجل] يشترك معه في أحكامه عن المثال (١) وتعبيرات أخرى لكنه يستخدم مبادئَ مختلفة أو كان تركيبه الأحيائي الكيميائي مختلفًا؛ أو إن كان يمكن لنسخة شبيهة ببيتر خُلقت للتو أن تتحدث عن الأنهار أو الماء. وتصبح الأحكام [في هاتين

الحالتين] غير واضحة، وتتضاءل باتجاه عدم الأهمية؛ لأن التجارب الذهنية تحذف الاعتقادات المسبقة التي تُفترض في الاستخدام العادي للغة، وهو ما يجعلها تتحول إلى مجالات توءم الأرض ورجال المستنقعات، والعوالم الأخرى الغريبة (انظر Stich 1983: 62; Fodor 1994: Appendix B)[1].

افرض أنا تبنينا مشهدًا متخيلاً "للعوالم الغريبة" لاستقصاء ما يدخل في تصورات بيتر: فهل يشمل تصورُ "الماء" عنده "س ص ع" في توءم الأرض، مثلا؟ وهل يمكن أن يقول ــ أو يكون صحيحًا منه أن يقول ــ إن "الماء" في توءم الأرض هو "س ص ع"، بخلاف الأمر هنا؟ أو: ليس في توءم الأرض "ماء"، بل "س ص ع" فقط؟ أو لا واحد منهما، تبعًا لتغير شروط التجربة الذهنية؟ أو ربما ليس فيها شيء يمكن فهمُه؟ ويمكن للإجابات أن توفِّر أدلةً لتفسيرٍ معين لحالات بيتر اللغوية وممارساته، وطرقِ تفكيره، وربما كان لهذا التفسير صلة بالسؤال الأول عن التصورات إنْ كانت الفكرة التقنية [توءم الأرض] تَدخل في التحليل النظري. أما خارج السياق فربما لا تُبين الأحكامُ إلا القليل حتى إن كانت ثابتةً في حين تتنوع شروط التجربة الذهنية، وهو ما يبدو الأمرُ بخلافه.

وينبغي ألا تُسارع دراسةُ الدلالة الشعبية إلى الافتراض بأنّ الممارسات والمواصفات في تقليدٍ ثقافي معين دليلٌ جيد على الفهم البديهي، سواء أكان فهمَ الباحث أو فهمَ غيره[2]. فينبغي عليها في الأقل أنْ تحاول اكتشافَ المشابهات للملكة اللغوية و"اللغة ــ د" في هذا المجال، ساعية نحو تحديد المكوّن النظري.

افرض أن بيتر يقول إن "جو المدمن" صوّت لصالح مشروع الحد الأدنى للأجور، لأنه مشغول بصحة ابنه، فهل يلزم أن نستنتج أن بيتر يعتقد أنّ العالم مكوّن من وحدات مثل: جو المدمن، والحد الأدنى للأجور، والصحة، وعلاقات مثل "يصوّت لصالح" و"الانشغال بـ" التي تربط بينها؟ وهل يكون الاستنتاج الموازي مسوَّغًا حين يقول بيتر إن توم رار بوسطن؟

وإذا قال بيتر إن البنك انتقل إلى الجهة المقابلة من الشارع بعد أن دمّره حريق، فهل يعتقد أنّ من بين الأشياء فى الكون هناك أشياء يمكن أنْ تُدمَّر لكن ما يزال من الممكن أنْ تبقى، وهو ما يحطها تنتقل؟ ويمكن أن تثار أسئلة مماثلة عن الكلمات التى فى "ح". ويهتم العلمُ الإثنى بالتصورات العلمية الشعبية عن هذه الأمور. أما علمُ الطبيعة البشرية فيحاول أن يكتشف ما يحدث فعلا، وأن يكتشف تعقيدات "التصميم التشريحي للعقل"، بتعبير هيوم، والطرق التى تدخل بها بناه وعملياته فى التفكير والفعل. وهذان النوعان من البحث مختلفان، مع أنهما ربما يستخدمان مواد أولية متشابهة (وربما تكون أحكامًا حدسية).

وربما يهتم بحثُ معنى كلمة meaning "معنى" أو كلمةَ sound "صوت" باكتشاف:

١ـ السمات الدلالية ("المعنى ـ د") للوحدتين المعجميتين: "معنى" و"صوت" في إحدى لهجات اللغة الإنجليزية.

٢ـ الأفكارِ التى لدى الناس عن المجال العام للمعنى والصوت.

أو:

٣ـ أفضل نظرية عن اللغة واستخدامها.

والسؤال (١) سؤالٌ عن كلمات إنجليزية (ذات خصائص غريبة نوعًا ما)؛ ويدخل (٢) فى إطار العلم الإثنى؛ أما (٣) فيدخل فى إطار علم الطبيعة البشرية. ويثير (١) و(٢) أسئلةً جادة مشروعةً إلى حد بعيد. لهذا نجد، حين نستقصي (١) أنه ليس للأسماء معانٍ: فليس للسؤال: "ماذا يعني 'ستالين'؟" معنى، إلا إن كنا نسأل عن الأصل الاشتقاقي لهذا الاسم. ونجد كذلك أنّ السؤال: "ماذا يعني التعبير "ت"؟ يشترك في الخصائص مع السؤال: "كم يزن جون؟" و: "بم يشعر جون؟" بدلاً من اشتراكه مع السؤال: "ماذا أكل جون (أو "قال" أو "عنى")؟، مما يوحي بأن ما يعنيه "ت" ربما

يكون نوعًا من النوعية الظرفية. وليس لدراسة (١) و(٢) إلا قدر ضئيل من الأهمية الواضحة للسؤال (٣). ويصحُّ هذا تقريبًا في دراسة التفكير والاعتقاد والتصورات، إلخ.

تأويل المستويات الوجيهية:

دعنا نلتفت إلى بعض المسائل التي تقع في إطار (٣) أعلاه؛ أي المسائل التي تتعلق بالملكة اللغوية والحالات التي تتخذها، والكيفية التي تُدمج بها مع المكوِّنات الأخرى للذهن/الدماغ في استخدام اللغة.

وإحدى المسلمات النموذجية المعقولة إلى حد بعيد، وهي استخدامٌ لأفكار تقليدية، أنَّ التعبير "ت" في "ل" يتألف من زوجين: <صو، دلا>، حيث يمثِّل "صو (ت)" المعلومات التي تتصل بصوتِ "ت" وتمثِّل "دلا (ت)" المعلوماتِ التي تتصل بمعناه. وتصاغ "صو" و"دلا" بالعمليات الحوسبية التي تعمل على الوحدات المعجمية. افرض أن "ت" كلمةٌ معزولة. و"صو (ت)" متمايز عمومًا عن "صوتها ــ د" نتيجة للعمليات الصواتية؛ أما "دلا (ت)" فربما تتماثل مع "المعنى ــ د" لـ "ت"، تبعًا للحقائق عن تحليل العناصر المعجمية، وما يشبهها. و"صو (ت)" و"دلا (ت)" عنصران عند "المستوى الصوتي" و"المستويات الدلالية"، على الترتيب؛ أي أنهما "تمثيلان" الأولُ صوتي والثاني دلالي. ولهذه المصطلحات معانيها التقنية المعينة؛ فليس هناك شيء "مُمثَّل" بالمعنى الذي في النظريات التمثيلية للأفكار، مثلا(٨). وهذان المستويان "وجيهيَّان" بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى، ويوفِّران المعلومات التي تَستخدمها الأجهزةُ الحركية الحسية والأنظمة الأخرى لاستخدام اللغة.

وقد أُنجزت أبحاث كثيرة رائدة عن هذه التمثيلات والكيفية التي تصوغها بها عملياتُ "اللغة ــ د" (عن الجانب الدلالي، انظر inter alia, Larson and Segal (1995), Pustejovsky (1995)، والمراجع المذكورة

هاك). ويمكن أن يُنظر إلى هذه الأبحاث على أنها "تركيب" بالمعنى التقني؛ فهي تدرس خصائص الموضوعات الرمزية وتنظيماتها. وتسمى هذه الأبحاث أحيانًا بعلم الأصوات، على الجانب الصوتي، لكن مع فهم أنَّ دراسة السمات الصوتية، والبنى المقطعية والعروضية، وغيرها، لا تسهم إلا في الدراسة الأكثر عمومًا للكيفية التي تستخدم بها الأنظمةُ الحركية الحسية المعلومات التي توفرها "اللغة ــ د"، والكيفيةِ التي يتصل بها هذه الكمُّ المعقَّد كلُّه ببعض الأحداث الخارجية. وهذه قضايا يعنى بها علمُ الأصوات الفيزيائي وعلم الأصوات النطقي، وتذهب بعيدًا وراء "اللغة ــ د". وربما تكون الممارسةُ نفسُها ملائمة، كما أظن، في مجال الأبحاث التي تسمى غالبًا بـ "علم دلالة اللغة الطبيعية" و"علم الدلالة المعجمية". فيمكن النظر إلى هذه الأبحاث على أنها جزء من "التركيب"، لكنها موجَّهة لمستوى وجيهي مختلف، ولمظاهر مختلفة أخرى من استخدام اللغة، وبقدر ما تقوم علاقة السجع بين chase "يطرد" و lace "الخيط الذي تربط به الحذاء"، على خصائص "الصوت ــ د"، وتقوم علاقة الاقتضاء بين chase و follow على خصائص "المعنى ــ د"، فهما تنضويان تحت "التركيب"، بمعنى تقليدي.

وتتصل الأبحاثُ كلُّها تقريبًا في مجال "التركيب" بمعناه الأضيق اتصالاً وثيقًا بمسائل التأويل الدلالي (والتأويل الصوتي، بالطبع)، وهو يُسوِّغ بمثل هذه المسائل. وقد أُسيء فهمُ هذه الحقيقة في أحيان كثيرة لأن كثيرًا من الباحثين اختاروا أن يسمُّوا هذه الأبحاث "تركيبًا"، محتفظين بمصطلح "دلالة" ليُطلقوه على علاقات التعبيرات بأشياء غير لغوية[٩]، وكانت الأبحاث المعاصرة المبكرة في "اللسانيات ــ د" (أي النحو التوليدي) تُعنى بمعاني تعبيرات كالتي في (١) (ص٣١٤)، وهو إحياء لبعض اهتمامات النحو التقليدي، وربما كان مفيدًا أن تميِّز مظاهرَ "اللغة ــ د" الألصقَ بالصوت أو الألصق بالمعنى؛ لكن علمي الأصوات والدلالة، بمعنى الكيفية التي تتعامل بها اللغة مع العالم، يقعان وراء ذلك.

وتبرز أسئلةٌ أكثر خطرًا عن الصورة العامة [لهذا النوع من البحث] عند كل منعطف، بدءًا من البنية المفترضة للذهن وانتهاءً بتفاصيل التنفيذ. فتتصل فصيلةٌ من الأسئلة بموضع المستوى الوجيهي. فيجب، على الجانب الصوتي، أن يُحدَّد هل الأنظمةُ الحركية الحسية خاصةٌ باللغة جزئيًا، فتكون ضمن الملكة اللغوية، إذن، وهو ما يعني أنه يجب أن يكون المستوى الوجيهي "وراء" ما يُعدُّ عادة تمثيلاً صوتيًا؛ وهناك خلاف كبير على هذا الأمر. أما على الجانب الدلالي فتتعلق الأسئلةُ بالعلاقات بين الملكة اللغوية والأنظمة المعرفية الأخرى، ولا يمكن أن يُقدَّم، على أي من المستويين، إلا بعضُ التخرصات المعقولة التي لا تعدو أن تكون مقاربات أولية.

وقد دُرست أسئلةُ العلاقة بين اللغة والعالم على المستوى الوجيهي الصوتي بصورة معمَّقة باستخدام تقنيات عالية التعقيد، لكن المشكلات عصية، وما يزال فهمُها محدودا، والأسئلة عن الأمور التي تُستخدم التمثيلاتُ الدلالية لها أكثرُ من ذلك غموضا، ولا يُعرف إلا قدر ضئيل جدًا عن الأنظمة الخارجية للغة؛ ويرتبط قدرٌ كبير من الأدلة عن هذه الأنظمة ارتباطًا وثيقًا باللغة مما يجعل تحديد متى تتصل باللغة، ومتى تتصل بالأنظمة الأخرى (بقدر ما تتمايز) صعبًا جدًا. يضاف إلى ذلك، أن التقصي المباشر الملائم الممكنَ للأنظمة الإدراكية الحسية ما يزال في بداياته. ومع هذا، فهناك كمٌّ ضخم من المادة الأولية التي تتصل بالكيفية التي تُستخدم بها التعبيراتُ وتُفهم في ظروف معينة، وهي كافية إلى حد صار عنده علمُ دلالة اللغة الطبيعية أحدَ أكثر جوانب دراسة اللغة حيوية، وإن كانت الأسئلة التي تتعلق باستخدام اللغة ما تزال سرابا.

الوحدات المعجمية:

اقترحتُ آنفًا أن التعبير يتألف من زوج: <صوت، دلالة> يُصنع من وحدات معجمية، كل منها مجموعٌ معقَّد من الخصائص، ومنها "الصوت —

د" و"المعنى ــ د". وتؤول "صو" و"دلا" عن طريق الأنظمة الخارجية للغة. ومن المحتمل ألا يوحد، عند هذين المستويين الوجيهين، وحدة فرعية تتماثل مع الوحدة المعجمية. وليس هناك خلاف في هذه النقطة في المستوى الوجيهي الصوتي. ويفترض عدد كبير من الأبحاث التركيبية/الدلالية أن من الممكن أن تحلل الوحدات المعجمية إلى الخصائص التي تتألف منها ثم يعاد تأليفها في أثناء حوسبة "دلا". فربما ينتج عن وحدات مثل who أو nobody، مثلاً، تركيبٌ تتألف من "عامل ــ محدد ــ متغيِّر" عند مستوى "دلا"، مثل:

([John saw x] [QUx, x a person])

([أداة استفهام "س"، "س" شخص] [جون رأى "س"])

وربما تكون هناك طرق أخرى يمكن بها تعديلُ خصائص الوحدات المعجمية الدلالية أو توزيعها. ومع هذا نستطيع، في الكلمات البسيطة عمومًا، أن نفترض أن "دلا" تساوي "المعنى ــ د" (وربما يكون هذا تعبيرًا عن جهلنا).

وهناك بدائل شائعة لهذه الصورة فيما يخص المكوِّن الدلالي للوحدات المعجمية، كما تنحو بعض الدراسات الأكثر اتصافًا بالاختبارية والنقاشات التصوُّرية عن طبيعة المعنى والإحالة إلى تناول هذه المسائل بطرق مختلفة شيئًا ما. فتنظر النقاشاتُ التصوُّرية عادةً إلى الكلمات والتعبيرات الأخرى على أنها وحدات صوتية (أو هجائية)، أو أنها معزولة إما عن الصوت أو عن المعنى؛ فيمكن لكلمة ما تبعًا لذلك أن تغيِّر معناها، بل ربما صوتَها ومعناها معًا، وتظل، مع هذا، الكلمةَ نفسَها. ولا يبدو أن لهذه المواضعات معنى؛ إذ يجب أن تُفسَّر وتسوَّغ، في الأقل. والدعوى الأبسط أنه ليس لتعبير ما وجودٌ بمعزل عن خصائصه عند المستويين الوجيهين، "صو (ت)" و"دلا (ت)" (إن كان هناك مثل هذين المستويين).

وربما كانت عمليةً استكشافية مفيدة، في ظني، أن نتقصى التشابهات بين جانبي الصوت والمعنى إلى أبعد حد يمكن أن نذهب إليه. فيمكن أن

نسأل، تحديدًا، إن كان من الممكن إلقاء الضوء على القضايا الدلالية عن طريق النظر في مشابهاتها الصوتية، وهي التي كثيرًا ما تبدو أقل إثارة للخلاف.

لننظر الآن إلى "اللغة الذهنية" بديلاً للصورة التي أوضحناها إلى الآن. فبدلاً من أخذ الوحدة المعجمية على أنها تتضمن "الصوت ـ د" و"المعنى ـ د"، دعنا نفترض أن أحدهما مفقود، أو ربما الاثنين معا. وتبعًا لهذا، إما أن يكون "دلا" مفقودًا أو "صو" مفقودًا، أو كلاهما مفقودين عند المستويين الوجهيين. فمعنى أنْ تتعلَّم لغةً ما أن تكتَسِب قواعدَ تُحوِّل الوحدةَ المعجمية إلى نظام آخر من أنظمة الذهن، أي "اللغة الذهنية"، التي تُؤوِّل لتُنتِج (مظاهرَ) الصوت والمعنى. وإذا كان "الصوتُ ـ د" مفقودًا، تُحوِّل الوحدة المعجمية إلى "ص ـ اللغة الذهنية". وإذا كان "المعنى ـ د" مفقودًا تُحوِّلُ الوحدةُ المعجمية إلى "د ـ اللغة الذهنية"، أو إليهما معا. أما اللغة نفسها فليس لها صوتات/أصوات، ولا دلالة، ولا الاثنان معا. هذه هي خصائصُ اللغة الذهنية.

ولا توجد مثلُ هذه الاقتراحات في الجانب الصوتي – على حد ما أعلم – أما في الجانب الدلالي فهي شائعة. والسؤال هو: ما المضمون الجوهري لهما، على أي الجانبين؟

وللتمثيل لهذا الأمر بأمثلة فعلية، لننظر مرة أخرى، إلى كلمات المثال (٢)، أو كلمات: persuade "يُقنِعُ"، و force "يُرغِمُ"، و remind "يُذكِّرُ" في مكان x "س" في المثال (٣):

٢ـ chase, lace, follow

٣ـ John X-ed Mary to take her medicine.

. "جون "س [الفعل في حالة الماضي]" ماري لتتناول دواءها"

افرض أنه ليس للوحدات المعجمية المقابلة لـ X "صوت ـ د" وأن بيتر تعلّم كيف يحوّلها إلى مناطق "ص ـ اللغة الذهنية" التي لها تأويل صوتي. ويعرف بيتر أشياء كثيرة عن هذه المناطق وتأويلاتها. فهو يعرف أن chase تسجع مع lace؛ وأن persuade و force تبدآن بضم الشفتين، وإن بطريقتين مختلفتين، أما remind "يذكّر" فلا؛ إلخ. وتعزو المقاربات النموذجية هذه الخصائص إلى الملكة اللغوية، وترى أنها ممثّلة في "صو". ويضيف البديلُ "ص ـ اللغة الذهنية" طبقةً أخرى من التعقيد، ويثير مشكلات جديدة، ومنها مثلاً: ما مكوّنُ الوحدة المعجمية الذي يُبيّن المنطقةَ التي تحوّل إليها في "ص ـ اللغة الذهنية"، إن لم يكن [ذلك المكوّن] هو "الصوت ـ د" (كما يُفترض في النظريات المألوفة)؟ وما النقطة التي يُنجَز عندها تحويلُه إلى "ص ـ اللغة الذهنية" في أثناء حوسبةِ تعبيرٍ ما؟ وكيف يعبّر عن الخصائص الكليّة والخاصة للصوت عند تأويل "ص ـ اللغة الذهنية"؟ ولم تُثَر مثل هذه الأسئلة من قبل، لأسباب وجيهة، وهو ما يبيح لنا أن نُسقط هذا الأمر تماما.

انظر الآن إلى التنظير الدلالي. فنفترض الآن أن الوحدات المعجمية لا تتضمن إلا "الصوت ـ د" وخصائصَ صورية غير مؤوّلة، وأنّ بيتر تعلّم كيفية تحويلها إلى مناطق "د ـ اللغة الذهنية"، التي لها لا تأويل دلالي، (للاطلاع على صور متعددة من وجهات النظر هذه، انظر Fodor 1990: Chapter 7، وهو مراجعة لكتاب Schiffer 1987). ويعرف بيتر أشياءَ كثيرةً عن هذه المناطق/ التأويلات كذلك. لهذا، فإذا طَرَد تومُ بيلَ فقد تبع توم بيل بقصد معين، لا العكس؛ وإذا كانت X "س" = "يحضّ" persuade في المثال (٣)، فإن جهود جون نجحتْ جزئيًا (إذ صارت ماري تقصد أن تتناول دواءها، لكنها ربما لم تفعل)؛ وإذا كانت X "س" = force "أرغم" فإن جون نجح، لكنْ بطريقة مختلفة (فقد تناولت ماري الدواء، سواء أكانت تقصد أم لا)؛ وإذا كانت X "س" = remind "يذكّر" فإن جون ربما أخفق (إذ إنها ربما لم تُعِره اهتماما)، أما إن نجح، فإن ماري صارت تتذكّر أن تتناول دواءها.

وتعزو المقارباتُ المبكِّرة هذه الخصائص إلى الملكة اللغوية، وتأخذها علـــى أنها تظهر في "دلا" نتيجةً لعمليات الوحدات المعجمية والتركيبات التي تظهر فيها. ويضيف البديلُ "د ـــ اللغة الذهنية" طبقةً أخرى من التعقيد ويثير أسئلة جديدة إضافةً إلى الأسئلة التي أثيرت في التنظيـــر الـــصوتي. فـــإذا أخـــذنا الوحدات المعجمية على أنها ليس لها "صوت ـــ د" ولا "معنـــى ـــ د" فكـــلا النوعين من المشكلات يبرز.

وربما تُضلِّلُنا بعض الأمثلة البسيطة مثل:

Snow is white.

"الثلج أبيض".

أو الجُمل الوصفية في "خ"، مثل:

the sky is dark.

"السماء مدلهمة".

إلخ. لكن المشكلات تتضاعف حتى مع أبسط توسيع للنمط. انظر إلى:

the rain looks heavy.

"يبدو المطر غزيرا".

و:

The wind feels strong.

"تشعُر الريحُ بأنها قوية" [يُشعر بأن الريح قوية].

وغيرها، والمثال (٤)، عمومًا:

٤ـــ X (is, looks, tastes, sounds, feels, smells, . . .) Y

س (يكون، يبدو، يُتذوق، يُسمع، يُشعر، يُشم، . . .) ص

بل إن جملاً بسيطة كهذه تثير بعض مشكلات الترجمة، حتى في اللغات المتشابهة. فكيف يسعى أن تترجم إلى "اللغة الذهنية" الكلية؟[١٠]

وربما يترتب على بعض الإجابات عن مثل هذه الأسئلة بعض المقتضيات الاختيارية في إطار نظريات أكثر تفصيلاً للغة و"اللغة الذهنية"، وربما يسوغ تلك التعقيدات الإضافية، أما حين تكون هذه المقترحات معزولة فربما يصعب تقويمها.

افرض أننا طورنا نظريات إحالية للتأويل، إما للتعبيرات اللغوية مباشرة، أو إلى ترجماتها في "اللغة الذهنية". وإحدى الفرضيات النموذجية، فيما يخص الصوت، أنّ الأنظمة الحسية الحركية تَنفذ إلى "صو (ت)"، عند إنتاج التعبير أو إدراكه. دعنا الآن نفترض، بدلاً عن هذا، أنه ليس للوحدة المعجمية "صوت" ــ د" لكنها تُحيل صوتيًا إلى شيء ما خارج الشخص؛ ولنسمه بــ "القيمة الصوتية" للوحدة المعجمية (أو بدلاً عن ذلك، لصورتها الصوتية في "اللغة الذهنية")، ثم نفترض أنه ينشأ عن حوسبةٍ للقيم الصوتية" المكوّنُ اللغوي لصوت "ت"، أي "القيمة الصوتية لــ (ت)". وربما تكون "القيمةُ الصوتية" شيئًا يتعلق بالضوضاء التي تتصل بالمنطوقات (أو بالمنطوقات الممكنة) لــ "ت" تبعًا لاختلاف الظروف (وربما تبعًا لاختلاف المتكلمين، بقدر ما يكونون متشابهين تقريبا)؛ أو ربما تكون تركيبًا مصوغًا من حركات الجزيئات. ويمكن أن يطوَّر هذا الاقتراح بالنظر إلى "القيمة الصوتية" على أنها محدَّدة ببعض العوامل الاجتماعية والفيزيائية المتنوعة. وربما استطعنا أن نمضي في تفسير التواصل والترجمة والاكتساب والعمليات الأخرى بهذه الطرق؛ لهذا يستطيع بيتر أن يتواصل مع توم؛ لأن تعبيراتهما في اللغة التي يشتركان فيها (وإن كانتا لا يعرفانهما إلا معرفة جزئية) تُحيل صوتيًا إلى "القيمة الصوتية" نفسها.

ويترك هذا الاقتراحُ المشكلات كلَّها حيث كانت، مضيفاً إليها عدداً من المشكلات الجديدة. فلا يتجاوز ما نفهمه الآن ما كنّا نفهمه من قبل عن علاقة

"ت" بتحققاتها الخارجية. أما تحليل التواصل والعمليات الأخرى فلا قيمة له. وليس هناك سبب للافتراض بأن لمثل هذه "القيم الصوتية" مكاناً في العملية التي يصوغ بها ذهنُ إنسانٍ معيّن نسخةً مما يقوله شخص اخر. ولهذه الأسباب، لم يأتِ أحدٌ باقتراح يمكن أن يتماشى مع هذه الطرق.

انظر إلى التنظير الدلالي[11]. فنفترض الآن أنه ليس للوحدة المعجمية "معنى ـ د" لكنها (أو صورتها الدلالية في "اللغة الذهنية"، وربما تكون هذه "فكرة" أو "تصوراً") تعيّن دلاليًا S-denotes "قيمةً دلالية" للوحدة المعجمية خارج الشخص، أي مركبًا معيناً مما يُتحدث عنه حين يُنطق "ت" (مع اختلاف المتكلمين والظروف)، وربما تحدِّده جزئيًا بعضُ الخصائص الاجتماعية والفيزيائية. ويمكن مرة أخرى إعطاءُ تحليلٍ ما للتواصل والترجمة والاكتساب، والعمليات الأخرى في ضوء هذه الطرق؛ لهذا يستطيع بيتر أن يتواصل مع جون؛ لأن تعبيراتهما تعيّن دلاليًا S-denote القيمَ الدلالية نفسها في اللغة المشتركة التي يعرفانها بصورة جزئية.

ونأخذ الآن "القيم الدلالية" لـ "جو المدمن"، و"الحد الأدنى للأجور"، و chase، و persuade ، و look ، والكلماتِ في "غ"، إلخ (أو "تصوُرها الدلالية" في "اللغة الذهنية") على أنها جو المدمن، والحد الأدنى للأجور، والطرد، والحض، والنظر، والسماء، وبوسطن، والأنهار، والخراب، والخسارة، والقوة. . . إلخ، مع إضافة بعض الأشياء عن "مَن"، و"لا أحد"، إلخ. ولكي نحلِّل الخصائصَ الدلالية لـ "ت" في:

Chinese is the language of Beijing and Hong Kong.

"اللغة الصينية لغةُ بكين وهونج كونج".

نأخذ "القيم الدلالية" على أنها: الصينية، لغة، بكين، إلخ. وربما نسأل عن إن كانت القيمة الدلالية للشيء الخارجي: (the fate of the Earth) "مصير الأرض" = "القيمة الدلالية" لـ (the Earth's fate) "مصير الأرض"

في اللغة المشتركة (أو عند شخص يمكن أن يقال عنه "إنه يعرفها") أو الفرق بين الجملتين ليس واضحاً في الترجمة العربية؛ ذلك أن الإضافة في اللغة الإنجليزية تتحقق بالطريقتين اللتين تبينهما الجملتان. أما في العربية فللإضافة صورة واحدة]. ويمكن أن نستمر في تقصي الأحكام الحسية، بغض النظر عما يعنيه ذلك في إطار هذه التنوعات الشبيهة بالتقنية.

ولم يُسهم هذا، إلى الآن في الأقل، في أي تقدُّم للمشروع الأصلي، إذ لا يعدو أن يكون إعادة صياغة له، مع كثير من المشكلات الجديدة، ولم نتعلم شيئاً أكثر مما كنا نعرفه عن الكيفية التي تُستعمل بها التعبيرات اللغوية أو تؤوّل. وسواء تبنينا هذا الاقتراح أو ذاك، فما يزال يجب علينا أن نعلل خصائص التعبيرات: أي خصائص الأمثلة في (١) ـ (٤)، مثلاً. وليست الحالات الصوتية والدلالية متماثلة، بالطبع؛ فهي متشابهة وحسب، لكنها تتشابه بطرق ربما تكون دالَّة.

افرض أننا سلكنا مساراً مختلفاً، فقلنا إن خصائص السجع وأنماط الاستدلال، وغيرها، لا تتصل باللغة (أو بصورها في "اللغة الذهنية")، بل باعتقاداتنا عن "القيَم": أي الأشياء الخارجية، بغض النظر عن ماهيّتها. فنقول، في الجانب الصوتي، إن لاعتقاد بيتر بأن "القيمة الصوتية" لـ chase تَسجع مع "القيمة الصوتية" لـ lace مكانةً مختلفة عن اعتقاداته الأخرى عن القيم الصوتية (نحو قيَم نسبة تكرارها، مثلاً). ويصح الشيء نفسه عن الخصائص الأخرى. لكنّ أحداً لم يتبنّ مثل هذا الاقتراح من قبل، ويمكن لنا مرة أخرى أن نُسقطه من حسابنا.

وربما يكون النظير لهذا على الجانب الدلالي أن نقول إن خصائص الأمثلة (١) ـ (٤) تعلَّل في ضوء اعتقادات بيتر عن العالَم؛ وربما في ضوء قوة الاعتقاد، بمصطلحات كوين. وهذه الاقتراحات مألوفة، بل أقرب ما تكون إلى التقاليد المحافظة. ويجب علينا لكي نقوّم هذه الاقتراحات أن نكتشف المزيد عن كيف تَثبُت الاعتقاداتُ بهذه الطرق المعقدة جداً والموحَّدة إلى حد

بعيد في اللغات وعبرها، من بين مسائل أخرى، وليس لهذه الاقتراحات مضمون تقريبًا إلا بعد أن تُبحث هذه المشكلات.

ويبدو من المعقول، عند هذه النقطة، أن نستنتج أن الوضع هنا يشبه تقريبًا الوضع على الجانب الصوتي: أي أن الخصائص الدلالية للكلمات والمركبات تحدد بالطرق التي تكوَّن بها، مع إسهام فطري غني. والمشكلة الآن أن نكتشف خصائص "الصوت ــ د" و"المعنى ــ د" (للوحدات المعجمية، أو لنظيرتها "د ــ اللغة الذهنية")، والطرق التي يمكن أن تؤلَّف بها، والحوسبات التي تنتج التمثيلات الوجيهية وكيف تؤولها الأنظمة الخارجية للغة. وهناك، في المجالين كليهما، عدد كبير من المشكلات التي لم تُحلّ، لكن قدرًا كبيرًا من التقدم الجوهري قد تحقق كذلك.

انظر إلى مقاربة أخرى مختلفة: ويُختزل فيها صوتُ تعبيرٍ معين ومعناه جزئيًا إلى علاقات من النوع الذي رأيناه في نقاش المثالين (٢) و(٣). فللوحدة المعجمية نمط (مُتاح) من العلاقات بالتعبيرات الأخرى، وتتمثل هذه بالعلاقات الصوتية والعلاقات الدلالية، وقد تُضاف إليها الخصائصُ الإحالية الصوتية والدلالية، ويصح الشيء نفسه في التعبيرات الأكثر تعقيدا. فتتألف العلاقات الصوتية لــ chase من الخصائص التالية: أنها تَسجع مع lase، وتَبدأ (صوتيًا) بالطريقة نفسها التي تبدأ بها كلمة child، وتتضمن العدد نفسه من المقاطع في pin، إلخ؛ وتتألف علاقاتُها الدلالية من علاقاتها مع follow "يتبع"، و intend "يقصد"، إلخ، إضافة إلى بعض الأدوار التصوُّرية والاستدلالية الأخرى.

وليس لهذه المقاربة، مرة أخرى، قيمةٌ على الجانب الصوتي، كما يبدو؛ فالمقاربة النموذجية التي تقوم على "تأليف السمات" كافيةٌ للتعبير عن العلاقات الصوتية إضافة إلى الظواهر الأخرى، مثل: علاقة مكوِّنات chase بالإشارات النطقية والضوضاء، وخصائصها التوزيعية (كالتفاعل بين الصوامت والصوائت، مثلا)، إلخ. كما تشترك العلاقات الصوتية لــ chase

مع العلاقات الصوتية (للكلمة) في كلمات أخرى. ويمكن أن يعثر عن عدد كبير من الحقائق المشابهة في إطار وجهة النظر النمونجية التي مفادها أن الوحدة المعجمية مكوّنة من خصائصها، وهي التي تدخل في تحديد علاقاتها الصوتية بالتعبيرات الأخرى وغير ذلك. لهذه الأسباب لم يلتفت أحدٌ إلى مثل هذا الاقتراح قط[١٢].

وهناك اقتراحات مشابهة – مرة أخرى – على الجانب الدلالي، وتبرز أسئلة مماثلة. فتشترك persuade "يحض" في العلاقات الدلالية مع الخصائص الدلالية لـ raise "يرفع"؛ أي في خصائص "السببية"، التي دُرست باستقصاء في لغات كثيرة، مع نتائج غير تافهة. وينبغي أن تبيِّن صورةٌ معقولة للوحدة المعجمية هذه الحقائق. كما ينبغي أن تبيّن الخصائصَ التوزيعية التي لم تبيَّن (بطريقة مقنعة) في ضوء الأدوار الاستدلالية والتصوُرية؛ ومن ذلك مثلاً، أن deny "يُنكِر"، و doubt "يشك"، و refuse "يرفض"، وغيرها، تَظهر مع الأدوات الحدّية polarity items (مثل: any, ever ، "أبداً"، "إطلاقـاً"، إلخ) بطرق لا تظهر بها كلمات مثل assert "يُقرِّر"، و believe "يعتقد"، و accept "يَقبَل"، وأن الكلمات من النوع الأول، بهذه المعايير، تُشبه "لا"، و"قليل" (في مقابل "كثير"). وتسعى المقاربات النمونجية إلى اكتشاف خصائص "المعنى ـ د" و"دلا" التي يمكن في ضوئها أن يعثر عن حقائق كثيرة وأن تفسِّر، ويشمل ذلك الاستدلالات وخصائصها المشتركة والمختلفة.

والتأويلان الدلالي والصوتي متشابهان تقريبا، إنْ نظرنا إليهما بهذه الكيفية؛ فيتألف "ت" من التمثيلين الوجهيين "صو (ت)" و"دلا (ت)"، المحوسَبَيْن من الوحدات المعجمية. فيوفِّر "صو (ت)" المعلومات التي تستعملها الأنظمةُ الحسية الحركية للنطق والإدراك؛ وتوفِّر "دلا (ت)" المعلومات التي تَستعملها الأنظمةُ التصورية ــ القصدية للتفاعل مع العالم بطرق مختلفة حين يفكِّر مستعملُ اللغة ويتكلم في ضوء المنظورات التي وفَّرتها موارد الذهن.

ويمكن أن يتعامل الاستعمالُ الإحالي للغة مع العناصر المكوِّنية لـــ "المعنى ـــ د" و"دلا" بطرق متعددة. فتثير عمليةُ التفريدِ عمومًا بعض العوامل كالتصميم والاستخدام المقصود والمألوف، والدور المؤسّسي، إلخ. فإذا بـدا شيء لي كأنه كتاب لكني عرفتُ أنه صمِّمَ ليكون كمًّا من الـورق يُـستخدم للوزن وأنه يُستخدم لذلك عادة، فربما أُقبَل عدّه كمًّا من الورق يُستخدم فـي الوزن، لا كتابًا. افرض أن مكتبة تحوي نسختين متماثلتين مـن مـسرحية "ميدل مارش" [لشكسبير]، وأن بيتر أخذ إحداهما وأخذ توم الأخـرى. فـإذا وجّهنا اهتمامنا إلى المكوِّن المادي للوحدة المعجمية فقد أخذا كتابين مختلفين؛ أما إن ركزنا على المكوِّن المجرد للكتاب فقد أخذا الكتاب نفسه. ويمكـن أن نوجه اهتمامنا لكلا الأمرين بشكل متزامن، مـستخدمين الكلمـاتِ بهيئتهـا المجردة/المادية، كما في التعبيرين:

The book that he is planning will weigh at least five pounds if he ever writes it.

"سيكون وزنُ الكتاب الذي يخطِّط لتأليفه خمسةَ أرطال في الأقـل إن أتيح له أن يكتبه أصلاً".

أو:

His book is in every store in the country.

"يوجد كتابُه في كل متجر من متاجر بيع الكتب في البلاد".

كما يمكن أن نَصبغ البابَ باللون الأبيض ونعبُر من خلاله. أو انظـر إلى الكلمة bank (التي تعني "المصرف" و"ضفة النهر"). فنحن نـستطيع أن نقول:

١- The bank burned down and then it moved across the street.

"احترق المصرف ثم انتقل إلى مكان آخر في الجانب المقابل من الشارع".

٢- The bank, which had raised the interest rate, was destroyed by fire;

"دمر الحريقُ المصرف الذي رفع سعر الفائدة".

٣- The bank lowered the interest rate to keep from being blown up.

"خفض المصرف سعر الفائدة خوفًا من أن يُفجَّر".

ويُحافظ على الاعتماد الإحالي عبر التمييز: مجرد/حسي. لهذا تعني الجملة في (١) أن المبنى احترق ثم انتقلت المؤسسة، وكذلك في (٢) و(٣). لكننا لا نستطيع أن نقول:

٤- The bank burned down and then it eroded;

"احترق المصرف ثم تآكل".

أو:

٥- The bank, which had raised the interest rate, was eroding fast;

"كان المصرف الذي رفع سعر الفائدة يتآكل بسرعة".

أو:

٦- The bank raised the interest rate without eroding.

"رفع المصرف الفائدة من غير أن يتآكل".

ولا تعني الجملة (٤) أن المصرف احترق ثم تآكلت ضفتا النهر.

وهذه الحقائق واضحة في الغالب، لكنها ليست تافهة. لهذا تحترم العناصرُ التي تعتمد على غيرها إحاليًا، حتى المحدَّدة تحديدًا دقيقًا جدًا منها، بعض التمايزات لكنها تتجاهل بعض التمايزات الأخرى (كالضمائر وأسماء

الصلة و"المقولة الفارغة"، وهي الفاعل في العبارة being blown up "فُجِّر"، و eroding "يتآكل"). والنتيجة الطبيعية في حالة bank أن هناك وحدتين معجميتين تشتركان صدفة في "الصوت — د" (أي أنهما من "المشترك اللفظي")، وأن إحداهما — أي: "المصرف"، "متعددة الدلالات"، شأنها شأن "كتاب": فهي توفر طريقاً للنظر إلى العالم بوحدة الخصائص المجردة والحسية، ويسمح بالاعتماد الإحالي عبر هذه المنظورات. (للاطلاع على بعض المشكلات التقليدية، التي تتصف غالبًا بالغموض والتعقيد، انظر Lyons 1977، Section 13. 4). ويمكن أن تُدرس هذه الخصائص بطرق عدة، كاكتساب اللغة، والشيوع بين اللغات، والوحدات المشابهة في اللغة الواحدة، والكلمات المصطنعة، والتعدية zeugma، إلخ. ويمثّل ذلك، إن استمرت التشابهات والاختلافات المطردة، تأييدًا للنتائج عن البنية المعجمية. وليس هناك ما يلزمُ بأن نتوقع أنْ تكون مثل هذه الخصائص موجودةً في اللغة؛ أما لغة الرجل المريخي فربما تكون مختلفة.

وليس هناك من معنى واضح للسؤال: "ما الذي تحيل إليه الكلمة "س"؟" سواء أكان السؤال عن بيتر، أو (بصورة أكثر غموضًا) عن "لغة عامة" ما. فلا تُحيل كلمةٌ ما عمومًا، حتى أبسط الأنواع منها، إلى شيء في العالم، أو في "حيّزنا الاعتقادي" — ولا يعني هذا، بالطبع، أننا ننكر أن هناك مصارف [وضفافا]، أو ننكر أننا نتحدث عن شيء ما (بل شيء معين) إن كنا نناقش مصيرَ الأرض the fate of the Earth أو (the earth's fate) فنستنتج أنــ"ـــه" كالح؛ إذ لا يعني هذا إلا أنه ينبغي ألا ننتهي إلى نتائج غير مسوّغة اعتمادًا على الاستخدام اللغوي العام، وتتوسع هذه الملحوظات لتشمل أبسط العناصر المحيلة والمعتمدة إحاليًا (كالضمائر، و same "مماثل"، و re(build) "يعيد بناء"، إلخ)، أو أسماء الأعلام، التي لها خصائص دلالية — تصورية غنية مشتقة إلى حد بعيد من طبيعتنا، مع بعض التفصيلات المستمدة من التجربة. فيسمى شيء ما بأنه شخص، أو نهر أو مدينة، مع الفهم المعقد الذي

يصحب هذه المقولات. وليس في اللغة أسماءُ أعلام منطقية، إذا جردناها من هذه الخصائص؛ ويجب أن نكون حذرين مما سماه بيتر ستراوسون "خرافة اسم العلم المنطقي" (Strawson 1952: 216) في اللغة الطبيعية، والأساطير المماثلة عن الإشارات indexicals والضمائر. ويمكن أن ننظر إلى التسمية على أنها نوع من "الخلق للعالم"، بمعنى شبيه بالمعنى عند نيلسون جودمان (١٩٧٨)، لكن العوالم التي نخلقها غنيةٌ ومتداخلة ومشتركة إلى حد بعيد بسبب طبيعتنا المعقدة المشتركة. بل إن مثل هذه الخصائص توجِّه حتى الجهود الواعية للعلوم والفنون ـ لحسن الحظ، أما لو كان الأمر بخلاف ذلك فلن تنجز شيئًا ألبتة. (للاطلاع على مزيد من النقاش، انظر Chomsky 1975; 1995a).

ولمقاربة التأويل الدلالي في ضوء هذه الطريقة طعمٌ تقليدي. فقد كان علم النفس العقلاني في القرن التاسع عشر يرى أن "القوى المعرفية" الفطرية cogniscitive تُعين الناس على "أن يفهموا أو يحكموا على ما يُدركونه عن طريق الحس"، وهو الذي لا يتجاوز دورُه إعطاءَ "الرخصة [للذهن] ليُمارس نشاطَه الخاص" ليصوغ "بمحضَ الأفكار والتصورات الواضحة عن الأشياء من داخله هو" بوصفها "قواعد"، و"أنماطًا" و"أمثلة" و"توقعات" توفر [كلُّها] علاقات السببية والتأثير، والكلَّ والجزء، والتناظر والتناسب، والاستخدامِ المعهود ("للأشياء المصطنعة" أو "الأشياء الطبيعية المؤلَّفة" جميعها)، ووحدةَ الأشياء والخصائص الجشتالتية الأخرى، وهي "فكرة شاملة للكل"، عمومًا[١٢]. ويرى هوبز أنها تعني أن الأسماء علاماتٌ لا على الأشياء بل على أفكارنا، "تصوراتنا" "cogitations" (Hobbes 1889: 16f)؛ لذلك فالأفضل أن نفهم المفهومَ التقني ("علامةُ "س"") التي تصدق على الكلمات، بهذه الطريقة نفسها. وقد تكون هذه "التصورات" معقدة، كما تبيِّن تلك الطريقةُ التي نُفرد بها [الأشياء] بناء على التكوين والشكل والأصل وخصائص أخرى. فالرجلُ:

سيظل الرجل نفسه دائمًا، تلك الذي تنطلــق أفعالــه وأفكــاره جميعُها من نقطة البداية نفسها للحركة، أي تلك التي كانت فــي جبله؛ وأن النهر سيكون النهر نفسه الذي ينبع من المنبع نفسه، سواء أكان الماءَ نفسَه، أو ماءً آخر، أو شيء آخر غير المــاء، هو الذي ينبع من ثم [ويضيف هوبر: كما في الحالة الكلاسيكية لسفينة ثيسيوس]؛ كما ستكون المدينة هي المدينة نفسها، وهــي التي تتبع أعمالُها باستمرار من المؤسسة نفسها" (p. 16f).

وكان البحث في الهوية الشخصية من لوك حتى هيوم يهــتمُّ بالوحــدة العضوية، وهي فكرة أوسع، فيلاحظ لوك أن الشجرة "تختلف عن كتلة مــن المادة"، وكذلك الحيوان، بسبب "انتظام أجزائها في جسد واحــد متجــانس، واشتراكها في حياة واحدة" تتصف بـــ "تنظيم مستمر" ينبُع من داخلها، بعكس الأشياء المصنوعة. ويضيف شافتسبري أن "هويةَ شجرة من البلُّوط تَحلُّ في تعاطف أجزائها" الذي يُسهم في بلوغها "غايةً واحدة مشتركة"، تتمثــل فــي "دعم [الشكل] وتغذيته وتنميته"، ويتفق هيوم مع ذلك إلى حد بعيد، لكنه ينظر إلى "الهوية التي نعزوها إلى أدمغة البشر"، و"الأنواع الأخرى المماثلــة. . . التي نعزوها إلى الخضر وأجساد الحيوانات"، على أنها "ليــست إلا هويــة خرافية" من صنع الخيال، لا من "الطبيعة الخاصة التي تنتمي إلى الشكل" كما يقول شافتسبري. ويحاجُّ جون يولتون بأن التيار الرئيس لنظرية الأفكار من ديكارت إلى ريد كان ينظر إلى الأفكار على أنها "ليست أشياء، بــل طرقًــا للمعرفة"، "وليست علامات للبنية المادية، بل علامات نستخدمها لنتعرف فــي صورتها التجربة أو نتآلف معها"، وهو ما يجعل "العالَم كما نعرفه عالمًا مــن الأفكار، والمحتوى المهم" (Yolton 1984: 213ff؛ والاستــشهادات الأخــرى التي سنوردها هنا وفيما بعد مأخوذة من Mijuskovic 1974: 97-113).

وتكتسب النتيجةُ التي انتهى إليها هيوم مزيدًا من القوة، حين ننظر بدقة إلى تعقيد التصورات وتشابكها. فــيلاحظ لــوك أن "[الــشخص] مــصطلحٌ

تشريحي يشتمل على الأحداث وأهميتها؛ لهذا لا ينتمي إلا إلى فاعلين أذكياء، قادرين على أن يشرّعوا القوانين، وأن يكونوا سعداء أو تعساء"، إضافة إلى القدرة على تحمل المسئولية عن أفعالهم، إلى جانب أشياء كثيرة. ويدخل في إفراد الأنهار والمدن عواملُ كثيرة جدًا وراء الأصول التي نشأتْ منها. فيمكن لنهر أن يُعكس مجراه، أو ربما يمكن تحويله إلى مسار مختلف، بل أن يُفرَّع إلى قنوات ربما تتلاقى فيما بعد، أو يُغيَّر بطرق متنوعة كثيرة، لكنه يظل النهر نفسه، تحت بعض الظروف الملائمة. وتورد التقاريرُ الصحفية بوضوح أنَّ العلماء "اكتشفوا منبع الأمازون" في مكان غير متوقع، وهو المصدر الوحيد الذي يأتي منه، مع أن "الأنهار تبدأ [غالبًا] على صورة قنوات صغيرة كثيرة جدًا". ويلاحِظ لوك أن شجرة البلوط تَظل هي نفسها حين يُقطع فرع منها، لنفترض أن شجرة بلوط اقتُلعت وزُرعت في مكان آخر وحلَّ مكانَها الأصلي فرعٌ منها، ثم نما ليكون بديلاً مماثلاً لها في حين تتحلل شجرة البلوط التي نقلت وتموت – ومع هذا تظل هي الشجرةَ الأصلية نفسها، بحسب الهوية الخرافية التي تؤسِّسها القوى المعرفيةُ الفطرية. ولا يزيد هذا عن كونه تناولاً أوليًا لمظاهر الأمر، أما إذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك فسنجد هذه القوى تَفرض إطارًا غنيًا من التأويل والفهم، وهو الذي نتوقع ألا تؤثِّر فيه التجربةُ إلا هامشيًا، كما هي الحال في البنى العضوية المعقدة الأخرى.

والخطوة قصيرة بين هذه الأفكار عن طرُق الإدراك المولَّدة داخليًا التي تتوافق التجربةُ معها والوصولِ إلى تحليلٍ في ضوء السمات الدلالية، أو إلى ما يسميه جوليوس مورافيك "العوامل (التوليدية)" للبنية المعجمية (Moravcisk 1975, 1990)[14]. وإذا أعدنا صياغة هذا المشروع في ضوء هذه الأطر فإننا نحاول أن نكتشف التفاصيلَ التشريحية للدماغ، ومنها الملكة اللغوية والأنظمة عند المستوى الوجيهي، وأن نكتشف كيف تَشكُّل التجربةُ والتفاعل الاجتماعي في ضوء هذه المصادر الداخلية.

بعض الأسئلة عن المشروعية:

يُعتقد عمومًا أن هذا الوجه من علم الطبيعة البشرية معقدٌ من غير داعٍ، أو أنه توجُّه خاطئ من حيث المبدأ. فترى إحدى وجهات النظر أن الأدلة التي تُستخدم في التدليل على مبادئ الملكة اللغوية يمكن أن تُعلَّل بشكل أكثر بساطة بـ . . . الفرضية التي تقول إنّ "الملكة اللغوية فطرية في الأدمغة البشرية" حقًا لكنّ هذا لا يدعو إلى أكثر من القول بوجود "مستوى عضوي للتفسير في ضوء بنية الجهاز" و"مستوى وظيفي للتفسير يصف أنواع اللغات التي يمكن اكتسابها" (Searle 1992, 244). أو أنه يلزم أن نتخلى عن الملكة اللغوية بشكل تام لصالح "الفرضية المنافسة" التي تقول إن "الوظيفة الأصلية لبنى الدماغ الفطرية كانت وما تزال تنظيم التجربة الإدراكية، أما تنظيم المقولات اللغوية فوظيفةٌ إضافية مكتَسبة لم تتلاءم العمليةُ التطورية معها إلا صدفة" وهو ما يؤدي إلى التغلب على مشكلة تعليل تطور اللغة، من بين "مزايا أخرى" (Paul Churchland 1981: 86)[14].

أما أنّ هناك "مستوى عضويًا" فأمر لا خلاف عليه، إن قُصد بذلك احتمالُ أنّ الذرات والخلايا، وغيرها تدخل ،احتمالاً، في "بنية جهاز" الملكة اللغوية التي تتصف بأنها "فطرية في الأدمغة البشرية". لكنّ لا يسعنا الآن إلا اتباع نصيحة جوزيف بلاك الممتازة فنصوغ "رصيدًا من المبادئ" عن الملكة اللغوية؛ وربما أمكن أن نقول المزيدَ مع التقدُّم نحو التوحيد ــ وربما تكون الافتراضاتُ الحالية عن "العضو" خاطئةً تصوريًا، كما كانت حال الكيمياء. ويهتم "رصيدُ المبادئ" بالسؤال عن "ما أنواع اللغات التي يمكن أن تُكتسب" وما خصائصها، وتفاعلاتها مع الأنظمة الأخرى، والطريقةُ التي تُكتسب بها وتُستخدم، وبمشكلاتِ التوحيد، وأي شيء آخر يَصلُح أن يكون موضوعًا لبحث مفيد. ويبدو أنّ عملنا في تفصيل هذه القضايا يُعيدنا إلى "القواعد العميقة غير الشعورية" التي يرى سيرل إمكانَ الاستغناء عنها. وسيرل محقٌ في قوله "إنه لا يضيف شيئًا من القوة التنبؤية أو التفسيرية أن نقول إنّ هناك

مستوى «حر للقواعد العميقة غير الشعورية" (Searle 1992: 244-245) للملكة اللغوية، "إضافة إلى [المستويين العضوي والوظيفي]". أما ما اقترح [وهو اقتراح تشومسكي] فمختلف إلى حد بعيد [عن هذا]؛ فهو بنىً ومبادئ محددة للملكة اللغوية، تقود في الأقل إلى تعليل جزئي لخصائص اللغة. ولن تكون الكيمياء، بالمثل، شيئًا مهمًا لو اكتفت بالقول بأن هناك خصائص بنيوية عميقة للمادة، إذ لم يطوَّر شيء عن هذه الخصائص إلا بوصفه رصيدًا من المبادئ. ويُذكِّر هذا النقاش، في أفضل أحواله، بالخلاف القديم عن إنْ كان يجب عزوُ الخصائص الكيميائية، والبنى الجزيئية، وغيرها، إلى المادة أو أنْ يُنظر إليها ببساطة على أنها وسائل حسابية؛ وليس لذلك كله من فائدة، كما يُجمع [مؤرخو علم الكيمياء] حين يَرجعون النظر الآن فيما حدث، ويقع ذلك كله في إطار ملحوظة بيرج العميقة عن أن الأسئلة الوجودية ontology وما يشبهها "تالية معرفيًا للأسئلة عن نجاح الممارسات التفسيرية والوصفية" (Burge 1986a: 18؛ وانظر أيضا: Chomsky 1986: 250f; 1995a, note 2)[١٦].

وربما صار اقتراحُ بول تشيرشلاند "فرضيةً منافسة" إن فُصِّل تفصيلاً كافيًا ليتعامل مع أكثر خصائصِ اللغة أوليةً (كـ "اللانهائية المتمايزة"، و"اعتماد البنية"، إلخ)، ومع خصائص المثال (١) والأمثلة الأخرى الشبيهة، من ثَمّ[١٧]. وربما يكون ضروريًا التعاملُ مع حقيقة أننا لا نجد، كما يُتنبأ فيما يبدو، تماثلاً في التطور المعرفي والبنى المحصَّلة عبر المجالات، والتشابهِ في استخدام اللغة عند أفرادِ نوعٍ يتماثلون في طرق تنظيم التجربةِ الإدراكية، وعدم الانفصال الوظيفي نتيجة للإعاقات، والتجانسِ بين بنى الدماغ، إلخ.

وقد قدَّم هيلاري بتنام تحديًا أكثرَ جوهرية في مقاله الذي ينتقد فيه: "النزعة الذهنية [عند الباحثين الذين ينتمون لجامعة] إم. آي. تي"، وهي جزئيًا وجهةُ النظر التي بينتُ خطوطَها العامة إلى الآن (وهي التي عزاها لي ولفودر Putnam 1986a; 1986b)[١٨]، وكان يهدف من ذلك أن "يزلزل "نظرية التمثيلات الدلالية الفطرية""، التي تؤكد:

٥أ – "أن هناك "تمثيلات دلالية" في الذهن/الدماغ".

٥ب – "أن هذه التمثيلات فطرية وكلّية".

٥ج – "أنه يمكن أن تحلَّ تصوراتنا كلُّها إلى هذه التمثيلات الدلالية" (Putnam 1986b: 18)

وترى "نظريةُ التمثيلات الدلالية" كذلك أن الذهن "مشفِّر للرسائل المعمَّاة": أي أن "الذهن يفكِّر أفكاره بـ"اللغة الذهنية" lingua mentis ، ويشفِّر هذه الأفكار باللغة الطبيعية المحلية، ثم يؤديها" إلى سامع "يحوي رأسُه، بالطبع، مشفِّرًا للرسائل المعمَّاة كذلك، وهو الذي يقوم من ثمَّ بفك رموز "الرسالة"" (Putnam 1986b: 20) التي صيغت باللغة الذهنية.

وتذهب "نظريةُ التمثيلات الدلالية" بعيدًا جدًّا وراء "اللسانيات ـــ د". والقولُ بأنَّ التمثيلات التي تولِّدها "اللغةُ ـــ د" تحولٌ إلى "لغة ذهنية" فرضيةٌ مختلفة. كما يذهب الحكمُ (٥ج) إلى ما وراء دراسة اللغة، التي تُعنى بالملكة اللغوية، لا بالأنظمة المعرفية الأخرى، وهي أنظمة قد تكون (وافترض أنها كذلك) مختلفةً في طبيعتها. ويتطلب الحكمُ (٥ب) شيئًا من التوضيح. إذ إنَّ العناصر التي تصاغ منها التمثيلات وحدها هي ما يُعدُّ فطريًا (ومن هنا فهي كلّية، وتتوفر بصورة عامة مع أنها ربما لا تتحقَّق). ومن هنا ربما تكون مكوِّناتُ التمثيلِ الصوتي والطريقةُ التي تؤلف بها فطرية، أما التمثيلات نفسُها فلا؛ فهي تختلف في الإنجليزية عنها في اليابانية، بل تختلف حتى بين الأخوة. والشيء نفسه صحيح عن أي شيء يدخل في تثبيت المعنى ـــ سواء أكان "التمثيلات الدلالية"، أم أي شيء آخر. فتختلف اللغات بعضها عن بعض بهذا المعيار، وهذه مشكلة من مشكلات كثيرة تؤرِّق المترجمين. وليس هناك خلاف بخصوص هذا الشأن، وليس هناك خلاف، احتمالاً، في شأن الدعوى التي تقول إن عناصر أيَّة شيء مما يدخل في تثبيت المعنى فطرية. ومن الصعب أن نتخيل أي دعوى بديلة.

وهناك أسسٌ اختبارية للاعتقاد بأنَّ التنوع أقلُّ في المظاهر الدلالية للغة منه في مظاهرها الصوتية. ذلك أنَّ المادة الصوتية الأولية تتوفر للطفل بغزارة، كما يبدو أن الفجوة بين الهدف الذي يحقِّقه الطفل والمادة الأولية [الصوتية] المتوفرة أضيقُ من الفجوة بين الهدف المحصَّل والمادة الأولية في الأنظمة الدلالية الفرعية، وإذا كان الأمر كذلك فالتسامحُ مع التنوع [في الأنظمة الصوتية] أسهل. أما دراسةُ المعنى فيجب أن تواجه حقيقة أن التعرّض المحدود جدًا في ظروف ملتَبِسة جدًا كافٍ ليتمكَّن الأطفالُ من فهم معاني الكلمات والتعبيرات الأخرى المعقّدة تعقيدًا بالغًا إلى حدٍّ يتجاوز أي شيء مما بدأتْ أكثرُ المعاجم وكتب النحو شمولاً في تبيينه، وهي معانٍ تتصف بقدرٍ عالٍ من الدقة والتشابك لم يُفهم إلا فهمًا أوليًا جدًا. ولهذه الأسباب سعى البحثُ الاختباري نحو اكتشاف الخصائص الدلالية الفطرية والكلّية.

وتجب مواجهةُ هذه المشكلات سواء تبنينا إطار "اللسانيات ــ د" (أو بشكل أوسع، "نظرية التمثيلات الدلالية") أو أي إطار آخر. ويبدو كأن بتنام يرى أن آليات الذكاء العام تكفي. ويوجب هذا أن يكون لهذه الآليات البنية الفطرية اللازمة التي تمكِّنها من حَمْل الذهن من المادة الأولية المتوفرة إلى الأنظمة المعرفية المحصَّلة. [ويعني هذا] أن المشكلة نُقلت الآن، فيما يخص اللغة، من الملكة اللغوية إلى الذكاء العام. وتواجهنا الآن المشكلاتُ التي تواجه "الفرضية المنافسة"، وهي أنَّ كلَّ شيء يُختزل بشكلٍ ما إلى التنظيم الإدراكي. وتبدو النتائج غير مشجِّعة كما في السابق، لكنْ ليس هناك ما يمكن أن يناقَش إلا أنْ يُقترح شيء محدد.

وتُختزل الدعوى التي يقصد بتنام زلزلتها، فيما يخص اللغة، الآن، إلى (٦):

٦أ ــ هناك "تمثيلات دلالية" في الذهن/الدماغ.

٦ب ــ تصاغ هذه التمثيلات من عناصر فطرية.

والحكم (٦ب) غير ضار إنْ صحّ الحكم (٦أ). لكن الحكم (٦أ) ليس مقصوراً على "النزعة الذهنية [عند الباحثين في] جامعة إم. اي. تي"؛ إذ يفترض علمُ الدلالة الاختباري عموماً شيئاً شبيهاً بها. افرض، مع هذا، أن الحكم (٦أ) زائف. لهذا لا تحوي الملكةُ اللغوية أو أي نظام آخر من أنظمة الذهن/الدماغ "تمثيلاتٍ دلالية". إلا أن هناك حالةً داخليةً ما تدخل في الكيفية التي نفهم بها الجمل، كالتي في "خ" أو الأمثلة في (١)، مثلاً. فيرى بديلُ الحكم (٦) – إذن – أن مثل هذه الحالات لا تحوي "تمثيلاتٍ دلالية". ويبدو كأن البديل المقصود يُبقي على المسلَّمات عن حالات الذهن/الدماغ التي تتصل بالصوت، وربما تلك التي تتصل بالخصائص البنيوية للملكة اللغوية التي تدخل في تأسيس معنى التعبيرات، لكنْ ليس "التمثيلات الدلالية"، فتمثّل المعرفةُ المعقدة المحدَّدة التي اكتسبها الطفل، ويستخدمها، في الذهن/الدماغ بطريقة ما، لكن ليس بالطريقة التي طوِّرت في دراسات علم دلالة اللغة الطبيعية، التي حقّقت نجاحاً واسعاً الآن، وربما يكون هذا محتملاً، وربما تكون النظرية الصوتية الحالية بعيدة عن إصابة الهدف، كذلك. لكن التعليق، مرة أخرى، غير ممكن.

وإذا نحّينا هذا جانباً، دعنا ننظر في نقد بتنام للحكم (٦أ). ويأتي هذا النقد على صُوَرٍ شتى. وإحداها أنّ "المعنى شبكي" holistic. فتقابل الجملُ، في المعادلة التي اقترحها كوين، اختبارَ التجربة "بصفتها جسماً تضامنياً واحداً"، ويمكن للمراجعة أن تَحدث عند أي مفصل فيها. وتبدو هذه الصيغة معقولة في العلوم إلى حد ما، ويبدو كأنّ رودولف كارناب يتفق مع هذه النظرة، وإن كان يصوغ صياغتها بشكل مختلف (انظر Uebel and Hookway 1995). لكنّ المسائل هنا تتعلق باللغة الإنسانية، وهي موضوع أحيائي، لا بالعلوم التي يصوغها البشر، مستخدمين ملكاتٍ ذهنية مختلفة، كما يبدو.

ويرى بتنام، مع ذلك، أنّ "لغة الحياة اليومية" الخصائص الشبكية

holistic نصنها التي في العلوم. ذلك أن الخطاب اليومي يعتمد على مسلمات غير معلنة، لذلك فـ "إذا كانت اللغة تصف التجربة فهي تفعل ذلك بوصفها شبكة، لا بالنظر إلى الجمل جملة فجملة" (Putnam 1986b: 23). لكنّ اللغة لا "تصف التجربة"، وإن أمكن استخدامها لوصفها أو الخطأ في وصفها، أو استخدامها بطرق أخرى لا حصر لها، ولا يُبين لنا كونُ المسلمات غيرُ المعلنة تدخل في استخدام اللغة شيئًا ذا صلة بما نحن فيه هنا.

وتلتفت إحدى صور نقد بتنام إلى الممارسة العلمية. لكن ليس لهذه الحجج، سواء أكانت صحيحةً أم خاطئة، صلةٌ باللغة البشرية، أو بالمظاهر الأخرى للتفكير البشري، إلا انطلاقًا من بعض المسلمات عن وحدة الذهن التي يلزم بكل تأكيد أن تسوّغ، وهو ما لا يتوفر الآن، وتعتمد أجزاءُ أخرى من حجته على بعض النتائج عن "اللغة الذهنية" و"اللغة العامة"، والحدوس عن الترادف والترجمة وأمور أخرى، وهي أمور لا يبدو أن لشيء منها صلةً هنا حتى إن كانت ممكنة (وهو ما أشك فيه دائمًا، انظر Chomsky 1995a).

ويتصل ما بقي من حجته بـ "فرضية تشومسكي الفطرية". ولم يَسبق لي قط أن فهمتُ ما يُفترض أن تعنيه هذه، وتُتخص هذه الفرضية دائمًا، لكن لم يسبق لأحد أنْ صاغها أو دافع عنها، على حد ما أعلم. ويحتمل أن تكون الملكاتُ المعرفية، شأنها شأن الملكات الأخرى كلها، مغروسةً في الإعداد الأحيائي، وأن تكون الملكةُ اللغوية (على افتراض وجودها) نوعًا من التعبير عن المورِّثات. أما وراء ذلك، فلا أعرف أنَّ هناك فرضيةً فطرية، وإن كان هناك بعض الفرضيات المحدّدة عن ما الذي يكون فطريًا على وجه التحديد.

ويبدو أن بتنام يماهي بين "الفرضية الفطرية" و:

١ــ فرضيةِ أن "اللغة الذهنية" فطرية؛

٢ــ فرضية أن "المفردات الذهنية" فطرية.

ولا تقيّد "اللسانياتُ ــ د" نفسها بـ (١) أو (٢) ــ على حد ما أفهم هاتين الفرضيتين، في الأقل؛ وأعترف أن فهمي لا يذهب بعيدا. يضاف إلى ذلك، أنّ الفرضيتين أيّاً كان مضمونهما متمايزتان احتمالا؛ فليست "اللغة الذهنية" هي المعجم الذهني، مثلما أن اللغة الإنجليزية ليست مفردات هذا المعجم.

ثم يلتفت بتنام، من ثم، إلى الحجج التي يُزعم بشكل واسع أنها لا تهدّد "النزعة الذهنية [عند الباحثين في] جامعة إم. آي. تي" فحسب، بل تهدد كذلك إحدى دراسات المعنى والإحالة منذ أرسطو حتى ميل وراسل وفريجه وكارناب، أي التقليد الذي يتبنى (٧أ) و(٧ب):

٧أ ــ "حين نفهم كلمةً ما أو أيةَ "علامة" أخرى، نربط تلك الكلمة بـ "تصورٍ" ما.

٧ب ــ يحدّد هذا التصورُ مرجعَ الكلمة (أو "العلامة").

ويرى بتنام أن (٧) دُحضت بكون المرجع يحدّد جزئيًا عن طريق "تقسيم العمل اللغوي" و"ما تسهم به البيئة".

ولا تقيّد "اللسانياتُ ــ د" نفسَها بـ (٧)؛ ولا يمكنها ذلك، إذا لم تُفسّر المفاهيم التقنية بشكل ما. فأقصى ما تتقيد به "اللسانيات ــ د" هو (٨):

٨أ ــ حين يَفهم "س" الكلمة "ك"، فإن "س" يستخدم خصائصَها.

٨ب ــ يمكن أن تَشتمل هذه الخصائص على "الصوت ــ د" و"المعنى ــ د"، وإذا كان ذلك كذلك، فـ "المعنى ــ د" يؤدي دورًا في تحديد ما يحيل إليه "س" حين يَستخدم "ك".

وليس وراء ذلك شيء يمكن تحديده بدقة.

ولا يبدو أن لنقد (٧) صلةً بمكوّن "اللغة ــ د" في "النزعة الذهنية [في] جامعة إم. آي. تي"، في الأقل، لكن دعنا نتفحصها على أية حال. فيطـر

بتنام، في توضيحه لتقسيم العمل اللغوي، إلى الكلمة robin [طـائر صـغير يسمى "أبو الحناء"] في الإنجليزية البريطانية والإنجليزية الأمريكية. افرض أن بيتر البريطاني الذي يعيش في بريطانيا وبيتر الأمريكي الذي يعيش فـي أمريكا متماثلان من حيث المعايير ذات الصلة، لكنهما ليسا واعيين بأن:

٩ـ "لا تحيل الكلمة robin إلى النوع نفسه من الطيور في بريطانيا والولايات المتحدة"

فلدى بيتر البريطاني وبيتر الأمريكي الكلمةُ نفسها في "لغتيهمـا ــ د"، لكنها تحيل إلى شيئين مختلفين لأن "الإحالة ظـاهرة اجتماعيـة" تتـضمن الرجوع إلى الخبراء. لهذا يجب أن نَهجر الفرضيةَ التقليدية (٧).

وإذا أخذنا الجملة في (٩) على أنها حكمٌ عن حقيقـة علاقـات اللغـة بالعالم، فإذا نرغب في التحقق من كونها صحيحة أم لا، فيجب علينا أوّلاً أن نفهم الكلمات فيها: وعلى وجه التحديد، "الكلمة: robin" والفعل: "تحيل"، وهي علاقة يُزعم أنها موجودة بين "الكلمة robin" ونوعٍ أحيائي ما. دعنـا نُـسلِّم (بقدر كبير من الاستعجال) بأننا نفهم ما يكفي عن المقصود حين نتكلم عـن "الكلمة robin"، بوصفها وحدة في "لغة عامة" (كما هو المقصود). فماذا عن الكلمة "يحيل"؟ ويَستخدم الناسُ الكلمات ليحيلوا إلى الأشياء بطرق مختلفـة، لكن اللغة الإنجليزية لا تتضمن كلمة "يحيل" أو "إحالة" بالمعنى الـذي فـي (٩)[١٠]، وكذلك اللغات المماثلة، وهو السبب الذي ألجأ فريجه إلى أن يخترع مصطلحين تقنيين والسببُ كذلك في التنوعات الكثيرة للكيفية التي تُترجمـان بها، وقد جعل ذلك بعض الباحثين يفضِّل الكلمات اللاتينيـة التـي تُوضِّـح مكانتهما التقنية. لذلك يجب أن نقوم بعملٍ ما لنَجعل تقويم (٩) ممكناً بوصفه زعما اختباريا.

ويوحي السياق (كاللجوء إلى التجارب الذهنية، إلخ) بأنه ينبغي أن يُفهم الحكمُ (٩) في إطار دراسة النظريات الشعبية، وإذا كان الأمر كذلك فلا يبدو أن هذه النتائج مهمة لـ"اللسانيات ــ د"، أو حتى للدراسات التقليدية احتمالاً،

إن فُهمت على أنها تقدّم نوعًا من التأسيس المنهجي. ومع ذلك دعنا نسأل إن كان الحكم (٩) مؤسّسًا تأسيسًا قويًا في إطار دراسة النظرية الشعبية، ولكي نتجنب المصطلحات التقنية (التي لم تفسَّر بعد)، دعنا نختر جملاً إنجليزية مناظرة لها، وربما تلك المصطلحات التي في (١٠):

١٠ـ Peterus uses the word robin to refer to one species of bird, and PeterGB to refer to different species.

"يستخدم بيتر الأمريكي الكلمةَ robin ليحيل إلى نوع من الطيور، ويستخدمها بيتر البريطاني ليحيل إلى نوع مختلف".

فهل (١٠) صحيحة؟ إن الطيور التي يسميها بيتر الأمريكي robins مختلفةٌ بطرق مختلفة كثيرة عن الطيور التي يسميها بيتر البريطاني robins، لكنْ هذا صحيح أيضًا في حالة بيتر الأمريكي وصديقه تشارلز، اللذين عاشا جارين طوال حياتهما. لذلك يجب أن نعرف أشياء كثيرة لكي نقوّم (١٠).

افرض أننا سألنا عن ما الذي يمكن أن يقوله بيتر الأمريكي إنْ ذهب إلى بريطانيا ورأى تلك الأشياء ذات الصدور الحُمْر هناك؟ فربما يسميها، افتراضا، بـ robins لذلك لن يعيدنا هذا شيئا. افرض أن جونز سيقول إن بيتر الأمريكي مخطئ حين يسمي هذه الطيور في بريطانيا بـ robins (أما أنا فربما لا أفعل). ويعني هذا أننا نتعلم الآن شيئًا عن جونز لا صلة له بما نحن فيه هنا.

وربما كان جونز يفترض شيئًا شبيهًا بالدعوى (٩). فربما كان يعتقد أن "التصور" robin عند بيتر الأمريكي لا يشمل النوع كله في بريطانيا؛ وأن تصورُ "ماء" عند أوسكار الأرضي لا يشمل الـ "ش ص ع" في توءم الأرض. لكن هذا يعيدنا الآن مرة أخرى إلى السؤال الأصلي، أي: كيف لنا أن نتحقق إن كانت مزاعم جونز صحيحة؟

افرض أن بيل ابن عمّ بيتر الأمريكي يعيش في منطقة من الولايات المتحده تنتمي فيها الطيور التي تسمى robins إلى نوع فرعي مختلف. فإذا زار بيتر الأمريكي بيلَ وسمى الشيء الذي في حديقة منزله بـ robin، فهل يكون مخطئًا؟ وهل يمكن أن يفهم كلام بيل عن الـ robins؟ افرض أن ماري (زوج بيتر الأمريكي) نشأت في المنطقة التي نشأ فيها، لكنها قضت جزءًا من طفولتها في بريطانيا. فما الذي تُحيل إليه ماري حين تتكلم عن الـ robins ؟ وتختلف الأحكام تبعًا لاختلاف الحالات، بطرق متعددة كثيرة، وهي أحكام في الغالب الأعم غير واضحة إلى حد بعيد جدًا.

ولا تبدو هذه الحالة معضلة في "النزعة الذهنية [عند الباحثين في] جامعة إم. آي. تي"؛ ذلك أن الأشخاص المذكورين، الذين يتشابهون من حيث بعض المعايير ذات الصلة، سيُصدرون الأحكام نفسها، افتراضًا، عما يكون robin. وتثير النتائج الأخرى عن إن كانوا مُصيبين أم مخطئين، أو كيف تُستخدم "الكلمة robin" لتحيل في "اللغات العامة"، أو للتعبير عن اعتقاداتهم، مسائلَ أخرى ربما تَستحق الاستقصاء، أو ربما لا تستحقه حين تصاغ بشكل ملائم واضح. وليس هناك شيء وراء هذا يستحق الحديث عنه، فيما يبدو.

ويستشهد بتنام، في توضيح "ما تُسهم به البيئة" بحجة توءم الأرض وحجج أخرى، وتقوم كلها على افتراضات عن "ما يمكن لشخص متوسط أن يقوله" في ظروف مختلفة. ومرة أخرى، ليست هذه الحجج مهمة بشكل مباشر لنظرية عن اللغة تتبنى الدعوى (٨). فأقصى ما يمكن أن تبيِّنه هذه الحجج أن النظرية أو "نظرية التمثيل الفطري" لا تقدّم تفسيرًا كاملاً للسلوك اللغوي، أو أنها لا تحيط بالاستخدام العادي، وهذا أمر واضح منذ البداية.

وتقوم الحجج (عن "ماء") على فرضية أن "الماء" هو H2O، ويجب علينا، لكي نقوّم مكانة هذا الحكم، أن نعرف ما اللغة التي ينتمي إليها. وهو لا ينتمي إلى اللغة الإنجليزية؛ إذ ليس فيها كلمة H2O. ولا ينتمي إلى الكيمياء، التي ليس فيها كلمة "ماء" (مع أن الكيميائيين يستخدمون هذه الكلمة

في حديثهم العام). ويمكن اقتراح أن الكيمياء والإنجليزية تنتميان إلى "لغة علبا"، لكن يبقى أن تفسّر ما يعنيه هذا) (انظر Bromberger 1996).

وإذا ما وضعنا مثل هذه الملاحظات جانبا، فهل صحيح أن المتكلم المتوسط يعتمد على "المكوّنات" حين يقرّر إن كان شيء "ماء"؟ افرض أن كأسين G و G´ وضعا فوق الطاولة، وقد ملِئ الكأس G من الصنبور وملِئ G´ من بئر. افرض أن كيسًا من الشاي غُمس في G´. ويمكن أن يكون محتوى G و G´ متماثلاً كيميائيًا؛ إذ ربما جاء ماءُ الصنبور من مصدر ماء يستخدم "مصفاةً من الشاي" لإزالة الشوائب. وعلى الرغم من معرفتي بأنّ محتوى الكأسين متماثل فربما أقول إن ما في G "ماء"، لا شاي؛ وأن ما في G´ شاي، لا ماء. ويبدو لي أن هذا أمر مألوف. فالمكوّنات من العوامل التي تُساعد في تقرير إن كان شيء ما "ماء"، لكنها ليست العامل الوحيد[٢٠].

ويذكّر هذا الوضعُ بحالة الكلمة "كتاب" والأشياء الأخرى الشبيهة. فبإمكاننا هنا كذلك أن نرتّب الظروف مما يجعلنا نوجّه اهتمامنا إلى التكوين، لا إلى العوامل الأخرى، في تقرير ما نتحدث عنه، وربما صحّ لنا، في مثل هذه الظروف، أن نسمي ما يحويه G و G´ كلاهما "ماء"، وربما تستطيع الدراسةُ الاختبارية تبيين أن التكوين من العوامل الأكثر جوهرية لـ "ماء" منها لـ "كتاب"؛ وربما كان ذلك كذلك، لكن ذلك ما يزال غير ذي صلة بـ (٨)، وليس هناك إجابات، في الحالات العادية، إلا في ضوء ظروف واهتمامات معقّدة متنوعة تؤدي إلى ما أسماه أكيل بيلجرامي (١٩٩٢) بـ "محلية المضمون". فإذا اعتقدتْ ماري أن هناك ماء في المريخ، مثلاً، وأن شيئًا اكتُشف هناك وتَعُدُّه "ماء" مع أن تكوينه الداخلي هو التكوين الداخلي للماء الثقيل أو لـ "س ص ع"، فليس هناك إجابة عامة عن إن كان اعتقادها صحيحًا أم خطأً.

ويضيف الاحتكام إلى استخدام التعبير مآزقَ جديدة، ومن ذلك أنّ مقالاً علميًا نُشر مؤخرًا يفتتح بالقول إن "الزجاج، في التصور العام والصحيح

أساسا، سائلٌ فقد قدرته على الجريان"، ثم يستمر ليستنتج أن "معظم الماء في الكون موجود في حالة الزجاجية (كما في المذنبات، إلخ)"، بصفته "ماء مُتزجِّجا يظهر بصورة طبيعية" (Angell 1995: 1924). افترض أن مشهد الشاي – الماء الذي وصفناه آنفا حدث في توءم الأرض، حيث يصنع سكانها كؤوسهم من أغلفة المذنبات التابعة للأرض. ثم افترض أن أوسكار الأرضي هبط على توءم الأرض وطلب ماء، مشيرًا إلى G. فهل هو محقّ إن كان يُحيل إلى الكأس ومخطئ إن كان يحيل إلى محتوياته؟ وأحكامي [عن هذا الأمر] واضحة إلى حد معقول، وأظن أنها نمطية.

لننظر إلى هذه القضايا من زاوية مختلفة، ولنأخذ ألبرت وبيل على أنهم متماثلان نسبيًا، وأن "أ" و"ب" تفاحتان متماثلتان تماما، و"أ" شيء في تجربة ألبرت، و"ب" شيء في تجربة بيل. ويفكر كلٌ واحد منهما بتفاحته، وينظر إليها، ويقضم منها قضمة، وهو ما يؤدي إلى تغيرات شاملة متماثلة للحالة. فهل سنقول إن تفكيريهما وخياليهما البصريين وذوقيهما وتغيُّر وزني التفاحتين وغير ذلك متماثلةٌ عند ألبرت وبيل لكنها "موجَّهة" إلى شيئين مختلفين؟ أم أنها مختلفة عندهما، حيث الشيئان الخارجيّان "أ" و"ب" "جزءان" من تفكيريهما، إلخ؟ وإذا سمع ألبرت وبيل أداءين متماثلين لـ "خ"، فهل يمتلكان تجربتين متماثلتين سمعا وذهنًا موجهتين نحو أشياء مختلفة، أم يمتلكان تجربتين مختلفتين تتضمنان تلك الأشياء؟ ويمكن أن يتعامل الاستخدامُ اللغوي في الإنجليزية العادية مع المقاربة "الخارجية" بخصوص الفكر والفهم أكثر من تعامله فيما يخص تغيرات الوزن، لكن ليس من الواضح ما الذي يمكن أن نتعلمه من هذا، وعلم الطبيعة البشرية متخلف جدًا إلى درجة لا تسمح له بإثارة هذا السؤال، وتبدو الصورة التي تقترحها المقاربةُ الداخلية ملائمة، وإن كانت غير كاملة بالمعنى غير المهم الذي تأخذ فيه دراسةُ ألبرت وبيل في بيئتهما البينة في الاعتبار.

وغالبًا ما تكون الأمثلة العادية أكثر تعقيدا. انظر مثلاً إلى أحد أوجه

الاختبار المحيّر عند سول كريبك. افرض أن بيتر قال:

I used to think that Constantinople and Istanbul were different cities, but now I know they are the same.

"كنت أظن أن القسطنطينية وإسطنبول مدينتان مختلفتان، لكني أعرف الآن أنهما شيء واحد".

ثم يضيف:

But Istanbul will have to be moved somewhere else, so that Constantinople won't have an Islamic character.

"لكن يجب أن تُنقل إسطنبول إلى مكان آخر، حتى لا يكون للقسطنطينية طابع إسلامي".

(للاطلاع على أمثلة حقيقية من هذا النوع انظر Chomsky 1995a)، فهل يعني هذا أن بيتر تبنّى وحدات معجمية جديدة؟ أو اعتقادات جديدة؟ أو أشياء مختلفة؟ وإذا قال، محيلاً إلى إسطنبول:

It will have to be moved and rebuilt elsewhere.

"إنه يجب نقلها وإعادة بنائها في مكان ما".

[باستخدام الضمير it الذي يعني الإشارة الآن إلى شيء معلوم لأنه سبق الحديث عنه، واستخدم السابقة الفعلية re التي تدل على إعادة بناء المدينة]

(في حين تظل المدينةُ نفسَها)، فكيف يمكن لنا أن نؤول الوحدتين المكتوبتين بالخط المائل [في الجملة الإنجليزية] ـ وهما اللتان تتصرفان بأشكال مختلفة بطرق غريبة تبعًا لتنوع الأمثلة؟ (انظر Chomsky 1995a؛ وانظر أيضًا الفصل الخامس في هذا الكتاب). وليس بإمكاننا، كما يبدو ، أن

نقوم بعملنا إلا بطريقة معقولة كما أوضحنا من قبل.

انظر إلى قضية احتمال الوقوع في الخطأ؛ فمن الواضح أننا نود أن يكون باستطاعتنا أن نقول إن بيتر ربما يكون مخطئًا في تسمية شيء ما بـ "س". لهذا ربما يكون مخطئًا في وصفه محتوى G بأنه "ماء"، حين لا يعرف أنه "شاي"، لا "ماء"، أو ربما يخطئ في أخذه رزمةً من الورق تستعمل مقياسًا للوزن على أنها كتاب. وربما يكون مخطئًا بسبب غفلته؛ ذلك أنه ربما لن يسميه "س" لو كان واعيًا بالحقائق، أو ربما كنا نتبنى وجهة نظر تعتمد على التكوين في تقريرنا إن كان مخطئًا أم مصيبا، لهذا ربما كان ما يأخذه بيتر على أنه "ماء" "شيئًا" مختلفا، كأن يكون "ماء ثقيلاً" أو "س ص ع"، وهذه المحاولات نموذجية في العلوم، أما كونها ملائمةً عن اللغة الطبيعية، وبأي معيار إن كانت كذلك، فأمر ينتظر أن يوضَّح. وربما يكون ضروريًّا أن نبيِّن الإطار النظري الذي أثيرت فيه هذه الأسئلة، وإذا كان هذا الإطار يستعمل أفكارًا مثل "تصوُّر"، فمن الضروري أن تحدَّد هذه التصورات بطرق واضحة؛ لا بافتراض أنها تحدَّد بالنظر إلى تكوينها الداخلي، مثلا. وليس هناك سؤال واضح، ومن هنا فليس هناك إجابات واضحة.

افرض أن للفتى تشارلي تجاربَ قادتْه إلى أن يعرف أنْ استخدامه [اللغوي] يختلف عن استخدام البالغين في مجموعته [اللغوية][٢١]. افرض أنه كان يحيل في الطور (١) [من أطوار اكتسابه اللغة] إلى الحيوانات المائية المعهودة على أنها "أسماك" وإلى الحيوانات المائية الكبيرة على أنها "حيتان". وإذا ما وجد أن البالغين يتبنَّون استخدامًا مختلفًا في تسمية أقرب الحيوانات الطيرة (وينطقون أسماءها بأشكال مختلفة أيضا) انتقل إلى الطور (٢)، مكيِّفًا نفسَه مع استخدام البالغين، سواء بوعي أم بغير وعي. فكيف نصف ما حدث؟

وربما يميل بعض الملاحظين إلى القول بأن تفكير تشارلي عن الحيتان والأسماك في الطور (١)، والطريقةَ التي استخدم بها الكلمات ونطقَها بها

خطأ. ولكنه استطاع تصحيح خطئه حين وصل إلى الطور (٢)، ويشهد هذا بأنه يُحسّ من معرفته بالإنجليزية، وهي لغة المجموعة اللغوية التي ينتمي إليها (ولا يقدّم الاستخدامُ العادي للغة طريقةً للإحالة إلى نظامه اللغوي في الطور (١))، ويمكن للبحث عن فهمٍ أوفى أن يتّبع المسارين المألوفين. فيمكن أن نسعى لتعلّم المزيد عن كيف يتكلم الناس ويفكرون عن مثل هذه الأمور، أو لتعلُّم المزيد عما يحدث بالفعل.

والتفسيرُ في ضوء "اللسانيات ـــ د" واضحٌ، وإن لم يكن كاملا، ويعود ذلك إلى المدى الذي يصل إليه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إلى نقص الفهم داخل هذا المدى. فيمتلك تشارلي، في الطور (١)، "اللغــةَ ـــ د "ل١"" التي تتضمنُ الوحدتين المعجميتين "سمك١" و"حوت١". أما في الطــور (٢)، فتحوي "لغته ـــ د "ل٢"": "سمك٢" و"حوت٢"، اللتين تختلفان مــن حيــث الخصائص شيئًا ما. والسمات الصوتية [لهذه الكلمات] مختلفة (افتراضًــا)، لكنْ وضع السمات الدلالية غيرُ واضح، فهل للوحدتين المعجميتين الجديدتين سمات مختلفة، تتضمن المعايير الجديدة للإحالة إلى الحيوانات المائية؟ وهل تتنقيان مناطقَ مختلفة في "اللغة الذهنية"، أو الحيِّز التــصوري، أو النظــام الاعتقادي؟ أو أي شيء آخر؟ وسوف يتغيَّر ما يسميه تشارلي لأشياء بطــرق شتى، في ضوء الحقائق العارضة، نحو: هل تنتمي الحيوانات المائية الكبيرة التي كان يعرفها في الطور (١) إلى العقربات أم إلى سمك التونة. ويمكن لنا أن نبحث عن بعض المبادئ التي تتصل بما يمكن أن يكون قد حــدثَ، ثــم نَسأل إلى أي مدى يمكن لما حدث أن يتَّبع مسارًا آخر لو اختلفت الظروف. ولا يُعرف إلا القليل عن هذه المواضيع مما يجعلنا نكتفي بالافتراض بشأنها، لكنْ لا ينشأ عن هذا مشكلات مبدئية واضحة. وربما لن يتقدم مشروع البحث باللجوء إلى فكرة "تعيين المعنى "الإحالة" (denotation)" للكلمات في "لغــة عامة" يَعرفها المتكلمون جزئيًا ويشتركون فيها، أو إلى "الذهن الجمعــي" أو إلى "الكلمات" التي تظل ثابتةً في حين يتنوع النطق والاستخدام، وغير ذلــك من الأفكار المماثلة التي ظلت غامضة.

افرض أننا قارنا هذا الأمر في ضوء فكرة للإحالة في لغة علمية، وربما في ضوء نظرية سببية. ويجب علينا حينئذ أن نحدد هل ظلت الإحالتان لـ "حوت" و"سمك" ثابتتين في الوقت الذي غيّر فيه تشارلي ما يسميه أشياء (ومن تلك الأشياءُ في تجربته السابقة)، وكذلك ما حدث لمضمون أفكاره. وحين تبيّن الأفكارُ التقنية ربما تسهّل صياغةَ الأسئلة الاختبارية المهمة عن، كيفية تفكير الناس في هذه الأمور في هذه الثقافة أو تلك، وفي هذا السياق اللغوي أو ذاك، أما في علم الطبيعة البشرية فلا يبدو لي هذا المسار واعدًا.

انظر أخيرًا إلى حالة ناقشها بيرج (Burge 1986b)، وتبيّن نوعًا من البحث لافتًا للنظر، افرض أن "أ" يشارك متكلمي الإنجليزية الآخرين في الكلمة sofa "أريكة"، وفي التجارب ذات الصلة بالأشياء التي يسمونها sofas "أرائك". لكنه صار يعتقد أن "الأرائك" sofas "لا تُستخدم أثاثًا يُجلس عليه، بل أعمالاً فنية أو مصنوعات لها وظائف دينية"، وليس الجلوس عليها "وظيفة أصلية لها". فيتفق "أ" مع الآخرين على ما يمكن أن يعدّ أرائك من بين الأشياء الموجودة في تجربتهم المشتركة، لكنه يختلف عنهم في وظيفة الأرائك؛ وربما يختلف معهم أيضًا فيما إن كانت الأرائكُ تُستعمل فعلاً للجلوس. (ويظن "أ" أن الآخرين مخدوعون في هذه المسألة)، ويستنتج بيرج أنه إذا وُجد أنّ شكوك "أ" تقوم على أسباب قوية، فربما يجب أن يتغير "المعنى المتواضع عليه لـ "sofa"، لكن "ربما يظل من الملائم. . . أن نعزو بعض التوجهات الافتراضية التي تشتمل على فكرة الأريكة" (Burge 1986b: 715)، كما وصفناه آنفًا.

والسؤال الآن: كيف يمكن وصفُ هذه الأحداث في إطار المقاربة الداخلية، التي نوسّعها الآن لتشمل الافتراض بأن هناك نظامَ تصور ــ د" ونظام "اعتقاد ــ د" إلى جانب "اللغة ــ د"؟

فيمتلك "أ" والآخرون، في البداية، الوحدة المعجمية sofa، و"التصور ــ د" sofa نفسه، و"الاعتقادات ــ د" نفسها عن الأرائك، ولنسم هذا كلّه بالوحدة

المشتركة المعقدة "أريكة" SOFA. وينظر إلى الأرائك، في داخل هذه الوحدة المعقدة، على أنها مصنوعات لها بعض الخصائص المادية والوظائف المعينة، وتتغير "الوحدة المشتركة المعقدة لأريكة" SOFA، عند "أ" إلى وحدة أخرى هي ´SOFA ويصحب هذا التغير تحولٌ في اعتقاداته عن وظيفة الأرائك، ويمكن لشخص آخر، ولنسمه "ب"، أن يعبِّر من معتقداته عما تتكون منه الأرائك، مستخلصًا أن الأرائك في العادة مستوية السطح ولها أذرع حديدية، لكنها ما تزال تُستعمل للجلوس عليها؛ وتتحول SOFA، عند "ب" إلى وحدة من نوع آخر: ´´SOFA، ويتفق الجميع على ما يعدُّ أرائك من بين الأشياء التي تحيط بهم، لكن "أ" يختلف عن الآخرين في وظيفة الفصيلة التي تنتمي إليها هذه الأشياء، ويختلف "ب" عنهم في مكوناتها.

وإلى هنا، ليس هناك صعوبة في وصف الأحداث والحالات الذهنية - (د) عند المشاركين. ولم نقل شيئًا بعدُ عما حدث للمعنى المتواضع عليه، والأفكار والاعتقادات في أثناء تطوُّر معالم هذه القصة؛ أو عن أين حدثت هذه التغيرات في "الأريكة".

ولا يمكن أن نتناول السؤالَ الأول إلا بعد أن توضِّح هذه الأفكار. أما السؤال الثاني فربما يكون ذا صلة هنا، لكن الإجابة عنه ما تزال غير ممكنة. وتحدث التغيرات، افتراضًا، في مكوِّن "الاعتقاد - د" للأريكة [بمعناها العام المعقد] SOFA، لكن هذا لا يجيب عن السؤال عن إن كان "أ" و"ب" قد غيَّرا الوحدات المعجمية في "لغتيهما - د"، أم أنهما غيَّرا مظهرًا آخر من مظاهر الوحدة المعقدة "أريكة" SOFA، ومهما كانت الإجابة فيبدو أن هناك تفسيرًا مطردًا لها.

ويحاجُّ بيرج أنه ربما يكون من "السطحي غير المقبول" القولُ بأن "أ" غيَّر لغته حين شعر ببعض الشكوك، ذلك "أنه ليس صعبًا أن نفهم أنه يثير بعض الأسئلة عن حقيقة الأرائك" وأنّ نعرف كيف نقارب هذه الأسئلة، وإذا سلمنا بكل ما تقدم فما نزال - مع ذلك - نجهل إن كان "أ" قد غيَّر "لغته - د".

مستبدلاً بوحدة معجمية أخرى غيرها. فإذا ظلت "العَتَه ـــ د" ثابتة، فربما يقول الآن إنْ ما كان يظنه الناسُ عن الأرائك خطأ؛ أما إذا تغيَّرت بالطريقة التي وصفناها، فربما يقول الآن إن الناس مخطئون في تسميتهم هذه الأشياء "أرائك" ـ ذلك أنها في الواقع أشياء أخرى. ومهما كان الأمر، فنحن نستطيع فهم أسئلته ونعرف كيف نتقصّاها. وهناك أسئلة اختبارية ثانوية قريبًا من السطح، وربما يمكن الكشف عنها، ومع ذلك فليس من الواضح إن كان هناك شيء أكثر من هذا أهمية هنا.

وتنشأ أسئلة مماثلة عن الحيتان والأسماك، افرض أنه يُنظر إلى الحيتان على أنها أسماك في المجموعة اللغوية التي ينتمي إليها بيتر، لكنه قرر أنّ تصنيفًا آخر ربما يكون أكثر ملاءمة، لذلك عدَّل من استخدامه. ومرة أخرى، ليس صعبًا أن نفهم أنه يثير أسئلةً عن الحيتان والأسماك (وربما عن "ماهيتها" حقيقةً، وإن لم يكن من الواضح إن كانت هذه أوضح طريقة للكلام عنها)، ونحن نعرف كيف نتقصى هذه الأسئلة.

ويبدو أن البحث في هذه الحالات في تنوعها الأخاذ يقود إلى إجابات تتنوع تنوعًا واسعًا حين نغيِّر الظروف المفترَضة تغييرًا قليلاً، ويثير بعضَ الشكوك عن مدى ما يمكن أن نتعلمه بمقاربة هذه الأمور بهذه الطريقة. لكنْ لا يبدو لي – بغض النظر عن أي شيء – أن لهذه الظواهر أثرًا على صحة المقاربات الداخلية للمظاهر اللغوية والمظاهر الذهنية الأخرى للحياة البشرية، إلى الحد الذي يمكن أن تصل إليه، أو أنها توحي ببديل مفضَّل آخر.

هوامش الفصل السابع

(١) للاطلاع على بعض الأمثلة المشابهة، وعدد من القضايا التي تجاوزتها هنا بدرجة كبيرة من العطلة (انظر Chomsky 1995a).

(٢) وقد تحاورنا أنا وجون سيرل عن هذه القضايا لسبب عدة. ومن الواضح أننا نتفق على عدم تماسك النزعة الأحادية monism والنزعة الثنائية والنزعة المادية، إلخ (انظر Searle 1992 25; Chomsky 1968: 98)، وعلى الوضوح الأساسي لتصورات القرن الثامن عشر للذهن ــ الجسد من النوع الذي ذكرته آنفا. لكننا لم نتفق على الكيفية التي تفسَّر بها خصائصُ اللغة؛ انظر أدناه.

(٣) لاحظ أني لا أوافق على أن الاختيار يقع بين تأويل "الإحاطة grasp والفهم understanding بصفتهما حالتين شعوريتين"، أو أنهما "مجرد نمطين لردود الفعل الناتجة عن التدريب" (انظر Gaifman 1996: 387، حيث يتبنى وجهةَ نظر يعزوها إلى مايكل دوميت). ويبدو أن فهم (الجمل التي في (١)، أو الخبر (غ)، إلخ) يتضمن حالات وعمليات لا تقع تحت أي من المقولتين.

(٤) وهناك عدد من الأفكار المختلفة عن كيفية النفاذ إليها. للاطلاع على نقاش نقدي لبعض هذه الأفكار وعن بديل "الإدخال المتأخر"، انظر (Halle and Marantz 1993). وسأعرض عن هذه الأمور جميعها هنا.

(٥) ويورد ستك (Stich 1996: 38f) الصياغات النموذجية ــ لكنه لا يتبناها، وهو يميّزها عن "اللسانيات ــ (د)" و "ما قبل ــ العلم" بخصوص الإحالة.

(٦) لاحظ أنه ليس هناك تعارض بين قبول ملحوظات فتجينشتاين الحذرة

عن هذه الأمور والنتائج القوية شيئاً ما عن خصيصة عدم التغير في الصوت والمعنى.

(٧) وبُعدُ توماس ريد Thomas Reid أشهر الذين يحاجُّون متَّبعين طريقة فلسفة اللغة العادية الحديثة التي مفادها أنَّ تصورَ فكرة ما على أنها "الموضوع الذي يتأمله الذهن" يقوم على خطأ في تأويل النحو السطحي، ويمكن توسيع حجته لتشمل الفكر والاعتقاد وحالات أخرى. وللتوسع في قضية النظر إلى الأفكار على أنها موضوعات للفكر أو حالات للذهن في فكر القرنين السابع عشر والثامن عشر، انظر (Yolton 1984) الذي يحاج بأن ريد والشُّرَّاح الآخرين قرءوا تقاليد ذينك القرنين قراءة خاطئة، وانظر أدناه.

(٨) كان يُفترض في الأبحاث المبكرة جداً من النوع الذي نناقشه هنا أن "اللغة ــ د" تولِّد "سمات" في مستويات لغوية متعددة (أي المستوى الصوتي، ومستوى الكلمة، ومستوى بنية المركبات، إلخ)، وكل واحدة من هذه تمثِّل" صو (ت) بوصفه محمولاً صحيحاً عنه. لهذا فـ "صو (ت)" هو. . .، حيث تمثِّل النقاط "التمثيل" الصواتي (أو تمثيل الكلمة، أو تمثيل البنية المركبية، إلخ) (للاطلاع على بعض التفاصيل انظر Chomsky 1955/1975). ويمكن أن يؤخذ "صو (ت)" (ومن هنا، الوسمُ على المستويات كلها) على أنه "يمثِّل" المنطوقات بطريقة مماثلة؛ ولأن المنطوقات ترتبط بحالات المتكلمين، يمكن أن يُفهم الحَمْل على أنه صحيح عنها، وهو المسار الذي اتبعه برومبيرجر وهاله (Bromberger and Halle 1996)، في مناقشتهما للمستويات الصواتية في ضوء مقاصد المتكلمين (وهي التي تُفهَم على أنها تدل على حالات الذهن)، وكان مقصدُهما المقارنةَ بين النظريات المتنافسة، وهو سبب جيد من أجل البحث التأسيسي المفيد، وهو الذي قلما يقام به.

(٩) ولأسباب مماثلة، فعلى الرغم من أن فرضية "استقلال التركيب" رُفضت

شدة فإنّ أحدًا لم يدافع عنها إطلاقًا – على حد مـا أعلـم – كمـا أن القائلين بها لم يصوغوها بأية طريقة مفهومة.

(١٠) ولأسباب مماثلة تواجه النظريةُ عن "الجمل المترجمـة" T sentences بعض المشكلات حين يختلف الموضوع واللغة الواصفة، لذلك لا توفِّر الحصيلةُ المعلوماتية للجمل المترجَمة غير المُجانسة أسسًا جيدة لتسويغ المقاربة. ومهما كانت قيمتها، وهي حقيقية، فهي لا تلامس السؤال عن الكيفية التي تتفاعل بها اللغة مع العالَم، وهي التي تمثل قلبَ النظريـة التقليدية عن المعنى. انظر أيضا (Fodor 1990).

(١١) ينبغي ألا يلتبس به افتراضُ أنّ "القيم الدلالية (أو الصوتية)" وحـداتٌ ذهنية، بعلاقاتٍ (وحدة معجمية، قيمة) دون خصائص صـورية لـــ "يحيل" و"يُعيِّن" بمعنييهما التقنيين. فيجب أن يُنظر في هـذه المسألة بشكل موازٍ للافتراضات المتعلقة بالموضوعات التركيبيـة الأخـرى. ويبدو لي أن من الملائم (وإن لم يكن متواضعًا عليه) أن نَفهم كثيرًا من الأبحاث في دلالة اللغة الطبيعية في ضوء هذه الطرق.

(١٢) وربما أمكن أن نُفهم بعضُ اقتراحات البنيويين في ضوء هذا التحليـل، لكن ذلك ربما يكون تأويلاً مشكوكًا فيه، كما أظن.

(١٣) وهذه الاستشهادات مأخوذة من (Cudworth 1838. 425)، لكن وجهـة النظر هذه عامة؛ وكانت مؤثِّرة في الشكل الذي اقترحه "كـانط" لهـذه الفكرة كذلك؛ (انظر Chomsky 1966: 67-68).

(١٤) ويأخذ مورافيك (Moravcsik 1975; 1990) متبنيًـا أفكـارًا أرسـطية وتطبيقاتها بشكل عام على الدلالة المعجمية هذه العوامـل علـى أنهـا "المكوِّنات، والبنية، والوظيفة، والفاعلية". للاطلاع على بعض التعليقات انظر Chomsky 1975؛ وعلى تفصيلات بعض الأفكار المماثلة (انظر Pustejovsky 1995).

(١٥) وأنا لا أتوقف هنا عند الاختلافات الاصطلاحية غير ذات الصلة.

(١٦) ويحاجُّ سيرل أيضًا بأن افتراض بعض القواعد غير الشعورية ليس مشروعا، لكنه يقدِّم هذه الحجة اعتمادًا على ما يبدو لي كأنه أسباب غير مهمة؛ انظر Chomsky 1990). وطريقته الاختزالية التي استعمل فيها القياس على "ملكة الإبصار" لا صلة لها هنا لأن المبدأ الذي كان محقًّا في رفضه إياه يفتقر إلى أيّة قوة تفسيرية.

(١٧) وهناك بعض الأبحاث الجادة تتصف بطعم يكاد يكون قريبًا من هذه الفرصية، سواء في القديم أو الحديث. (انظر Jackendoff 1994. Chapter 14 والمراجع المذكورة هناك).

(١٨) ولن أتوقف عند الأسئلة التي تتعلق بدقة العزو حين لا يكون ذلك ضروريا.

(١٩) وهذه الملحوظة مألوفة؛ انظر مثلا (Strawson 1952. 189).

(٢٠) للاطلاع على بعض الأبحاث الاختبارية التي تَخلص إلى أن H2O لا يتماشى إلا بشكل ضعيف مع الأحكام عما يكون "ماء"، أو حتى ما يمكن أن يعدّ نموذجًا للماء، انظر Malt 1994؛ ويراجِع Braisby et al 1996 عددًا من الأفكار والأبحاث الاختبارية عن مثل هذه الأمور، ويقدِّمون بعض النتائج التي وصلوا إليها هم أنفسُهم ويحاجُّون بأنها "تبيِّن أن مصطلحات الأنواع الطبيعية لا تُستخدم بطريقة "ماهوية" essentialist".

(٢١) وهناك عدد من الآراء اللافتة عن مثل هذه الحالات في أبحاث تايلر بيرج، ومنها بحثاه اللذان نشرهما في 1986b; 1989. وليس من الواضح تمامًا لي إن كنا أنا وهو نختلف اختلافًا كبيرًا في هذه القضايا، وإذا كنا نختلف أين يقع هذا الاختلاف. للاطلاع على أحد التأويلات، انظر Mercier 1992.



المصطلحات الواردة فى الكتاب

الثورة المعرفية cognitive revolution
النحو التحويلى generative Grammar
مشكلة الذهن - الجسد body - mind problem
توحيد العلم unification of science
البحث الداخلى internalist
عقدة جورد Gordian knot
علم الدلالة الإحالي referential semantics
فردية individualistic
"اللغة - د" I-language
اختزال reduction
المقربة الطبيعية Naturalism
الاشتراطات الثنائية dualist demands
اختبارى empirical
الطبيعية naturalistic
آليات التماس contact michanics
الخلايا cells
العصبونات neurons
الكهربائية العضوية electrophysiological
ملكة صياغة العلم science forming faculty
حرية الإرادة free will
الشعور consciousness
الكفاءة اللغوية (المعرفة اللغوية) competence
الأداء (الإنجاز) performance
الإدراك perception

المنطوقات utterances

محدد وراثيًا genetically determined

فطرى innate

الحالة الأولى initial state

المبادئ والوسائط principles and parameters

نظرية الحد الأدنى minimalism

التحويلات transformations

البنية العميقة deep structure

البنية السطحية surface structure

الرأس – أولا head-first

الرأس – آخرا head- last

المحفزات antigens

تمثيلات representations

الصورة الصوتية phonetic form

الصورة المنطقية logical form

مُثلى optimal

المثلوية optimality

مُحكمة perfect

شروط المقروئية legibility conditions

الإزاحة displacement

سمات features

تركيب syntax

فقر المنبه poverty of stimulus

الحوسبة computation

الدعوى thesis

التحليل analysis

التركيب (التأليف) synthetic

العلم الشعبي folk science

العلم الإثني ethnoscience

إمكان النفاذ إلى الشعور accessibility to consciouness

اللسانيات الأحيائية biolinguistics

الملكة اللغوية faculty of language

الترسيس reconstruction

اللانهائية المتمايزة discret infinity

جهاز اكتساب اللغة langnage acquisition device

دخل input

خرج output

الأناسة اللغوية anthropological linguistics

كفاية الوصف descriptive adequacy

كفاية التفسير explanatory adequacy

شروط الحدود boundary conditions

المستوى الوجيهي interface

مبدأ الإسقاط projection principle

نظرية الربط binding theory

نظرية الحالة الإعرابية case theory

شرط السلسلة chain condition

إشارات indices

مستوى بشرطة bar level

قواعد البنية المركبية phrase-structure rules

شروط التجاور adjacency

علاقة التحكم المكوني c-command

العمل government

المبتدأ والخبر topic- comment

التحديد spicifity

القوة الفاعلية agentive force
ادمج merge
انتقل! Move!
الصوّاتة phonology
علم الأصوات phonetics
التنظيم الوظيفي البشرى human functional organization
البديهة common- sense
الثبات النفسي sychic persistence
قائل بواقعية القصد intentional Realist
الأنواع الطبيعية natrual kinds
البنية العلائقية الداخلية internal relational structure
الخصائص التصنيفية selectional properties
المضمون الإدراكى perceptual content
علم النفس الشعبي folk psychology
الإدراك الحقيقى veridical perception
الشبكية البصرية retina
العصب البصرى optic nerve
القشرة المخية البصرية visual cortex
الإزاحة الإدراكية perceptioal displacement
الطقطقات clicks
المركّب phrase
التمثيلات الحوسبية computational representations
الإقصائية (الاستبعاد) eliminative
الإقصائية المادية eliminative materialism
الإجراء التوليدى generive procedure
الوصف البنيوى structural description
دلالة الحدث event semantics

الذريعية pragmatics
الاعتباطية arbitrariness
نظرية عابرة passing theory
التعلم المتدرج incremental learning
التجانس الصوتي assonance
الاقتضاء entailment
الضمير العائد anaphora
المقولات الفارغة empty categories
المستوى القطعي المستقل autosegmenal
المضمون الواسع wide content
المتغيرات variables
الإبستمولوجية العلمية الطبيعية naturlaized epistemology
المبدأ التنظيمي regulative principle
الترجمة المتطرفة radical translation
الراوية informant
القيد على بنية العطف coordinate structure constraint
الانتحاء drift
تكرار recursive
المكونات constituants
مشكلة أفلاطون plato's problem
آليات التعلم المعممة generalized learning mechanisms
الفرضية الفطرية innateness hypothesis
المحلّل parser
سبق اللسان في نطق الصوت malapropism
المقاربة الطبيعية المنهجية methodological naturalism
المقاربة الثنائية المنهجية methodological dualism
معارضة النزعة الأسسية anti-foundationalism

معرفية epistemic
القياس الاحتمالي abduction
الانتقاء الطبيعي natural selection
جهاز لكتساب اللغة Language Acquisition device
النحو الكلي Universal Grammar
الشعور consciousness
جوهر ثان (عقل) res cogitans
شرط التقرير assertability condition
الاستنتاج a priori
الاستدلال a posteriori
القوانين الجسرية bridge laws
العلم الإثني ethnoscience
المادية materialism
الشعور الممكن potential consciousness
العصبونات neurons
الترابط association
التقييد conditioning
النفاذ إلى الشعور Access to consciousness
الرأس أولا head first
الرأس آخرا head last
وسيط الرأس head parameter
نظرية الربط العاملي binding theory
مبدأ الصلابة rigidity principle
الإبصار الأعمى blindsight
المبدأ الرابط connection principle
طفرة mutation
جمل ممشى الحديقة garden path sentenses

نظرية النظرية theory-theory
ترسيس reconstruction
محكومة بالقاعدة rule-governed
المحدودية المعرفية epistemic boundedness
متمايز discrete
التجنيب الجيني lateral geniculate
القالبية modularity
التجاور adjacency
التشخيص instantation
الدمج المتعدد multiple embedding
المسوِّرات quantifires
منظور الفاعل اللغوي عن الأشياء linguistic agent's on things
النفاذ إلى الشعور access to conciousness
النفاذ من حيث المبدأ access in principle
ما صدق extention
صواتة phonology
الصوت الشفتاني الوقفي bilabial stop
المدركات Receptors
الفاعل الصفر null subject
المتغير الصفر empty operator
الأثر trace
القيمة الصوتية phonetic value
الإدخال المتأخر late insertion
علاقات البنية الموضوعاتية argument – structure
علاقات السوّر بالمتغيّر quantifier-variable
مشكلة العقل – الجسد body - mind problem
مشكلة الجسد – الجسد body - body problem

شبكية المعنى holism
الثبات النفسي sychic persistence
التفريد individuation
التحليل analysic
التركيب (التأليف) synthetic
قائل بواقعية القصد intentional Realist
شرط التأكيد assertability condition
اللانفاذ impentrability
نظرية النظرية theory-theory
معنى Sense
Denotation تعيين المعنى (الحقيقي) خارج اللغة
مفهوم Intension
القصدية intentionality

References

Almog, Joseph (1991) "The what and the how." *Journal of Philosophy* 5: 225–44.

Angell, C. Austen (1995) "Formation of glasses from liquids and biopolymers." *Science* 267: 1924–1935.

Atlas, Jay (1989) *Philosophy without Ambiguity*. Oxford, Clarendon Press.

Austad, Steven (1994) "Communication complexity and modality in non-human primates." In Carleton Gajdusek, Guy McKhann and Liana Bolis, eds., *Evolution and Neurology of Language: Discussions in Neuroscience*, X.1–2, pp. 80–93.

Austin, John (1962) *How to do Things with Words*. Oxford, Clarendon Press.

Baillargeon, Renée (1993) "How do infants learn about the physical world?" MS, University of Illinois.

Baker, Lynne Rudder (1987) *Saving Belief: A Critique of Physicalism*. Princeton University Press.

Baker, Lynne Rudder (1988) "Cognitive suicide." In R.H. Grimm and D.D. Merrill, eds, *Contents of Thought*. Tucson, AZ, University of Arizona Press.

Baldwin, T.R. (1993) "Two types of naturalism." *Proceedings of the British Academy* 80: 171–99.

Barinaga, Marcia (1994) "Neurons tap out a code that may help locate sounds." *Science* 264: 775.

Bilgrami, Akeel (1987) "An externalist account of psychological content." *Philosophical Topics*.

Bilgrami, Akeel (1992) *Belief and Meaning*. Blackwell, Oxford.

Bilgrami, Akeel (1993) "Discussion." In Noam Chomsky *et al. Language and Thought*. London, Moyer Bell, pp. 57–68.

Bradley, David (1994) "A new twist in the tale of nature's asymmetry." *Science* 264: 908.

Braisby, Nick, Bradley Franks and James Hampton (1996) "Essentialism, word use, and concepts." *Cognition* 59: 247–74.

Brock, William (1992) *The Fontana/Norton History of Chemistry*. New York and London, Norton.

Bromberger, Sylvain (1992a) "Types and tokens in linguistics." In S. Bromberger, *On What We Know We Don't Know*. University of Chicago Press, pp. 170–[illegible]

Bromberger, Sylvain (1992b) *On What We Know We Don't Know*. Chicago, University of Chicago Press.

Bromberger, Sylvain (1996) "Natural kinds and questions." In Matti Sintonen, ed., *Essays on Jaakko Hintikka's Epistemology and Philosophy of Science.* Poznan, Studies in the Philosophy of Science and the Humanities.
Bromberger, Sylvain and Morris Halle (1996) "The Content of Phonological Signs," MS, MIT.
Brook, Andrew (1994) *Kant and the Mind.* Cambridge University Press.
Burge, Tyler (1986a) "Individualism and Psychology." *Philosophical Review* 95: 3–45.
Burge, Tyler (1986b) "Intellectual Norms and Foundations of Mind." *Journal of Philosophy* 83: 697–720.
Burge, Tyler (1986c) "Cartesian error and the objectivity of perception." In Philip Pettit and John McDowell, eds., *Subject, Thought and Context.* Oxford, Clarendon Press, pp. 117–36.
Burge, Tyler (1989) "Wherein is language social." In A. George, ed., *Reflections on Chomsky.* Blackwell, Oxford, pp. 175–91.
Burge, Tyler (1992) "Philosophy of language and mind." *Philosophical Review* 101: 3–51.
Carey, Susan (1985) *Conceptual Change in Childhood.* Cambridge, MA, MIT Press.
Chomsky, Carol (1986) "Analytic study of the Tadoma method: Language abilities of three deaf-blind subjects." *Journal of Speech and Hearing Research* 29: 332–47.
Chomsky, Noam (1951/1979) *Morphophonemics of Modern Hebrew.* University of Pennsylvania Master's Thesis. New York, Garland Publishing. (Revised version of 1949 BA thesis.)
Chomsky, Noam (1955/1975) *Logical Structure of Linguistic Theory.* Plenum, New York; excerpted from unpublished 1955/56 MS.
Chomsky, Noam (1957) *Syntactic Structures.* The Hague, Mouton.
Chomsky, Noam (1964) *Current Issues in Linguistic Theory.* The Hague, Mouton.
Chomsky, Noam (1965) *Aspects of the Theory of Syntax.* Cambridge, MA, MIT Press.
Chomsky, Noam (1966) *Cartesian Linguistics.* Harper and Row, New York.
Chomsky, Noam (1968) *Language and Mind.* Harcourt Brace Jovanovich, New York. Extended edition 1972.
Chomsky, Noam (1969) "Some empirical assumptions in modern philosophy of language." In S. Morgenbesser, P. Suppes and M. White, eds., *Philosophy, Science and Method: Essays in Honor of Ernest Nagel.* New York, St Martin's Press, pp. 260–85.
Chomsky, Noam (1975) *Reflections on Language.* Pantheon, New York.
Chomsky, Noam (1977) "Questions of form and interpretation." In Noam Chomsky, *Essays on Form and Interpretation.* North Holland, New York, pp. 25–59.
Chomsky, Noam (1980) *Rules and Representations.* Oxford, Blackwell.
Chomsky, Noam (1981a) *Lectures on Government and Binding.* Dordrecht, Foris.
Chomsky, Noam (1981b) "Principles and parameters in syntactic theory." In N. Hornstein and D. Lightfoot, eds., *Explanations in Linguistics.* London, Longman, pp. 123–46.

Chomsky, Noam (1986) *Knowledge of Language*. New York, Praeger
Chomsky, Noam (1987) "Reply" [to reviews of his 1986 by A. George and M. Brody]. *Mind and Language* 2: 178–97
Chomsky, Noam (1988a) *Language and Problems of Knowledge: The Managua Lectures*. Cambridge, MA, MIT Press.
Chomsky, Noam (1988b) "Language and Problems of Knowledge." *Synthesis Philosophica* 5: 1–25.
Chomsky, Noam (1990) "Accessibility 'in Principle'" *Behavioral and Brain Sciences* 13: 600–1
Chomsky, Noam (1991a) "Linguistics and adjacent fields: a personal view." In A. Kasher, ed., *The Chomskyan Turn*. Oxford, Blackwell, pp. 3–25
Chomsky, Noam (1991b) "Linguistics and cognitive science: problems and mysteries." In A. Kasher, ed., *The Chomskyan Turn*. Oxford, Blackwell, pp. 26–53.
Chomsky, Noam *et al.* (1993a) *Language and Thought*. London, Moyer Bell.
Chomsky, Noam (1993b) "A minimalist program for linguistic theory." In K. Hale and J. Keyser, eds., *The View from Building 20*. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 1–52.
Chomsky, Noam (1995a) "Language and Nature." *Mind* 104: 1–61
Chomsky, Noam (1995b) "Bare Phrase Structure." In G. Webelhuth, ed., *Government and Binding Theory and the Minimalist Program*. Oxford, Blackwell, pp. 383–439.
Chomsky, Noam (1995c) *The Minimalist Program*. Cambridge, MA, MIT Press.
Chomsky, Noam (1998) "Minimalist inquiries: the framework." MS, MIT.
Churchland, Patricia (1994) Presidential address of the APA Pacific Division, March 1994.
Churchland, Paul (1979) *Scientific Realism and the Plasticity of Mind*. Cambridge University Press.
Churchland, Paul (1981) "Eliminative materialism and the propositional attitudes." *Journal of Philosophy* 78: 67–90. Reprinted in Scott Christensen and Dale Turner, eds., *Folk Psychology and the Philosophy of Mind*. Hillsdale, NJ, Erlbaum, 1993.
Churchland, Paul (1994) Review of Searle, 1992, *London Review of Books*, 12 May
Clark, Andy and Annette Karmiloff-Smith (1993) "The cognizer's innards." *Mind and Language* 8: 487–530.
Cohen, Leonore (1941) *From Beast-Machine to Man-Machine*. Oxford University Press.
Cudworth, Ralph (1838) *Treatise concerning Eternal and Immutable Morality*. American edition of *Works*, ed. T. Birch.
Darwin, C. (1859/1968) *The Origin of Species by Means of Natural Selection*. Edited by J.W. Burrow. Harmondsworth, Penguin.
Davidson, Donald (1980) "Psychology as philosophy." Reprinted in *Essays on Actions and Events*. Oxford University Press, pp. 229–39.
Davidson, Donald (1984) *Inquiries into Truth and Interpretation*. Oxford University Press.
Davidson, Donald (1986a) "A coherence theory of truth and knowledge." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 307–19

Davidson, Donald (1986b) "A nice derangement of epitaphs." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 433–46.

Davidson, Donald (1990a) "The structure and content of truth." *Journal of Philosophy* 87: 279–328.

Davidson, Donald (1990b) "The second person." MS, University of California, Berkeley.

Davies, Martin (1991) "Individualism and perceptual content." *Mind* 100: 461–84.

Dennett, Daniel (1988) "When philosophy encounters artificial intelligence." *Daedalus* 1998 = *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 117: 283–95.

Dennett, Daniel (1991) Review of McGinn (1991). *TLS* 10 May.

Descartes, René (1649/1927) Letter (to Morus). In R.M. Eaton, ed., *Descartes Selections*.

Devitt, Michael and Kim Sterelny (1989) "Linguistics: what's wrong with 'the right view'." *Philosophical Perspectives* 3: 497–531.

Dijksterhuis, E.J. (1986) *Mechanization of the World Picture*. Princeton University Press.

Dobbs, Betty Jo and Margaret Jacob (1995) *Newton and the Culture of Newtonianism*. Humanities Press, New York.

Dreben, Burton (1992) "Putnam, Quine and the facts." *Philosophical Topics* 20: 293–315.

Dummett, Michael (1986) "A nice derangement of epitaphs: some comments on Davidson and Hacking." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 459–76.

Dummett, Michael (1991) *The Logical Basis of Metaphysics*. Cambridge, MA, Harvard University Press.

Dummett, Michael (1993) *The Seas of Language*. Oxford, Clarendon Press.

Earman, J., ed. (1992) *Inference, Explanation and Other Philosophical Frustrations*. Berkeley, CA, University of California Press.

Edelman, Gerald (1992) *Bright Air, Brilliant Fire*. New York, Basic Books.

Egan, Frances (no date) "Computation and content." MS, Rutgers.

Epstein, Samuel (1999) "UN-principled syntax and the derivation of syntactic relations." In Samuel Epstein and Norbert Hornstein, eds., *Working Minimalism*. Cambridge, MA, MIT Press.

Evnine, Simon (1991) *Donald Davidson*. Stanford University Press.

Fodor, Jerry (1975) *The Language of Thought*. New York, Crowell.

Fodor, Jerry (1983) *The Modularity of Mind*. Cambridge, MA, MIT Press.

Fodor, Jerry (1987) *Psychosemantics*. Cambridge, MA, MIT Press.

Fodor, Jerry (1990) *A Theory of Content*. Cambridge, MA, MIT Press.

Fodor, Jerry (1994) *The Elm and the Expert*. Cambridge, MA, MIT Press.

Fodor, Jerry and Ernest Lepore (1992) *Holism: A Shopper's Guide*. Oxford, Blackwell.

Frege, Gottlob (1892/1965) "Über Sinn und Bedeutung." *Zeitschrift für Philosophie und Philosophische Kritik* 100: 25–50. Reprinted in part as "On sense and nominatum" in Ernest Nagel and Richard Brandt, eds., *Meaning and Knowledge: Systematic Readings in Epistemology*. Harcourt, Brace & World, New York, pp. 69–78.

Friedman, Michael (1993) "Remarks on the history of science and the history of philosophy." In P. Horwich, ed., *World Changes: Thomas Kuhn and the Nature of Science.* Cambridge, MA, MIT Press, pp. 37–54.

Gaifman, Haim (1996) "Is the 'bottom-up' approach from the theory of meaning to metaphysics possible?" *Journal of Philosophy* 93. 373–407

Galilei, Galileo (1632) *Dialogues on the Great World Systems*, as translated by Thomas Salusbury, 1661

Gay, Peter (1970) *The Enlightenment: An Interpretation.* London, Weidenfeld and Nicholson.

Gibson, Roger (1986) "Translation, physics, and facts of the matter." In E. Hahn and P.A. Schilpp, eds., *The Philosophy of W.V. Quine.* La Salle, Open Court, pp. 139–54.

Gleitman, Lila (1990) "The structural sources of verb meanings." *Language Acquisition* 1. 3–55.

Goodman, Nelson (1978) *Ways of Worldmaking.* Hassocks, Harvester Press.

Gould, Stephen J. (1982) *The Panda's Thumb.* New York, Norton.

Griffin, Donald (1994) "Animal communication as evidence of animal mentality." In Carleton Gajdusek, Guy McKhann and Liana Bolis, eds., *Evolution and Neurology of Language: Discussions in Neuroscience* X.1–2, pp. 67–71.

Hagoort, Peter, Colin Brown and J. Groothusen (1993) "The syntactic positive shift (SPS) as an ERP-measure of syntactic processing." *Language and Cognitive Processes* 8: 439–83.

Hagoort, Peter and Colin Brown (1994) "Brain responses to lexical ambiguity, resolution and parsing." In Charles Clifton *et al.*, eds., *Perspectives on Sentence Processing.* Hillsdale, NJ, Erlbaum, pp. 45–80.

Halle, Morris and Alec Marantz (1993) "Distributed morphology and the pieces of inflection." In K. Hale and S.J. Keyser, eds., *The View from Building 20.* Cambridge, MA, MIT Press, pp. 111–76.

Harman, Gilbert (1980) "Two quibbles about analyticity and psychological reality." *Behavioral and Brain Sciences* 3: 21–2.

Haugeland, John (1979) "Understanding natural language." *Journal of Philosophy* 76: 619–32.

Herbert of Cherbury (1624) *De Veritate.* Translated by M.H. Carré, University of Bristol Studies No. 6, 1937.

Higginbotham, James (1985) "On semantics." *Linguistic Inquiry* 16: 547–93.

Higginbotham, James (1989) "Elucidations of meaning." *Linguistics and Philosophy* 12: 465–517.

Hobbes, Thomas (1889) *The English Works of Thomas Hobbes*, Vol I. Edited by William Molesworth.

Holton, Gerald (1996) "On the art of scientific imagination." *Daedalus = Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 125: 183–208.

Huarte, Juan (1575) *Examen de Ingenios.* Translated by Bellamy, 1698

Humboldt, Wilhelm von (1836/1988) "Über die Verschiedenheit des Menschlichen Sprachbaues. Berlin. Translated by Peter Heath as *The Diversity of Human Language-Structure and its Influence on the Mental Development of Mankind.* Cambridge University Press.

Hume, David (1740/1978) *A Treatise of Human Nature.* Edited by L.A. Selby-Bigge. Second edition revised by P.H. Nidditch. Oxford, Clarendon Press.

Hume, David (1748/1975) *An Enquiry concerning Human Understanding*. Edited by L.A. Selby-Bigge; third edition revised by P.H. Nidditch. Clarendon Press, Oxford.

Hume, David (1841) *The History of England: From the Invasion of Julius Caesar to the Revolution in 1688*. London, 6 volumes, T. Cadell.

Jackendoff, Ray (1994) *Patterns in the Mind*. New York, Basic Books.

Jacob, François (1974) *The Logic of Living Systems. A History of Heredity*. Translated by Betty E. Spillmann. London, Allen Lane.

Jacob, Margaret (1988) *The Cultural Meaning of the Scientific Revolution*. Philadelphia, PA, Temple University Press.

Jacob, Margaret (1991) *Living the Enlightenment: Freemasonry and Politics in Eighteenth-Century Europe*. Oxford University Press.

Jaeger, H.M. and Sidney R. Nagel (1992) "Physics of the granular state." *Science* 255: 1523–31.

Jenkins, Lyle (1999) *Biolinguistics: Exploring the Biology of Language*. Cambridge University Press.

Jerne, Niels Kaj (1985) "The generative grammar of the immune system (Nobel lecture)." *Science* 229: 1057–9.

Jespersen, Otto (1924) *The Philosophy of Grammar*. London, Allen & Unwin.

Kant, Immanuel (1783) *Prolegomena to any Future Metaphysics*.

Kayne, Richard (1994) *The Antisymmetry of Syntax*. Cambridge, MA, MIT Press.

Kenny, Anthony (1984) *The Legacy of Wittgenstein*. Oxford, Blackwell.

Koyré, Alexandre (1957) *From the Closed World to the Infinite Universe*. Baltimore, Johns Hopkins Press.

Kripke, Saul (1972) *Naming and Necessity*. In Donald Davidson and Gilbert Harman, eds., *Semantics of Natural Language*. Dordrecht, Reidel, pp. 253–355.

Labandeira, Conrad C. and J. John Sepkoski (1993) "Insect diversity in the fossil record." *Science* 261: 310–15.

La Mettrie, J.O. de (1747) *L'Homme-Machine*. Critical edition, A. Vartanian, ed., Princeton University Press.

Lange, Friedrich Albert (1925) *The History of Materialism*. London, Kegan Paul.

Larson, Richard and Gabriel Segal (1995) *Knowledge of Meaning*. Cambridge, MA, MIT Press.

Lasnik, Howard (1989) *Essays on Anaphora*. Dordrecht, Kluwer.

Lepore, Ernest, ed. (1986) *Truth and Interpretation: Perspectives on the Philosophy of Donald Davidson*. Oxford, Blackwell.

Lewis, David (1983) "Languages and language." In David Lewis, *Philosophical Papers*, vol. I. Oxford University Press, pp. 163–88.

Lewontin, Richard (1990) "The evolution of cognition." In D.N. Osherson and E.E. Smith, eds., *An Invitation to Cognitive Science*, vol. 3. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 229–46.

Lewontin, Richard (1994) MS, Harvard.

Llinás, Rodolfo (1987) "'Mindness' as a functional state of the brain." In Colin Blakemore and Susan Greenfield, eds., *Mindwaves: Thoughts on Intelligence, Identity and Consciousness*. Blackwell, Oxford, pp. 339–58.

Locke, John (1690/1975) *An Essay Concerning Human Understanding*. Edited by P. Nidditch. Oxford, Clarendon Press.

Lormand, Eric (1996) "How to Be a Meaning Holist." *Journal of Philosophy* 93: 51–73.

Lyons, John (1977) *Semantics*, 2 vols. Cambridge University Press.

Malt, Barbara (1994) "Water Is Not H_2O." *Cognitive Psychology* 27: 41–70.

Marr, David (1982) *Vision*. New York, W.H. Freeman.

Marshall, John (1990) Foreword to Yamada (1990).

Marshall, Jonathan (1989) "On making representations." In C. Brown, P. Hagoort and T. Meijering, eds., *Vensters op de Geest*. Utrecht, Stichting Grafiet.

McGinn, Colin (1991) *The Problem of Consciousness*. Oxford, Blackwell.

McGinn, Colin (1993) *Problems in Philosophy*. Oxford, Blackwell.

Mehler, Jacques and Emmanuel Dupoux (1994) *What Infants Know*. Oxford, [illegible]

Mercier, Adèle (1992) "Linguistic competence, convention and authority: individualism and anti-individualism in linguistics and philosophy." PhD dissertation, UCLA.

Mijuskovic, Ben Lazare (1974) *The Achilles of Rationalist Arguments*. Martinus Nijhoff.

Miller, George and Noam Chomsky (1963) "Finitary models of language users." In R.D. Luce, R. Bush and E. Galanter, eds., *Handbook of Mathematical Psychology*, vol. II. New York, Wiley, pp. 419–91.

Moravcsik, Julius (1975) "Aitia as Generative Factor in Aristotle's Philosophy." *Dialogue* 14: 622–36.

Moravcsik, Julius (1990) *Thought and Language*. London, Routledge.

Mountcastle, Vernon (1998) "Brain science at the century's ebb." *Daedalus*, Spring 1998 = *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 127: 1–36.

Nagel, Thomas (1993) "The mind wins!" Review of Searle (1992) *New York Review*, 4 March. Reprinted (1995) as "Searle: why we are not computers" in T. Nagel, *Other Minds*. Oxford University Press, pp. 96–110.

Neville, Helen, J. Nicol, A. Barss, K. Forster and M. Garrett (1991) "Syntactically based sentence processing classes: evidence from event-related brain potentials." *Journal of Cognitive Neuroscience* 3: 151–65.

Passmore, John (1965) *Priestley's Writings on Philosophy, Science and Politics*. New York, London: Collier-MacMillan.

Pateman, Trevor (1987) *Language in Mind and Language in Society*. Oxford University Press.

Peirce, Charles Sanders (1957) "The logic of abduction." In Vincent Thomas, ed., *Peirce's Essays in the Philosophy of Science*. New York, Liberal Arts Press, pp. 235–55.

Penrose, Roger (1989) *The Emperor's New Mind*. Oxford University Press.

Piattelli-Palmarini, Massimo (1986) "The rise of selective theories: a case study and some lessons from immunology." In W. Demopoulos and A. Marras, eds., *Language Learning and Concept Acquisition: Foundational Issues*. Norwood, NJ, Ablex, pp. 117–30.

Popkin, Richard (1979) *The History of Scepticism from Erasmus to Spinoza*. Berkeley, CA, University of California Press.

Pustejovsky, James, ed. (1993) *Semantics and the Lexicon*. Dordrecht, Kluwer

Pustejovsky, James (1994) "Coercion and cocomposition." MS, Brandeis.

Pustejovsky, James (1995) *The Generative Lexicon*. Cambridge, MA, MIT Press.

Putnam, Hilary (1975) "The meaning of 'meaning'." In *Philosophical Papers, vol. 2: Mind Language and Reality*. Cambridge University Press, pp. 215–71.

Putnam, Hilary (1978) *Meaning and the Moral Sciences*. Routledge & Kegan Paul.

Putnam, Hilary (1986a) "Meaning holism." In E. Hahn and P.A. Schilpp, eds., *The Philosophy of W V. Quine*. La Salle, Open Court, pp. 405–26.

Putnam, Hilary (1986b) "Meaning and our mental life." In Edna Ullmann-Margalit, ed., *The Kaleidoscope of Science*. Dordrecht, Reidel, pp. 17–32

Putnam, Hilary (1988a) *Representation and Reality*. Cambridge, MA, MIT Press.

Putnam, Hilary (1988b) "Much ado about not very much." *Daedalus*, 1988 = *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 117: 269–81.

Putnam, Hilary (1992) "Replies." *Philosophical Topics* 20: 347–408.

Quine, Willard (1960) *Word and Object*. Cambridge, MA, MIT Press.

Quine, Willard (1969) "Reply to Chomsky". In Donald Davidson and Jaakko Hintikka, eds., *Words and Objections: Essays on the Work of W.V. Quine*. Dordrecht, D. Reidel, pp. 302–11.

Quine, Willard (1972) "Methodological reflections on current linguistic theory." In Donald Davidson and Gilbert Harman, eds., *Semantics of Natural Language*. Reidel, Dordrecht, pp. 442–54.

Quine, Willard (1981) *Theories and Things*. Cambridge, MA, Harvard University Press.

Quine, Willard (1986) "Reply to Gilbert H. Harman." In E. Hahn and P.A. Schilpp, eds., *The Philosophy of W.V. Quine*. La Salle, Open Court, pp. 181–8.

Quine, Willard (1987) "Indeterminacy of translation again." *Journal of Philosophy* 84: 5–10.

Quine, Willard (1990) *Pursuit of Truth*. Cambridge, MA, Harvard University Press.

Quine, Willard (1992) "Structure and nature." *Journal of Philosophy* 89: 5–9.

Ramberg, Bjorn (1989) *Donald Davidson's Philosophy of Language*. Oxford, Blackwell.

Reid, Thomas (1785) *Essays on the Intellectual Powers of Man*. Edinburgh, John Bell.

Rhum, Michael (1993) "Understanding 'belief'." *MAN* 28.4, December.

Romaine, Suzanne (1994) *Language in Society*. Oxford University Press.

Rorty, Richard (1986) "Pragmatism, Davidson and truth." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 333–55.

Scheffler, Israel (1955) "On synonymy and indirect discourse." *Philosophy of Science* 22: 39–44.

Schiffer, Stephen (1987) *Remnants of Meaning*. Cambridge, MA, MIT Press.

Schofield, Robert (1970) *Mechanism and Materialism*. Princeton University Press.

Schweber, Silvan (1993) "Physics, community and the crisis in physical theory." *Physics Today*. 46: 34–40.

Searle, John (1980) "Minds, brains and programs." *Behavioral and Brain Sciences* 3: 417–24.

Searle, John (1992) *The Rediscovery of the Mind*. Cambridge, MA, MIT Press.

Segal, Gabriel (1987) "In Deference to Reference." PhD dissertation, MIT.

Smith, Barry (1992) "Understanding language." *Proceedings of the Aristotelian Society*, pp. 109–41.

Smith, Neil (1999) *Chomsky: Ideas and Ideals*. Cambridge University Press.

Smith, Neil, Ianthi-Maria Tsimpli and Jamal Ouhalla (1993) "Learning the impossible: the acquisition of possible and impossible languages by a polyglot *savant*." *Lingua* 91: 279–347.

Soames, Scott (1989) "Semantics and semantic competence." *Philosophical Perspectives* 3.

Spelke, Elizabeth (1990) "Origins of Visual Knowledge." In D.N. Osherson, S.M. Kosslyn and J.M. Hollerbach, eds., *An Invitation to Cognitive Science*, vol. II. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 99–127.

Stich, Stephen (1983) *From Folk Psychology to Cognitive Science*. Cambridge, MA, MIT Press.

Stich, Stephen (1996) *Deconstructing the Mind*. Oxford University Press.

Strawson, Galen (1994) *Mental Reality*. Cambridge, MA, MIT Press.

Strawson, Peter (1950) "On Referring." *Mind* 59: 320–44.

Strawson, Peter (1952) *Introduction to Logical Theory*. London, Methuen.

Stryker, Michael (1994) "Precise development from imprecise rules." *Science* 263: 1244–5.

Thackray, Arnold (1970) *Atoms and Powers*. Cambridge, MA, Harvard University Press.

Tremblay, Mireille (1991) "Possession and Datives." PhD dissertation, McGill University.

Turing, Alan (1950) "Computing Machinery and Intelligence." *Mind* 49: 433–60.

Uebel, Thomas, with comments by Christopher Hookway (1995) *The Vienna Circle Revisited*. Centre for the Philosophy of the Natural and Social Sciences, London. DP 6/95.

Ullman, Shimon (1979) *The Interpretation of Visual Motion*. Cambridge, MA, MIT Press.

Waldrop, M. Mitchell (1990) "Spontaneous order, evolution and life." *Science* 247: 1543–5.

Weisskopf, Victor (1989) "The origin of the universe." *Bulletin of the American Academy of Arts and Sciences* 42.

Wellman, Kathleen (1992) *La Mettrie: Medicine, Philosophy and Enlightenment*. Chapel Hill, Duke.

Wheeler, John (1994) *At Home in the Universe*. New York, American Institute of Physics.

Witherspoon, Gary (1977) *Language and Art in the Navajo Universe*. Ann Arbor, MI, University of Michigan.

Wright, Crispin (1989) "Wittgenstein's rule-following considerations and the central project of theoretical linguistics." In A. George, ed., *Reflections on Chomsky*. Oxford, Blackwell, pp. 233–64.

Yamada, Jeni (1990) *Laura*. Cambridge, MA, MIT Press.

Yolton, John (1983) *Thinking Matter*. Minneapolis, MN, University of Minnesota Press.

Yolton, John (1984) *Perceptual Acquaintance*. Minneapolis, MN, University of Minnesota Press.

المؤلف في سطور:

نعوم تشومسكي

أستاذ شرف في جامعة ماساتشوستس التقنية في الولايات المتحدة، وهو مؤسس النظرية اللسانية التي تسمى "النحو التوليدي" وأشهر المنظرين في إطارها خلال العقود الأربعة الماضية. وله عدد كبير من الكتب ومئات المقالات ومئات المحاضرات في اللسانيات والفلسفة والتاريخ الفكري، ومن أشهر كتبه في اللسانيات: "البنى التركيبية"، و"مظاهر نظرية التركيب"، و"المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها"، و"اللغة ومشكلات المعرفة"، و"برنامج الحد الأدنى". كما اشتهر بنشاطه في نقد السياسة الخارجية الأمريكية والسياسة الإسرائيلية فكتب في هذين الموضوعين عشرات الكتب ومئات المقالات وألقى مئات المحاضرات وأجرى مئات المقابلات الصحفية والإذاعية والتلفازية.

المترجم في سطور:

حمزة المزيني

حاصل على الدكتوراه من جامعة تكساس - في أوستن - الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨١م، في اللسانيات.

يعمل أستاذا في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الملك سعود - الرياض

ألف وترجم عددا من الكتب منها:

١- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي نعوم تشومسكي، "اللغة ومشكلات المعرفة"، دار توبقال، المغرب، ١٩٩٠ م.

٢- مراجعات لسانية -١. سلسلة "كتاب الرياض"، العدد ٧٩، يونيو ٢٠٠٠م.

٣- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي ستيفن بنكر، بعنوان: غريزة اللغة: كيف يُبدع العقلُ اللغةَ. الرياض: دار المريخ ، ٢٠٠٠م.

٤- العولمة والإرهاب: حرب أمريكا على العالم. ترجمة لعدد من المحاضرات والمقالات التي كتبها تشومسكي وكتّاب آخرون بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م. القاهرة: دار مدبولي للنشر، ٢٠٠٣م.

٥- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي ديفد جستس، بعنوان، محاسن العربية في العيون الغربية، أو: دلالة الشكل في اللغة العربية في مرآة اللغات الأوروبية. تحت الطبع. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية.

بالإضافة إلى عدد كبير من الأبحاث العلمية والمقالات في الدوريات العلمية والصحف السعودية والعربية.